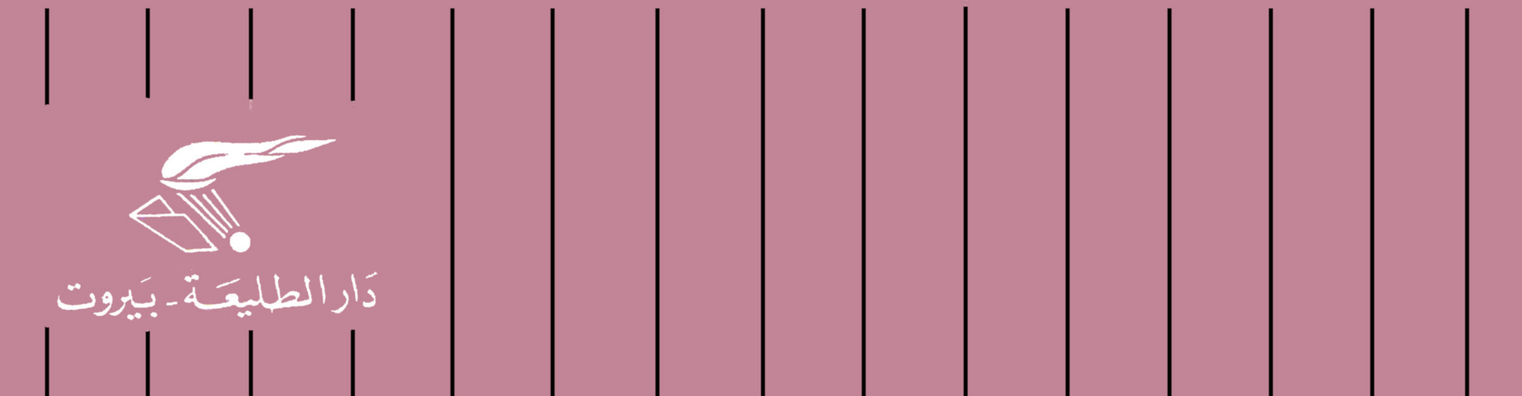
سلسلة السياسة والمجتمع

الاجتماع والماركسية

تأليف :

عبد الفتاح ابراهيم





دار الطليعة - بيروت

الاجتماع والماركسيّة

عبد الفتاح ابراهيم

الاجتماع والماركسية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت - ص ب ١١١٨١٣
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى
ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠

تمهيد

بين اهم معطيات الماركسية ، رؤيتها ظواهر الحياة الاجتماعية في اطارها التاريخي ، مرتبطة بمتطلبات المجتمع المادية وحكم الضرورة فيه ؛ وكشفها وجه الخطأ في اخذ هذه الظواهر بمعزل عن ظروفها التاريخية او اخذها جامدة في عالم متغير . والماركسية ، وبين ابرز مهماتها ، تقصّي بواعث الظواهر الاجتماعية، ترى المجتمع يحمل بطبيعة تكوينه ، مستلزمات وجوده وعوامل تطوره ؛ وترى ظواهره تتولد عن الضرورة الى التغيير وتدّخر في الوقت عينه ، القدرة على الاستجابة لمتطلبات هذه الضرورة وترسم فيها الحل والبديل .

والماركسية لهذا ، لا تقر حلولا لا منبت لها في تاريخ المجتمع وفي واقعه ، جلبت اليه من واقع آخر او تولدت مجردة في الفكر بدوافع التمني او التقليد ؛ بل ترى هذه الحلول عديمة الجدوى ، مجلبة للضرر ، مضيعة للوقت ومفوّتة للفرص . وهذا هو مرد حثها على التعويل في مواجهة المشاكل الاجتماعية وفي تحقيق التغيير ، على الوعي الاجتماعي وعلى ادراك الناس طبيعة واقعهم وخفاياه. فالمشاكل الاجتماعية ، كما يقول ماركس ، يكفي ان يعي الناس بواعثها ويتبينوا طبيعتها فيهتدوا الى حلها ويتحقق الحل . وهذا هو ايضا ، مرد اعتماد الماركسية على التاريخ الذي اتخذته مرجعا ودليلا في تحليل واقع المجتمع وتراكيبه ، واستندت فيه الى المقومات المادية فأبعدت عنه التخرص والتخمين وحولته الى سجل لحركة المجتمع ، استعانت به في تحويل الفلسفة الى علم للاجتماع ، اداته المادية التاريخية وأحكامه ذات سياق تاريخي ، تستنبط من واقع محدد الزمان والمكان ، تلازم فيه عوامل التغيير والتحولات الاجتماعية ، تبادلها التأثير فتتأثر بها وتؤثر فيها .

وهذه الدراسة، محاولة لابراز النواحي الاجتماعية في الماركسية وتأكيد اهميتها

في معرفة طبيعة المجتمع وخفاياه ، وفي وعي مشاكله وادراك السبيل الى حلها ، بعد ان نالها اغفال اضاع الكثير من معالمها . وقد رجحت في هذه الدراسة الطريقة التاريخية ، في متابعة الفكر الماركسي في نشوئه وتطوره، لانسجامها مع طبيعة الماركسية التي تربط تطور الفكر بظروف الزمن .

ويرجع الفكر الماركسي في نشوئه الى حركة الاصلاح الديني ، التي بدأها في المانيا الكاهن مارتن لوثر ، وهي في الاصل ، حركة دينية ذات نزعة قومية تحررية ، أريد بها تحرير الشعب الالماني من هيمنة روما وكنيستها التي رأت في الفرد قاصرا ميالا بطبعه الى الشر وارتكاب الخطيئة ففرضت وصايتها عليه . ولما ان تبين لوثر ما أدت اليه هذه الوصاية من ضرر ، بهدرها كرامة الانسان وشل قدراته ، ورأى ان لا سبيل الى تحرير قومه الا بتحرير الفرد ، فيستعيد ثقته بنفسه ويسترد كرامته ويعتمد قدراته الذاتية وينميها ، اعلن معارضته لوصاية الكنيسة وقال ان الله منح الانسان العقل والضمير وترك له ان يتدبر بهما شؤونه؛ وأكد ان اذلال الفرد بحرمانه من الحرية ، امر مخالف لمشيئة الله ، وان العدل والفضيلة لا يبعثان في جهل وعبودية ، بل يحققهما الانسان الحر بعقله وضميره.

وبالرغم من ان حركة الاصلاح الديني اثارت حربا اهلية دامت ثلاثين سنة ، وانتهت بألمانيا ممزقة منهوكة القوى ، وأدت الى تخلفها عن انكلتره التي تقدمتها بثورتها الصناعية ، وعن فرنسا التي تقدمتها بثورتها السياسية ، فان الفكر الالماني بقي معتزا بمآثرها ، معتمدا العقل والضمير في انشاء فلسفته المثالية التي رأى فيها انجازه العظيم وعوّل عليها في تعويض أمته عما فاتها وتحقيق ما تصبو اليه من تقدم .

واتسمت هذه المثالية الالمانية بالثنائية ، فبدت في فلسفة «كانت» تميز مهمة العقل في ادراك ظواهر الوجود عن مهمة الضمير في ادراك الحقائق الروحية . وبدت في فلسفة «فيخته» تميز مهمة العقل في ادراك تلك الظواهر عن مهمة الضمير ، متمثلا بارادة اخلاقية واعية يدرك الانسان بسبيلها الحرية والسمو . فلما جاء هيغل استبعد من المثالية الالمانية ثنائيتها وحوّلها الى«مثالية موضوعية»، ماهيتها وحدة العقل والضمير في كلية فكر مطلق ، وموضوعها الوجود مشخصا بظاهرة واقعة . وتصور هيغل الوجود ، وهو مستلب من حقيقته التي قوامها فكرة مجردة ، متمثلا في ظاهرة مشوهة وناقصة ، يتخبط في غربة يعتمد فيها التاريخ سبيلا للعودة الى حقيقته التي ينتهي بها .

وبتحويل هيغل المثالية الالمانية الى مثالية ذات موضوع هو الوجود ، فتح الباب لانقلاب في عالم الفكر بالغ الاثر ؛ فقد تصور الوجود ظاهرة تقوم في مجال التاريخ بعنصري الحركة والتغيُّر بعد ان كانت المثالية تفرض الوجود سرابا وهباء. وجاء «فويرباخ» من بعده ، فقلّب فرضيته التي جعلت الفكرة المجردة اصل الوجود بأن جعل الوجود هو الاصل والفكر يعكسه ، واستبعد قدرة الانسان على تصور حقيقة لا وجود لها ؛ وقال ان عالم الانسان هو عالم الوجود مشخصا بالطبيعة ،

وان الفكر لا يستطيع ، وهو يعكس ظواهر الوجود ، ان يتجاوز حدود الطبيعة فيدرك ما وراءها .

وهكذا مهّد فويرباخ السبيل الى ماركس ليبلغ بالمثالية نهايتها . فقد جعل ماركس الوجود بالنسبة للانسان ، مشخصا في واقعه المتغير ، ورأى هذا الواقع المحدد مصدر الفكر ومعينه ؛ وقال ان الانسان في واقعه هذا ليس الانسان بمفهومه المطلق ، يحيا في طبيعة غير متعينة ، كما تصور فويرباخ ، بل هو انسان معين في واقع محدد الزمان والمكان ، يحيا في طبيعته الخاصة التي هي المجتمع الذي صنعه بنفسه ولنفسه .

واخذ ماركس عن هيغل مفهوم التاريخ ، وكان تاريخ فكر فحوّله الى تاريخ مجتمع الانسان . واخذ عن فويرباخ مفهوم ماديته الطبيعية ، وقد رأى فيها مثالية في اطار مادي ، فحوّلها الى مفهوم مادية ديالكتية متعينة . وركب من المفهومين ماديته التاريخية وانشأ بها نظريته في ان المجتمع هو عالم الانسان ومن صنعه وهو طبيعته التي يتحدد بها ادراكه ويقوّم بها وجوده ؛ وان المادية التاريخية هي الطريقة المثلى التي يستطيع ان يتفهم الانسان بها طبيعة عالمه ويتدبر شؤونه فيه . وبنظريته هذه ، أتم تحويل الفلسفة الى علم خاص بمجتمع الانسان .

لكن ماركس لم يكن يهدف من وراء اهتمامه بالفلسفة والاجتماع الى غير ما كان يهدف اليه الواعون من ابناء جيله في المانيا ، وهو الخروج بأمتهم من تخلفها والبلوغ بها الى مستوى الأمتين الانكليزية والفرنسية اللتين تقدمتاها . ومن اجل ذلك ، واصل مسعاه بطريق ماديته التأريخية ، في تقصي طبيعة مجتمعه والتحقق من مستلزمات تطوره . وفي مسعاه هذا ، تبين خطأ هيغل في التعويل على الحكم الاوتوقراطي ؛ واكتشف عجز البورجوازية الالمانية ، بسبب ظروفها الخاصة ، عن انجاز ما انجزته البورجوازية الانكليزية والفرنسية ؛ وادرك اهمية الديمقراطية في توفير مستلزمات الحرية والتغيير ؛ وتوصل الى اهم مقومات الفكر الماركسي ، بتعيين مكانة العامل الاقتصادي وبعد أثره في الحركة الاجتماعية ، وضرورة النظرية التقدمية في انجاز التحول الاجتماعي ، وتشخيص الطبقة الاجتماعية المؤهلة تاريخيا لتنفيذ النظرية وتحقيق التحول .

وعند هذا ، تحول اهتمام ماركس الى السياسة التي رأى فيها الوسيلة المباشرة والفعلية لتحقيق التغيير . فانصرف الى دراسة تاريخ فرنسا في عهدي الثورة وعودة الملكية ؛ وتبين مفهوم الصراع الطبقي وبعد أثره في التحول الاجتماعي حتى تصوره عتلة هذا التحول ؛ وباشر دراسة الاقتصاد السياسي وشخص فيه عوامل التغيير . واتخذ مفهومه القومي طابعا سياسيا اقتصاديا ذا ابعاد أممية ، تصور فيه التحرر والتقدم اللذين يريدهما لأمته ، منوطان بوضع اقتصادي سياسي يغطي غرب اوربا ويجعل منها منطقة اقتصادية سياسية تخضع لنظام الرأسمالية الصناعية ، تترابط فيها دواعي التغيير كما تترابط دواعي مقاومته ، فتجعل منها مركز تحول اجتماعي متماسكة لا مجال لتقدم المانيا بمعزل عنها .

وفي هذه الفترة ، بدأ تضامنه مع فردريك انجلز ، الذي توصل هو الآخر الى مثل ما توصل اليه هو نفسه ، بخصوص الغاية والوسائل . واستقر رأيهما على ان تحرير المانيا وتقدمها منوطان بتحول الراسمالية الصناعية في غرب اوربا الى اشتراكية تحققها البروليتاريا التي يفرزها نظام الراسمالية الصناعية ويدفع بها الى وعي ذاتها وادراك قدرتها ، ويشد من عزمها لخوض صراع طبقي يؤدي بها الى انتزاع السلطة التي تمكنها من تحقيق معجزة تحول مجتمع الراسمالية الصناعية التي تحكمه البورجوازية ، الى مجتمع لاطبقي يتحرر فيه الانسان من سطوة الاستغلال الراسمالي الذي هيأ للماديات ان تستعبده وتذله ، وكان المفروض ان تكون في خدمته تحقق له العزة والسعادة .

وصاغ ماركس وانجلز تصورهما هذا ، في بيان أطلقا عليه اسم «البيان الشيوعي» ، ليكون نهجا نموذجيا للبروليتاريا الطالعة في غرب اوربا والتي علقا عليها الآمال وكرسا لها جل جهودهما ، فاهتما بتوعيتها وتنظيمها ومتابعة شؤونها وكشف سبل تقدمها الى غايتها .

واهتم ماركس ، الى جانب ذلك ، بتقصي تفاصيل النظرية التي تيسر البروليتاريا أداء مهمتها التاريخية ، فوضع مخططا لتحليل تراكيب مجتمع الراسمالية الصناعية في غرب اوربا ، وكشف خصائصه وطبيعته وبواعث التغيير فيه ومآتيه . وبعد «دراسة استنفذت خمس عشرة سنة من زهرة عمره» كما قال ، انجز كتاب «رأس المال» ، واخرج جزءه الاول . لكن المنية عاجلته ، فتوفي وبقية البحث في مخطوطات طبعت بعد وفاته . ولم يكن كتاب «رأس المال» ، كما وصفه ، «الا نبذة موجزة» تحلل وتنقد نظام الراسمالية الصناعية في غرب اوربا، لم يكن يريد بها ، كما يظن ، الا ان تكون مقدمة لدراسته التفصيلية التي لم تسعفه الظروف لانجازها .

وبالرغم من ان اهتمامات ماركس وانجلز شملت القانون والفلسفة والتاريخ والاقتصاد السياسي وتركزت اهم معطياتهما في الاجتماع ، الا ان بروز الجانب السياسي أدى الى ان يكون النهج الذي تضمن البيان الشيوعي خطوطه العريضة، مدار الاهتمام ؛ ويصير كتاب «رأس المال» ، المرجع الرئيسي للفكر الماركسي في شتى وجوهه . فكان من جراء ذلك ، ان اهملت كتاباتهما الاولى التي تضمنت اهم معطياتهما في الاجتماع ، وبقيت مجهولة حتى سنة ١٩٢٧ ، عندما صدر جزءان فقط من مجموعها الذي بلغ خمسين جزءا تم صدورها سنة ١٩٤٧ بلغتها الاصلية ، ولم يتيسر الاطلاع على ما تضمنته الا بعد نقلها الى لغات اخرى بعد الحرب العالمية الثانية . وتعذر الى ذلك الحين ، الالمام بالفكر الماركسي في مجمله، او اجراء دراسة دقيقة وافية فيه . وتعرضت الماركسية الى الخطر الذي شدد ماركس وانجلز ، ولينين من بعدهما ، التحذير من الوقوع فيه ، وهو خطر الدوغمائية التي تقيد الفكر بأحكام عامة وجازمة تغفل التاريخ والظروف الخاصة . واشتد خطر هذه الدوغمائية في الفترة بين وفاة ماركس وانجلز والحرب العالمية

الاولى ، عندما اغفل الجانب الثوري في الماركسية وتغلب النهج الاصلاحي في حركة الاشتراكية الديمقراطية ، وادى الى ما اعتبره لينين انحرافا وتسوية مع الراسمالية الامبريالية واستسلاما لها بتأثير انتهازية طبقية . وتعرضت الماركسية، بصورة اخرى ، الى الدوغمائية بعد وفاة لينين ، في الفترة التي عرفت بالفترة الستالينية التي افرغ فيها النهج السياسي بقالب واحد شامل .

وبرز لينين ، في الفترة التي اعقبت وفاة ماركس وانجلز ، بما اثبته من احاطة وتفوق في سبر غور الفكر الماركسي، في طليعة المنظرين وقادة الرأي فيه، وطوّر الماركسية بمطابقتها للظروف العالمية المستجدة . وكانت معطياته في الحقل النظري وفي مجال التطبيق من الاهمية بحيث قرنته بماركس وانجلز وحولت الماركسية الى ماركسية لينينية .

وبين اهم هذه المعطيات : كشف تشويهات الدوغمائية واضرارها ونقد الماركسيين التقليديين تأكيدا للوجه الثوري في الماركسية ؛ ومطابقة الماركسية لمرحلة الامبريالية ولمتطلبات التحولات الاجتماعية خارج حدود اوربا الغربية وراسماليتها الصناعية المتقدمة . وكان لينين يتميز بفهم عميق للفكر الماركسي ، فاستطاع ان يعالج المستجدات في ضوئه ، معالجة حرة تتسم بالانفتاح والمرونة. فلم يأخذ احكام الماركسية بوصفها نصوصا نهائية بل راى فيها خطوطا عامة لاوضاع متغيرة ؛ ورأى اهم ميزاتها ، التزامها الواقع وقدرتها على متابعة التغيير وتأثيراته وتأثراته .

وكان من نتائج متابعته التغيرات التي طرات على الراسمالية الصناعية في اوربا الغربية واتضحت معالمها بعد وفاة ماركس وانجلز ، ان تفاوتت بعض تصوراته عن تصوراتهما . من ذلك مثلا ، تصور ماركس وانجلز ان امتداد الراسمالية الصناعية وتغطيتها العالم يرافقه بالضرورة ، امتداد حركة التصنيع والتحضير ويؤدي الى خلق بروليتاريا ذات سمة أممية تتآلف وتتضامن مع بروليتاريا الراسمالية الصناعية المتقدمة لانجاز تحول اشتراكي شامل ؛ في حين دللت شواهد لينين ومتابعاته ان هذا الامتداد يؤدي الى العكس ، فهو لا يغير بنية الراسمالية الصناعية في اوربا الغربية ، فيزيدها قدرة وبأسا ويمكنها من احباط حركة البروليتاريا في مواطنها فحسب ، بل يقلبها الى امبريالية تعتمد الاستثمارات الخارجية والتمويل ، وتحول مناطق العالم التي في متناول نفوذها، الى معين للمواد الاولية البخسة والى مركز لاستخدام الايدي العاملة الرخيصة في انتاج المواد الاستهلاكية والى اسواق لتصريف منتجاتها ؛ وتصورها من وراء ذلك ، تتغلغل في صميم التراكيب الاجتماعية في هذه المناطق لتحول دون قيام طبقة بورجوازية مؤهلة لأداء مهمتها التحررية ، وتمنع بالتالي ، نشوء صناعة وطنية اساسية مستقلة ونامية فتثبت بذلك كله ، التبعية وتديم التخلف .

وفي حين افترض ماركس وانجلز ان امتداد الراسمالية الصناعية واثرها ، على النحو الذي تصوراه ، من شأنه ان يثبت مفهوم الصراع الطبقي وبعد اثره ،

بوصفه عاملا ذا فعل عام وشامل ومباشر وحاسم ، في التحولات الاجتماعية ، رأى لينين ان الامبريالية ، بمنعها قيام البورجوازية الوطنية ، وحرفها البروليتاريا في مواطنها عن أداء مهمتها التاريخية ، ولو الى حين ، وإدامتها التخلف في المناطق التي يمتد نفوذها اليها ، تخلق وضعا جديدا ، طارئا ، يفرض السبق ، في البلاد المتخلفة ، لحركة تحرر وطني وقومي ، لا يبرز فيه الصراع الطبقي كعامل رئيسي ، بل تبرز فيه حركة التحرر الوطني والقومي وهي تضم الشعب برمته في مواجهة الامبريالية والفئات الطفيلية التي اصطنعتها وجعلت منها اداة لتنفيذ مآربها .

وبرغم ما بدا من تفاوت في التقدير ، بين ماركس وانجلز وبين لينين فيما أشير اليه ، وهو تفاوت لم يتجاوز ملازمة الواقع في تغيُره بحكم التطور وفعل الزمن ، فان افكار لينين بقيت في مجملها وجوهرها ، ملتزمة بالخطوط الاساسية للماركسية في تعيين طبيعة المجتمع ومستلزمات التحول الاجتماعي . لكن وفاته المفاجئة والمبكرة ، ولمّا تستقر تطبيقات الماركسية في المجتمع الجديد ، الذي كان اول امتحان لها في مجال التطبيق ؛ وتعاقب الاحداث فيه بصورة متلاحقة ورهيبة ، أدت الى تعرض الفكر الماركسي من جديد ، الى خطر الدوغمائية في محاولة قولبته في نسق واحد أريد تطبيقه في ظروف مختلفة ، وهو ما وسمت به الفترة التي سميت بالفترة الستالينية .

وليس من المجدي ان تحصر بواعث هذه الدوغمائية الجديدة بعوامل فردية فتوضع في اطار شخصي ، وهي ظاهرة اجتماعية تمتد جذورها في الواقع الاجتماعي وفي تاريخه . وقد قال ماركس «ان الناس ولو كانوا هم الذين يصنعون تاريخهم ، لكنهم يصنعونه بتوجيه وضبط من التاريخ نفسه . فهم في كفاحهم في سبيل تغيير عالمهم ، ينزعون بتأثير دواعي الوقاية والشرعية ، الى التماس المدد من اشباح الماضي ، يستعيرون منها الاسماء والشعارات والازياء المسرحية ، ليظهروا بزي يحمل قداسة الماضي» . ولذلك لا يصح تفسير الفترة الستالينية اجتماعيا ، بمعزل عن تاريخ روسيا الذي برز فيه ايفان الرهيب وبطرس الكبير وقياصرة الحكم الالهي الذين اعقبوهما وبرز في وسطهم راسبوتين المشعوذ الرهيب . او تفسيرها بمعزل عن اوضاع المجتمع الروسي الذي سبق ثورة اكتوبر وقام فيه استثمار اجنبي امبريالي اراد جني اعظم الارباح على عجل ، فأنزل الدمار البدني والنفسي وبقسوة مفرطة ، بالطبقة العاملة الناشئة ؛ ودمر حياة ملايين الفلاحين الفقراء في الريف بتشريدهم وتمزيق كيانهم العائلي وسوقهم الى سوح العمل سوق الرقيق ؛ وقذف اخيرا ، الشعب برمته في أتون حرب لا ناقة له فيها ولا جمل .

ولا يمكن ايضا ، فهم الفترة الستالينية بمعزل عن طبيعة ثورة اكتوبر والظروف التي واجهتها . فقد اريد بهذه الثورة في الاصل ، كما قال لينين ، ان تكون ثورة بورجوازية تنفذها البروليتاريا . وكان لينين وكثيرون من قادتها ، يريدون بها

ثورة تصفي النظام القيصري ، وتوقف مشاركة روسيا في حرب امبريالية ، وتحرر الشعب الروسي بعماله وفلاحيه، وتوزع الارض على القن المعدمين؛ وكانوا يترقبون ثورة تجتاح مجتمع الرأسمالية الصناعية في غرب اوربا ، ويتطلعون اليها لتكون في عونهم ، تتيح لهم فسحة من الزمن يثبّتون فيها قواعد المجتمع الجديد ، وتمد لهم يد العون لإعمار بلادهم وتصفية تخلفها ومواصلة العمل لتحقيق الاشتراكية ، وتدفع عنهم احتمال اعتداء الرأسمالية والامبريالية وأخطار تعرضها لهم . لكن الثورة التي ترقبوا حدوثها في اوربا الغربية لم تحدث، بل انهم ما لبثوا ان وجدوا جيوش الرأسمالية الامبريالية تحدق بهم من كل جانب ، وبلادهم في غمرة حرب اهلية، وهم يواجهون القوات الاجنبية وفلول الرجعية المحلية وفئة كبار ملاكي الارض ، وهي تريد احباط الثورة والاطاحة بهم . فلم يجدوا بدا من خوض معركة تصفية حاسمة كانت امتحانا رهيبا لوجودهم الغض، لكنهم خرجوا منه فائزين .

وأراد لينين ان يواجه دكتاتورية زمرة النظام القيصري بدكتاتورية الاكثرية الساحقة من الشعب ، بعماله وفلاحيه ومثقفيه الثوريين ، ممثلة بهيئات السوفييت التي كادت ان تمارس ديمقراطية مباشرة . لكن اجهزة الثورة لم تكد تسترد أنفاسها بعد الحرب الاهلية التي عصفت بالبلاد حتى واجهت حصارا شدد عليها الخناق ، ومكائد اثارت فتنا داخلية متلاحقة ، كان من مستلزمات مواجهتها، التشدد في الحذر ومركزة السلطة ، وتخصيص جانب كبير من ميزانية الدولة لنفقات الدفاع وللوقاية بدلا من تخصيصه للاعمار وانجاز مستلزمات المجتمع الجديد . وجاءت الحرب العالمية الثانية فدمرت الاسس المدنية التي انشأوها وفتكت بعشرين مليون نسمة في جملتهم كثير من جيل الثورة الذي أعد لانشاء الحياة الجديدة . وهذه كلها لا بد من اخذها بالحسبان في تقدير ظاهرة الفترة الستالينية ودوغمائيتها التي كان في جملة اسوأ نتائجها وضع المركزية على اساس بيروقراطية كان لينين يتطلع الى فرصة مؤاتية لتصفيتها .

وبانتهاء الفترة الستالينية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، تحرر الفكر الماركسي من مأزق الدوغمائية فاستعاد سلامته ، ووجد في متناوله مآثر ماركس وانجلز ولينين كاملة ، وفيضا من الخبرة والتجربة وبحوثا جاد بها مفكروه فوفرت في فترة قصيرة ما لم يتوفر في مدى قرن. وبرز فيه منظرون مرموقون، عرفوا كيف يتقصون مشاكل واقعهم ويتبينوا سبل معالجتها . وتعددت في ظل وحدة الفكر الماركسي دراسات كثيرة للمجتمعات غير الاشتراكية ، المتفاوتة في تاريخها وواقعها وأوضاعها ، يمكن تصنيفها بثلاثة اصناف عامة ، منها التي تناولت تحليل طبيعة الرأسمالية الامبريالية المتقدمة ومشاكلها وخط سيرها ومصيرها ؛ ومنها التي تقصّت طبيعة الرأسمالية ومشاكلها ومصيرها في بلاد تحققت فيها بدرجات متفاوتة من التقدم ولكنها لمّا تزل تحمل بقايا التخلف وتقع تحت تأثير الامبريالية وتعاني من تبعيتها لها ؛ ومنها التي تقصّت البلاد المتخلفة وحللت مشاكلها وسبل معالجة هذه المشاكل وتصفيتها ، وفي مقدمتها مشكلتي الامبريالية والتخلف .

ولعل الصنف الاخير هو اكثر ما يعنينا ، واو ان محاولة الفصل المطلق بين الاصناف الثلاثة قد يؤدي الى اغفال وحدة الفكر الماركسي . فعزل مشاكل اي من هذه الاصناف عن مشاكل الاصناف الاخرى وهي مترابطة ومتفاعلة يكون مجلبة للزلل والاخفاق .

وفي جملة الدراسات القيّمة في هذا الخصوص ، دراسات قام بها ماركسيون، عالجوا بها موضوع المجتمعات المتخلفة بوجه عام ، او عالجوا مشكلة التخلف في اقطار معينة في اميركا الوسطى والجنوبية وفي الهند وجنوب شرق آسيا وافريقيا، تصح ان تتخذ نموذجا لدراسات تتقصى مشكلة التخلف وسبل معالجته في الاقطار العربية او في منطقة الشرق الاوسط . وهذه الدراسات تكاد تتفق على ان بين اولى متطلبات معالجة التخلف هو «النظرية التقدمية» المبنية على دراسة علمية وتحليل دقيق ، بطريق المادية التاريخية ، لطبيعة المجتمع وتراكيبه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، في ضوء واقعه وتاريخه ، لتعيين مستلزمات معالجة عوامل التخلف فيه في مواجهة ضغوط الامبريالية وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة في اوضاعه الخاصة .

وفي جملة ما توصلت اليه هذه الدراسات ، عدم جدوى التقيد بالنظريات التي بنيت على حصيلة تجارب التطور الاقتصادي التقليدي ، كما جرى في اقطار الراسمالية الاولى ؛ او افتراض امكان قيام بورجوازية وطنية تستطيع ان تحرر الاقتصاد الوطني من نفوذ الامبريالية او سطوة الشركات الاحتكارية الدولية ؛ او تصور لزوم اجتياز المجتمع الادوار عينها التي مرت بها المجتمعات المتقدمة التي نشأت فيها راسمالية صناعية في أعقاب تحول اقتصادي سابق للراسمالية وعلى أنقاض نظام الاقطاع . وأكدت هذه الدراسات الضرورة الى معرفة علمية دقيقة بطبيعة الامبريالية العالمية وتأثيراتها كما تنعكس في واقع القطر او المنطقة ، تقترن بدراسة لطبيعة التخلف وهو مرتبط بها ، للتوصل الى اقتصاد سياسي للتنمية مستنبط من الواقع ، يحدد مستلزمات التنمية وتطبيقاتها .

ودللت هذه الدراسات على انه بالرغم من وجود خصائص عامة للتخلف تشترك فيها جميع الاقطار المتخلفة ، تقوم كنتيجة طبيعية للتبعية المدنية والاقتصادية للامبريالية ، فان واحدا او اكثر من هذه الخصائص تبرز بشكل خاص ، في واقع كل من هذه الاقطار وتفرض تأكيدا خاصا . ففي بعض الاقطار المتخلفة مثلا، يتركز تأثير الامبريالية في استخلاص الفائض الاقتصادي وابتزازه ؛ وفي بعضها يتركز في الهيمنة التمويلية او في ترحيل الفائض على نطاق واسع . وفي بعضها الآخر تتجلى الخصائص في اشتداد التناقضات من جراء اتساع التفاوت في الفوارق الاجتماعية او في الاستقطابات القومية او الاقليمية او المدنية . وتبدو كل هذه الظواهر وهي تدور حول قطب واحد هو الطبيعة الاحتكارية الامبريالية للراسمالية .

وتثبت هذه الدراسات ان تأثير الامبريالية كلي الوجود في جميع حالات التخلف . فالامبريالية تجد سبيلها الى الالتفاف حول ابسط الحالات

الاجتماعية بحيث تصبح كلية التأثير حتى في حياة شعوب هي في اقصى حالات الاكتفاء الذاتي وأبعدها عن الحاجة الى مستلزمات الحياة العصرية ، فتكون سببا رئيسيا في عزلة هذه الشعوب المفرطة في عزلتها وتخلفها . وأثبتت هذه الدراسات اخيرا ، ان اشد وسائل الامبريالية فعلا في تكريس التخلف ، اغلاق ابواب التقدم الصناعي بالحيلولة دون قيام صناعة ثقيلة او اساسية ، وحصر الصناعة في البلاد المتخلفة في نطاق الصناعات التجميعية والاستهلاكية المحضة التي يتوقف وجودها على معونة الرأسمالية الاجنبية .

وانتهت هذه الدراسات الى اناطة مهمة حركة التقدم ومواجهة الامبريالية وازالة معالم التخلف بالشعب بجميع فئاته ، وحثت الذين يريدون خدمة بلادهم ان ينضموا الى حركة شعبية لا ان يهدروا جهودهم في تأييد حركة بورجوازية لا جدوى وراءها . ورأت ان يكون للمثقفين في هذه الحركة ، دورا رئيسيا ، شريطة ان ينبذوا مبدأ الحياد الذي لقنوا بأنه ضرورة من ضرورات البحث العلمي ، فحوّل العلم الى زيف يخدم الرجعية . وان يروا ان وراء كل بحث في العلم هدف سياسي ؛ وان كل واحد منهم يحمل فيما يعمل ، مسؤولية فكرية واجتماعية ؛ وان من اول واجباته ان يحرر نفسه من الافكار الجامدة التي فرضت عليه بحكم العادة الذهنية والتكرار ، في مجتمعات تحكمت فيها الرجعية في ظل الاستعمار والامبريالية ، ليكون فكره علميا وذا تأثير سياسي .

وتناول هذا الكتاب في ابواب ثلاثة : مقدمة اجمالية لموضوع الماركسية وتطبيقاتها في الباب الاول ، وخلفية الفكر الماركسي في الباب الثاني ، وتطوره في حياة ماركس وانجلز حتى اواسط القرن التاسع عشر في الباب الثالث . وأملي ان تتيح لي الظروف الفرصة لأواصل بحث تطور الفكر الماركسي وأتمه في كتاب آخر ، وأعالج بعض قضايا الماركسية الاساسية في كتاب ثالث . فليس في ظني ما هو اجدى من الماركسية طريقة علمية لتقصي مشاكل الحياة الاجتماعية وكشف السبيل الى حلها .

الباب الأول

المقدمـــة

١ ـ موضوع الماركسية

تواجه دراسة الماركسية صعوبات جمة ترجع الى طبيعة الموضوع بسعته وبتحديه المألوف من الافكار والنظم ، اذ تتناول المجتمع بكليته : منشأه ومقوماته وتراكيبه وعوامل التغيير فيه ومراحل تطوره ومصيره ، ومن منطلق جديد . فترجع منشأ المجتمع الى «العمل الاجتماعي» الذي استلزمته الحياة الاجتماعية فأنتج للناس ضرورات العيش واعد اسباب البقاء ، بوساطة « علاقات انتاج » هي في جوهرها علاقات اقتصادية ليس للناس غنى عنها ولا خيار لهم فيها ، تقوّم «القاعدة الاقتصادية» لتراكيب المجتمع الفوقية التي تتعين بها طبيعة المجتمع في مرحلة معينة متمثلة بالنظم الاجتماعية القانونية والسياسية والفكرية والروحية والفنية التي تضفي على المجتمع خصائص المرحلة التي هو فيها .

يقول كارل ماركس في هذا الخصوص : «ان الاستنتاج العام الذي توصلت اليه واتخذته دليلا في تتبعاتي يمكن ايجازه بهذه الصورة : يرتبط الناس في اداء عملية الانتاج بعلاقات خاصة تكون لازمة ومستقلة عن ارادتهم تتخذ في كل طور المستوى الذي تتطلبه قوى الانتاج المادية وتؤلف بكليتها التركيب الاقتصادي للمجتمع فتكوّن الاساس الحقيقي الذي تقوم عليه التراكيب الفوقية القانونية والسياسية وما يتوافق معها من الافكار والمشاعر الاجتماعية . ولهذا كان نمط الانتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الخصائص العامة لنظام الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية ولم يكن وعي الناس وما يتصورون هو الاصل في وجودهم بل كان وجودهم الاجتماعي هو اصل وعيهم وما يدركون» (١) .

والماركسية بأخذها الوجود الاجتماعي على انه الاصل ، وأخذها علاقات الانتاج

على انها اساس التكوين الاجتماعي ، وهي علاقات أصولها مادية وطبيعتها اجتماعية ، استبعدت في نشوء المجتمع ومقوماته الاساسية كل الغيبيات ونظرت اليه من حيث هو واقع تكيف في مدى التاريخ ليأخذ الشكل والخصائص التي تفرضها العلاقات التي يستلزمها انتاج الناس مقومات حياتهم وتتعين بها طبيعة المرحلة التي يكون فيها المجتمع ، وأرجعت بدء وجود المجتمع الى الفترة التي تجاوز فيها الانسان أطوار الهمجية وشرع يصنع لنفسه عالما خاصا يتقي به طغيان الطبيعة وجبروتها ويدفع عن نفسه التعرض لمهالكها مستعينا بالعلاقات الاجتماعية التي ساعدته على ان يتجاوز حياة البهائم ويتحول الى كائن اجتماعي يعيش في مجتمع هو من صنعه ، يخضع لاحكامه ويواجه الطبيعة به ، وقد أعد نفسه عن طريقه بالعلم والمعرفة والمهارة فتهيأت له بها القدرة على استكشاف اسرار الطبيعة وتسخيرها لخدمته .

وهي لا تنظر الى التكوين الاجتماعي من حيث هو كل متماسك فحسب ، بل تنظر اليه ايضا على انه تكوين يتطور فيتغير باستمرار ؛ وكل تغيير فيه ، سواء في قاعدته الاقتصادية ام في تراكيبه الفوقية له مردود في كل تراكيبه الاخرى وفي مجمل كيانه ، مما يجعل حركة التغيير فيه متواصلة وشاملة . وبواعث حركة التغيير هذه وعناصرها وامتداداتها ووسائل ضبطها وتوجيهها وما يتطلبه كل ذلك من معرفة ودراية بشؤون الحياة الاجتماعية وما يستلزمه من جهد ، يؤلف المهمة الفكرية والفعلية للماركسية . واتخذت الماركسية دليلا لها في متابعة حركة التغيير الاجتماعي ، التفسير المادي للتاريخ ، تمييزا عن تفسير هيغل المثالي الذي اعتبر الفكر اصل الوجود ومبعث ظواهره ، بعكس ما ذهب اليه التفسير المادي الذي جعل الوجود المادي هو الاصل . والتفسير المادي للتاريخ شأنه شأن تفسير هيغل المثالي ، ديالكتي في أصوله يتابع حقائق الوجود وظواهره باستجلاء ما تنطوي عليه من متناقضات هي عنده محرك التحولات الاجتماعية ، فهو لهذا تفسير للتاريخ وفي الوقت عينه ، طريقة للبحث والتحقيق العلمي في شؤون الاجتماع ، يوضحه ماركس فيقول :

«وبتغير القاعدة الاقتصادية ، يمتد التغيير ، وعلى عجل ، ليشمل التركيب الفوقي برمته . وفي تأمل هذا التغيير ، علينا ان نميز دائما بين التغيرات «المادية» في الاوضاع الاقتصادية للانتاج التي يمكن ضبطها بالدقة عينها التي تضبط بها معطيات علوم الطبيعة ، وبين التغيرات في الشؤون القانونية والسياسية والروحية والجمالية والفكرية ، وبالاختصار ، كل المسائل الايديولوجية التي تشعر الناس بالتناقضات في حياتهم وتدفع بهم الى ميدان الصراع لتسويتها» (٢) .

ويقول في البيان الشيوعي : «وهل يحتاج الامر الى قدرة خارقة على الفهم لندرك ان افكار الانسان وآرائه وتصوراته ، وبعبارة اخرى ، كل احساساته ومشاعره ، تتغير مع كل تبدل في أوضاع وجوده المادي وفي علاقاته وحياته الاجتماعية . وهل أثبت تاريخ الفكر غير ان الافكار في خصائصها تتغير تبعا للتغير

في الانتاج المادي ، وان الافكار التي غلبت في كل عصر كانت ابدا افكار الطبقات التي سادت فيه»[٣] .

ويقول في البروميير الثامن عشر للويس نابليون : «يصنع الناس تاريخهم ولكنهم لا يصنعونه من ذات انفسهم وبالكيفية التي يختارونها ، بل على العكس ، يصنعونه تحت تاثير ظروف تهيأت لهم وورثوها»[٤] .

وهذه المقتبسات وغيرها مما سيرد ذكره ، تؤكد القضية الاساسية في الماركسية وهي ان الاصل في المجتمع هو الواقع المادي وامتداداته التاريخية وعوامل التغيير فيه ، وتجعل من الممكن وضعها بالاوليات الآتية :

اولا : ان الواقع المادي ، وعلى الخصوص الجانب الاقتصادي الذي يتعلق بالانتاج الاجتماعي ، اي الانتاج لسد حاجات المجتمع ، وما يتطلبه هذا الانتاج من علاقات ، هو مبعث كل ما يقوم في المجتمع من نظم وأفكار ومعتقدات ومشاعر ؛

ثانيا : ان أي تغيير في النظم والافكار والمعتقدات والمشاعر مرده الى التبدل الحاصل في الواقع المادي ، اي انه تغيير يساير ويستجيب بوجه عام لما يحدث في الواقع المادي من تبدل ؛

ثالثا : ان التبدلات في الواقع المادي تجري على نهج ديالكتي ، اي انها تكون حصيلة الصراع بين عوامل السلب والايجاب التي ينطوي عليها ؛ وان دواعي التغيير مردها دائما جانب السلب لانه الجانب الذي يعاني الحرمان والنقص بينما جانب الايجاب يميل الى المحافظة وابقاء الحال على ما هي عليه ، فهي تحمل ما يرضيه . ولهذا كان كل تغيير في الواقع المادي هو انتصار لجانب السلب ، يؤدي الى تحول جانب السلب في الوقت عينه الى ايجاب ينبعث عنه سلب جديد يواجهه ويريد تغييره وهكذا ؛

رابعا : ان دواعي التغيير كلها وليدة الواقع المادي ، مردها تاريخه وطبيعة تكوينه ، تحركها دوافع الضرورة فيه وامكانات الاستجابة لمتطلبات هذه الضرورة . ولذلك فان كل ما يراد فرضه على الواقع المادي من خارجه وهو غريب عنه ولا صلة له بما تقتضيه الضرورة المنبعثة من طبيعته ولم تتهيأ له امكانات التحقيق فيه يكون في احسن الفروض عبثا ومضيعة للجهد ان لم يؤد الى عكس المطلوب ؛

خامسا : ان التغييرات المادية في علاقات وقوى الانتاج التي يمكن ضبطها بالدقة عينها التي تضبط بها معطيات علوم الطبيعة تجعل التفسير المادي للتاريخ جديرا بأن يقوم في علوم الاجتماع ، بديلا للطريقة العلمية التي تأخذ بها علوم الطبيعة وهي تعتمد في التوصل الى أحكامها ، التجربة والاختبار اللذين يتعذر تطبيقهما في علوم الاجتماع لما تنطوي عليه من تعريض لحياة الناس الى الخطر . ولهذا تأخذ الماركسية التفسير المادي للتاريخ بديلا لطريقة علمية في استقصاء شؤون المجتمع وتراه يرفع علوم الاجتماع الى مستوى علوم الطبيعة ويهيء السبيل للتوصل الى أحكام ونتائج يصح التعويل عليها .

والمفكرون من عهد سقراط والى عهد متأخر لم يتبينوا الفارق بين خصائص علوم الطبيعة وعلوم الاجتماع وحسبوا الاحكام فيها ترجع على سواء ، الى

قوانين الطبيعة ونواميسها فلم يميزوا بين النظرية في علوم الاجتماع والنظرية في علوم الطبيعة . ولعل اول من تبين الفارق بينهما المفكر الفرنسي مونتسكيو الذي اعتبر مؤسس علم السياسة او بالاحرى مؤسس علم الاجتماع (٥) . ولعل مما يسر له ادراك الفارق بينهما واقع عصره الذي اتسع فيه أفق الفكر الاوربي بتأثير الاستكشافات الجغرافية التي وفرت الشواهد على التفاوت بين الامم في التقاليد وفي التنظيم بتفاوت ظروفها الجغرافية والتاريخية . وكانت الحروب الاهلية وحركة الاصلاح الديني واهتزاز النظم السياسية ونشوء طبقة العامة وبدء اضمحلال طبقة النبلاء قد زعزعت أسس الفكر التقليدي برمته ، فساعد ذلك مونتسكيو على التوصل الى نظريته الشاملة بادراكه ان التفاوت في قوانين وعادات وتقاليد الشعوب مردها في الاصل الى تفاوت واقعهم ، والى ان طريقة البحث في علوم الاجتماع ، وهي تتناول حياة الناس وتخضع لاحكام تفرضها ضرورات حياتهم ومستلزماتها ، لا بد وأن تختلف عن طريقة البحث في علوم الطبيعة التي تخضع لقوانين لا سلطان للمجتمع عليها . والمرجح أن ماركس استوحى فكرته في ان الانسان هو باني حياته وصانع تاريخه من دراسته اعمال مونتسكيو التي تأثر بها (٦) .

ويقول انجلز في التمييز بين علوم الطبيعة وعلوم الاجتماع : «اننا لو استثنينا ردود فعل الانسان لما وجدنا في الطبيعة غير قوى عمياء لا واعية يؤثر بعضها في بعض ... وكل ما ينتج عن التأثير المتبادل فيما بينها لا يحدث عن وعي او قصد» ... بينما الامر في المجتمع على العكس «فكل الفاعلين اناس يتسمون بالوعي ويعملون عن تصميم وبحماسة لبلوغ هدف يقصدونه ...» ويقول زيادة في الايضاح .. «غير ان الامور يندر ان تجري وفق ما نشتهي ، اذ الذي يحدث بالفعل هو ان المقاصد الفردية تتضارب ويصطدم بعضها ببعض ... حتى تبدو الاحداث وكأن المصادفة تحكمها . لكن الانسان يبقى ، رغم ذلك ، يصنع التاريخ ما دام التاريخ ليس الا سجلا لنتائج التضارب والتصادم بين شتى الارادات الفردية التي تتراكم تأثيراتها فتحدث حركات جماهيرية تصنع التحولات في التاريخ» . ويخلص من ذلك الى القول بأن التاريخ وان كان لا يجري وفق ما يريده الافراد او يتوقعونه ، لكن الارادة العامة للطبقة الغالبة تبقى هي التي تدفعه وتبقى الحقيقة الاجتماعية او الحقيقة التاريخية في الاساس مظهرا لهذه الارادة العامة . ويقول «واذا نحن أحطنا علما بقوانين الطبيعة اخذنا بزمام الامر فيها وسخرناها لخدمة اغراضنا . اما اذا اخذنا احكام الاجتماع بمفهوم قوانين الطبيعة ، ثابتة ولا مرد لها ... نكون قد اخفقنا الاخفاق كله في فهم الماركسية» . ويقول اخيرا : «والانسان كلما بعد عن الهمجية ازدادت قدرته في صنع تاريخه بمقدار ما يبلغه من وعي ، وضعفت بهذه النسبة تأثيرات القوى الخفية في تقرير مصيره . وبعبارة اخرى : ان الانسان كلما عظم اعتماده على الطبيعة في كسب عيشه ازداد استسلامه لاحكامها ... ولهذا نراه في أطواره البدائية اكثر انقيادا لاحكامها مما هو في أطوار

الزراعة ، وفي طور الاقطاع اكثر خضوعا لها مما هو الان» (٧) .

وعليه ، فان النظرية الاجتماعية في الماركسية عندما توصف بالعلمية ، فليس يعني ذلك ان لها حكم النظرية في علوم الطبيعة . فالنظرية في الاجتماع ، بمفهوم الماركسية ، ليست سوى دليل ووسيلة تفسير وأداة ارشاد وتوجيه في وضع معين ، وهي لهذا تبقى عرضة للتعديل لتطابق خصوصيات الاوضاع المتغيرة . اذ ليس في علوم الاجتماع ، في نظر الماركسية ، قوانين تفعل فعلها بمعزل عن الوضع الذي تنطبق فيه او بمعزل عن وعي الانسان وارادته وقدراته وظروفه . ومن هنا كان اهتمام ماركس بموضوع الوعي الاجتماعي ، حتى انه ربط قدرة الانسان في صنع تاريخه بمبلغ ادراكه روح عصره وتقبله معاييره وتفهمه ظروفه ومستلزماته وافادته مما تتيحه له من فرص . وكان من اهتمامه بالوعي ان أكد الضرورة الى أن يقوم الى جانب كل صراع سياسي صراع فكري؛ بل رجحان يتقدم الصراع الفكري ليعزز من وعي الجماهير ويوهن نفوذ المتسلطين بأن يكشف ما تنطوي عليه الاوضاع من زيف ومنكر .

واعتمد ماركس التفسير المادي للتاريخ ، على الخصوص ، في تحري بواعث التبدل والتحول في الحياة الاجتماعية ، وكان الذي يعنيه فيه متابعة دينامية التغيير وضوابطه وأحكامه التاريخية . وجعل المقام الاول في حسابه ، لقوى الانتاج التي اهتم بوجه خاص بعاملين اساسيين فيها هي الطاقة البشرية ، البدنية والعقلية ، والتقنية بوصفها ذات أثر بارز في التحولات الاجتماعية ؛ وجعل المقام الثاني لشروط الانتاج وظروفه التي جعل بواعث التغيير فيها مرتبطة بالتبدلات التي تطرأ على قوى الانتاج ومردودها في علاقات الانتاج وما ينجم عنها من خلافات ومنازعات تتحول الى صراع بين الطبقات الاجتماعية .

وافترض ماركس ان كل نمو في قوى الانتاج ينجم عن زيادة في المهارة او عن اكتشاف مخترعات او مواد خام او اسواق جديدة فيؤدي الى تحسن في ادوات الانتاج وآلاته وأساليبه ونظمه ، يؤول بالضرورة الى تغيير في التكوين المادي للقاعدة الاقتصادية وينشيء تفاوتا بين الوضع التقليدي المألوف والوضع الذي يستلزمه التغيير في القاعدة الاقتصادية . ويأخذ هذا التفاوت بين الوضعين بالاتساع حتى يتحول الى عائق يعرقل تقدم حركة الانتاج ويخلق ارتباكا في حياة الناس المعاشية وازمة اقتصادية اجتماعية تشقهم الى فريقين متعارضين : فريق يريد ابقاء الوضع القائم لانه يؤمن مصلحته ويفزعه ضياعه فيتشدد في التمسك بالمؤسسات والنظم السياسية والقانونية والروحية والفكرية التي تسنده وتقوم به ويستميت في الدفاع عنها ويستميل من جمهور الناس من افتقد الوعي فمال الى المحافظة وأفزعه الجديد المجهول ؛ وفريق ادرك مساويء الموجود وما يناله به من غبن وما يكابد من عناء فقرر الاخذ بالجديد ، ودفعته الرغبة به والنفرة من الوضع القاتم الى المشاركة في الصراع من اجل التغيير . ويواجه الفريقان احد اختيارين: إما التسوية والمصالحة وهي تعني ارجاء التغيير الجذري الى حين ومحاولة التدرج في تحقيقه ؛ او الفصل بالامر بطريق الثورة .

وتتجلى في الثورة ظاهرة صراع بين طبقة مسيطرة تتخذ موقف الدفاع عن سلطتها التي تحمي بها مصالحها وبين طبقة او اكثر تؤيد قوى الانتاج المستحدثة وترى فيها مصلحتها وتطلب وضعا جديدا تأمل ان يتوافر فيه مزيدا من الخير ويكون اكثر ملاءمة لنموها وتقدمها وأكثر استجابة لمستلزمات العصر ولعوامل التطور . وهكذا يؤول الامر الى صراع طبقي هو في الماركسية المحرك الفعال والفاصل في المجتمع الطبقي .

وترجع الماركسية تفكك المجتمعات البدائية وقيام المجتمعات الطبقية التي اصبح الصراع الطبقي من سماتها الاساسية ، الى الملكية الخاصة ، لكنها لا تأخذ هذه الملكية الخاصة من حيث ما تنطوي عليه من حق او باطل ولا تزنها بالموازين الاخلاقية بل تأخذها من حيث هي ظاهرة اجتماعية لها تأثيرها في التغيرات الاجتماعية ومن حيث هي ظاهرة تاريخية تعكس التناقضات التي تحرك المجتمع وهي لهذا لا تنكر ما كان لها من تأثير في تقدم المجتمع وتجاوزه أطواره البدائية وما كان لها من دور ايجابي في نمو الفردية وتطور الحياة الفكرية وتطور الانتاج وتقسيم العمل وانشاء مقومات الحضارة . بل ان الصراع الطبقي الذي هو احد ظواهر هذه الملكية لا تنظر اليه الماركسية كما لم تنظر الى الملكية الخاصة نظرة مجردة او مطلقة وانما رأت فيه جوانبه الايجابية من حيث هو محرك للتغيير والتقدم . لكن هذه الملكية الخاصة اذا ما تجاوزت دورها الايجابي وتحولت الى عامل يوسع الشقة بين من يملكون ومن لا يملكون الى درجة الاخلال بالكيان العام فيجعل الناس سادة وعبيد وظلمة ومظلومين ومتسلطين ومضطهَدين ومتخومين وجياع ويفرقهم بين متجبرين ومستضعفين ويدفع المتجبرين الى استعباد المستضعفين ويشعل نيران الحروب ويزوغ بالنظم عن أداء ما افترض انها وجدت لأدائه ويمسخ العقائد والمثل الانسانية ويحولها الى أدواء من حيث أريد بها ان تكون الدليل الى الخير والصفاء ، وهو ما صارت اليه فعلا ، اصبح النضال في سبيل ازالتها امرا لا مندوحة عنه ، بل ان هذه الملكية الخاصة تحمل في جانبها السلبي هذا عوامل زوالها المحتوم الذي يتمثل ابرز عوامله وأشدها فعلا في الصراع الطبقي الذي يتولد عنها بحكم الضرورة .

ومع ان ماركس لم يكن اول من التفت الى قيام الطبقات وتأثير الصراع الطبقي في التحولات الاجتماعية ، وقد سبقه الى الالتفات الى امرهما مؤرخون وسياسيون ، لكنه كان اول من ادرك أبعاد تأثيرهما وأول من نظر الى الصراع الطبقي كواحد من اهم عوامل التغيير الاجتماعي . وبما انه اعطي الاولوية في مجمل تصوراته الاجتماعية لفعل العوامل الاقتصادية وانصب اهتمامه بوجه خاص على تحليل النظام الرأسمالي ، فانه رأى التكوين الطبقي في هذا النظام لا يلبث ان يستقطب في طبقتين هما طبقة الرأسماليين وطبقة العمال . وفي تحريه عما يميز الواحدة عن الاخرى ، وجد ان الفارق بينهما ينحصر في جوهره بالطريقة التي يحصل بها أفراد كل طبقة على معاشه . فالذين يكون معينهم الاجر الذي يتقاضونه لقاء العمل البدني او الفكري يؤلفون جمهور الطبقة العاملة ؛ والذين

يأتيهم رزقهم من عوائد وأرباح ما يملكون ، سواء كانت ارضا ام عقارا ام معامل ام مواد خام ، يدخلون في عداد طبقة الرأسماليين . وليس يغير من الامر ، كون العامل يجري حسابا في مصرف او يتلقى فوائد توفير او مقسوم أرباح في جمعية تعاونية ، او يتولى الرأسمالي شخصيا ادارة اعماله ويشرف على مشاريعه او يأتيه جزء من مدخوله لقاء مجهوده هذا ، فان الفارق الاساسي يبقى بالنسبة للعامل اجره كبر أم صغر ، وبالنسبة للرأسمالي أرباحه وعوائد ما يملك .

ووجد ماركس ان هذا الفارق ، وهو اقتصادي محض ، ينشىء بطبيعته خلافا مستعصيا لا مخرج منه . فالعامل وهو لا يملك وسيلة للعيش غير قوة عمله ، يبادر الى عرضها للبيع كما تعرض اية سلعة ، وهو يريد بيعها بأعلى ثمن يستطيع الحصول عليه غير انه لا يلبث ان يكتشف ان سلعته ليس لها الا مشتر واحد هو الرأسمالي الذي يحاول الحصول عليها بأبخس ثمن . ومع ان العملية برغم ذلك، لا تختلف في ظاهرها عن عملية بيع وشراء اعتيادية ، لكنها في حقيقتها تنطوي على فارق جوهري يكمن في ان احد طرفيها وهو العامل ، يتهدده الموت جوعا اذا لم يتعجل بيع سلعته الوحيدة بما يضمن له الحد الادنى الذي يسد به رمقه ورمق عياله . بينما يكون الطرف الآخر ، الرأسمالي ، وهو قابض على زمام الامر بتملكه وسائل الانتاج في وضع يمكنه من ان يملي الشروط التي توافق مصلحته وله وحده حق الخيار والبت . وهو لا يلبث عندما يتبين ميزة وضعه ان يعمل ما يستطيع ليضمن الحفاظ عليه ويبقي على مكانته المتفوقة ومن اجل ذلك يتغلغل في مراكز السلطة فيهيمن على مصادر القوة والنفوذ في الدولة . وبهذه الطريقة يتحول الخلاف بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال الى صراع على السلطة ويتخذ شكل صراع طبقي . اذ لا تلبث الطبقة العاملة ان تدرك ان لا سبيل لها الى معالجة مشكلتها بغير الاستيلاء على السلطة فتزيل الطبقات وتنشىء المجتمع اللاطبقي فتحقق بذلك هويتها الانسانية .

والصراع الطبقي في الماركسية ، ديالكتي يجري وفق قواعد التفسير المادي للتاريخ الذي يمكن ايضاحه بما يأتي : للواقع وجهان ، موجب يتمثل بالظاهر الذي يبدو به ، وسالب كامن في التناقضات التي ينطوي عليها كل واقع يستمد منه عوامل نموه وقوته . والموجب الذي كان في الاصل سالبا ازال نقيضه وحل في محله لا يلبث ان تغلبه عوامل التقاعس فيهمد ويضعف بينما السالب الذي يواجهه يشتد وينمو حتى يتفوق عليه ويحل في محله . وفي الواقع الاجتماعي ، كما ترى الماركسية ، تكمن كل بواعث الصراع الطبقي وكل عوامل التحول والتغيير ، موجبها وسالبها ، وهي ترى هذه العوامل مترابطة كل نمو في جانبها السلبي يقابله في الجانب الموجب ضعف وانحلال ويبلغ السلب تمام تكوينه في الوقت الذي يذوي فيه الجانب الموجب ويزول ، ولا يزول وضع الا ويكون قد استنفد كل طاقات وجوده المادي ولا يحل وضع الا بعد ان تتوافر له مقومات وجوده المادي . فالظواهر الاجتماعية ، في الماركسية ، لا تجري اعتباطا وانما وفق قواعد المادية التاريخية التي شأنها في الاجتماع شأن أحكام الطبيعة .

والمفاهيم الماركسية ، سواء تلك التي تتعلق بالتفسير المادي للتاريخ او التي تتعلق بالتحولات الاجتماعية او بالصراع الطبقي ، لها كلها سوابق في سجل الفكر الانساني ، غير ان تنسيقها وكشف ارتباطاتها بالواقع المادي واستخلاص النتائج منها بمنطق المادية التاريخية ، هذه كلها من اسهامات كارل ماركس ووضعه . فالتحولات الاجتماعية وأحداث التاريخ والصراع بين الجماعات والشعوب وظواهر الحياة الاجتماعية اجمالا كانت تفسر قبل الماركسية بمنطق المثالية وصيغها المطلقة السرمدية وترد الى الاقدار او تنسب الى اعاظم الرجال او تعلل بنواميس الطبيعة واحكامها .

هذه الخلاصة عن الماركسية ، على شدة ايجازها حتى لكأنها صورة كاريكاتورية لها، قصد بها الاشارة الى بعض ملامحها البارزة، فلدراسة الماركسية من الضروري، كما أكد «التوزه» المفكر الماركسي المعاصر الذي عالج في بحث مخصوص الطريقة المفضلة لدراسة كتاب رأس المال ، ان تكون للراغب فيها فكرة عن فحواها لتكون دليلا حتى لا يضل سبيله في شعابها (٨) .

٢ ـ الماركسية والدوغمائية .

ومن اول المشاكل التي تواجهها دراسة الماركسية ، ان ماركس وانجلز لم يعالجا أيا من موضوعاتها معالجة اجمالية محددة . ففيما عدا البيان الشيوعي الذي وضعاه لغرض مخصوص والفصل الذي اقتطع من «الرد على دوهرنك» ونشر بعنوان «الاشتراكية الطوبائية والاشتراكية العلمية» ، جاءت كل آرائهما في سياق نقد افكار وأوضاع زمانهما وخرجت بعض اهم اسهاماتهما الفكرية مثل «الثامن عشر من بروميير لويس نابليون» و«الصراع الطبقي في فرنسا» في مقالات نشرت تباعا وكتبت تحت التأثير المباشر للاحداث . حتى طريقتهما التي التزمت الذيالكتية واعتمدت المادية التاريخية ، لم يعنيا بتحديدها وايضاح أولياتها في بحث مخصوص وانما اوردا ذكرها عرضا في البيان الشيوعي وفي «مقدمة اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» وفي «فقر الفلسفة» وفي مواضع اخرى (٩) .

وعندما استقر راي ماركس على نهج معين وقرر ان يحلل في ضوئه نظام الرأسمالية في كتاب «رأس المال» وافاه الأجل ولم يكن قد أتم وأصدر منه غير الجزء الاول ، وترك بقيته في مسودات اولية نسّق انجلز جزأها الاكبر ونشره في جزءين آخرين وأخرج كاوتسكي ما بقي في جزء رابع بعنوان «نظرية فائض القيمة» . هذا مع العلم ان كتاب «رأس المال» بأجزائه الاربعة لم يكن ، كما أكد ماركس ، «سوى لمحة موجزة عن نشوء الرأسمالية في اوربا الغربية» (١٠) ارادها ان تكون مقدمة لسلسلة بحوث تعالج الاوجه القانونية والتاريخية والسياسية لمجتمع الرأسمالية كما هو في اوربا الغربية (١١) .

واعتمد ماركس وانجلز في معالجتهما موضوع الماركسية ، بسعته وتشعبه وتعقيده ، معرفتهما الموسوعية وممارستهما الفعلية وتجاربهما في مجاريها اليومية وهما يتابعان الاحداث في معترك الحياة الاجتماعية والسياسية وينقدانها . وقد وسعت معارف ماركس بوجه خاص ، القانون والفلسفة والادب وعلوم السياسة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد . وعني انجلز على الخصوص ، بمتابعة علوم الطبيعة والفلك والرياضيات وعلم الانسان والعلوم العسكرية وعلم اللغات وتمرس بشؤون الصناعة والمال واهتم بتعقب الحركات الاجتماعية والسياسية والفكرية في انكلتره ودرس حياة الطبقة العاملة فيها على الطبيعة .

وفي مدى ما يزيد على نصف قرن من العمل المتواصل والمركز ، وفي فترة تاريخية اعقبت أحداثا جساما وتحولات حاسمة وتميزت باكتشافات علمية بعيدة الاثر، تصدى ماركس وانجلز بمعرفتهما الموسوعية تلك، علىانفراد وبالاشتراك، الى معالجة شؤون زمانهما معالجة نقدية وموضوعية وتوصلا بها الى نتائج مبتكرة كان لها في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة على الخصوص ، من الاثر ما اعتبر موازيا لأثر ما توصل اليه دارون في علوم الطبيعة . ولم يكن مفر من أن تصير هذه النتائج بجدتها وتحديها الاوضاع وخروجها على المألوف من الافكار والنظم وحثها على تحقيق التغيير الجذري بطرق ثورية ، مدار معارضة عنيفة وأخذ ورد زاد في سعة الموضوع وتعقيده .

وبشيوع الآراء الماركسية وزيادة الاهتمام بها في الاوساط الراديكالية والعمالية بوجه خاص ، في الاثنتي عشرة سنة التي عاشها انجلز بعد وفاة ماركس ، وقد مالت الى الاخذ بها المنظمات العمالية والحركات والاحزاب السياسية التي نحت في اتجاه الاشتراكية في المانيا وفيما وراء حدود اوربا الغربية ، اضطر انجلز ان يبذل جهدا متزايدا في ايضاح مفاهيمها ويدفع التشويه وسوء التفسير عنها ويرد على اسئلة المستفسرين ويعد المقدمات لما يعاد نشره ولما ينقل الى لغات اخرى من اعماله واعمال ماركس في ضوء ما استجد من الظروف والاحداث والاكتشافات العلمية ووفقا لما ينطبق ويلائم اوضاع البلاد التي تنقل تلك الاعمال الى لغاتها وأن يقدم المشورة الى الجهات السياسية التقدمية التي ترجع اليه . ونجم عن ذلك كله ، ان تراكم فيض من الادبيات الماركسية زاد في سعة موضوعها وتعقيده لاسيما وان بعض ايضاحات انجلز صارت فيما بعد ، مثارا للخلاف والجدل . وقد ملأ ما وجد ونسق ونشر حتى الان من اعمال ماركس وانجلز ، نيفا وخمسين مجلدا ، كثيرا ما يجد المتتبع لموضوع الماركسية نفسه ملزما بالرجوع اليها او الى المختار منها ، وذلك فضلا عن التعليقات التي ملأت المئات من الكتب والرسائل وعددا كبيرا من البحوث والمقالات .

ولم يكد يمضي على وفاة ماركس وانجلز الا سنين معدودات حتى أثيرت مسألة زادت الموضوع تعقيدا ، هي مسألة ماهية الماركسية ؛ أهي فلسفة ام علم ام مذهب اجتماعي او سياسي ام محض نظريات وفرضيات وآراء في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتاريخ ذات مفاهيم متغيرة قد تصح في ظرف ولا تصح في غيره .

وعلى الرغم من ان ماركس وانجلز لم يتصديا في كل ما كتباه الى ما يدل على انهما بصدد وضع صيغ ومبادىء ثابتة في السياسة او الاجتماع ، او انهما حاولا جمع وتنسيق ما توصلا اليه من الآراء في وحدة متماسكة ومتكاملة يصح ان تتخذ اساسا لمذهب او عقيدة بل انهما تجنبا على العكس وعن تصميم كل ما قد يُؤخذ بهذا المآل ، وبقيت كل آرائهما متناثرة فيما كتباه في سياق نقد آراء وأوضاع عصرهما وتوصل ماركس على الخصوص ، الى القسم الاعظم مما توصل اليه من آراء واستنتاجات بتحليل وتمحيص وغربلة موضوعات وآراء وأحداث العصر بطريقة النقد وهي طريقة التزمها مدى حياته وفي كل ما كتب بحيث بدا وكأن حدة ذهنه لا تبلغ مداها الا بهذا النقد الذي يتهيأ له به وحده ان يكتشف ضالته ؛ على الرغم من ذلك كله ، صورت الماركسية بصورة عقيدة او مذهب بحيث تحولت الى مشكلة مزمنة لازمت الماركسية وأربكت مفاهيمها . ولعل مرد ذلك كله الى صلة الماركسية بالاشتراكية التي هي بمثابة صلة الواسطة بالغاية .

فقد كان من جراء قيام تنظيمات وأحزاب سعت الى تحقيق الاشتراكية على هدي الماركسية وما تطلبه هذا المسعى من حشد جمهور من الناس وحثه على مواجهة الاوضاع ومن ثم تضامنه ورص صفوفه في الدفاع عن وجوده ضد حملات معادية والسعي لتحقيق مطاليبه ان اصبح لا مفر من وضع شعارات وأفكار في صيغ ثابتة يسهل تلقينها والالتزام بها . وهكذا انسحبت نزعة العقيدة على الماركسية حتى اتخذت في فترات كثيرة من تاريخها شكل منظومة من مبادىء متلازمة وثابتة عرّضتها الى خطر الدوغمائية التي من شأنها ان تحصر الفكر في صيغ جامدة تتسم بالديمومة وتفرض نفسها على الواقع وهي غريبة عنه دخيلة عليه . وهو ما يناقض جوهر الماركسية التي تلتزم الواقع المتغير بينما تنتهي الدوغمائية على العكس الى المسلمات الغيبية .

والدوغمائية بمعيار الماركسية تفكير غير ديالكتي ينظر الى الوجود نظرة مطلقة ومجردة متغافلا عما ينطوي عليه من عوامل التضاد والتغير . وهو تفكير لا يلبث ان ينحو في اتجاه ذاتي تحيل المعرفة الى إلهام وتعزلها عن الواقع وتحولها الى مثالية تستسلم الغيبيات وتلوذ بها فتتقبل الاوهام وتوسع المجال ، على عكس ما تدّعي ، لفردية نفعية انتهازية . وأدرك ماركس منذ البدء خطر الآراء اذا ما اتخذت صيغا دوغمائية وأخذ برأي هيغل الذي قال ان الآراء اذا ما حبست في قوالب استحالت الى نصوص شكلية جوفاء . وأكد في مناسبات عدة بُعد آرائه عن الدوغمائية والجزمية ، بل رجح ان تعتبر في عداد الفرضيات من ان تحبس في نظريات «تترفع على الواقع» كما قال ، وتنظر اليه من علٍ وتتوهم الاحاطة بأسراره وكأنها «مفتاح لكل الأقفال» (١٢) تصح في كل ظرف وزمان ، بينما هو لا يرى في المعرفة غير وسيلة لمواجهة الواقع بسلاح النقد وامتحان ظواهره وكشف خفاياه في ضوء التجربة والممارسة ولا يعتبر الرأي يصح اذا ما اتخذ صيغة نص جامد يستبق النقد ويخشى مواجهته (١٣) . ولو راجع المرء كل اعمال ماركس

التاريخية ـ كما يقول موريس كونفورث ـ وكل ما وضعه مؤرخو الماركسية البارزون لما عثر على راي في صيغة حكم قطعي عام او وجد ماركس يحاول ان يثبت تعاقب الاحداث وفق قوانين باتة ولتبين ان كل ما سعى اليه هو ان يكتشف كيف يواجه الناس ما تنطوي عليه عملية الانتاج من متناقضات وكيف يقتضي ان تعالج هذه المتناقضات بالتوفيق بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج (١٤) .

واهتم انجلز بعد وفاة ماركس ، باستبعاد الدوغمائية مؤكدا ان الآراء ليست في الحقيقة غير انطباعات تختلف في مبناها ومعناها باختلاف المكان والزمان ، وان الماركسية ليست اكثر من دليل وتفسير لعملية التحول الاجتماعي من مرحلة لاخرى لا يصح ان تصاغ بنصوص قطعية تحفظ عن ظهر قلب وتردد بطريقة آلية (١٥) . وانتقد اولئك الذين اتخذوا من المقولات الماركسية مادة لاحكام قطعية لا ترتبط بزمان او مكان وقال «اننا ننظر الى التاريخ اولا وقبل اي شيء آخر كدليل ومرشد لا كمصدر لاحكام قطعية» . ثم قال «لقد اصبح للتفسير المادي للتاريخ في يومنا هذا اصدقاء كثيرون اتخذوا منه ذريعة لاغفال دراسة التاريخ نفسه . وهذه الحماقة هي التي حملت ماركس ان يعلن انه ليس ماركسي» (١٦) .

اما لينين فقد رد على الدوغمائية بتطبيقه الماركسية فعلا وفقا لظروف الواقع المتغير ، وأبدى في الوقت عينه رأيا صريحا حازما في قوله «اننا لا نرى في نظرية ماركس شيئا كاملا لا تجوز مخالفته ، بل نرى على العكس ، انها ارست الحجر الاساسي لعلم من الضروري ان يهتم الاشتراكيون بتطويره والتقدم به في شتى مجالاته اذا ارادوا ان لا يتخلفوا عن الركب . ونرى ان يبادروا بوجه خاص ، الى تفسير نظرية ماركس بحرية وبصورة مستقلة على اساس انها لم تأت الا بمقترحات وتوجيهات عامة يمكن ان تطبق في انكلترة على غير ما تطبق في فرنسا ، وفي فرنسا على غير ما تطبق في المانيا ، وفي المانيا على غير ما تطبق في روسيا ، في كل منها وفقا لظروف الواقع فيها» (١٧) . وقال في مكان آخر : «لم يسبق لماركسي بارز ان اعتبر نظرية ماركس نصا باتا لمبدأ فلسفي عام يتحتم التقيد به او اعتبرها مفهوما يتجاوز كونه كشفا لتركيب اجتماعي خاص» (١٨) . اما ماوتسي‌تونك فقد عبر عن موقفه من الدوغمائية بقوله : «ان الدوغمائية العقيمة الجوفاء تمسخ الفكر الخلاق فعلا ، وهي بهذا تمسخ الماركسية . ان الماركسية الدوغمائية ليست ماركسية ، بل هي نقيضها» (١٩) .

والتعارض بين الفكر الماركسي والدوغمائية تعارض اساسي يرجع الى الصلة الوطيدة بين الماركسية والواقع وهي صلة عريقة لازمت ماركس منذ فجر حياته الفكرية وبدت بواكيرها في رسالة له الى ابيه في اولى سني دراسته في جامعة برلين قال فيها : «لقد تركت ورائي المثالية التي اخذتها عن كانت وفيخته ، وانا الآن أستمد افكاري من الواقع بعينه . وعندي ان الآلهة اذا كانت اتخذت السماء مأواها فيما مضى فقد آن لها ان تجعل من الارض مثواها» (٢٠) . ومما يعزز هذه الصلة اقتران النظرية في الماركسية بالتطبيق والتغيير ، فماركس اذ يقول «لا يكفي ان يسعى الفكر ليتحقق في الواقع بل يقتضي كذلك ان يسعى الواقع ليتغلغل في

الفكر ويغيره» (٢١) . او حين يقول «ان وجود الناس ليس مرده الى وعيهم وإحساساتهم بل ان وجودهم الاجتماعي هو مصدر وعيهم وما يدركون» (٢٢) فانه لا يريد بذلك ان يميز فقط بين الفكر الديالكتي والفكر التأملي المنقطع عن الواقع لا يؤثر فيه ولا يتأثر به ، ولا ان يدلل على اهمية النشاط الفعلي من حيث هو عنصر اساسي في التفكير الديالكتي فحسب ، بل يريد ان يؤكد كذلك اننا لا نستطيع ان ندرك جوهر الماركسية الا اذا ادركنا ان العوامل التي تحرك التاريخ تقوم مستقلة عن معرفة الناس بها وان المعرفة لا تكون عاملا تحرك التاريخ الا اذا اقترنت بالفعل والممارسة وتحولت الى وعي فعال يؤثر ويتأثر ويغير ويتغير ، وان الذهن ليس مجرد جهاز يتأثر بالموجودات بطريقة انفعالية فيعكسها بل هو مركز لنشاط عقليَ مقترن بنشاط فعلي يتأثر بالواقع ويتغير به ويغير فيه ، وان الاحداث تؤثر في تكوين الناس بمقدار ما يسهم بها الناس ويؤثرون فيها ، وان المعرفة لا تتحقق بمحض الملاحظة والتلقي بانعكاس الموجودات والمؤثرات في الذهن مجردة من القصد والرغبة في الافادة والتقدير والترجيح ، وان مجتمعنا الذي نحيا فيه ليس شيئا حصل تلقائيا بل هو حصيلة سعي الانسان الذي انشأ الحضارة بالكد والمثابرة ، وان التاريخ كله ليس الا تغيُّر متواصل في عالم الانسان وفي طبيعته، وان الانسان بمقدار ما يؤثر فيغير عالمه يغير في الوقت عينه نفسه بأن يوقظ قدراته الهامدة ويدفعها الى العمل بارادته (٢٣) . ولعل اعظم خطأ يتعرض له الذين يأخذون بالماركسية هو الفصل بين الفكر والعمل او بالاحرى الفصل بين النظرية والتطبيق ، فهؤلاء كما يقول انجلز ، يغفلون الديالكتية فلا يعودون ينصرون من الاشياء غير الاسباب ونتائجها فيقعون في تصورات خاطئة لان ارتباط السبب بالنتيجة رأسا لا يحدث في الواقع الا في التغيرات الفجائية والحادة بينما الغالب ان تجري الامور في حدود التأثير المتبادل (٢٤) . والماركسية تبلغ في الربط بين النشاط العقلي والنشاط الفعلي الحد الذي تزول فيه ازدواجيتهما بحيث ينصهران في وحدة متماسكة حتى ليصبح الفكر بمعزل عن الفعل فكرا مجردا عقيما ويصير الفعل من دون النظرية والفكر محض عبث وضياع .

واقتران الفكر بالفعل او ارتباط النظرية بالتطبيق أطلق عليه في لغة الفلسفة كلمة البراكسية «Praxis» ، والكلمة يونانية قصد بها في الاصل الفعل بذاته، وأطلقها ارسطو على النشاط العقلي القائم بذاته ، اي النشاط العقلي الصرف ، تمييزا له عن النشاط الذي يراد به صنع شيء مستقل او منفصل عن صانعه والذي أطلق عليه كلمة «البواسية» «Poiesis» التي اشتقت منها كلمة «بواتية» التي تعني الصنع او العمل المبدع الخلاق ومن هذه اشتقت كلمة «بويتري» « Poetry » التي تعني الشعر الذي اعتبره اليونان صنعة فنية متميزة عن الصناعات اليدوية . واعتبر اليونان «البراكسية» أرفع مقاما من «البواسية» ولهذا احلّوا شغيلة الفكر في مقام أرفع من منزلة الصنّاع (٢٥) .

ويقصد بالبراكسية في الفلسفة الحديثة ، الفعل من اجل التغيير ؛ ولها في

الماركسية مفهوم ديالكتي يقصد به النشاط الفكري المقرون بالنشاط الفعلي الذي لا يراد به نفعا ذاتيا مباشرا وانما يراد به التغيير الاجتماعي ذا المردود . فالانسان في البراكسية ، بهذا المفهوم ، لا يغير الاشياء فحسب وانما يغير نفسه من خلال تغييره الاشياء . والبراكسية على هذا تكون في الماركسية اساس مفهوم المعرفة والتاريخ والحضارة؛ فالمعرفة بهذا المفهوم لا تكون ذات جدوى الا عندما تتمثل في وعي فعال يسعى الى تغيير الواقع وتنمو من خلال التجربة والتطبيق ؛ والتاريخ والحضارة هما بهذا المفهوم حصيلتا نشاط الانسان الذي لم يصنع ما صنعه في التاريخ ولم يبلغ ما بلغه في الحضارة الا بالفكر المقرون بالعمل . والبراكسية عند ماركس هي غاية الادراك ومعيار الصواب ؛ وبهذا الاعتبار يقول فازكي : «الماركسية فلسفة البراكسية . بل ان صحة النظرية فيها رهن بما يكون للبراكسية فيها من دور في استيعاب مضمونها وفي تنفيذه وتحقيق المقصود فيه . انها لب الماركسية التي لا تقف عند تفسير الوجود بل تعمل على تغييره» (٢٦) .

ولا تكتمل أوليات الماركسية الا بايضاح امرين آخرين : مدلول النظرة الكلية لشؤون المجتمع ، وتأكيد اهمية طريقة النقد في تحديد مفاهيمها . فالماركسية تنظر الى المجتمع من حيث هو كلّ متماسك تتداخل وتتشابك شؤونه القانونية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والروحية وما سواها وتتبادل التأثير بحيث لا يمكن الفصل بينها او النظر الى اي منها بمعزل عن كلية المجتمع ووحدته . وفكرة الكلية هذه اخذها ماركس عن هيغل وجعل منها احدى اهم قواعد نظريته الاجتماعية حتى اصبحت من خصائص الفكر الماركسي تميزه عن الفكر التقليدي . فهي تفرض ان ينظر الى كل وجه من وجوه الحياة الاجتماعية وكل تركيب من تراكيبها من حيث ارتباطه بكلية المجتمع التي تضفي عليه طابعها الخاص وتجعل من المتعذر تشخيص خصائصه بمعزل عنها ، بخلاف الفكر التقليدي الذي يحاول ان يجزىء أوجه الحياة الاجتماعية وتراكيبها في مفردات حتى ليحولها الى رذاذ من الاختصاصات المستقلة . فموضوع الاقتصاد مثلا ، تأخذه الماركسية مرتبطا بموضوع السياسة ولا تنظر اليه بمعزل عن كلية المجتمع وخصوصيته ، فليس في الماركسية علم للاقتصاد قائم بذاته بمعزل عن النظام السائد في المجتمع وانما هناك اقتصاد سياسي مرتبط بمجمل العلاقات الاجتماعية القائمة بين الناس في وضع معين . وهذا معناه ان الاقتصاد في مجتمع ما ، لا يمكن فهمه على وجهه الصحيح مستقلا عن التكوين السياسي الذي يرتبط بدوره وتتجلى خصائصه فقط في ضوء مجمل العلاقات التي تقومه . على ان ذلك لا يعني ان الماركسية تنفي الاختصاص ، بل يعني انها تأخذ الاختصاص من حيث صلته بمجمل التكوين الكلي للمجتمع ، اي انها تنظر الى كلية المعرفة والى العلوم سواء القانون او التاريخ او الاقتصاد او السياسة او غيرها على انها في مجملها تؤلف وحدة ديالكتية تاريخية لنشوء المجتمع وتطوره . وهذه النظرة الكلية لا تؤثر في تحديد مواضيع المعرفة فقط بل تؤثر ايضا في تعيين الغرض منها . فالفكر التقليدي ، البورجوازي مثلا ،

عندما ينقلب الى محافظ او رجعي ، يأخذ الظواهر الاجتماعية بمفرداتها فينظر الى الرأسمالي او الى العامل من حيث هو فرد ويبني أحكامه بخصوصهما على هـذا الاساس ، بينما يأخذ الفكر الماركسي الرأسماليين او العمال بكيانهما الطبقي ويبني احكامه فيما يخصهما في ضوء كلية النظام الرأسمالي . والفـرق في النظرتين يرتبط بالفرض المقصود . فبينما الفكر التقليدي المحافظ يلجأ بهذه الطريقة الى تفتيت المشاكل الاساسية في المجتمع ليتجنب اظهار صلتها بطبيعة النظام والضرورة الى معالجتها بتغيير كلي يهدف الفكر الماركسي على العكس الى تأكيد الضرورة الى معالجة هذه المشاكل معالجة جذرية بتغيير النظام وهي نظرة تنبع من طبيعتـه الثورية .

اما النقد فقد اعتمده ماركس في تحليل ومتابعة شؤون المجتمع وأحداثـه وغربلتها وتحديدها واستخلاص النتائج والوصول بهـا الى جدواهـا . وعنه اخذه لينين والتزم به كل ماركسي استطاع ان يتوصل الى نتائج ذات جدوى . والنقد نشأ في الاصل كطريقة في البحث استخدمت بوجه خاص ، في عهد اليقظة وإحياء العلوم في أوربا ، في دراسة وتمحيص نصوص الكتب القديمة ولاسيمـا الكتب المقدسة . واستعان به الانسانيون ودعاة الاصلاح بعد ذلك في تبيان آرائهم والتدليل على صحتها ، واتخذت منه الفرق الدينية التي نشأت في أوربا في حركة الاصلاح الديني سلاحا واجهت به خصومها . وبظهور بوادر النهضة الفكرية في أوربا ، تحول من وسيلة للسجال بين المذاهب الدينية الى أداة لتدقيق وتمحيص ومناقشة المذاهب الفلسفية والفكرية ، واصبح بظهور النزعة الى حرية الفكر وسيلة العقل في تقييم ظواهر الحياة وتقدير مبلغ الصحة في مفاهيمها . وتجنب النقد في البدء ، التعرض لشؤون السياسة والحكم ، ثم راح يتسلل اليها بالتنويـه والتلميح حتى انتهى الى مواجهتها وصار له مدلول خاص عبر عنه بالتفكير المعارض الذي قصد به نقد المفاهيم الشائعة في الحياة العامة واماطة اللثام عما تخفيـه وفضح الزيف فيها . وفي فترة ازدهار فلسفة المثالية الالمانية صار للنقد مفهومان: النقد الذي عني بالكشف عن شروط المعرفة وحدودها في نطاق ملكة الانسان على الادراك وهو المفهوم الذي عالجه الفيلسوف الالماني كانت في كتابه «نقد العقـل الخالص» ؛ والنقد الذي عني بكشف عوامل الاكراه والقهر والكبت الذي يعاني منه الناس وكلها من صنع الانسان ، فتشوه عملية تكوّن الذات ، وهو النقد الذي عالج هيغل موضوعه في رسالته «علم ظاهرات الروح» وكشف به ما يعانيه العبد فـي سبيل الخلاص من عبوديته . وبهذا المفهوم الاخير ، في نطاق المجتمع الطبقي ، اخذه ماركس بمعنى المعاناة في سبيل التحرير ، بكشف حقيقة التسلط وخلفياته ومواجهته بوعي ثوري يراد به استبدال السلطة وتغيير النظام ؛ واخذه «فرويد» في نطاقه الفردي لكشف ما يعانيه الفرد من جراء الكبت وتراكم الاوهام والعلل النفسية ومعالجتها بطريقة التحليل النفسي . والنقد بالمفهوم الماركسي نقد هدم واعـادة بناء ، اي انه نقد ثوري يراد به التغيير الجذري ، يعالج الموضوع على اساس ما ينطوي عليه من تضاد وما ينجم عنه من فساد وتشويه يخلق الضرورة الى التغيير

ويكشف في الوقت عينه عن مستلزمات هذا التغيير وامكاناته . اما النقد بمفهومه التقليدي ، على طريقة الفيلسوف كانت بصورة خاصة ، فهو نقد تصحيح واصلاح ، يعالج الموضوع بكشف النقص فيه ليتمه والعيب فيه ليصلحه .

فالثورية في الماركسية احدى خصائصها الاساسية ، وهي كسائر خصائصها تتغير في فحواها ومراميها تبعا لطبيعة المرحلة . وكان ماركس قد حصر الى عهد متأخر في حياته الفكرية ، كما اوضح في رسالته «اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» ، مراحل التطور وبالنسبة للمجتمع الاوروبي ، في اربع مراحل هي الآسيوي والقديم والاقطاعي والبورجوازي ؛ ورأى في البورجوازي آخر تكوين اقتصادي يعتمد علاقات انتاج تقوم على التضاد وتؤدي الى صراع طبقي يكون زواله بداية التاريخ الحقيقي للبشريةتنهي بهغربتها وتبدأ عهدا منحياة انسانيةيظهرها على حقيقتها الخالية من الشوائب والمحن .

وللسياسة في الماركسية مفهوم يختلف عن مفهومها في النظم المعروفة حتى الان . فالسياسة فيها مظهر من مظاهر الصراع الطبقي ، فهي حرب طبقية بأساليب شتى . وهي لهذا لا تنظر اليها من حيث هي مساومات وتسويات بين فئات اتفقت ضمنا على التعايش في حدود من التوازن المتوتر ، او مؤامرات ومخاتلات من وراء ظهر الشعوب بين منتفعين اقتسموا المغانم واعتمدوا التهريج والنصب والخديعة وشراء الذمم واللجوء الى التهديد والوعيد والارهاب ، وتستَّروا على ذلك كله بشكليات رسمانية ومزاعم انسانية موهومة للابقاء على حكمهم وادامة تسلطهم . كل ذلك في نظر الماركسية طفح لعلل اجتماعية تقتضي ان تعالج معالجة جذرية وبحزم لانها علة متفاقمة تدفع المتسلطين الى مواصلة التشديد في تسلطهم والمضي في تعزيز كل مقوماته المادية والفكرية والنفسية في مواجهة مقاومة سافرة او خفية هي الاخرى متفاقمة تشتد وتقوى حتى تنتهي الى انفجار يكلف تضحيات جساما وخسائر فادحة .

وعناصر الماركسية التي اشرنا اليها : المادية ، الواقعية ، الديالكتية ، البراكسية ، الكلية ، النقد والثورية ، تتجلى بها ابرز معالم التفكير الماركسي المجدّ في سبيل التغيير الجذري المتواصل ، ويكون في مجمله والدوغمائية على طرفي نقيض ، لكنه في الوقت عينه يتعرض لخطرها وهي تأتيه من مداخل شتى بسبب اغفال واحد او اكثر من خصائصها او التأكيد على بعضها بأكثر مما يقتضي بحيث يختل التوازن فيها . وقد تعرضت الماركسية للدوغمائية فعلا وماركس ما يزال حيا حتى بلغ به الامر ان صرح انه ليس ماركسيا ، لكنه أستطاع بشخصيته الفذة وقوة حجته ووضوح رؤياه ان يدفع خطرها . وبذل انجلز بعد وفاة ماركس جهدا عظيما في مقاومتها ، لكن المهمة واجهته وقد اخذه الكبر فأخفق واعترف في أخريات ايامه بعجزه عن صدها . وكانت قد اتخذت صيغة نصوص استخرجت من كتابات ماركس ، بترت من خصوصيتها ووضعت في صورة أحكام عامة

متجاهلة طبيعة واقعها الراهن محاولة القفز من فوقه وكأن امره لا يعنيها حتى جردت الماركسية من ثوريتها وحولتها الى ما يشبه موضوع أكادمي يتابع حركة التطور الاجتماعي بعين المستطلع الذي لا يهمه غير ان يترسم مسيرته ويكتشف القوانين التي تقرر وجهته كما تقرر انحدارات السفوح وجهة السيول ، كما يقول سدني هوك (٢٧) .

ومن هذا المدخل ادخلت الدوغمائية الى التفكير الماركسي فكرة الحتمية حتى صورت التطور الاجتماعي وكأنه حركة ميكانية ذاتية تنتقل بها الرأسمالية الى الاشتراكية تلقائيا عندما تحكم الضرورة ، وجعلت العمل في سبيل تحقيق الاشتراكية شأنه شأن العمل في مقاومتها ، كلاهما لا جدوى فيه ، فالاشتراكية آتية لا ريب فيها واستقبالها او مقاومتها سيان ، كلاهما لا يقدم ولا يؤخر الا قليلا . وهذا برغم تأكيدات ماركس وانجلز المتكررة من ان الاحكام العامة القطعية لا مكان لها في الماركسية ، حتى الصراع الطبقي بعينه ليس من المحتم ان يحقق التقدم والفوز بل قد يؤدي الى خراب المجتمع ودماره (٢٨) . ويظن البعض ان فكرة الحتمية هذه نشأت من تشديد ماركس وانجلز على اهمية العامل الاقتصادي بوصفه عاملا فاصلا في التطور الاجتماعي . وقد بحث انجلز هذا الموضوع بعينه في رسالة الى جوزف بلوخ ربما يكون من المفيد ذكر قسم منها لاهمية ما جاء فيه. قال انجلز :

«... استنادا الى التفسير المادي للتاريخ ، يكون العامل الحاسم في نهاية الامر انتاج واعادة انتاج الحياة الفعلية . ولم يؤكد ماركس ولا أكدت انا ما يتجاوز هذا . اما اذا أريد تشويه قولنا وتحريفه بحيث يصور ان العامل الاقتصادي وحده هو العامل الحاسم فان هذا يمسخ ما قصد به ويحوله الى قول أجوف سخيف لا معنى ولا مغزى له . ان الوضع الاقتصادي هو الاساس ، غير ان مختلف عناصر التراكيب الفوقية كالاتجاه السياسي الذي يتخذه الصراع الطبقي والنتائج التي ينتهي اليها ، مثل الدستور الذي تضعه طبقة ما بعد فوزها بالنصر وما يترتب على ذلك من تغيير في القوانين وما تحدثه بوجه خاص الصراعات الفعلية من ردود في أذهان المشاركين فيها مما ينعكس تأثيره في النظريات السياسية والآراء القانونية والفلسفية والدينية وما تصاغ به وتتحول اليه من تعاليم ، كل هذه لها تأثيراتها الاكيدة في مجرى الصراعات التاريخية والوجهة التي تتخذها ؛ وبينها كلها تأثيرات متقابلة تكون خضما من وقائع متضاربة ومفاجآت تتجاوز علاقاتها الخفية حدود ادراكنا حتى يستحيل علينا اثباتها بشواهد وبراهين فنضطر الى اغفالها ونتناساها. ومن بين كل هذه التأثيرات تبرز في النهاية معالم الحركة الاقتصادية وتفرض وجودها . ولولا هذا الاختلاط الهائل لاصبح تطبيق النظرية على اي عصر من عصور التاريخ أيسر من حل معادلة من الدرجة الثانية .

«صحيح اننا نصنع تاريخنا بأنفسنا ، لكننا نصنعه تحت تأثير أحداث وعوامل قائمة معينة وثابتة تكون الاقتصادية من بينها في النتيجة أشدها حسما ، لكن السياسة وغيرها وكذلك العادات والتقاليد والعرف وهي كلها تنتاب الافكار على

نحو مستمر وبالحاح ، يكون لها تأثيرها ولو لم يكن حاسما .

«وبعد ، فالتاريخ يواصل سيره المطرد مستقلا عنا على نحو تكون النتيجة النهائية فيه دائما حصيلة تضارب كثرة من الارادات الفردية ، كل منها بدوره حصيلة حشد من ظروف الحياة الخاصة بكل فرد . وهكذا يشترك عدد لا يحصى من عوامل متداخلة ومتشابكة او متوازية في محصل واحد هو الحدث التاريخي . بل ان هذا بذاته يمكن ان يؤخذ على انه من صنع عوامل شتى تعمل دون وعي او اختيار . وما يريده كلّ تعترضه ارادات الآخرين حتى ينتهي الامر الى نتيجة لم يكن يقصدها احد او تدور بحسبانه . هكذا جرت أحداث التاريخ حتى الان ، مثلما تجري الامور في الطبيعة . على ان الارادات الفردية وكل منها يريد ما يسوقه اليه تكوينه العضوي ، وكذلك المتطلبات الخارجية التي هي في جوهرها اقتصادية سواء أكانت متطلبات شخصية خاصة ام اجتماعية عامة ، ولو لم يتيسر لنا تحقيق ما تريد وانصبت في مجموع كلي ، فلا يقتضي ان يحملنا مصيرها على القول بأنها عديمة الاثر ، فالامر في الحقيقة على العكس ، فكل هذه الارادات والمتطلبات اسهمت في الحصيلة وكان لها نصيب فيها .

«وماركس وأنا ، كلانا نستحق اللوم اذا ما رجح الجيل الناشىء الناحية الاقتصادية وأولاها اكثر مما تستحقه من الاهمية . فقد اضطررنا ان نشدد في التأكيد على القاعدة الاساسية (أي الاقتصادية) في مواجهة خصومنا الذين أنكروا أثرها ، ولم يكن لدينا الوقت ولا اسعفنا الظرف ولا سنحت لنا الفرصة لنولي العوامل الاخرى المندمجة في هذا التفاعل ما تستحق من العناية والاهتمام . على ان الامر عندما ينحصر في معالجة فترة مخصوصة من التاريخ ، اي عندما يحين أوان تطبيق النظرية على وضع بعينه فالامر يختلف اذ لا يجوز عندئذ السماح بأي خطأ . بيد ان مما يؤسف له ان الناس كثيرا ما يتوهمون انهم استوعبوا تماما نظرية جديدة فلا يرون بأسا بتعجل تطبيقها وان كان على غير وجهها الصحيح ، اذا ما عرفوا اولياتها الرئيسية . ولست أستثني من هذه المثلبة كثيرين من الماركسيين المتعجلين ، فكثير من الهراء المذهل كان من صنعهم ..» (٢٩) .

وشأن الدوغمائية دائما ، ان تلتزم نصوصا باتة فتكون جامدة منقطعة عن الواقع وتنتهي الى عكس ما قصدت او تنتهي الى ضياع . وهذا بالفعل ما اصاب الدوغمائية التي نشأت عقيب وفاة ماركس وانجلز ، كما كشفت عنه اقوال قادتها ومفكريها وكما انتهت اليه في حركة الاشتراكية الديمقراطية وفي السنديكالية التي نشأت كرد فعل لها وتحولت الى دوغمائية من نمط آخر . فرودولف هيلفردونك احد أقطاب الدوغمائية الاولين بادر الى القول «بأننا لو اخذنا الماركسية بمعيار المنطق لما وجدنا فيها غير نظرية تعالج حركة المجتمع وفق قوانين عامة صيغت طبقا للتصور الماركسي لمجرى التاريخ» (٣٠) . ثم خرج كاوتسكي وهو احد مفكريها البارزين وكان قبل ذلك ماركسيا مرموقا ، ليقول «ان الحزب الاشتراكي حزب ثوري لكنه ليس حزبا يصنع الثورة . اننا على يقين ان لا سبيل لنا لبلوغ غايتنا

غير سبيل الثورة ، لكننا على مثل هذا اليقين بعجزنا عن تفجير الثورة عجز خصومنا عن منع وقوعها» (٣١) . ثم جاء برنشتاين وهو كبيرهم ، وكان من المقربين الى انجلز وتولى زعامة الاشتراكيين الديمقراطيين في المانيا، ليقول «ان على الاشتراكية الديمقراطية ان تستجمع شجاعتها ... وتعدّ نفسها لتظهر على حقيقتها في حزب اشتراكي ديمقراطي اصلاحي» (٣٢) . ثم ما لبث ان تبين انه لا ضرورة حتى الى الالتزام بتحقيق الاشتراكية فصرح «ان ما يعتبر عرفا انه هدف الاشتراكية لم يعد يعنيني في شيء ، فالحركة عندي هي كل شيء» (٣٣) . وبمثل هذه الاقوال حاولوا ان يصوغوا الماركسية في أحكام عامة مطلقة ويجعلوا الثورة امرا محتوما لا حاجة الى جهد يفجرها ولا جدوى في مقاومة تمنع وقوعها ، ورجحوا اشتراكية ديمقراطية لا تريد في الحقيقة تغيير النظام الرأسمالي بل تريد ادامته عن طريق اصلاحه وانتهوا الى ما يشبه عقلانية القرن الثامن عشر ، كما اعترف برنشتاين في رواية للكاتب الاميركي سدني هوك قال فيها : «في حديث معي ، في اوائل صيف ١٩٢٩ ، اعترف برنشتاين ، وهو يومئذ في التاسعة والسبعين ، انه ، كما عبر هو نفسه ، رجعي منهجي ... وقال ، فأنا ما زلت عقلانيا من القرن الثامن عشر ... وليس يخجلني ان اكون كذلك، فما زلت أعتقد ان طريقتهم في الاساس، صحيحة وخصبة ..» وقال سدني هوك معقبا «وسألته في ختام الحديث ، اذا كان يعتبر طريقته ماركسية ، فأجاب بصوت خفيض وكأنه يفضي بسر يخشى ان يسمعه احد ، أتعلم ان البلشفيك على حق ، فان ماركس منهم وهو يحمل نزعة قوية الى البلشفية» (٣٤) .

وكان من جراء هذه الدوغمائية ان ظهرت السنديكالية الثورية في فرنسا كرد فعل عليها وقد رأت انها جردت الماركسية من عنصري الثورية والصراع الطبقي فاتخذت اتجاها معاكسا اذ ركزت على الصراع الطبقي واعتبرت الطبقة العاملة وحدها المعول عليها في تحقيق التحول الثوري واعتمدت الاحزاب وحدة سلاحها في الهجوم وفي الدفاع وحصرت نشاطها في نقابات العمال واعتبرت التنظيم النقابي معين كل ما تحتاج اليه الطبقة العاملة من خبرة ومراس وجعلته مغلقا خشية ان تتسرب اليه الافكار الدخيلة متجنبة النظريات ورجال الفكر ، متنكرة للاحزاب والسياسة والبرلمانية ناظرة اليها على انها محض الاعيب وخدع من صنع البورجوازية تريد بها التضليل والتخدير ، وهكذا استحالت الى حركة عمالية خالصة ولم تعد حركة تحول اجتماعي كما هو جوهر الماركسية .

ويعتبر جورج ساند (١٨٤٧ — ١٩٢٢) ابرز قادتها ، وهو ماركسي حمله تخلي الاشتراكية الديمقراطية عن الثورية والصراع الطبقي الى الانضواء تحت لواء السندكالية التي اعتبرها وريثة الماركسية الحقة . وكان من رأيه ان البورجوازية تحيا في عالم غير عالم الطبقة العاملة وان بين الطبقتين فرقة لا لقاء بعدها ، فلا مصلحة تربط بينهما ولا قيما اجتماعية او اخلاقية تشدهما وعلى هذا قال ان الطبقة العاملة في حل من كل مسؤولية اجتماعية او اخلاقية في نظام يكون الحكم فيه للبورجوازية (٣٥) . وانزلقت السندكالية من حيث ارادت ان تتجنب دوغمائية

الاشتراكية الديمقراطية في دوغمائية من طراز آخر بأن اعتمدت نمطا آخر من الاحكام العامة الباتة وانغلقت على نفسها متخذة موقفا سلبياً من كل نشاط سياسي وحكمت على نفسها باقتصارها على سلاح الاضراب وحده بالاخفاق ، فالاضراب قد يقلق السلطة ويزعجها ولكنه لا يؤدي الى ثورة اجتماعية الا اذا كان وسيلة الى جانب وسائل اخرى . والسندكالية باغفالها النشاط السياسي اغفلت الحقيقة الديالكتية التي تنظر الى كل صراع اقتصادي على انه في الوقت عينه صراع سياسي . وانتهت بها احكامها الجزمية الى ان تنعزل عن حركة التطور الاجتماعي والسياسي فتعجز عن تحقيق هدفها وتصير الى ضياع .

وتصدت للدوغمائية منذ مطلع القرن العشرين ، حركة كان من ابرز مفكريها فلاديمير لينين في روسيا وروزا لكسمبرك في المانيا . فرد لينين سنة ١٩٠١ على الاقتصاديين الروس الذين اخذوا بالماركسية لكنهم ذهبوا الى ان الصراع الاقتصادي اليومي يخلق تلقائيا ، وعيا ثوريا يوجه الحركة السياسية وقالوا ان هذا الوعي ما دام مبعثه الواقع الاقتصادي فانه لا يمكن ان يتجاوز حدود هذا الواقع ولذلك فان كل تأثير على حركة جماهيرية لا يكون مصدره الواقع الاقتصادي هو دخيل عليها ويخل بسلامتها . فأوضح لهم لينين ما ينطوي عليه تصورهم هذا من اغفال لاهمية النظرية وتجاهل لأثر الفكر في توجيه الحركة التلقائية وايجاد الحلول الايديولوجية والسياسية والتقنية لما تواجه من مشاكل وما يعترضها من عقبات (٣٦) . وأكد لينين كما اكدت روزا لكسمبرك في الوقت عينه ، ان الوعي وان كان مرده ابتداء الى الواقع الاقتصادي الا انه يرتبط كذلك بمدى المعرفة ولا يكون مجرد رد فعل للاحساسات الذاتية أو الافعال العفوية ؛ وان اي وعي لا بد وأن ينحاز الى جهة ما، وهو في الماركسية وعي منحاز للطبقة العاملة وللاشتراكية. وان الاشتراكية شأنها شأن الرأسمالية ، لها امتداداتها العالمية ولا بد للوعي ان يتأثر بهذه الامتدادات ويتجاوب معها . وشجب كل من لينين ولكسمبرك تصور الدوغمائيين ان العوامل الاقتصادية تؤدي تلقائيا الى الاشتراكية وقالا ان غاية ما يمكن ان تكون حصيلة هذه العوامل تهيئة الظروف المساعدة ، ويبقى انجاز الاشتراكية رهنا بالارادة الفاعلة . وأكد لينين بصورة خاصة ، وجه الخطأ في النظر الى الصراع الطبقي كحصيلة عرضية للتقدم الاقتصادي بحيث يصبح الواقع الاقتصادي وحده مبعث الوعي ؛ وقال ان العوامل الاقتصادية والتنظيمات الثورية التي يخلقها الوعي لا يرتبطان ببعضهما ارتباطا ميكانيا وانما تقوم بينهما صلات ديالكتية بوصفهما عنصرين مستقلين يتبادلان التأثير ويسهمان في حركة التطور جنبا الى جنب ، وان اي اغفال لتأثير اي منهما او التقليل من شأنه يبعد التفكير عن الديالكتية (٣٧) .

وقالت روزا لكسمبرك في كتابها «الاصلاح والثورة» ان الخطأ الذي وقع فيه برنشتاين وغيره من الدوغمائيين مرده تصورهم ان الاشتراكية آتية لا محالة ، فلم يعد يعنيهم كثيرا العمل على تحقيقها حتى انصرف اهتمامهم عن الغاية الى الوسيلة؛

وهذا هو الذي جر برنشتاين الى ان يقول ان الغاية لم تعد تعنيه في شيء وان الحركة في نظره كل شيء . فكان ان أدى ذلك بهؤلاء الدوغمائيين الى ترجيح ما يعزز الحركة التي هي الوسيلة ولا عارض الغاية ، فبلغ من امرهم في المانيا القيصرية مثلا ، ان أيدوا السياسة الامبريالية لقاء استجابة السلطة لبعض مطاليبهم كتعديل نظام الانتخابات او زيادة أجور العمال او تقليص ساعات العمل. وهكذا تحولت اهداف الماركسية في الاشتراكية الديمقراطية من الاستيلاء على السلطة الى القناعة باصلاحات حصيلتها الفعلية اطالة أمد النظام الرأسمالي . وعلى هذه الصورة توصلت روزا لكسمبرك الى مثل ما توصل اليه لينين من ان الغاية والوسائل الى بلوغها ترتبطان في الماركسية بما يشبه الارتباط العضوي بحيث يكون من الضروري تحديد الغاية تحديدا دقيقا واختيار وسائل تحقيقها وفق طبيعتها ومما يساعد في تعزيز مسعاها . ولو ان هذا لا يعني ان تغفل الحركة كل ما يؤدي الى الاصلاح او ان تعارض الاصلاح ولا ترحب به ، بل الاصح ان تنظر الى الاصلاح بالنسبة لمردوده في حركة الصراع الطبقي ولما يكون له من تأثير في تحقيق الغاية . وأكد لينين ولكسمبرك ايضا الى ان يؤخذ ما جاء في اعمال ماركس وانجلز في ضوء الظروف التي وضعت فيها وأعلنا انهما بعدم تقيدهما بحرفية آراء ماركس وانجلز اكثر تمسكا بجوهر الماركسية واخلاصا لغايتها من خصومهما الدوغمائيين .

٤ ـ ماهية الماركسية .

واذا لم تكن الماركسية دوغمائية وكانت أحكامها تتبدل بتبدل الحال ، فكيف يمكن اذاً ، ان نحددها . لقد قال ماركس وانجلز انها «نظرية» بقولهما «ان نظريتنا ليست دوغما بل هي دليل عمل» (٣٩) ؛ او كما قال انجلز «ان نظريتنا ليست دوغما بل تفسير لعملية نشوء وتطور (المجتمع) بمراحل متعاقبة» (٤٠) . فاذا اخذنا الماركسية كما وصفها مؤسسوها بأنها «نظرية» فلا بد ان نأخذ المقصود بالنظرية في الماركسية غير المقصود بها في علوم الطبيعة وفي العلوم البحتة ، اذ المفروض في هذه العلوم ان تثبت النظرية قاعدة ثابتة تكون اساسا لاحكام يصح الاستناد والبناء عليها وهو ما لا يتوافر في «نظرية» الماركسية التي تلازم الاحكام فيها واقعا متغيرا. واذا اخذنا بالصفة الثانية التي وردت في قول ماركس وانجلز من ان الماركسية «دليل عمل» ووصف انجلز اياها بأنها تفسير لعملية نشوء وتطور المجتمع ، رأينا ان التأكيد في تعريفها لا ينصب على المضمون والنتائج بقدر ما ينصب على الاصول او الطريقة المعتمدة في استخلاص النتائج . وهذا هو بالفعل ما لفت نظر بعض الماركسيين وفي طليعتهم جورج لوكاش ، وحملهم على القول بأن الاصل في الماركسية ليست احكامها المتغيرة بل طريقتها في الوصول الى هذه الاحكام . ويوضح لوكاش هذا الراي فيقول : «لو فرضنا جدلا ان البحث العلمي الحديث

نقض كل تعاليم ماركس فسيكون مع ذلك ، في استطاعة اي ماركسي ملتزم ان يقر دون تردد كل ما اثبت العلم صحته وأن يرفض من آراء ماركس كل ما اثبت العلم خطأه ومع ذالك لا يتخلى عن ماركسيته لحظة واحدة ؛ وذلك لان الماركسية لا تشترط التسليم دون نقد وقناعة بما اسفرت عنه تحقيقات ماركس وبما توصل اليه من الآراء ولا تفرض القبول بتفسيرها او تأويلها وكأنها أحكام كتاب مُنزل ، اذ الاصل في الماركسية الالتزام بطريقتها واعتبار الديالكتية هي الوسيلة المثلى لبلوغ الصواب » (٤١) .

وسبق ان اشرنا الى ان ماركس لم يشرح طريقته هذه بل اكتفى فيما يتعلق بها بالتنويه والتلميح ، ولعله رجح ان تستوعب دقائقها بطريق التطبيق والممارسة الفعلية حتى لا تجمد في أصول لفظية ، تماما كما فعل بخصوص آرائه التي تناثرت في شتى بحوثه ، مرتبطة بظروفها الخاصة ليحول دون تحولها الى قواعد عامة مطلقة فتضيع عليها حقائق الواقع المتغير . لكن القدرة على الممارسة وحسن التطبيق والوصول بطريقهما الى ما هو صواب وذو جدوى يفرض ان يمتلك المرء في الاساس سليقة ماركسية لا تتأتى بطريق حفظ قواعد يرددها عن ظهر قلب وانما ان يجد سبيله اليها ابتداء بمتابعة حياة ماركس الفكرية والفعلية بكل دقائقها وخلفياتها فيستوعب فحواها ومضمونها لا من خلال متابعة جهود ماركس الفكرية فحسب وانما بمتابعة مواقفه وتصرفاته الفعلية كذلك . وكانت حياة ماركس كلها سجالا متواصلا حمل فيه معول نقده الهدام ، يقتلع به القديم من جذوره ويمهد الطريق للجديد ، وقد بدأه وهو ما يزال يافعا ، بالتصدي لآلهة التأملات المجردة فأنزلها من بروجها الى ساحة الواقع ؛ ولاحق فلسفة التأمل المجرد باختياره موضوع أطروحته للدكتوراه بنقده هذه الفلسفة كما كانت عند الاغريق مرجحا عليها فلسفة ديمقريطس وابيقور لنزوعها الى تلمس الواقع المحسوس وصولا الى الحقيقة ، وتمردها على التقاليد والأعراف ؛ ثم ما لبث ان انشق على زمرة اليسار الهيغلي ، وقد تأثر بماوية فويرباخ ، فحمل عليهم شاجبا اغفالهم الواقع وانغمارهم في جدل لاهوتي غير مجدٍ ، متهما اياهم باللجوء الى ما يشبه الصوفية تهربا من مواجهة الواقع الذي يعاني الناس ويلاته . وتعرّض بعدها الى فلسفة فويرباخ ناقدا ماديتها الهامدة التي اغفلت الديالكتية فضاع عليها ادراك عوامل التغيير وخلصت من مثالية مجردة لتقع في مادية مجردة تعيدها مرة اخرى الى ضرب من ضروب المثالية . وعاد بعدها فنقد فلسفة هيغل التي بلغت المثالية فيها غايتها في رسالته «ظاهرات الروح» وقد صورت الواقع على انه انعكاس للفكر الذي اصله في الغيب وظله في الوجود . وانتقد ثوريّ الشعارات الذين تصوروا ان باستطاعتهم تكييف الواقع على هواهم ، مدللا على ان اي تغيير في الواقع لا يتم الا حين تفرضه ضرورة يعيها الناس ويستجيبون لها وتتهيأ لهم الامكانات التي يتخذون منها عدتهم .

وبعد هذه المرحلة من حياته التي تحوّل خلالها من الرومانسية الى الانسانية

فالمثالية الهيغلية فالفويرباخية فالعقلانية فالواقعية الثورية ، توجه الى الاشتراكية مبتدئا بالانصراف الى دراسة التاريخ ثم الى الاقتصاد مضيفا الى معرفته الفلسفية واتقانه الديالكتية معرفة وافية بهما فبلغ بحياته الفكرية مرحلة يعتبرها «التوزه» مرحلـــة النضج (٤٢) ، فشرع بالتصدي لدعـــاة الاشتراكية الذين كان جلهم من الطوبائيين الذين استهوتهم المثل الانسانية المجردة وتطلعوا الى انشاء المجتمع على ما اوحت به تمنياتهم وطيبة نفوسهم واحساساتهم الانسانية وقد توهموا ان في المستطاع الركون الى الوازع الاخلاقي والدوافع الانسانية لحمل المتنفعين علـــى انصاف بني جلدتهم من الفقراء والمعوزين والتنازل عن مصالحهم الخاصة في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية وانشاء المجتمع الامثل . وكشف لهم ماركس عن ان التحول الاجتماعي في المرحلة التي هم فيها لا يكون الا نتيجة صراع طبقي وان الاشتراكية لا تتحقق الا بفوز الطبقة العاملة بالسلطة عن طريق الثورة . ولم يكن مفهوم الثورة عنده يعني العنف بقدر ما يعني التبدل الجذري والتحول في علاقات الانتاج بما يتلاءم وقوى الانتاج المتجددة . وواجه ايضا قادة الحركة العمالية الذين توهموا ان في المستطاع تحقيق اهداف الطبقة العاملة بتركيز نشاطهم وحصره في التنظيم النقابي لتحقيق مطاليب العمال المباشرة والآنية بمعـــزل عن الحركـــة السياسية ، فأوضح لهم ان الصراع الطبقي هو في جوهره صراع سياسي وان اهداف الطبقة العاملة ومصالحها لا يمكن فصلها عن مضمون التحول الاجتماعـي وأهدافـــه . وواجه في الوقت عينه ، الاقتصاديين التقليديين الذيـــن نظروا الى قوانين الاقتصاد على انها قوانين عامة وثابتة تنطبق في كـــل ظرف وتصح في كل زمان ، فأثبت ان هذه القوانين انما هي قوانين مرحلية تعبر عن علاقات اقتصادية ذات طبيعة تاريخية لا تلبث ان تتغير بتغير مضمون وطبيعة تلـــك العلاقات . وتصدى للفوضويين الذين انكروا الضرورة الى سلطة الدولة اطلاقـــا وأثبت لهم ضرورة وجود الدولة وسلطتها في كل مجتمع طبقي ؛ وردّ في الوقت عينه ، على الذين قالوا بالضرورة الازلية لوجود الدولة مدللا لهم على ان الدولة التي يرجع وجودها الى الملكية الخاصة والمجتمع الطبقي الذي قومته هذه الملكية لا بد ان تزول بزوال الملكية وقيام المجتمع الذي تنعدم فيه الطبقات . وعبر هـــذا الصراع الفكري والفعلي ، بطريق النقد ، وقد شغل الشطر الاكبر من حياته ، استخلص ماركس من خضم الواقع ، الخطوط الاساسية لنهجه الذي هو مدار ما يعرف بالماركسية .

والمتتبع لمسيرة هذا السجال لا يلبث ان يجد نفسه ملزما بأن يدقق ويتفهم كل ما تصدى ماركس الى نقده . وعندما يتبين ان نشاطات ماركس لم تقتصر على التحقيق والدروس والنقد ومواجهة مشاكل الحياة اليومية السياسية والاجتماعية العامة بل امتدت الى حركة العمال المحلية والعالمية المعاصرة التي كان له بهمـــا ارتباطات وثيقة وشغل فيها مركزا قياديا موجها وفعالا ، يجد ان لا مندوحة لـــه ايضا ، من متابعة هذا الجانب العملي من حياة ماركس لصلته الوثيقة وبعد أثره في استيعاب الماركسية وتطبيقاتها . وعندما يتضح له ان عصر ماركس لم يكن الا

حصيلة تطورات اقتصادية وفكرية وانتفاضات وثورات ادت الى تحولات اجتماعية فاصلة ، يرى ان لا مفر له من دراسة خلفية هذا العصر والتراكمات التي تجمعت وأعدت بواعث التغيير . وهكذا يتجلى لنا مرة اخرى ، مبلغ ما تتطلبه دراسة الماركسية من جهد، وقد بذل مثل هذا الجهد فعلا كل الذين تميزوا بالالمام بأسسها العامة وبلغوا فيها درجة الاجتهاد والتنظير .

ونستطيع ، اعتمادا على ما نوه به ماركس وانجلز ان نستشف امرين : الاول، ان الماركسية بنت تصورها على نظرية اجتياز حياة الانسان أدوار البهيمية والبدائية الى دور الملكية الخاصة التي تؤدي الى الراسمالية الصناعية وتبلغ خاتمتها بطريق الاستقطاب بالتحول الى الاشتراكية والشيوعية التي بها يبدأ الانسان حياته الحقيقية . والبشرية تجتاز هذه الادوار على مراحل ، ومراحل كل دور ترتبط بعامل اساسي مشترك يميزها ويكون مدار حركتها الديالكتية . والثاني ، ان قواعد الماركسية وأصولها إما ان تكون ذات طبيعة عامة وشاملة كالمادية والواقعية والديالكتية تنطبق على كل الادوار ، او دورية تصح في دور واحد كتلك التي تتعلق مثلا بالملكية الخاصة وما يترتب عليها من قيام الطبقات والصراع الطبقي ، او مرحلية كتلك التي تنطبق على المرحلة البورجوازية كالاحتكار والاستقطاب او ان تعني وضعا خاصا محدودا بزمان ومكان ضمن مرحلة بعينها كالاحكام التي تستخلص من واقع بلد بعينه في مرحلة البورجوازية مثلا .

ومما يجدر ذكره في هذا الخصوص ، ان كل ما انتهى اليه ماركس وحاول ان يتمه في كتاب «رأس المال» الذي كان خاتمة اعماله ، تطبيقه الماركسية في استقصاء نشوء وتطور وخاتمة مجتمع واحد في مرحلة واحدة من مراحل دور الملكية الخاصة ، هو مجتمع البورجوازية في منطقة محددة من العالم هي منطقة غربي اوربا . وقد أكد ان البورجوازية انما نشأت في اوربا الغربية لتوفر شروط فيها لم تتوفر في مناطق اخرى لعل اهمها انها وحدها كانت موطن لنظام الاقطاع الذي حمل في رحمه بذرة النظام البورجوازي ، كما أكد ان كل ما توصل اليه من الاحكام والآراء نتيجة هذا الاستقصاء لا يصح اطلاقا اخذها بوصفها أحكاما عامة يصح تطبيقها في اماكن اخرى او في زمن آخر دون ان يؤخذ بالحسبان ظروف زمان ومكان تطبيقها وتوفر الشروط الضرورية لهذا التطبيق (٤٣) . والنظام الاقطاعي الذي اشار اليه ماركس ، لا ينحصر في مفهوم الماركسية بنظام خاص لاستغلال الارض والفلاحين الذين يزرعونها كما يقصد به عادة بل يراد به النظام الاجتماعي الاقتصادي الذي يتميز بتراكيب فوقية خاصة وهو نظام نشأ في اوربا الغربية في أعقاب انحلال الامبراطورية الرومانية واستيلاء القبائل الجرمانية على ممتلكاتها وأدى الى قيام امارات محددة ومحصنة ساعدت على قيام ظروف جغرافية وتاريخية خاصة .

واستنكر ماركس بشدة تحويل خلاصته التاريخية التي أوجزها ، كما قال ، في كتاب «رأس المال» عن نشوء الراسمالية في اوربا الغربية «الى نظرية تاريخية

فلسفية خطها القدر لتفرض على الامم كلها كسبيل وحيد لتطورها برغم تفاوت ظروفها التاريخية ...» . وأورد المثل الآتي ليبين كيف ان أحداثا متماثلة تقع في ظروف متفاوتة تؤدي الى نتائج مختلفة، فقال، «كنت ألمحت في اماكن عدة من كتاب «رأس المال» الى ما اصاب الدهماء في روما القديمة . فقد كانوا في الاصل ، فلاحين احرارا يزرع كل واحد منهم لحسابه الخاص ارضا يملكها ، لكنهم ما لبثوا في خلال حكم الرومان ، ان انتزعت منهم الارض التي يملكونها . وأدى هذا العمل بعينه، وقد جردهم من وسائل انتاج قوتهم، تكوين ملكية رؤوس أموال كبيرة . وهكذا وجد الناس انفسهم وقد انشقوا الى فريقين : فريق جرد من كل ما يملك عدا قوة العمل ، وآخر تجمعت لديه ثروة معدة لاستغلال قوة العمل تلك . ولكن ما الذي حصل في الواقع؟ ان بروليتارية روما لم تتحول الى عمال أجراء بل تحولت الى جموع من الرعاع العاطلين في حال من القنوط والمذلة اشد مما يعاني منه المعدمون البيض في جنوب الولايات المتحدة . وقام على الاثر نمط من الانتاج لم يكن رأسماليا بل اعتمد الرق . وهكذا تجري أحداث متماثلة تماما لكنها تقع في ظروف تاريخية متفاوتة فتؤدي الى نتائج تختلف الاختلاف كله . ولو درس المرء أمثال هذه الانماط من الاحداث كلا على حدة وقارن بينها ، لكشف بيسر اللغز الذي تنطوي عليه . لكن الحقيقة لا تتكشف له قط اذا اعتمد نظرية تاريخية فلسفية عامة وكأنها مفتاح لكل الأقفال وليس فيها ما تمتاز به سوى اغفالها التاريخ وفارق الزمن» (٤٤) .

ولما كان من جملة خصائص الماركسية ان الهدف فيها يتقرر بالنسبة للواقع وطبيعته ، وبوجه خاص ، بالنسبة للعوامل المادية في هذا الواقع ، فقد اصبح ضبط مضمون الهدف وفحواه وحدوده في واقع معين امرا ممكنا . وبهذا المعنى جاء قول ماركس في رسالته المشار اليها اعلاه «ان الملكية الرأسمالية التي تستند في واقعها الى نمط من الانتاج الجماعي ليس امامها الا ان تتحول الى ملكية اشتراكية (جماعية)» ، او بعبارة اخرى ، ان الانتاج الراسمالي الذي لم يعد انتاجا فرديا وأصبح مرتبطا بضرورات المجتمع وامكاناته المادية اي انه اصبح انتاجا ذا طبيعة جماعية بينما بقيت ملكية وسائله غير جماعية ، ليس أمامه الا ان تتحول فيه ملكية هذه الوسائل الى ملكية جماعية (اشتراكية) .

وكان من جملة ما استعان به ماركس في بناء الفكر الماركسي ، تكوينه مفهوما للمعرفة استخلصه في الاصل من آراء الفيلسوف سبينوزا الذي كان اول من قال بضرورة التمييز بين الشيء وصورته في الذهن . ويقول «التوزه» ان ماركس ما كان ليصل الى ما وصل اليه لولا آراء سبينوزا هذه التي هيأت له ان ينشيء نظرية في التاريخ وفلسفة تميز بين الايديولوجية والعلم ارشدته الى مفهوم جديد للمعرفة يختلف عن مفهومها المألوف ، لم يعد يكفي فيه ما تعكسه المرئيات في الذهن وما يهيئه الدرس ، وانما اصبحت المعرفة بمقتضاه عملية تكوين وحصيلة مجهود (٤٥) .

وكان سبينوزا قد حذر من الخلط بين صورة الشيء في الذهن وبين الشيء

في حقيقته وقال على سبيل الايضاح ، بضرورة التمييز مثلا ، بين فكرة الدائرة او صورتها في الذهن وبين الدائرة في حقيقتها (٤٦) وأورد لتأكيد رأيه هذا مثله من «ان الصورة الذهنية للكلب لا تنبح» (٤٧) . وعالج ماركس موضوع المعرفة في ضوء آراء سبينوزا هذه في مقدمة طبعة ١٨٥٧ لكتاب «رأس المال» معرضا بما ذهب اليه هيغل من الخلط بين الشيء في حقيقته وبين صورته الذهنية مؤكدا الفرق بين الشيء في واقعه العيني والكلي بوجوده المستقل خارج الطبيعة وبين المعرفة به التي تتخذ صورة ذهنية تلازم الفكر .

لكن ماركس ما لبث ان تجاوز سبينوزا بأن ذهب الى ان الفرق بين الشيء في حقيقته وبين صورته الذهنية يمتد الى عملية تكوّن كل منهما ، ففيما تخضع عملية تكون الشيء لاحكام الوجود في الواقع التاريخي ، تخضع عملية تكوّن المعرفة به لنظام مختلف هو نظام المعايير والمقولات الفكرية . وعلى هذا ، نشأ للمعرفة في الماركسية مفهوم لم يعد يعتمد ، كما كان الامر قبل ذلك ، على مجرد الانعكاس في الذهن وعلى التلقي مما يجعل المعرفة ذاتية انفعالية ، بل اصبحت المعرفة بهذا المفهوم ، حصيلة تفاعل بين الفكر والشيء تتأثر بالمتغيرات في عالم الوجود وبالانسان ذاته فترتبط بسعة أفق تطلعاته وزيادة قدراته .

وطبّق ماركس في دراسة المجتمع البورجوازي ، كما حدده في عصره ، طريقة ذات اتجاهين متعاكسين ؛ فعمد في الاتجاه الاول الى دراسته تاريخيا بالمفهوم الهيغلي بمتابعة نشوئه وصيرورته وتطوره في مراحل متعاقبة ومتلازمة ، كل مرحلة تعين طبيعة وخصائص المرحلة التي تليها وتعد سبل ووسائل الانتقال اليها. وعمد في الاتجاه الآخر الى البدء بواقعه الذي انتهى اليه بمعزل عن نشوئه وصيرورته وتحليل مقوماته في نطاق تأثيرها وتأثرها بعضها ببعض ، متخذا المقومات الاقتصادية اساسا لتحليله .

والفرق بين الدراستين ان الاولى ، التاريخية ، تتناول الماضي وتعتمد التصور، فهي دراسة فلسفية ايديولوجية ، غاية ما يتيسر لنا فيها سبر غور الماضي بمزيد من الدقة في التصور ، بتعليل الكيفية التي جرت بها أحداثه وتقدير مسبباتها . فهي بهذا لا تتجاوز حدود التخمين ولا تخلو من شوائب الغموض والتشويه وتكون بطبيعتها معرضة للمؤثرات الخارجية وعلى الاخص ، مؤثرات الاوضاع القائمة التي تفرض عليها طابعها بحيث لا يتسنى فيها النظر الى الماضي الا من خلال الحاضر وفي ضوئه وبمقاييسه فضلا عن تأثرها بالمسلمات الموروثة من مراحل وعهود سابقة كالمعتقدات والتقاليد التي فرضتها ظروف معينة وتقبلها الناس بحكم العادة فبقي مفعولها برغم فوات زمانها واكتسبت بدوام التسليم بها مزيدا من الثبوت جعلها بمنزلة الحقيقة التي لا يأتيها الشك ولا يجرأ احد على التعرض لها خشية ان يناله الأذى حتى وقف العقل تجاهها وكأنه أصيب بالشلل . ورغم ذلك كله ، اعتبرت هذه الدراسة ضرورية لانها تضع مؤشرات وتحدد معالم اوليات المعرفة وتعد الموضوع للتحقيق والتدقيق فتيسر بصورة من الصور التقدم الى ادراك الحقيقة.

اما الاخرى التي تبدأ على عكس الاولى ولكنها تكون مكملة لها وتبدأ بدراسة الواقع كما هو ، فتتبع في دراستها الطريقة العلمية بمفهوم العلم في الموضوعات الاجتماعية للتأكد من درجة قرب تصورات الدراسة الاولى او بعدها عن الحقيقة . فهي تبدأ بالحاضر لتفهم الماضي تماما كما يفعل علماء التشريح عندما يتخذون من تركيب بدن الانسان وهيكله العظمي ـ كما يقول ماركس ـ مفتاحا لمعرفة بنية القرد (٤٨) ، او كما يفعلون ليستدلوا بجزء من هيكل حيوان منقرض على كامل هيكله . ومع ان التصورات التاريخية لا تخضع للتجربة ليتولاها العلم ولا يمكن بها تصور وضع تاريخي يجري باتجاه معاكس من الحاضر الى الماضي وبمعزل عن اوضاعه الزمنية وتبادله التأثير مع العوامل الاقتصادية والسياسية والفكرية والدينية التي لازمته ، فقد يمكن للحاضر ، برغم هذه الممتنعات ، وبشروط معينة، ان يلقي ضوءا على اوضاع الماضي باعتبار واحد على الاقل ، هو ارتباطه به ارتباط النتيجة بالسبب . وبحكم هذه الصلة يمكن الركون الى الحاضر والاستعانة به لفهم الماضي لاسيما واننا انما نريد فهم الماضي لغرض كشف خفايا الحاضر وزيادة معرفتنا به لا غير .

ويقول ماركس ان فهم التطور التاريخي يعتمد على الكيفية التي يعالج بها الوضع الراهن الاوضاع التي سبقته على انها مراحل أدت الى وجوده . ولكن نادرا ما ينظر الحاضر الى الماضي نظرة خالية من التأثر بظروفه الخاصة الا اذا قام فيه مجال متسع وحر للنقد الذاتي . ولهذا عجز اقتصاديو البورجوازية عن تفهم اقتصاديات الاقطاع والعهود القديمة والشرقية الى ان اتسع لهم مجال هذا النقد . وكل محاولة لفهم الحاضر بالرجوع الى الماضي على اساس ان الحاضر حصيلته لا تكون مجدية الا بمقدار تحررها من تأثيرات الحاضر وانفعالاته باتساع مجال النقد ، فبذلك فقط يتيسر الكشف عن مكنوناته وتكون عملية المعرفة عملية علمية ، والا فان الامور اذا اخذت بظواهرها والاوضاع بما تزعمه لنفسها ، فامتنع كشف حقيقتها فان محاولات العلم تكون عبث محض لا طائلة فيه (٤٩) . ولا نلبث عندئذ ان نجد اننا لم نتجاوز في المعرفة حدود الفرضيات . والفرضيات في علوم الطبيعة يمكن التأكد من نسبة الصواب فيها بالتجربة والتطبيق كما في الكيمياء عندما نتحقق من تكوّن الماء من عنصري الاكسجين والهيدروجين بتحليله ثم باعادة تركيبه . لكن مثل هذه العملية ممتنعة في علوم الاجتماع . فكيف اذاً ، يمكن التأكد من مطابقة النظرية لحقائق الواقع ؟ أيمكن الاخذ مثلا ، بمفهوم فلسفة الذرائع من ان التجربة خير برهان فتقبل نتيجة التجربة التي سلم الناس بصحتها دليلا على صحة النظرية ؟ لكننا نعلم علم اليقين ان الانسانية سبق لها ان سلمت بنتائج كثير من التجارب وأيقنت بصحتها من جراء تكرارها في مدى مئات وألوف من السنين ثم ثبت خطؤها بعد ذلك كله . واذا لم يكن بد من التسليم بصحة ما اثبتت هذه التجارب صحته ولم نجد دليلا أثبت منه فلتكن لهذه التجربة شروط تجعلنا اكثر اطمئنانا لسلامتها ووثوقا من صحتها . وعينت الماركسية للتجربة «العلمية» مثل هذه الشروط ، منها : تحديد موضوع التجربة وتعيين الغرض منها مقدما ؛ ودعم

تطبيقها بنظرية استوفت الاوليات المطلوبة فيها بتحليلها وفق قواعد المادية الديالكتية ؛ وثباتها في مواجهة النقد والتحقيق العلمي ؛ وأخيرا ، اجتيازها امتحان الممارسة والتطبيق بالطريقة الخاصة بالماركسية التي تختلف عن الطريقة التقليدية التي تعتمد المشاهدة والتأمل فحسب ، بينما طريقة الماركسية تكاد تكون طريقة تقنية تعتمد الفعل ورد الفعل وتستبعد كل ما يأتي بطريق التلقي او عرضا وبطريق المصادفة ولا يستند الى سابق قصد او تعميم وتخطيط . فليس يكفي في الماركسية ان يتصدى الفكر للواقع عن طريق الممارسة والتطبيق فحسب بل يقتضي في الوقت عينه ان يتصدى الواقع من جانبه الى الفكر ليثبت وجوده بما يوحيه الى الفكر وان يتفاعلا تفاعلا يحول النظرية الى قوة فاعلة تستند الى وعي وارادة والى نزعة الى التغيير فلا تعود تعبر عن الجانب الهامد في الواقع ، الجانب الذي فات أوانه وانتفت الضرورة اليه وتحول الى عبء على الحياة والى عائق يمنع تقدمها ، بل ان تعبر عن الجانب الحي النامي الذي يعنى بالحياة ويدفعها الى أمام ويجعل من النظرية اداة فعالة في الحث على مواصلة التغيير الثوري الذي يعالج الواقع معالجة جذرية (٥٠) .

وقديما شبّه فلاسفة الاغريق حياة المجتمع بالنهر الجاري، ثابت بطوله وعرضه ومجراه ، لكنه متغير دوما ، كل قطرة تأتي اليه تغيره من منبعه الى مصبه ، هو في كل لحظة غير ما كان عليه قبل لحظة ، هو موجود فعلا لكن وجوده في تغيره . هذا التغير المتواصل هو جوهر الحقيقة في الماركسية وغاية ما تنشد المعرفة متابعته . هو تغيير لا يغير الاشياء فحسب وانما يغير الانسان الذي يغير الاشياء في الوقت عينه . والمعرفة في الماركسية بهذا الاعتبار ، معرفة حية وثورية لانها دائمة النمو، دائمة التغير ، ديالكتية وكلية ومتماسكة تمتزج فيها الايديولوجية بالعلم وبالممارسة والتطبيق امتزاجا لا انفصام له .

٥ ـ ظروف المانيا ومنشأ الفكر الماركسي

وعندما نعود الى ماركس وانجلز لنتحرى عن السبب الذي قادهما الى الماركسية ، نجد ان هذا السبب يتصل بالمسألة التي شغلت بال جيلهما من المثقفين ، مسألة تخلّف الامة الالمانية عن الامتين اللتين برزتا في اوربا الغربية، الامة الانكليزية التي احرزت قصب السبق بثورتها الصناعية ، والامة الفرنسية التي هزت بثورتها الكبرى قارة اوربا وأيقظت شعوبها . فجيل ماركس وانجلز الذي استثيرت عزته القومية بأحداث الثورة الفرنسية وحروب نابليون ولم يجد في واقعه ما يقابل انجاز الامتين ، الانكليزية والفرنسية ، غير ما احرزه الفكر الالماني في ميدان الفلسفة ، حاول اقناع نفسه بأن المانيا رغم تخلفها عن تلكما الامتين تاريخيا فقد تجاوزتهما في ميدان الفلسفة «فأحرزت في عالم الفكر» كما قال

ماركس «ما احرزتاه في الواقع» فقد ملكت بسلاح «النقد» الذي بلغ الأوج في فلسفة هيغل ، القدرة على كشف اسرار المشاكل الاجتماعية وايجاد الحلول النظرية لها وهي لهذا لا تلبث ان تجد سبيلها لان تطبق بالفعل ما حققته بالفكر فتفجر ثورة لا تظفر بها بمن تقدمها فحسب ، بل تتجاوزه فتكون في الطليعة . ولم تكن الماركسية الا ثمرة المسعى لتحقيق هذا الامل (٥١) . وهكذا ترتب على هذا الجيل الذي ورث عمالقة الفكر الالماني ، أمثال كانت وفيخته وهيغل ، ان يحول الشعور بالتخلف الى حافز لاختراق السبيل الذي يوصل الامة الالمانية الى غايتها .

وتطلع جيل ماركس في البداية ، الى البورجوازية الالمانية عسى ان تقدم على تأدية مهمتها التاريخية كما فعلت البورجوازية في انكلترة وفرنسا ، لكنه وجدها عاجزة متقاعسة رجحت المذلة على الإقدام فانصرف عنها . واذ يَئِس ماركس من هذه البورجوازية بعد ان جربها اثناء توليه رئاسة تحرير الجريدة الراينية في كولون وهي لسان حالها ، فخذلته ؛ وجربها في طليعتها اليسار الهيغلي فوجده يلجأ الى المناقشات اللاهوتية غير المجدية تهربا من التصدي للمشاكل الحياتية في عالم الواقع . وايقن ان هذه البورجوازية لا هي كالانكليزية استطاعت ان تغري النبلاء بالمناصب والمكاسب فتجندهم لخدمتها وتسخرهم في ادارة اعمالها وبسط سلطانها ، ولا هي كالفرنسية واجهت النبلاء والاقطاعيين وقد هدهم الفساد فأطاحت بهم وانتزعت السلطة منهم ، وانما هي بورجوازية متخاذلة غلبتها الضعة والمسكنة فقنعت بفتات موائد البيروقراطية العسكرية المتعجرفة ورجحت الخنوع على التصدي . فراح يتطلع الى عنصر آخر مؤهل لأداء هذه المهمة وما لبث ان وجده «في طبقة مثقلة بالاغلال ، هي جزء من المجتمع لكنه ليس في عداد طبقاته لانه ليس الا نفاية كل الطبقات . وهي طرف من المجتمع لكنه طرف يحمل سمة الشمول لانه يعاني شقاء شاملا ، ولا يطالب بحق لانه لا يفتقد حقا بعينه بل يفتقد الحق كله ؛ ولا سبيل له للخلاص من محنته الا ان يفتدي حريته بأن يستعيد للاطراف الاخرى كلها حريتها كاملة .... هو بكلمة اخرى ، ضياع للانسان تام وليس من سبيل له لاسترداد انسانيته الا ان يسترد للانسانية كلها حقيقتها» (٥٢) . وتلك هي البروليتاريا التي لا مجال لها لان تحرر نفسها على حساب طبقة دونها ، كما فعلت قبلها الطبقات الاخرى ، لانها في أسفل الطبقات كلها ولا مجال لها لبلوغ حريتها الا ان ترفع على كاهلها كل من علاها فتحرره بالغاء الطبقات والغاء وجودها. وعندئذ فقط ينتفي كل تمييز بين الافراد والشعوب والامم ويكون الناس سواسية ، لا قوي ولا ضعيف ولا غالب ومغلوب ولا متقدم ومتخلف ، ويتحول التعارض الذي يواجه الناس فيه بعضهم بعضا ، كأفراد وشعوب وامم ، الى وفاق فيما بينهم لمواجهة قوى الطبيعة وتسخيرها لما فيه خيرهم اجمعين ، فتبلغ الانسانية غايتها وتجد المسألة التي شغلت باله وبال جيله حلها .

ومفهوم البروليتاريا هذا ، هو من مبتكرات ماركس ، توصل اليه بالمادية الديالكتية وله في الماركسية اهمية اساسية ، لا من حيث كشف ما تعانيه الانسانية متمثلة بالبروليتاريا من جور وحرمان ، ولا من حيث ما ينطوي عليه

نظام الانتاج الرأسمالي من استغلال ، وانما لانه فوق هذا كله ، يجسد السلب الكامل الذي بنى عليهماركس نظريته على اساس ان السلب الكامل هو وحده المؤهل لتحقيق الايجاب الكامل . فالبروليتاريا بسبب افتقادها من دون كل الطبقات الاخرى كل ميزات الانسانية ، فانها لهذا لا تستطيع ان تستعيد انسانيتها الا بتحقيق الايجاب الكامل . اي انها وهي تمثل السلب التام ملزمة بحكم الضرورة ان تحول هذا السلب التام المتمثل بها الى ايجاب تام ، وهو امر لا يمكنها تحقيقه قبل ان تدفع اليه كل الطبقات التي تسبقها في السلم الاجتماعي ، فما لم تحققه للطبقات كلها او بالاحرى للمجتمع بكامله لا يمكنها ان تحققه لنفسها (٥٢) .

وللسلب في الديالكتية اهمية لا تقل عن اهمية «التغيير» . اذ لا يمكن دون ادراك مفهوم عامل «السلب» فهم المادية الديالكتية او المادية التاريخية ولا يمكن بالتالي فهم الماركسية . فالسلب في الديالكتية هو البدء وهو الاصل . فالوجود يبدأ عندها بالعدم ، والشيء لا يكون الا ان ينقض اللاشيء فيصير نقيضه اي يصير شيئا ؛ كما يصير العدل من الظلم والصحة من المرض والوفرة من الحاجة . والسلب في الديالكتية اذاً ، هو عنصرها الخلاق ، فيه تكمن روح الثورة لانه لا يستقر له حال الا ان يحقق الايجاب . اما الايجاب فهو السلب الذي تحول فكمل وصار الى نهايته .

وقال ماركس ان البروليتاريا لا يمكن ان تستغني عن الفلسفة اذ لا بد لها من نظرية ترشدها وتعينها في بلوغ غايتها . لكن الفلسفة ما ان توصل البروليتاريا الى غايتها حتى تنتهي (٥٤) . ولا يعني ذلك ان الانسانية تكون عندئذ في غنى عن المعرفة والحكمة بل يعني ان الفلسفة تصبح موضوعاتها في عداد البدهيات المشاعة فتنتفي خصوصيتها . وليس من ريب ان مجتمعا تكون فيه المعرفة والحكمة مشاعة خيروأرقى من مجتمع تكون فيه وقفا على فئة خاصة . ومثل هذا ايضا مصير البروليتاريا نفسها ، فهي لا تكاد تبلغ غايتها حتى تنتفي خصوصيتها او بالاحرى ينتفي وجودها بالغاء الطبقات وانتفاء الاستغلال والمعاناة .

وعلى هذا المنوال ، عالج ماركس موضوع البورجوازية . فقد نشأت بوصفها سلبا مناقضا للاقطاع وكانت في خلال تحقيق وجودها واستكماله قوة ثورية اخرجت الانسانية من القرون المظلمة وحررت الفرد وأقامت حضارة العصر بما انجزته من تقدم فيالفلسفة والعلوم والفنون والصناعة والتقنية والعمران والتشريع وفي معايير الاخلاق والمثل العليا . ولكنها لما بلغت غايتها واستكملت وجودها تحولت من قوة ثورية بناءة الى عائق يحول دون مواصلة الحياة الانسانية تقدمها فلم تعد تريد التغير بل تعمل جاهدة على ابقاء الاوضاع على ما هي عليه لان فيها مصلحتها ودوام انتفاعها . واستثنى ماركس من هذه القاعدة البروليتاريا بوصفها تمثل السلب الكامل، فليس هنالك دونها طبقة تستطيع ان تبني وجودها باستغلالها وليس هنالك نقيض تلغيه غير وجودها ذاته . والبروليتاريا بالغائها وجودها تلغي الاستغلال ووسيلته الرئيسية ، الملكية الخاصة، وتحرر نفسها وتحرر الطبقات كلها

وتحقق انتقال المجتمع الى حال تتغير فيه أصول الحياة تغيرا جذريا وتتبدل فيه كل معاييرها . وبهذا الاعتبار قال ماركس ان الانسانية تبدأ تاريخها بزوال الملكية وقيام الاشتراكية .

وتوصل ماركس ، كما نرى ، الى مفهوم البروليتاريا بطريق المادية الديالكتية قبل ان يكون اشتراكيا . فلما درس الاقتصاد ووقف على طبيعة نظام الانتاج الرأسمالي تبين الصلة بين وجود البروليتاريا وهذا النظام اذ وجده يفرز البروليتاريا بطبيعته ويدفع اليها كل الطبقات الاخرى لتنصهر وتتحول اليها، بينما يسوق الرأسمالية الى الاستقطاب في فئة متناقصة حتى يبلغ التناقض بينهما والتفاوت بين وجودهما الحد الذي يصبح التحول الى الاشتراكية امرا ضروريا وفي حكم الواقع (٥٥) .

وعلى هذه الصورة ، في خطوط عريضة ، صوّر ماركس وانجلز في البيان الشيوعي فيما بعد ، عملية التحول الى الاشتراكية والشيوعية ، وصوّرها ماركس بعد ذلك بالتفصيل في كتاب «رأس المال» .

٦ ـ الماركسية وثورة ١٨٤٨

ومع ان ماركس وانجلز لم يفتهما ان ما صوراه في البيان الشيوعي لم يكن غير مخطط نظري يرسم المؤشرات التقديرية لعملية التحول الى الاشتراكية والشيوعية على المدى البعيد وان الاحداث التاريخية لا تخلو في واقعها من تعقيدات وملابسات لا يمكن حصرها او اخذها بالحسبان بحيث يتعذر التكهن بتفاصيل ما قد تنتهي اليه مباشرة وما يترتب عليها من نتائج آنية ، غير ان شدة رغبتهما في ان يشهدا التحول الى الاشتراكية يتم على عجل تخيلا الامر وشيكا وراحا يلمحان بوادره في مجرى الاحداث ويستبقان اليه الزمن . وبهذا الاحساس استقبلا أحداث ثورة ١٨٤٨ وتراءت لهما انها بداية النهاية للنظام الرأسمالي الذي اصبح زواله قاب قوسين او ادنى . لكن هذه الثورة ما لبثت ان انقلبت الى ما بدا لهما وكأنها ردة تجتاح اوربا وكشفت لهما أمورا اثارت حيرتهما . فقد اتخذت في كل بلد من بلدان غرب اوربا اتجاها خاصا، بينما افترضا ان الاحداث في نظريتهما تنصب في اتجاه واحد ؛ فقد تولت على خلاف المتوقع ، رعاية الرأسمالية الصناعية وحققت رفاها اقتصاديا لا سابقة له ، واتجهت نحو تحقيق الوحدة القومية في ايطاليا والمانيا وخففت من عناء العمال ، بحيث بدت وكأنها تكفلت عملية التطور وانجاز مهمات الثورة برغم انها اخمدت الحركة الثورية (٥٦) . حتى ان ماركس وانجلز ما لبثا ، بحلول صيف ١٨٥٠ ، ان اقتنعا ان الثورة لفظت انفاسها الاخيرة وانهما يخوضان معركة خاسرة . لكن هذه التجربة كشفت لهما عن حقيقة جديدة هي الصلة الوثيقة بين المد الثوري والازمات الاقتصادية . فقررا ، وهما يشهدان الرفاه يغمر غرب اوربا ، ان يتريثا ويحولا نشاطهما ناحية اخرى ريثما تحل بوادر الازمة الاقتصادية

القادمة . ولعلهما ادركا لاول مرة خطأهما في تصور قرب زوال النظام الرأسمالي وأدركا انه ما يزال في عنفوانه وتبينا الفارق الجسيم بين الصورة التي رسماها في البيان الشيوعي عن تنامي البروليتاريا وتصاعد قوتها وحماستها الى التغيير بتفاقم ما تعاني وبين ما صارت اليه هذه البروليتاريا من تفكك وتبلد وانطواء على شؤونها الخاصة وقد بدت وكأنها قنعت بما تحقق لها في حياتها ، ولم يجدا خيرا من مراجعة موقفهما وتحليل الاحداث في ضوء ما انتهت اليه وكشفت عنه (٥٧) .

وكان ماركس قد اوقف دراساته الاقتصادية عندما بلغته اخبار اندلاع ثورة ١٨٤٨ في فرنسا وغادر مقره في لندن قاصدا المانيا ، فلما انتهى الامر الى هذه النتيجة عاد الى انكلترة واستأنف دراساته التي كانت حصيلتها ثلاثة اعمال في غاية الاهمية هي «المسودات الاساسية» (٥٨) و«اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» وكتاب «رأس المال» .

وكان من اهم ما جادت به هذه الفترة الى جانب ذلك ، وقد امتدت حتى نهاية الستينات من القرن الماضي ، تصحيح نظرتهما العجلى السابقة والتوصل الى تعديلات على جانب عظيم من الاهمية وابرازهما مشاكل شخصا ملامحها ولكنهما لم يتيسر لهما ايجاد الحلول لها فتركاها الى من اعقبهما . وجاء مجمل مراجعتهما هذه في صورة نقد ذاتي هو اول نقد ذاتي بعد اتخاذهما الاتجاه الاشتراكي ؛ ولعله اعظم اهمية من نقدهما الذي صفيا به حسابهما مع ماضيهما المثالي في الايديولوجية الالمانية بعد توصل ماركس الى المادية التاريخية . وقد ظهر هذا النقد في تحليل للاوضاع التي اعقبت ثورة ١٨٤٨ في المانيا وفرنسا وانكلترة تضمنته سلسلة من المقالات نشراها في جريدة «الراين الجديدة» (٥٩) وفي «الديلي تربيون النيويوركية» وفي «لو بريس» (٦٠) النمساوية ، وفيها تجاوزت اهتماماتهما نطاق اوربا الغربية الى شؤون اوربا والعالم . وظهرت جوانب من هذا النقد ايضا ، في مراسلاتهما وردودهما على استفسارات المعنيين بآرائهما وهي ذات اهمية خاصة لان الكثير منها تناول تصحيح آراء سابقة او تصحيح مفاهيم القراء عنها .

وأشار انجلز الى موقفهما خلال هذه الفترة التي اعقبت ثورة ١٨٤٨ فقال : «اثبتت الوقائع اننا ... كنا على خطأ ودللت بالفعل على ان وجهة نظرنا يومئذ غلب فيها الوهم ، بل تجاوز الامر ذلك ، فلم تبدد الوقائع الانطباعات الخاطئة التي انزلقنا فيها بل كشفت ايضا ان الظروف التي واجهت البروليتاريا في صراعها تغيرت تغيرا اساسيا عما قدرناه» (٦١) . وقال «كنا وجميع من رأى رأينا على خطأ. فقد ثبت ان واقع التقدم الاقتصادي في القارة كان بعيدا عما قدّر ان ينتهي اليه نظام الانتاج الرأسمالي كما اظهر ذلك التطور الاقتصادي الذي جرى بعد ١٨٤٨ في فرنسا والنمسا والمجر وبولونيا وأخيرا في بروسيا . وقد تحولت المانيا في هذه الفترة الى بلد صناعي من الدرجة الاولى . وتحقق ذلك كله بطريق الرأسمالية التي اثبتت انها ما تزال تمتلك طاقة عظيمة على النمو .... حتى لقد بدا الامر وكأن دور الثورة من القاعدة قد استبعد الى حين وحل محله دور الثورة من الاعلى» (٦٢) .

وكان ماركس وانجلز ، في القسم الاخير من البيان الشيوعي ، قد عللا تخلف المانيا بما عبر عنه ماركس بـ «التطور المتفاوت» (٦٣) الذي بنى عليه بليخانوف فيما بعد نظريته التي مؤداها ان الامم تنتابها في خلال تطورها فترات ركود تقعدها عن اللحاق بقريناتها ؛ وهو ما حصل لالمانيا عندما اعترضت تطورها فترة حرب الثلاثين سنة في أعقاب حركة الاصلاح الديني في القرن السابع عشر ، فحالت دون نشوء بورجوازية مالية وتجارية كتلك التي نشأت في انكلترة وفرنسا فمكنتهما من تصفية الانظمة القديمة وجمع شتاتهما في وحدة قومية . على ان الامم التي يصيبها التخلف على هذه الصورة ، لا تلبث عندما تستأنف حركة تطورها ، ان تعوض عما فاتها بطريق ما يقوم بينها وبين الامم التي تقدمتها من علاقات ، فتأخذ عنها احدث ما توصلت اليه من اسباب الحضارة ، وهو ما فعلته المانيا عندما اخذت عن انكلترة وفرنسا ، في خلال القرن التاسع عشر ، احدث ما كان لديهما من وسائل الانتاج وعدده وطوّرته . وعلى هذا الاساس افترض ماركس ان من شأن التقدم السريع الذي يعقب فترة التخلف هذه ان يخلق بروليتاريا متقدمة وواعية تطابق حركة التقدم السريع فتحاول ان تختزل المرحلة البورجوازية وتعجل عملية تحقيق الاشتراكية . وتجنبا لما قد يحدث من قيام الصراع بين هذه البروليتاريا والبورجوازية قبل أوانه ، وضع ماركس نهجا خاصا لتتبعه البروليتاريا في هذه الحالة وفيه رجح لها ان تؤيد البورجوازية في صراعها مع الاقطاع او مع الحكم المطلق ولا تتخذ منها موقفا معارضا الا بعد ان تتم تصفية الانظمة الرجعية .

لكن الذي افترضه ماركس في تصوره هذا ، لم يجر في المانيا كما افترض بل جرى العكس ، كما اوضحه في مقاله «البورجوازية والثورة المضادة» ، اذ لم تلبث البورجوازية ان اعتراها الرعب من البروليتاريا فارتدّت ورجحت الوقوف الى جانب الرجعية . وكان من جراء ذلك ان تحول ماركس الى رأي سبق له ان عارضه وهو ان البورجوازية الالمانية في ظروفها الراهنة لن تبلغ السلطة وان على البروليتاريا في هذه الحالة ان تتولى بنفسها مهمة مقارعة الحكم المطلق وانتزاع السلطة منه . ومن هذا تولدت لديه فكرة الضرورة الى ان يكون للبروليتاريا كيان سياسي خاص بها مهما كان الظرف التي تواجهه ، تحسبا لاحتمال إحجام البورجوازية عن أداء مهمتها التاريخية او ارتدادها (٦٤) .

وكل هذه المسائل التي بنيت على تجارب الفترة التي اعقبت ثورة ١٨٤٨ ، سواء ما تعلق منها بالتطور المتفاوت او بمساندة الحركات الاقل رجعية في مواجهة الحركات الاكثر رجعية او مسألة عجز البورجوازية في ظروف خاصة من تأدية مهمتها التاريخية وقيام البروليتاريا به او ان يكون للبروليتاريا في جميع الظروف كيانها الخاص ونهجها الخاص ، هي من تراث الفكر الماركسي في مرحلته الاولى ، تسترشد به المراحل اللاحقة وتكيف منه ما تراه ملائما لظروفها الخاصة وتطوره في سياق تطبيقه وقد استفاد لينين من هذا التراث فائدة كبرى .

ولتحليل ماركس وضع فرنسا في الفترة التي اعقبت ثورة ١٨٤٨ اهمية خاصة في تاريخ الفكر الماركسي . لانه ، كما قال انجلز «تضمّن اول محاولة

لتطبيق التفسير المادي للتاريخ على أحداث التاريخ المعاصر» (٦٥) . وفيه تبين ماركس قضايا لم يسبق ان تبينها من قبل ، فقد ظهر له ان السلطة في فرنسا لم تكن تمثل طبقة بعينها رغم هيمنتها على المجتمع وفرض مشيئتها على الطبقات كلها . وكان هو وانجلز قد افترضا ان التحول الى الاشتراكية يأتي في أعقاب استقطاب البورجوازية في قلة تواجه بروليتاريا متنامية في وعيها وبزخم انصهرت فيه كل الطبقات ، كما افترض ان الآراء والتقاليد السائدة في المجتمع البورجوازي يتلاشى تأثيرها بحكم التبدلات الجارية فيه بعد ان يتبين جمهوره حقيقة الاوضاع فلا يعود يؤخذ بالاوهام او تنطلي عليه مزاعم الحكام بأنهم يعملون لمصلحته وهم في واقع الامر لا يسعون الا وراء مصالحهم الخاصة ؛ واذا بهما يجدان الذين برزوا على مسرح السياسة وقبضوا على السلطة ، نفر من الشذاذ لا يمثلون اية طبقة وقد استطاعوا ان يخدعوا الجمهور ويمارسون باسمه سلطة مطلقة دون رقيب . ولم يجد ماركس لتعليل هذه الظاهرة سبيلا غير الرجوع الى اساليب الانتاج في فرنسا فاذا به يجدها لا تزال في مجملها باقية في نطاق الانتاج الزراعي والحرفي لم تأخذ بعد بالانتاج الصناعي الا في نطاق محدود ، مما أدى الى ركود التطور الطبقي وبقاء الطبقات في شتات غير متماسك وجعل السلطة تتشخص في كتلة ليس لها طابع طبقي خاص وجعل البورجوازية يستبد بها الرعب من البروليتاريا فتلوذ بالحكم المطلق . واتضح له ان الذي ساعد نابليون الثالث على الانفراد بالسلطة ، اعتماده بصورة رئيسية على صغار الفلاحين الذين من شأنهم ان لا يكون لهم أثر فعلي في مركز السلطة بحكم عزلتهم وتشتتهم وانقطاعهم في قسمة الريف مما يسر لمن يتولى السلطة استنادا اليهم ان يصير بيسر حاكما بأمره . واستخلص من ذلك امكان قيام جهاز للسلطة مستقل عن التكوين الطبقي بحيث لا تعود تكفي الغلبة في معركة الصراع الطبقي للفوز بالسلطة بل يستلزم الامر ان يرافق الفوز بها إقدام على «تهشيم» جهاز الحكم السابق برمته واستبداله بجهاز جديد مرتبط بالتكوين الطبقي التي آلت اليه الغلبة .

وتعذر على ماركس ، في فترة مكوثه في انكلترة بعد ثورة ١٨٤٨ ، معتزلا الحياة العامة منصرفا الى دراساته ومنقطعا عن ممارسة النشاط السياسي ، ان يتفهم طبيعة المجتمع البريطاني وخصائصه ، لاسيما وانه نظر اليه من خلال تجاربه في المجتمع القاري بينما تباينت ظواهر الحياة فيه عما هي عليه في القارة. من ذلك مثلا ، ان مجتمعات غرب اوربا تمثلت السلطة فيها ببيروقراطية مزخرفة تسندها قوى عسكرية ضخمة في حين كانت بريطانيا خالية من جيش عامل ومن بيروقراطية متظاهرة ولم تبدُ فيها اجهزة الدولة وهي تشغل مكانة شاخصة تعترض المواطن في كل منعطف من منعطفات حياته اليومية . وبينما تولت البورجوازية في القارة قيادة الحركة الثورية وتصدرت الحياة السياسية ، ابقت البورجوازية الانكليزية الفئة الحاكمة القديمة تمثل السلطة على مسرح الحياة العامة واكتفت هي بتدبر الامور وفقا لمقتضيات مصلحتها من وراء ستار . وكان لهذا

التباين اسبابه التاريخية التي تعذر ادراكها وتقدير مدى تأثيرها يومئذ وهي دون مستوى الرؤية . فقد فرضت البورجوازية في القارة وجودها وسيطرتها عبر صراع دموي انتزعت به السلطة من النظام القديم بالعنف في حين استطاعت البورجوازية الانكليزية ان تبلغ ما تبتغي بسبيل آخر . فقد هيأت لها ظروفها الخاصة ان تبدأ بأخذ سبيل البحر فراحت تعترض السفن التي كانت تحمل الى القارة ما سلبته من مواد وثروة من بلدان العالم الجديد ومن الشرق ، فتسلبها. وتنامت قوتها البحرية وخبرتها بطريق هذه القرصنة حتى سيطرت على البحار وفرضت ارادتها على البلاد فيما وراءها واصبح رهن تصرفها ثروة طائلة استطاعت بها ان تتغلغل في مركز السلطة في موطنها وتجعل الملك والبرلمان وأجهزة الحكم كلها رهن ارادتها دون ان تضطر الى اللجوء الى العنف ولم تجد حاجة بتجريد الطبقة العليا من املاكها وامتيازاتها بعد ان صارت في خدمتها طوعا ، بل فعلت العكس بأن بسطت أمام الارستقراطية سوح العالم لتشبع نهمها الى الجاه والسلطان .

ومثلما استطاعت البورجوازية الانكليزية ان تطوق النظام القديم بسلاسل من الحديد وتسخّره في خدمتها وتتجنب العنف في صراعها الطبقي ضد الاقطاع والنبلاء ، استطاعت بطريقة اخرى ان تتجنب الصراع الحاد مع الطبقة العاملة . فقد هيأ لها السبق في انفرادها بالسيطرة على اسواق العالم ومواده الخام ان تضمن لنفسها أرباحا هائلة . واستطاعت كذلك بفضل سبقها في التقدم الصناعي ان تعدّ فئات من العمال المهرة لم تر بأسا في ان تدفع لهم أجورا عالية نسبيا من أرباحها الطائلة فتؤمّن لهم بحبوحة من العيش بالقياس لسواد الطبقة العاملة ، حتى اجتذبتها الى جانبها واطمأنت اليها وعهدت اليها بقيادة حركة العمال لتصرفها عن طريق العنف وترجح لها الالتزام بالقانون . وبهذه الطريقة جعلت الطبقة العاملة في وضع من القناعة بحيث تولت هي تحقيق مطاليبها مطلبا بعد مطلب حتى منحتها الحقوق السياسية وهي آمنة على نفسها ومصالحها لا تخشى ان تخرج الطبقة العاملة على النظام العام التي بقيت هي وحدها المهيمنة عليه .

وقد استثارت غرابة هذا الوضع حيرة ماركس وانجلز ، فكتب انجلز يعرب الى ماركس عن دهشته من امر البروليتاريا الانكليزية «التي تزداد برجزة كل يوم، حتى لكأن هذه الامة التي هي أشد الامم برجزة تريد ان يكون لها ارستقراطية بورجوازية وبروليتاريا بورجوازية الى جانب بورجوازيتها . وليس ذلك بمستبعد على أمة تستغل العالم كله» (٦٦) . ورد ماركس في اليوم التالي ، يشير الى امر آخر أثار مخاوفه وقال «بينما تبدو الثورة وشيكة في القارة وذات اتجاه اشتراكي، يتبادر الى الذهن ان من غير المستبعد ان يتمكن النظام البورجوازي من سحق هذه الثورة في هذه الزاوية الصغيرة بما تحقق له من سعة في القدرة في بقاع اكثر بسطة وامتدادا» (٦٧) وهو يشير بذلك الى احتمال استخدام البورجوازية قدراتها المتزايدة في المستعمرات لاخماد حركة البروليتاريا في الوطن الام .

والقضيتان ، تلك التي اشار اليها انجلز وهذه التي نوه بها ماركس ، تخالفان التصورات التي جاء ذكرها في البيان الشيوعي . ويبدو غريبا ان يحجم ماركس

وانجلز عن المبادرة لاستقصاء اسباب هذا التفاوت الذي كان له اسوأ الاثر في وجهة الحركة العمالية التي مالت منذ مطلع القرن العشرين الى تقبل الاستعمار وانقادت لحكوماتها التي جعلت من جماهيرها وقودا في حروبها الاستعمارية . وربما يرجع ذلك الى نظرتهما الى الاستعمار . فمنذ ان تجاوزت اهتماماتهما حدود اوربا وراحا يعالجان شؤون الهند والصين وغيرهما من بلاد الشرق في رسائلهما الصحفية بين عامي ١٨٥٣ و١٨٥٨ ، نظرا الى الاستعمار من حيث تأثيره الحضاري مفترضين انه يعمل على تصفية التخلف وينشىء رأسمالية تبني الصناعة الوطنية او المحلية في المستعمرات فتخلق بورجوازية وطنية وتفرز بروليتاريا تربط مصيرها بحركة البروليتاريا الاممية فتسهم في تحقيق التحول الشامل . وبقيا يأخذان بهذا الرأي حتى سبعينات القرن الماضي عندما تجلت لهما أمور كشفت لهما عن آفاق جديدة للاحتمالات التي يمكن ان تبدأ بها الشعوب المتخلفة حركة تحررها . ولعل «من سخرية القدر» كما قال ماركس (٦٨) ، ان تكون روسيا القيصرية التي كان يراها حصن الرجعية الاوربية وعميدتها هي اول من كشفت له عن تعدد السبل الى الاشتراكية ونبهته الى ان لكل أمة ان تجد سبيلها الى الاشتراكية وفق ما أعده لها تاريخها وما هيأته لها طبيعة تكوينها وظروفها الخاصة(٦٩). وقد بقي ماركس في ريب من امكان قيام ثورة تحررية وتقدمية في روسيا القيصرية لشدة تخلفها ، الى ان توترت العلاقات بين حكومة القيصر والدولة العثمانية وأدت الى حرب القرم والى حروب البلقان التي اعقبتها فاستبشر بها وتعقب أحداثها بحماسة حتى كادت رسائله الى جريدة ديلي تريبيون النيويوركية بين عامي ١٨٥٣ و١٨٥٦ تقتصر على أخبارها . وكان يكبر ما أبداه العثمانيون من شجاعة وبلاء حسن فيها وتوقع هزيمة لروسيا القيصرية «تكون بداية تحول في تاريخ روسيا ... التي تقف على ابواب ثورة تهيأت كل اسبابها» وتمنى لو ان القدر يمهله هو وانجلز ليشهدا أحداثها (٧٠) . فلما انتهى الصراع بانتصار القيصر ، وقد عزاه ماركس الى خيانة حكومتي انكلترة والنمسا وتواطئهما مع حكومة روسيا القيصرية ، تعلقت آماله بالحركة الثورية التي بدت طلائعها فيها (٧١) .

وبرغم ان صلات ماركس باللاجئين الى الغرب من التقدميين والثوريين الروس ترجع الى اربعينات القرن الماضي ، وكان منهم انكوف الذي اقام في باريس واتصل بماركس بالمراسلة ، وباكونين الذي نقل البيان الشيوعي الى الروسية سنة ١٨٥٨ وأصبح فيما بعد من ابرز قادة الحركة الفوضوية ؛ ومع ان آراء ماركس لقيت من التقبل في اوساط التقدميين في روسيا القيصرية اكثر مما لقيته في اوساط الغرب ، لاسيما رسالتيه «بؤس الفلسفة» و«اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» وكتابه «رأس المال» الذي نقل الى الروسية قبل ان ينقل الى غيرها وكان يقرأ فيها اكثر مما يقرأ في اي بلد آخر (٧٢) ، فان اهتمامه بالحركة الثورية فيها لم يتسم بالجد الا بعيد سنة ١٨٧٥ (٧٣) . وكان مما اثر فيه تأثيرا عميقا كتابات المفكر الروسي جيرنيشيفيسكي الذي حكم عليه بالنفي الى سيبريا

«مكافأة له على حسن صنيعه !» كما قال ماركس (٧٤) ؛ وفليفورسكي مؤلف رسالة حالة الطبقة العاملة في روسيا» التي نوه بها واقتبس منها ماركس في رسالة له الى انجلز ، هذه العبارة التي لفتت نظره بوجه خاص ووجدها ذات مغزى وهي «ليس في روسيا (القيصرية) سوى القليل من البروليتاريا ، لكن سواد الطبقة الكادحة يتكون من شغيلة اسوأ حالا من البروليتاريا» . ووصف ماركس الرسالة بأنها اهم ما كتب في وصف الطبقة العاملة بعد رسالة انجلز عن «حالة الطبقة العاملة في انكلترة» (٧٥) . وبلغ من اهتمام ماركس بالكتابات الروسية التقدمية ان حاول تعلم اللغة الروسية ليقرأها بنصوصها الاصلية (٧٦) . وزاد اهتمامه بشؤون المجتمع الروسي اثناء اعداده مسودة الجزء الثالث من كتاب «رأس المال» الذي عالج فيه موضوع الارض والايجار ونشأت بينه وبين قادة الحركة النارودية علاقات عن طريق تبادل الرسائل وكانوا يرجعون اليه يسألون رأيه . وكانت هذه الحركة تعارض اخذ روسيا بالنظام الرأسمالي وترجح تجنب مرحلة الراسمالية والاخذ بالاشتراكية بطريق مشاعية الارض واتخاذ «الكومونة الريفية» الروسية الاصل اساسا للتنظيم الاجتماعي ، فكان ان قام بينهم وبين الماركسيين في روسيا الجدل واعتبر بعضهم كتاب «رأس المال» معارضا لوجهة نظرهم فنقده ميخائيلوف احد منظريهم البارزين مما دفع ماركس ان يعد مقالا للرد عليه او بالاحرى ايضاح ما فاته فيه لينشر في احدى مجلاتهم وفيه أكد ان كتاب «رأس المال» ليس في الحقيقة الا تحليل موجز لنشوء الراسمالية في اوربا الغربية ولهذا لا يصح تطبيق ما جاء فيه في ظروف تختلف عن ظروفها وحبذ بصورة غير مباشرة تجنب روسيا مرحلة الرأسمالية وقال ان روسيا (القيصرية) اذا ارادت ان تصير أمة رأسمالية اسوة بأمم اوربا الغربية فلن تستطيع ذلك قبل ان يتحول جزء كبير من فلاحيها الى بروليتاريا وتنزلق في دوامة النظام الرأسمالي وتعاني ما عانته الامم الاخرى سيئة الطالع التي اخذت به وأبدى اعجابه الشديد بالمفكر الروسي جرينشفيسكي الذي يعتبر من رواد النارودية وأخذ اعجابه به بمثابة تأييد لافكاره في حينه (٧٧) . ولم يعرف عن ماركس انه عارض النارودية او شجبها بل الذي عرف عنه اعجابه بفدائييها بعد عملية اغتيالهم القيصر الاسكندر الثاني وقد نعتهم بالواقعية والثبات والشجاعة وقال «انهم ارادوا بذلك ان يفهموا اوربا ان طريقتهم في العمل روسية صرفة يفرضها الواقع التاريخي وليس من سبيل لتجنبها ولا جدوى في تطبيق الاحكام الاخلاقية عليها سواء في تأييدها او شجبها» (٧٨) . ويتضح موقف ماركس من الكومونة بصورة اخرى في رده على رسالة «فيرا ساسوليج» وهي نارودية لجأت وأقامت في سويسرة وطلبت الى ماركس بيان رايه في الكومونة قائلة «اننا كثيرا ما نسمع ان الكومونة الريفية تنظيم فات اوانه وحكم التاريخ بزواله واثبتت الاشتراكية العلمية عدم جدواه . والذين يزعمون هذا ، يدعون انهم يتبعونك ، وليس من شك انهم كذلك ، فأقوى حجة لديهم هي «هكذا قال ماركس» . واذا ما سئلوا كيف استخلصوا هذا الرأي من كتاب «رأس المال» وهو لم يبحث موضوع الاصلاح الزراعي ولا موضوع روسيا يقولون ان ماركس لو بحث موضوع بلادنا لما

قال غير هذا» (٧٩) . وجاء في رد ماركس «توصلت في تحليلي نشوء الرأسمالية الى ان النظام الرأسمالي يقوم في الاصل على عزل المنتج عن وسائل الانتاج عزلا تاما . والاصل فيه تجريد الفلاح من منتوجه وهو ما جرى على أتم وجه في انكلترة وحدها . لكن بلدان غرب اوربا كلها سلكت السبيل عينه (رأس المال ، الطبعة الفرنسية ، ص ٣١٥) ولهذا فالضرورة التاريخية لهذه العملية تنطبق على الخصوص على بلدان اوربا الغربية فقط . والسبب في هذا الحصر توضحه الفقرة التالية من الفصل الثاني والثلاثين من (رأس المال) وتنص على ان الملكية الخاصة التي هي حصيلة العمل الفردي تزول لتحل محلها الملكية الخاصة الرأسمالية التي هي حصيلة استغلال عمل الآخرين لقاء أجر . وهذا هو ما جرى في عملية التطور في اوربا الغربية بأن حل نمط من الملكية الخاصة محل نمط آخر . اما بخصوص الفلاح الروسي فقد جرى الامر على العكس اذ تحولت ملكية عامة الى ملكية خاصة ولهذا فالتحليل الذي تضمنه كتاب (رأس المال) لا يشمل كما انه لا يؤيد ولا ينفي امكان قيام الجماعية القروية. بيد ان تحقيقاتي الخاصة التي رجعت بها الى المراجع الاصلية أقنعتني بأن الجماعية هي مرتكز البعث الاجتماعي لروسيا ، على ان هذه الجماعية لاجل ان تؤدي وظيفتها يقتضي ان تزال من طريقها اولا كل المؤثرات الضارة التي تتعرض لها من كل جانب وأن توفر لها بعد ذلك الظروف التي يستلزمها نموها التلقائي» (٨٠). ولكن القول الفصل في هذا الموضوع أورده ماركس في مقدمة طبعة سنة ١٨٨٢ الروسية للبيان الشيوعي حيث قال : ان الغرض من البيان الشيوعي هو بيان النهاية الوشيكة التي لا مناص منها ، للملكية البورجوازية المعاصرة . لكننا نواجه في روسيا أحبولة الملكية البورجوازية آخذة بالتفاقم والملكية البورجوازية للارض تتسع في مواجهة ملكية مشاعة للفلاحين رغم ان هذه الملكية تشغل ما يزيد على نصف مساحة الارض . وذلك وضع يثير التساؤل عما اذا كانت الجماعية القروية على ما هي عليه من وهن ومن حيث هي نمط من الملكية المشتركة البدائية في قدرتها ان ترقى مباشرة الى نمط من الشيوعية تستند الى ملكية عامة للارض ام انها على العكس ، يفرض عليها ان تمر اولا ، بعملية الانحلال عينها التي واجهت الغرب في تطوره التاريخي ؟... والجواب الوحيد المتيسر الان هو : ان الثورة الروسية اذا أتيح لها ان تكون بادرة لثورة بروليتارية في الغرب بحيث تكمل الثورتان احداهما الاخرى فان الملكية الجماعية في روسيا (القيصرية) قد تصير نقطة انطلاق لتطور شيوعي» (٨١) .

ومع ان ماركس وانجلز بعد ان توالت الاحداث بعد ثورة ١٨٤٨ على خلاف ما توقعا ، واضطرا الى التبصر بما كشفت عنه واعادة النظر في تقديراتهما ، تجنبا على عادتهما ، وضع ما استخلصاه في صيغة قواعد عامة وحرصا على ان لا يتجاوزا في تعليل وتفسير الاحداث حدود الاحتمالات المرتبطة بخصوصيات الوضع الذي تعنيه، فان لهذه الفترة بما اضفت به على الفكر الماركسي من تفاصيل وتصحيحات وايضاحات ، أثرا كبيرا في تطويره وكشف مدى الاحتمالات التي ينطوي عليها .

ولعل من اهم معطياتها : لزوم اخذ البيان الشيوعي في مجمله بأنه يرسم الخطوط العريضة وعلى المدى البعيد للتحول الى الاشتراكية فحسب ؛ وان الصراع النهائي والحاسم بين البورجوازية والبروليتاريا تسبقه بالضرورة ، مرحلة يكون فيهـا الطبقات الاخرى التي تقع بينهما تأثير فعلي في مجرى الاحداث ؛ وان هذه المرحلة ليست عارضة ولا قصيرة اذ فيها تستنفذ البورجوازية كل امكاناتها وطاقاتها وهي امكانات وطاقات جبارة ولكنها صائرة الى الوهن والزوال لا محالة ؛ وفي خلالها تتم عملية تصفية الطبقات الاخرى التي تنصهر في بوتقة البروليتاريا وهي عملية لم تعد سهلة بوجود الاستعمار والامبريالية من جهة ولضرورة بلوغ البروليتاريـا الحد المطلوب من الوعي والقدرة على انجاز مهمتها التاريخية الهائلة .

وماركس وانجلز وان ادركا بوادر تأثير الامبريالية التي اصبحت فيما بعد طابع العصر ، كما يظهر من ملاحظاتهما عن اوضاع البورجوازية وحركة العمال فـي بريطانيا وعن احتمال ردود الاستعمار على الاحداث التي تقع في أوربا الغربية ، لكن هذه البوادر اثارت حيرتهما وتساؤلاتهما اكثر من دفعهما الى تفسيرها واكتشاف بواعثها وما سيكون لها من تأثير . وهذا بحد ذاته دليل على ان عهدا من عهـود الماركسية اوشك على نهايته وانها اشرفت على عهد جديد . ولعل ماركس ادرك هذه الحقيقة بعد ان اتضح له ان الثورة الشيوعية التي تطلع اليها ابعد مما توقع، وان الجهد الذي يستلزمه اعظم مما قدر ، وان ثورة ١٨٤٨ التي حسب انهـا ستنزل بالراسمالية الضربة القاضية لم تكن غير ازمة عابرة . ولهذا نراه برغـم مواصلته تعقب الاحداث والتعليق عليها بين عامي ١٨٥٢ و١٨٦٤ فقد كان موقفه في الواقع موقف المتفرج او المستطلع وكان انصرافه الى دراساته الخاصة التـي انتهى منها بكتاب «راس المال» .

ولما استعادت حركة العمال في اوربا الغربية حيويتها بعد سنة ١٨٦٤ لم يعد ماركس يؤكد ضرورة الثورة العاجلة او يقول ان الثورة وشيكة بقدر ما أكد الضرورة الى الاهتمام بانشاء تنظيم عام للعمال على نطاق أممي كشرط اساسي في الاعداد للتحول الى الاشتراكية . وعلى هذا كان في طليعة العاملين في تأسيس الاممية الاولى التي اختتم بها نشاطه الفعلي ، تاركا للاحداث ان تظهر من يعقبه ويأخذ محله ومحل انجلز في مواصلة تطوير الفكر الماركسي وقيادة الحركة الاشتراكية . وما من شك ان آخر ما كان يمكن ان يتبادر الى ذهنه ان الذي سيخلفهما سيخرج من مجاهل روسيا القيصرية ، وكانت في تقديره أبعد أقطار اوربا عن الاشتراكية.

٧ ــ لينين ومعطياته للماركسية في حقلي النظرية والتطبيق

ولد لينين سنة ١٨٧٠ في عائلة متوسطة في قلب روسيا القيصرية . كان ابوه مديرا لمدرسة ابتدائية ثم مفتشا فمديرا لمعارف الولاية . وكانت أمه مديرة مدرسة ابتدائية . وكل ما بلغنا عن عهد تلمذته ، تقرير من مدير مدرسته ، يصفه

بأنه كان فخر المدرسة بما امتاز به من نباهة ومثابرة نادرتين ، وتفكير منسق واحساس مرهف وبساطة وصراحة (٨٢) . وكان احد ستة اخوة وأقربهم اليه من بينهم اخوه الكسندر ويكبره بسنتين ، وكان ذا ميول متطرفة ، اتهم سنة ١٨٨٧ باشتراكه في محاولة لاغتيال القيصر فأعدم ولينين في السابعة عشرة من عمره . ويظن ان لينين تأثر بالحادث تأثرا عميقا أثّر في مجرى حياته ، اذ لم يلبث ان أسرّ الى بعض المقربين من اصدقائه بأنه سيكرس حياته للثورة . وقد ظل على قراره هذا الى آخر حياته (٨٣) .

دخل لينين بعد اتمامه الدراسة الاعدادية ، الى كلية الحقوق ، لكنه فصل منها بعد فترة متهما بالاشتراك في شغب حدث فيها ، ولم يقبل بعدها بكلية اخرى ، فدرس الحقوق على نفسه وتقدم للامتحان بصفة طالب خارجي ونجح متفوقا على بقية المشتركين ونال شهادة الحقوق سنة ١٨٩١ (٨٤) .

درس لينين كتاب «رأس المال» في سن مبكرة ، في نسخة وجدها بين كتب اخيه الكسندر ، وواصل دراسة الماركسية حتى اصبح في عداد ثقاتها وهو ما يزال في مقتبل العمر (٨٥) . ويتبين من تعليقاته في «دفاتره الفلسفية» التي تضمنها الجزء الثامن والثلاثين من اعماله ، انه درس الفلسفة بامعان وألم باتجاهات اغلب المدارس الفلسفية . وفي مدى ثلاثين سنة من نشاطه النظري والعملي والتنظيمي بين سنة ١٨٩٣ وسنة ١٩٢٣ ، كتب مئات الكتب والكراريس وآلاف المقالات والرسائل وأعد عددا كبيرا من التقارير وألقى كثيرا من الخطب في المؤتمرات والاجتماعات العامة الحزبية والعمالية والرسمية ، تعد اليوم بين اهم مراجع الماركسية وتكشف في مجملها عن مرحلة جديدة في تطور النظرية الماركسية الثورية . ولا يمكن فهم دور لينين وأثره في تطور الماركسية بغير الرجوع الى المجتمع الذي نشأ فيه ، المجتمع الروسي القيصري ، ومتابعة ما اجراه من تحوير في الماركسية لتطابق واقعه وظروفه ، ولتواجه مستلزمات الزمن المتغير وتكوين ذات جدوى في تحقيق التغيير المطلوب .

بقيت روسيا القيصرية طيلة القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متخلفة تخلفا شديدا بالنسبة لاقطار اوربا الغربية ؛ شعوبها اقرب الى شعوب الشرق المتخلفة منها الى شعوب اوربا المتقدمة ، ينظر اليها الاوربيون نظرتهم الى بلدان الشرق التي تحيا في الماضي السحيق ؛ مجتمعها زراعي بدائي يفتقد مقومات الانتاج الصناعي الحديث ويفتقد الطبقة الوسطى الحرة لتحقق ما حققته البورجوازية في اوربا الغربية ؛ ممتلكاتها تغطي نصف قارتي اوربا وآسيا وتضم شتاتا من شعوب يفرق بينها تفاوت في الاصول والتاريخ واللغة والتقاليد والمستوى ؛ اغلبيتهم الساحقة فلاحون تغمرهم الجهالة ، بلغت نسبة الأمية فيهم التسعين بالمائة ، يعيشون منتشرين ومنقطعين في سهول وهضاب بلادهم الشاسعة التي تفتقد كل وسائل المواصلات الحديثة ؛ يتولى امرهم قيصر مطلق السلطة ، أوكل ادارة شؤونهم الى بيروقراطية ارستقراطية احتكرت المناصب في

الجيش وفي الجهاز المدني واستثمرت الريف برمته وأحكمت سيطرتها على الملايين المتململة بشدة وقسوة لا حدود لهما ، تدعمها كنيسة تولت الشؤون الروحية وشؤون التعليم وتحولت منذ عهد بطرس الكبير الى جهاز من اجهزة الاستبداد مهمته تلقين «الرعية» تقديس القيصر واطاعة اوامره التي هي اوامر البيروقراطية والكنيسة طاعة عمياء ، وحرصت حرصا شديدا على مقاومة كل جديد فبثّت الكراهية للديمقراطية والحرية وكل الاتجاهات الفكرية الحديثة ناعتة اياها بالفوضوية والزندقة والتحلل ، حتى احاطت البلاد بسياج حجب عنها كل معالم الحضارة الحديثة . والى هذا كله اعتمدت السلطة فكرة الوحدة السلافية واتخذتها وسيلة تشغل بها الناس وتثير فيهم نعرة الغرور وتطبق سياسة «التدويس» للتنكيل بالقوميات الاخرى وطمس معالمها .

لكن الحكم القيصري رغم استبداده المطلق وصرامته الفضة القاسية ما لبث ان تكشّف عن ضعف وهزال لدى اول صدمة عندما مني بهزائم قاصمة في حرب القرم . فكان ان ادرك حكامه ان لا مناص من الاخذ بمستلزمات القوة واستبدال انظمته التي عفى عليها الزمان بأساليب المجتمع الصناعي الحديث ، فحاولوا سنة ١٨٦١ اصلاح بعض شؤونه بالغاء القنانة ومنح الفلاحين نصيبا في الارض واقتباس التقنية والنظم الحديثة في الصناعة . لكن المحاولة باءت بالفشل لافتقادها أهم عناصر التغيير وهي طبقة وسطى حرة تبني الديمقراطية وينبعث التغيير من صميم وجودها وتتوافر فيها الكفاءة والمعرفة والإقدام وروح المبادرة ، ولان المحاولة فرضت من بيروقراطية متسلطة يقوم وجودها في الحقيقة بدوام التخلف .

ولكن برغم فشل المحاولة ، فان الفترة فتحت ثغرة نفذت منها الافكار الليبرالية ووجدت سبيلها الى فئة من ميسوري الحال حاولت نشر الافكار الليبرالية . على ان الدعوة للافكار الليبرالية جاءت متأخرة اذ لم تعد فوق الطعون والشبهات بعد ان تسربت معها افكار راديكالية كشفت صلتها الوطيدة بنظام الانتاج الصناعي الرأسمالي الذي ادعى الرومانسيون انه شوّه الحياة الانسانية ولوثها وعارضه ذوو الميول الاشتراكية الطوبائية بدعوى انه يؤدي الى توسيع الفوارق بين الناس ، وظهر النارودنيون يريدون تجاوز مرحلة الرأسمالية الصناعية والاخذ مباشرة باشتراكية تستمد وجودها من التراث فتطور مشاعية الارض التي الفها الفلاحون وتتخذ من كومون القرية اساسا لتنظيم اجتماعي جديد . ولم يكن هؤلاء جميعا غير فئات من ابناء ملاكي الارض ومتوسطي الحال ، استهوتهم الآراء الحديثة وربما أحسوا بتأنيب الضمير لتمتعهم بأطاييب العيش على حساب الفلاح الذي يعاني القهر وشظف العيش ، فأرادوا التكفير عما سببته له طبقتهم من شقاء بمساعدته في تحسين حاله . وراح فريق منهم يعيش فعلا بين الفلاحين في قراهم بحثّهم على تنظيم صفوفهم والعمل على تغيير حالهم . لكنهم ما لبثوا ان تبينوا سعة الفجوة التي تفصل بينهم وبين الفلاح الأمي الجاهل الذي امتلأ رأسه بالخرافات والاوهام فلم يعد يفهم لغتهم او يدرك ما يبتغون ، فأصابهم اليأس وتفرقوا بين من عاد الى الاهتمام بشؤونه الخاصة وبين من التحق لشدة نقمته على

السلطة ، بالمنظمات الفدائية ، وبين ما اتخذ سبيل الماركسية . ونظم المتحمسون من بينهم جمعيات سرية اخذت على عاتقها مقاومة السلطة مقاومة فعلية بالدعوة الى التمرد على القوانين وكان من بينهم النهليون والفوضويون الذين انبثوا بين الفلاحين يحرضونهم على مقاومة السلطة وتجاهل القوانين والامتناع عن دفـــع الضرائب والاستيلاء على الارض . وكان منهم الفدائيون الذين ارادوا ان يدفعوا السلطة الى اجراء الاصلاحات التي يريدونها ، بالتهديد واثارة الرعب في صفوفها باغتيال رجالها ، وتمكنوا بالفعل من اغتيال عدد من رجال الدولة البارزين حتى انتهوا الى اغتيال القيصر الكسندر الثاني سنة ١٨٨١ .

ومع ان جهود هذه الجمعيات لم توصلها الى تحقيق ما تريد لكنها اثـــارت مخاوف السلطات في أقطار اوربا الغربية ، التي خشيت ان يؤدي اضطراب الحال في بلاد القيصر الى انفجار يزعزع الاستقرار في القارة فقررت ان تمد الـــى القيصر يد العون ليجري اصلاحا يخفف من شدة سوء الوضع في بلاده ؛ ولو ان رغبتها هذه لم تكن بريئة وبعيدة عن الاطماع الاقتصادية . فالراسمالية في فرنسا وانكلترة على الخصوص كانت قد بلغت دور الاستثمارات وقد بان لاصحاب رؤوس الاموال في البلدين سعة مجال الاستثمار في بلاد القيصر الشاسعة البكر القريبة منهم والغنية بالمعادن والتي تتوفر فيها ملايين الايدي العاملة الرخيصة التي يمكن استغلالها دون قيد او رقيب . وما كادت الفرصة تسنح لرؤوس الاموال بموافقة حكومة القيصر بفتح الابواب لها حتى تسابق المستثمرون الانكليز والفرنسيون الى الانفراد به وكان الالمان منصرفين الى بناء صناعتهم داخل بلادهم فلم يقدموا على منافستهم . وهكذا تولت الاستثمارات مد سكك الحديد واستخراج المعادن مـــن مناجم اليوكرين والنفط من القفقاز . ولم تنقض بضع سنين حتى اخترقت سكك الحديد بلاد القيصر طولا وعرضا فبلغ ما مد منها اربعين الف ميل ؛ وبلغ مـــا تستخرجه الشركات الفرنسية من مناجم الفحم في اليوكرين سنويا اكثر ممـــا يستخرج من مناجم فرنسا وراحت ناقلات النفط الانكليزية تحمل الى بلادهـــا نفط القفقاز .

ومع ان طبقة بورجوازية محلية ولدت في هذه الفترة لكنها في خضم هذا التطور السريع نشأت كسيحة عاجزة عن بناء وجود حر مستقل وهي تعتمد على رؤوس اموال وتقنية اجنبية وتفتقد الكفاءة الذاتية ولا تقوى على البقاء دون حماية السلطة في مواجهة المنافسة الاجنبية من جهة ومواجهة حركة عمال تتكون من فلاحين نفروا من الريف ليجدوا انفسهم وقد قذف بهم في مناجم ومعامل مظلمة وذات جو خانق وحشروا في قاعات مزدحمة غير صحية وأرهقوا بعمل شاق لقاء أجر زهيد لا يكاد يكفي لسد الرمق ، وفي فترة لم تكن فيها الافكار الاشتراكية وأخبار حركات العمال وأحداث كومونة باريس بعيدة عن أسماعهم مما جعلهم على شيء من الوعي وراودتهم الافكار الثورية واكتشفوا الضرورة الى العمل المنظـــم لتخفيف ما يعانون . والواقع ان التحول السريع الذي حصل ، سواء بواسطـــة

الشركات الاجنبية التي لم يكن يعنيها غير ان تجني الارباح على عجل ، ام بواسطة البورجوازية المحلية وهي لا تستطيع ان تجني ربحا الا بارهاق العامل والتقتير بالنفقات الى اقصى حد ، عرّض حياة العمال الى أشد الاخطار ، حتى قيل ان ضحايا الحوادث في المناجم والمعامل تجاوز عددها في السبعينات عدد قتلى الحروب الروسية التركية في تلك الفترة ، فلم يكن غريبا ان تنشأ في صفوف العمال روح ثورية متأججة .

وفي مثل هذه الظروف بدأ اتصال لينين بالاوساط الماركسية في سنتبيترسبرك سنة ١٨٩٣ ، وما لبث ان برز كأحد المنظرين فيهم ونشر في سنة ١٨٩٤ اول رسالة له بعنوان «من هم اصدقاء الشعب» (٨٦) ، انتقد فيها النارودية ودعا الى تأليف حزب اشتراكي ديمقراطي . وفي سنة ١٨٩٥ ، سافر الى سويسرة بقصد الاتصال بـ «عصبة النضال لتحرير الطبقة العاملة» (٨٧) التي ألفها نفر من المهاجرين الروس انشقوا على النارودية وأخذوا على عاتقهم نقل اعمال ماركس وانجلز الى الروسية وكان ابرزهم جورجي بليخانوف . واتفق لينين معهم على تأليف فروع للعصبة في داخل روسية تتولى توزيع مطبوعاتهم ، وأسس عند عودته فرعا في سنت بيترسبرك وفروع اخرى في بضعة مراكز عمالية . ولكن سرعان ما اكتشف امره فألقي القبض عليه ونُفي الى سيبريا . ولما أطلق سراحه سنة.١٩٠٠ قضى بضعة شهور في روسيا جدد في خلالها صلاته بعدد من رفاقه ، واتفق معهم على اصدار جريدة في الخارج تهرب اليهم فيتولون توزيعها ، وسافر هو الى سويسرة حيث أصدر جريدة «الشرارة» في كانون الاول سنة ١٩٠٠ .

ولعل ابرز انجازات لينين ، نجاحه في ان يحقق بالفعل ما لم يتصور من سبقه ومن عاصره من الماركسيين امكان تحقيقه . فقد استطاع ان ينشيء حركة ثورية ذات كفاءة عالية فازت بالسلطة وثبّتت دعائم اول نظام اشتراكي بوجه معارضة داخلية وخارجية عنيفة وفي بلاد شاسعة شديدة التخلف شعوبها مشتتة ومتعددة القوميات . صحيح ان ماركس وانجلز ، بعد ان تتبعا بوادر النشاطات الفكرية والثورية في دولة القياصرة في السبعينات ، لم يستبعدا قيام ثورة تغير معالم المجتمع الروسي ، لكن الذي توقعاه لم يتجاوز تصور الثورة انفجارا يكون بمثابة الشرارة لثورة بروليتارية تجتاح اوربا الغربية حيث الظروف في حسابهما ، مواتية وتيسر للمجتمع الروسي الخروج من تخلفه وتفتح امامه مجال التطور السريع ، ومرد تصورهما ، على الارجح ، الى استخلاصهما آرائهما في تطور المجتمع من واقع المجتمع البورجوازي في اوربا الغربية ولهذا افترضا ان ما توصلا اليه لا يصح تطبيقه الا فيها .

اما انجازه الثاني الذي لا يقل اهمية عن الاول ومشتق منه وثابت به ، فهو اكتشافه تجاوز الراسمالية طورها الاول الذي استخلص ماركس وانجلز من واقعه آراءهما ، الى طور جديد هو طور الامبريالية ، وادراكه الضرورة الى تكييف الماركسية لمواجهة الراسمالية في طورها هذا .

ولينين بتشخيصه خصائص الراسمالية في طور الامبريالية ، وتكييفه طرق

العمل لمواجهتها ، واثباته صواب ما ذهب اليه بنجاح ثورة اكتوبر وقيام دولة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، دلل بالفعل على امكان تحقيق الاشتراكية في غير أوربا الغربية وبطريق غير الطريق الذي افترضه ماركس وانجلز اذا توفرت ظروف مؤاتية ، بل اثبت امكان قيامها في بلاد متخلفة ، بل حتى في بلد متخلف واحد . فعكس بذلك تصورات ماركس وانجلز رأسا على عقب حتى بدت الاحداث، بعد الذي انجزه وما ترتب عليه ، وكأنها تومىء الى ان مجرى الاشتراكية سيكون من الشرق الى الغرب وليس من الغرب الى الشرق ، من الاقطار المتخلفة التي تشتد فيها معاناة الشعوب يوما بعد يوم الى الاقطار المتقدمة التي بنت رفاهيتها على الابتزاز ففسدت فيها حتى الطبقة العاملة .

والواقع ان ماركس وانجلز تولتهما الحيرة منذ الخمسينات ، كما رأينا ، وهما يلاحظان خروج الاحداث على تقديراتهما وتوقعاتهما ، والارتداد ينتاب احزاب الاشتراكية الديمقراطية فتأخذ بالانحراف وتغلب فيها الانتهازية ، وحركات العمال تتقاعس عن أداء مهمتها التاريخية وتتحول الى منظمات لاثورية حجزت نفسها في حدود الشرعية البورجوازية فما عاد يعنيها غير زيادة الاجور وتقليل العمل . ولكنهما لم يتسن لهما ان يتبينا العلة وراء هذه الظواهر لانهما لم يشهدا من الامبريالية غير بدايات ملامحها في وقت كانت فيه تتكون وتفعل فعلها بعيدا عنهما في اطراف العالم النائية . فلم يكن في استطاعتهما ان يدركا ان اتساع مجال الابتزاز التي تهيأ للراسمالية في طورها الجديد عن طريق الاحتكار ومركزة الانتاج ورأس مال الاستثمارات واقتسام مناطق النفوذ والاسواق وما الى ذلك من وسائل تضخم الارباح فوق ما هو متصور ، هو الذي يسّر للرأسمالية في هذا الطور ان تفسد احزاب الاشتراكية الديمقراطية ومنظمات العمال وتحرفها وأن تخدر فئات من قيادات العمال بتخفيف ما يعانون على حساب الشعوب في المستعمرات ومناطق النفوذ بواسطة الاستثمارات الخارجية التي تعود اليها بأرباح طائلة فوق حدود التصور .

على ان لينين تهيأ له بعكسهما ، ان يشهد ظواهر هذا التطور تتجلى وعوامله تلتقي وتصطرع في ظروف مؤاتية لبروزها . فقد نشأ في مجتمع التقى فيه الغرب الراسمالي بالشرق المتخلف وبانت فيه من معايب التخلف أشدها سوءا ، في نظام ساده الطغيان فاستشرى فساده ، وسيطرت على الروح والفكر فيه كنيسة استحالت الى اداة للارهاب وهوت الى دركة الراسبوتينية ، واستكان اقتصاده للاستثمار الرأسمالي الاحتكاري الاجنبي يستنزف ما استطاع استنزافه من ثرواته الطبيعية دون رقيب او حساب ويغرقه في ديون زادت فوائدها على نصف ايرادات الدولة برمتها حتى كادت الدولة تفقد سيادتها (٨٨) ، وعانى فلاحوه ونسبتهم تناهز الثمانين بالمائة من مجموع سكانه ، ويلات الجهالة وشظف العيش، وراحت حال عماله تزداد سوءا يوما بعد آخر حتى صدق فيهم القول انهم لم يبق لهم ما يفقدونه غير الاغلال .

وكان لينين مؤهلا لادراك جوهر هذا الوضع وخفاياه ومآتيه . فواقعيته جعلته

لصيقا بحياة الشعب ، متتبعا دقائقها ، ملما بتفاصيلها حتى عندما يكون سجينا او بعيدا في المهجر . وكان بما تميز به من فهم عميق للماركسية ، وقناعة والتزام صادق بطرائقها وبارتباط النظرية فيها بالتطبيق ، ومعرفة دقيقة بالمادية الديالكتية، قادرا على استيعاب مشاكل الوضع وطبيعته وايجاد الحلول المجدية من غير ان ينحرف عن الماركسية او يحرفها . وكان بعد هذا ، ثوري صميم ، صادق في ثوريته ، كرس لها كل جهوده وحياته ، حتى قال فيه احد غرمائه من المنشفيك : «ما عسانا نفعل مع هذا الرجل وقد انفرد بأن جعل الثورة شغله الشاغل طيلة اربع وعشرين ساعة في كل يوم من ايامه ، يفكر بها ولا يحلم بغيرها» (٨٩) .

ولتطبيقات لينين ومواقفه من الاوضاع والاحداث اهمية خاصة بالنسبة لاقطار العالم الثالث ، بما تلقيه من ضوء على المشاكل التي تعاني منها والحلول التي قد تجدي في معالجتها ، لما بين حالها وما كانت عليه الحال في روسيا القيصرية من تشابه . ولا ريب في ان هذه الاقطار وهي تقع في دائرة نفوذ الامبريالية فيسود فيها التخلف وتكون غالبيتها من الفلاحين وتفتقد بورجوازية وطنية يتعذر وجودها ونموها وأداؤها مهمتها التاريخية في ظل هذه الامبريالية فيقوم اقتصادها على الزراعة البدائية ويسطو الاستعمار على ثرواتها الطبيعية ويسلبها اياها بأبخس الاثمان، سوف تجد فيما جاء به لينين وخبره وأثبت جدواه، الكثير مما يجدر بها ان تسترشد به .

وكان التنظيم اول ما اهتم به لينين ، وهو يعد العدة للثورة . فانه ادرك منذ البدء ، ان الاصل في الماركسية هو العمل وحسن التطبيق ، وان خير العمل عمل الجماعة وخير التطبيق ما يكون بطريق التنظيم والتنسيق ، لاسيما بالنسبة للطبقة العاملة التي لا سلاح لها ، كما قال ، غير سلاح التنظيم . وأدرك منذ البدء ايضا ، حتى قبل ان يتبين معالم الامبريالية بكامل تركيبها ومدى تأثيرها ، ما سيكون لحركة التصنيع تقوم به الاستثمارات والشركات الاجنبية من الاثر في اوضاع روسيا القيصرية فكتب سنة ١٨٩٥ يقول :

«جاء الرأسماليون الاجانب مؤخرا ، متلهفين لاستثمار رؤوس اموالهم في روسيا ، وراحوا يؤسسون فروعا لمصانعهم ويؤلفون الشركات لانشاء مشاريع جديدة . انهم يترامون بنهم على هذه البلاد البكر ويلقون من الحكومة العون والترحيب اكثر مما يجدونه في البلاد الاخرى ، ويرون فيها العمال أقل تضامنا وقدرة على المقاومة من العمال في الغرب ، ومستوى المعيشة والاجور منخفضة ، مما يتيح لهم ان يجنوا من الارباح ما لا يحلمون به في بلادهم . ها قد امتدت الراسمالية الدولية الى روسيا ومد العمال الروس أيديهم لحركة العمال الدولية » (٩٠) .

وأخذ لينين بتجربة ماركس في ثورة ١٨٤٨ ، عندما دعا الطبقة العاملة الالمانية الى مهادنة البورجوازية والوقوف الى جانبها في صراعها مع الحكم المطلق فخذلت البورجوازية العمال بانحيازها الى اعدائها مما دلل على ان البورجوازية

عندما تنشأ في ظروف غير مؤاتية كأن تظهر متأخرة او تواجه ما يحول دون تكامل خصائصها وقدراتها فلا تكون على طبيعتها كما كانت البورجوازية الانكليزية او الفرنسية ، فلا يصح التعويل عليها في محاربة الرجعية بل يترتب على الطبقة العاملة ان يكون لها تنظيمها السياسي الخاص المستقل وأن تعتمد على نفسها حتى في انجاز الثورة البورجوازية التي هي في الماركسية خطوة لا غنى عنها ، ثم مواصلة النضال في ثورة مستمرة لبلوغ غايتها . ولذا أصر لينين ان يكون للطبقة العاملة حزبها الخاص المستقل ، وأكد فكرة الثورة المستمرة التي اغفلتها احزاب الاشتراكية الديمقراطية في الغرب ، وأكد كذلك رأي ماركس ، ان البروليتاريا هي وحدها القادرة على انهاء دور الرأسمالية دون هوادة او مساومة ، فسائر الطبقات والفئات يمكن ان تساوم حتى الحكم المطلق وترتضي التسويات ، أما البروليتاريا فلا تجديها المساومة لانها لا يمكن ان تنال بها ما تريد .

ولينين الذي أكد ان من لم يستطع ان يكيف الماركسية لظروف واقعه لا يكون ماركسيا ، لم يشأ ان يقلد في تنظيمه احزاب الاشتراكية الديمقراطية في الغرب بل اراده ان يكون من نمط جديد ملائم لظروف روسيا القيصرية تتوفر له القدرة على مواجهة بيروقراطية أحكمت سيطرتها على بلاد واسعة بمركزة السلطة وبالعنف. فقرر ان يستفيد من تقاليد وتجارب الحركات الثورية في روسيا ويأخذ بما يفيده منها . وكانت تواجه السلطة بتنظيم مركّب من وحدات صغيرة متماسكة تجمعها وحدة الارادةووحدة الهدفوالتنسيق فيالعمل، تحرص، علىتوفير طاقاتها للعمل المثمر ولا تصرفها في أمور غير مجدية . وكان برغم معارضته للحركة الفدائية من حيث اعاقتها تكوين تنظيمات على نطاق جماهيري ، معجبا بما تميزت به منظماتها وأفرادها من بسالة وإقدام وتفانٍ ونكران ذات ، فحرص على الافادة من تجاربها وكوّن تنظيمه من نخبة ممتازة ، قلة ولكنها قلة جيدة ، تستوعب النظرية الماركسية الثورية وأهل لان تكون طليعة حركة العمال ونواتها وتتميز بقناعة تامة بسمو القصد وبالارتباط بوحدة الهدف وتتفوق بالتفاني في حسن اداء الواجب وبالالتزام بالانضباط من اجل ان تقوى على مواجهة بيروقراطية القيصر والتعرض لنظامه العاتي وتهزمه . وفي حين كانت احزاب الاشتراكية الديمقراطية تتألف من جمع من أفراد لكل منهم وجوده الخاص ، كان تنظيم لينين اشبه ما يكون بالكيان العضوي ذي الارادة الواحدة .

وكان من اهم المشاكل التي واجهها في التنظيم ، الجمع بين فكرة الاشتراكية والانضباط . فقد نشأت فكرة الاشتراكية في روسيا نتيجة للتطور الفكري في اوساط النخبة الثورية من مثقفي الطبقة العليا والتي تلتها ، لان الموسرين وحدهم امكنهم الحصول على التعليم ووجدوا الفراغ والوسائل التي تتطلبها المعرفة النظرية. ولما كان لا يمكن ان تقوم ، في رأيه بصفته ماركسيا ، حركة ثورية من دون نظرية ثورية ، كان لا مفر من ان تجلب النظرية لحركة العمال من خارجها حتى ولو كانت من صنع اهل الفكر من الطبقة الاخرى . وكانت كل الحركات الثورية في

روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر بقيادة المثقفين من ابناء الطبقة الموسرة . ولما كان هؤلاء المثقفون لا يسهل عليهم احتمال الانضباط وقد خرجوا على طبقتهم لكنهم لم يستطيعوا الاندماج بالطبقات الصغيرة التي ارادوا خدمتها لانهم لم يحتملوا أوضاعها ومعاناة ما كانت تعاني من ضنك بعد ان ألفوا حياة السعة والرفاهية ، فقد كانوا معرضين للتقلب ينتابهم التردد واليأس ويصيبهم الانتكاس او تغتالهم الانتهازية . وواجه لينين هذه المشكلة وكان عليه ان يجد لها حلا . ولم يجد خيرا من ان يجعل جمهور كل وحدة تنظيمية رقيبا على قادتها بحيث يستطيع المجموع ان يجرد القادة من السلطة عندما يفقد الثقة بهم . وصار هذا المبدأ بالفعل احد قواعد الضبط في النظام السوفييتي ، حيث خول الناخبون الحق بسحب ثقتهم من ممثليهم واستبدالهم بغيرهم اذا لم يحسنوا تمثيلهم . وبهذه الطريقة استطاع لينين ان يحفظ للمثقفين مكانا في التنظيم وفي الوقت عينه ان يضمن للاغلبية القول الفصل . وحرص ان تكون الاغلبية دوما من الطبقة العاملة . وكان هذا بالفعل من جملة ما امتاز به تنظيمه ، فقد كان ثلثا الاعضاء فيه سنة ١٩١٧ من العمال .

وكانت مشكلة الفلاحين التي اهتمت بها كل اطراف الحركة المعارضة في روسيا القيصرية ، احدى المشاكل الرئيسية التي تصدى لينين لمعالجتها . وكان الفلاحون وهم الاغلبية الساحقة ، قد تجاوز بهم سوء الحال حدود الاحتمال وبلغ حافة الانفجار ، وكان كل طرف في المعارضة يطمح بأن ينجح في استنفارهم والاخذ بقيادهم وهو على يقين انه اذا وجد سبيله اليهم كان بيده زمام الثورة . ولعل لينين قدّر هذه الحقيقة اكثر من غيره كما دللت الحوادث فيما بعد . فهو فضلا عن إلمامه بآراء ماركس وانجلز في هذا الخصوص ، كان مهتما بشؤون الفلاحين منذ بدء وعيه السياسي ، فعايشهم وهو فتى ، وفي الفترة القصيرة التي مارس فيها المحاماة كانت جل القضايا التي تولاها تتعلق بمنازعاتهم مع الملاكين . وفي منفاه في سيبريا ، كان يقضي بينهم كل وقت فراغه يتدارس شؤونهم ويبدي المشورة لهم . وتناولت اولى دراساته قضيتهم وقد أظهر فيها ان امتداد الرأسمالية الى روسيا لم يترك سبيلا لمعالجة مشكلتهم غير سبيل الاشتراكية . ففي رسالتيه «نشوء الرأسمالية في روسيا» (٩١) التي نشرها سنة ١٨٩٩ و«مسألة الارض الزراعية» (٩٢) التي نشرها سنة ١٩٠٨ أوضح ان كومون القرية الذي اراد النوروديون ان يتخذوا منه اساسا لبناء الاشتراكية في المجتمع الروسي ، اصبح بدخول الرأسمالية الصناعية في حال من الانحلال والتلاشي بعد ان تمزقت بتأثيرها وحدة الفلاحين وتفرقوا بين مزارعين اغنياء وفلاحين معدمين أجراء . وصنّف الفلاحين في بحثه الى ثلاثة أقسام : المزارعون الاغنياء (الكولاك) ويكوّنون ١٢ بالمائة من مجموع الفلاحين ويملكون ٣١ بالمائة من الارض ، والمتوسطون ويكوّنون ٧ بالمائة ويملكون ٧ بالمائة من الارض ، والفقراء ويكوّنون ٨١ بالمائة ويملكون ٣٥ بالمائة من الارض . اما كبار الملاكين فلم تكن تزيد نسبتهم على اثنين بالالف ولكنهم يملكون ٢٧ بالمائة من الارض . وأوضح كيف تحول كومون القرية

الى جهاز من اجهزة السلطة منذ عهدت اليه جباية ضريبة الارض واستيفاء أقساط تغطية ما ملك للفلاحين وسيطر عليه اغنياء المزارعين . وكان انجلز قد عالج الموضوع عينه سنة ١٨٩٤ فأبدى رأيا مماثلا ، مشيرا الى ان ماركس حين قال سنة ١٨٧٧ باحتمال تجاوز روسيا القيصرية مرحلة الرأسمالية الى اشتراكية تقوم على مشاعية الارض وكومون القرية ، لم تكن الرأسمالية قد دخلت اليها وتحكمت باقتصادها ومزقت وحدة الفلاحين »(٩٣) .

وأوضح لينين في رسالته «خطوة الى أمام وخطوتان الى وراء» (٩٤) دور الفلاحين في الثورة الديمقراطية وكيف انهم لا تعنيهم الملكية الخاصة بالقدر الذي يعنيهم نزع ملكية الارض من «السادة» المسيطرين عليها ، وهذا وان كان لا يغير من طبيعة الفلاح بصفته مالكا صغيرا ينفر من الاشتراكية لكنه لا يمنعه من الانحياز الى جانب الثورة الديمقراطية . ومن هنا أكد الضرورة الى البدء بثورة ديمقراطية يشارك بها العمال والفلاحون بشرط ان تكون ثورة مستمرة تحقق الاشتراكية بمراحل وتحمل الفلاحين على القبول بالمزارع الجماعية والتعاونية طوعا باثبات فائدتها لهم بصورة فعلية بالتطبيق . وأكد ان كل محاولة لحمل الفلاحين على التحول الى المزارع الجماعية والتعاونية قسرا تضر بالثورة وتؤدي الى مشاكل قد تستعصي على الحل .

والتزم لينين في موضوع الدولة آراء ماركس وانجلز ، فاعتبرها في جوهرها جهازا طبقيا مهمته الرئيسية تثبيت هيمنة الطبقة الغالبة وخدمة مصالحها . واعتبر الممارسة الفعلية للديمقراطية في النظام الراسمالي وقف على الطبقة البورجوازية ومشاركة الطبقات الاخرى فيها شكلية محضة . واستخلص من ارتباط الدولة بالوجود الطبقي امرين : الاول ، ان كل تحول طبقي يستلزم بالضرورة ، تغييرا في تكوين الدولة وطريقة الحكم ؛ وان الدولة بالمفهوم الطبقي لا بد ان تذوي وتصير الى زوال بزوال الطبقات . ويترتب على الفرضية الاولى ، ان التحولات في السلطة في مرحلة طبقية واحدة تقتصر على تبدل في الاشخاص وقد يمتد التحول الى تبديل في الشكل لكنه لا يمتد الى طبيعة الدولة ونظام الحكم . بينما التبدل الذي ينشأ عن تحول السلطة من طبقة الى اخرى يكون بالضرورة تبدلا جذريا يتناول طبيعة الدولة ونظام الحكم . وعلى هذا ، افترض لينين ان يرافق قيام الاشتراكية تغيير شامل وأساسي يتناول مشاركة المواطنين جميعا مشاركة فعلية في ادارة الشؤون العامة وتتخذ اجهزة الدولة مظهرا ومضمونا شعبيا فيتولى الشعب نفسه مثلا ، مهمة الدفاع والمحافظة على الامن والنظام . وعالج لينين موضوع الدولة في كتابه «الدولة والثورة» (٩٥) الذي صدر قبيل ثورة اكتوبر وكشف فيه أوجه الخلاف بين النظرية الماركسية في الدولة التي مرت الاشارة الى جانب منها ونظرة احزاب الاشتراكية الديمقراطية في غرب اوربا الذين احتفظوا بالنظرة التقليدية الى الدولة .

ومثلما اخذ لينين بنظر الاعتبار التقاليد الثورية في مجتمعه في انشاء تنظيمه

كذلك فعل في ديمقراطيته الاشتراكية باتخاذه نظام السوفييت اساسا لهـذه الديمقراطية . فنظام السوفييت ، كما قال ، نظام لم يشرع بقانون بل كان من صنع الجماهير ووليد مبادرتها الثورية استنبطته من واقعها للتعبير عن ارادتها(٩٦).
فروسيا القيصرية لم تكن تعرف تمثيلا فعليا يمارس التشريع ويشرف على ادارة الشؤون العامة في الدولة . فمجلس النواب ـ الدوما ـ لم يكن غير كيان اسمي لا يمارس سلطة حقيقية . وكان إقدام بعض المراكز العمالية في خلال ثورة ١٩٠٥ على عقد اجتماعات وانتخاب ممثلين لها من بين المجتمعين يؤلفون هيأة او لجنة أطلق عليها اسم السوفييت ، تمثلهم وتنطق باسمهم ، مبادرة تلقائية لا سابقة لها لم تلبث ان انتشرت في القرى والارياف وسائر الوحدات الاجتماعية وأصبحت الطريقة المختارة لتمثيل العمال والفلاحين واظهار ارادتهم وتميزت بالبساطة والخلو من المراسيم والشكليات ، يجري الاختيار فيها على الطبيعة برفع الايدي . وعاد هذا النظام الى الظهور في ثورة أكتوبر بعين الطريقة التلقائية .

وقدّر لينين اهمية السوفييت واتخذه واسطة لربط تنظيمه بالشعب مباشرة وجعله مركز النشاط والتوجيه الشعبي ووجد فيه فعلا ، اكبر العون في الفوز على معارضيه. وعن طريق السوفييت تعرفت جماهير الشعب، عمالا وفلاحين، نساء ورجالا ، على شؤون السياسة ومارست اقرب ما يكون الى ديمقراطية مباشرة . وقامت السوفييتات في المعمل والحقل والقرية والمحلة وفي الوحدات المسلحة وفي سائر التجمعات تناقش الامور العامة والقضايا التي تعنيها والمشاكل التي تواجهها وتتخذ القرارات بشأنها وتشرف على تنفيذها . واتبع فيها التدرج ، فالسوفيتات الدنيا تختار من بين اعضائها ممثليها للتي تليها وهكذا حتى المراكز السوفييتية العليا في القمة . وكان لها اعظم الاثر في نجاح ثورة أكتوبر وأبلت بلاء حسنا في الحرب الاهلية وكانت كالوحدة العضوية تتحرك وتقرر وتنفذ وتخطط وتدير المعارك وتدبر حاجات الجمهور في منطقتها وتشد من عزمه وتتخذ ذاتيا كل ما يقتضي للتغلب على المشاكل المحلية وتنفذ في الوقت عينه تعليمات المراكز العليا وتعكس لها رأيها فيما ترى وتريد . وبلغ من تقدير لينين للسوفييت ان تصور انها سوف تكون النموذج للوحدة الاجتماعية التي تمارس السلطتين التشريعية والتنفيذية في عالم الغد والوسيلة التي تصلح لان يمارس المواطن عن طريقها سلطة الحكم .

وبذل لينين في الحقل النظري جهدا لا يقل عما بذله في حقل التنظيم . ففي فترة الردة التي اعقبت ثورة ١٩٠٥ وهمدت فيها الروح الثورية وهانت على المنظمات السياسية مبادئها ، كان لينين يحث رفاقه على بذل المزيد من الجهد في تعميق فهمهم للماركسية وتطبيقاتها ويوضح لهم كيف يجب ان يواجهوا فترة الركود التي تجتازها الحركة الثورية ويؤكد لهم ان على موقفهم في هذه الفترة يتوقف مصير الحركة . ولم تقتصر جهوده في هذا ، على الحركة الثورية داخل روسيا بل امتدت لتشمل الحركة في نطاقها العالمي . فواجه احزاب الاشتراكية الديمقراطية في غرب اوربا بالنقد لما رأى انها تشوه الماركسية باغفال خصائصها الثورية

وتستهين بالمادية الديالكتية وبقواعد الاقتصاد السياسي الماركسي . وتصدى للرد على منظري البورجوازيـــة الذين تعرضوا للماركسية وللماديـــة . وكان اهـم ما وضعه في مواجهتهم كتابه «المادية وفلسفة النقد التجريبي» (٩٧) الذي اصدره سنة ١٩٠٨ يرد فيه على «الماخية» فلسفة ايرنست ماخ ، الفيلسوف النمســوي وأحد اقطاب فلسفة المثاليةالذاتية الذين ارجعوا المعرفة الىالاحساس وحدهمغفلين السببية والضرورة والمؤثرات المادية وقالوا ان صحة اية تجربة تثبت بالحس وحده. وكانت المثالية الذاتية قد اجتذبت عددا من المفكرين الروس فنشطوا في معارضة الماركسية . وشرح لينين في هذا الكتاب نظرية المعرفة في الماركسية مؤكدا اهمية الممارسة والتطبيق في تكوينها ونموها وثبوتها . كما شرح المادية الديالكتية مؤكدا اهميتها في الحركة الثورية ، وكذلك المادية التاريخية بوصفها الطريقة العلميـــة التي يصح الاعتماد عليها في تشخيص مقومات التطور وعوامله في المجتمع .

وفي الوقت الذي استهانت احزاب الاشتراكية الديمقراطية في غرب اوربا ، قبيل الحرب العالمية الاولى وفي اثنائها ، بفكرة الثورة وحوّلتها الى مجرد شعار وتغافلت عن الظروف الثورية التي هيّأتها الحرب ، كانت الحركة الاشتراكيـــة الثورية في روسيا القيصرية بتأثير لينين وجهوده ، تنظر الى الحرب كفرصـــة يقتضي ان لا تفوّت . ونشر لينين في بيان ذلك وتأكيده العديـــد من الكراريس والمقالات حلل فيها التطورات الاقتصادية منذ وفاة ماركس وانجلز وما ترتب عليها من لزوم التغيير في مواقف الاشتراكيين في شتى الاقطار . وكان اعظم اسهام له في هذا الخصوص كتابه «الامبريالية آخر مراحل الرأسمالية» (٩٨) الذي صدر سنة ١٩١٦ ويعتبر ذو اهمية قصوى ومتمما لكتاب «رأس المال» ، وفيه أوضح لينين كيف ان الرأسمالية ببلوغها طور الامبريالية دخلت مرحلة جديدة هي مرحلة الاحتكار وشخّصها بالظواهر الآتية : قيام الاحتكارات الكبرى بتركز الانتـــاج ورأس المال وما يكون لها في الحياة الاقتصادية من تأثير ؛ هيمنة الرأسمال المالي باندماج الرأسمال المصرفي بالرأسمال الصناعي ؛ رجحان تصدير رؤوس الامــوال على تصدير السلع ؛ اقتسام احتكارات الرأسمالية الدولية مناطق العالم واستكمال هذا الاقتسام بهيمنة الدولة الرأسمالية الاعظم .

وكان لينين يقدّر مدى تأثير الامبريالية منذ زمان ، فقد تتبع هذا التأثير في بلاده وبنى كثيرا من آرائه ومواقفه على ما توصل اليه من نتائج فعلها . لكن المحفز المباشر الذي دفعه الى اصدار كتابه عنها في هذه الفترة هو موقف الاشتراكيين الديمقراطيين في غرب اوربا من الحرب وفهمهم الخاطىء لطبيعـــة الامبرياليـــة الذي انتهى بهم الى تأييد حكوماتهم في حربها الاستعمارية وحثهم الطبقة العاملة على اسناد المجهود الحربي مغفلين القرار الذي التزموا به في مؤتمر الدوليـــة الثانية في شتوتكارت سنة ١٩٠٧ ، الذي نص على العمل لمنع نشوب مثل هذه الحرب والاستفادة من الازمة الاقتصادية التي تنشأ عنها لتعجيل سقوط حكـــم الرأسمالية اذا نشبت برغم مساعيهم لمنع حدوثها . ولم يكن لينين يعارض الحرب

بذاتها بل كان ينظر اليها من حيث هي استمرار للسياسة يقتضي ان يعين الموقف منها وفقا لاغراض السياسة ومراميها ؛ فاذا كان غرضها التوسع واخضاع الشعوب الاخرى ونهب ثرواتها او استغلالها من قبل الرأسمالية كانت حربا عدوانية امبريالية وجبت معارضتها ومقاومتها ، أما اذا كانت حرب تحرر وطني وغرضها مقاومة الاضطهاد القومي وتحقيق تقرير المصير كانت حربا تحررية وطنية او قومية وجبت مساندتها .

ومن هنا كان الوجه الثاني لموقف لينين من الامبريالية وهو الوجه الذي يتعلق بالمستعمرات ومناطق النفوذ ويهم شعوب العالم الثالث بوجه خاص ويتناول موقفه او بالاحرى موقف الماركسية من المسألة القومية . فالماركسية تنظر الى القومية في مرحلة الرأسمالية من حيث هي سلبية ورجعية او ايجابية وتقدمية بالنسبة للغاية التي ترمي اليها . فاذا كانت غايتها التحرر القومي والاستقلال الوطني وتعزيز السيادة كانت ايجابية وتقدمية تواكب حركة التحرر وتعزز مقام الحرية والديمقراطية . اما اذا كانت على العكس ، تنزع الى التسلط على القوميات الاخرى لاستغلالها وسلبها حريتها فهي سلبية رجعية تشد من عضد الاستبداد والطغيان حتى في الوطن الأم . وعلى هذا الاساس كان ينظر لينين الى أبطال الحركة القومية «البورجوازية» ويقول «ان المرء لا يكون ماركسيا اذا لم يقدر اعظم التقدير اولئك الثوريين البورجوازيين الكبار الذين استطاعوا ان يوقظوا الملايين من ابناء شعوبهم ويدفعوا بها الى محاربة الاقطاع والتخلف والى انشاء الدولة القومية والاخذ بأسباب الحضارة العصرية»(٩٩) .

وكانت شعوب روسيا القيصرية بوصفها بلدا اوربيا آسيويا متعدد القوميات ، قد تأثرت تأثرا عميقا بالحس القومي وتعاطفت مع حركات التحرر القومي في ايران وتركيا والصين والهند التي شاركتها افتقاد حريتها القومية ، فكان مفهوم التحرر القومي في حركتها الاشتراكية الثورية اكثر عمقا وأصدق من شعور الاشتراكية الديمقراطية في اوربا الغربية التي أتمت شعوبها تكوينها القومي البورجوازي ولم تعد المسألة القومية بصيغتها التحريرية تعنيها، لاسيما وهي تعلم ان كثيرا مما تنعم به من الرفاه والحرية مرده الى الامبريالية التي يسّرت للبورجوازية ان تفرط في استغلال شعوب المستعمرات وتنعم على الطبقات العاملة والفقيرة في الوطن الأم بجزء ضئيل مما تجنيه على سبيل الاغراء والتخدير ، بحيث اصبحت حتى احزاب الاشتراكية الديمقراطية فيها ترتضي تأييد الامبريالية ولا ترى في ذلك بأسا ما دامت الاشتراكية لا ريب آتية ولا ضير في ان تبقى شعوب المستعمرات في حكم الامبريالية فترة تقتبس اسباب الحضارة . وكان هذا عكس ما رأى لينين الذي اخذ برأي ماركس من ان شعبا يضطهد غيره لا يكون حرا وان تحرر الشعوب وتحقيق الاستقلال القومي في المستعمرات وطيد الصلة بتحرر الطبقة العاملة في الوطن الأم . فاستعباد شعوب المستعمرات هو في مصلحة الطبقة الحاكمة في الوطن الأم بالدرجة الاولى ، لانه لا يعزز شأنها ويزيد في قدرتها فقط بل يفرض وجود قوة قاهرة تحت الانذار الدائم تعطي الحكم في

الوطن الأم طابع العنف المستديم ويغذي الغرور والتعصب والحقد وينمي الفوارق الطبقية ويوهن مقومات الحرية فيفسد الحياة العامة ويعزز بالتالي الاستبـــداد والطغيان .

ومن هنا كانت الصلة الوطيدة بين حركة التحرر القومي او الوطني والحركة الاشتراكية . فتحرر الامم المستعبَدة وتحقيقها استقلالها السياسي والاقتصادي من شأنه ان يسد بوجه المستثمرين المستعمِرين منافـذ استغلالها والعبث بشؤونها فيؤدي الى هزال الامبريالية فلا تعود قادرة على عرقلة تقدم الحركة الاشتراكية وتقدمها . والتناقض بين الامبريالية من جهة وحركة التحرر القومي والاشتراكية من جهة اخرى هو مبعث اهتمام لينين بالحركة القومية وبمبدأ تقرير المصير وهو اهتمام حقيقي وجاد لانه أصيل يقوم على مصلحة مشتركة . ولهذا نرى لينين يعلن منذ سنة ١٩٠٧ ، في مؤتمر الدولية الثانية ، ان مسألة استقلال الشعـــوب الخاضعة للاستعمار وحقها في تقرير مصيرها تعني حركة العمال بمقدار ما تعني تلك الشعوب ، ويستشهد بتصريح لسيسل رودس ، احد أقطاب الامبرياليـــة يحث به الدول الغربية على الاهتمام بالامبريالية ويقول : «اذا اردتم تجنب الحروب الاهلية فما عليكم الا ان تصيروا امبرياليين» (١٠٠) . وهو يعني ان الامبريالية ، بما تعود به من أرباح طائلة لا تيسر للرأسمالية في الوطن الأم وفي المستعمرات تعزيز قدراتها القمعية فحسب بل تيسر لها ايضا ان تشتري بفضلات وفتات ما تجنيه من الارباح ، ذمم فئات من البورجوازية الصغيرة تسخرها لافساد الحركـــات السياسية القومية والوطنية ، وتخلق ارستقراطية عمالية متهاونة وطيعة تعدها لتتولى قيادة النقابات والتنظيمات العمالية وتنشىء رديفا من الانتهازيين تستخدمهم في تضليل شعوبهم وافساد الحركات الوطنية والقومية والاشتراكية على حد سواء.

ولم تقف دراية لينين وطاقاته عند حدود العمل التنظيمي وقيادة الحركـــة الاشتراكية في روسيا وتطوير الماركسية في الحقل النظري وقيادة الثورة ، بل تجاوزت ذلك كله الى حقل البناء والانشاء حيث ابدى من البراعة وحسن التدبير ما قد يكون معجزا . كان كل ما توقعه ماركس وانجلز ان تبدأ الثورة الاشتراكية اولا في احدى اقطار اوربا الغربية التي بلغت الذروة في التقدم الصناعي او ان تحدث في وقت واحد في مجموع هذه الاقطار . ولم يكن لينين يطمح في الواقع، من وراء ثورة اكتوبر ان تتحقق الاشتراكية ابتداء بل ان تكون ، كمـــا افترض ماركس وانجلز ، اشارة لبدء تلك الثورة الاشتراكية في اوربا الغربية ولهذا لم ير فيها غير «ثورة بورجوازية تحققها البروليتاريا» (١٠١) ، واقتصرت الاجراءات فيها، في البدء على تأميم البنوك والسكك الحديد والتجارة الخارجية وعدد محدود من المشاريع الكبرى الى جانب تحرير الفلاح وتصفية الاقطاع . لكنه بعد ان فقد الامل بقيام الثورة الاشتراكية في اوربا الغربية لتسند ثورة أكتوبر واتسعت نشاطات العناصر المعادية لها بدعم من الدول الغربية واليابان وأميركا ، لم يجد مفرا من مواجهة المهمة البالغة العسر ، مهمة تعجل تطبيق الاشتراكية في بلد زراعي متخلف

انهكته الحرب ودمرت قطاعه الصناعي الصغير (١٠٢) . والمرء لا يستطيع ان ينصف تجربة لينين الفذة هذه فيما انجزته وفيما اخفقت في انجازه الا اذا نظر اليهــا بوصفها تجربة رائدة قامت على نحو غير مقدر وباجراءات لا سابقة لها وفي ظروف بالغة العسر وبذخيرة بشرية ومادية بائسة وغير معدة لمواجهة مقاومة وعداء سافرين من لدن حكومات العالم البورجوازي كلها .

لكن التجربة نجحت وقلبت بنجاحها كثيرا مما كان مسلما بصوابه ، وما من شك ان من اهم مقومات نجاحها : ادراك لينين كنه الامبريالية وما احدثته مــن تغيير في طبيعة العلاقات والاتجاهات الاقتصادية وما أدت اليه من تبدل فـــي أوضاع العالم وسياسة الدول ومفاهيم العصر ، وتقديره الضرورة الى تطويـــر الماركسية لمواجهة هذه التبدلات وهي جسيمة وأساسية بحيث بدت وكأنها بتأثير الامبريالية قد غيرت وجهة التحول الى الاشتراكية . فبينما كان المفروض أن يبدأ التحول الى الاشتراكية في الغرب المتقدم واذا بالامبريالية تفرغ حركة العمال في الغرب من ثوريتها وتحولها الى قوة طيعة مستكينة ، وتحمل سلبيات الرأسمالية الى الاقطار المتخلفة ومعها كل مولدات الطاقة الثورية التي يؤججهـــا الاستغلال المفــرط .

ودلل لينين منذ البدء ، على يقينه بالصلة الوثيقة بين الحركة الاشتراكيـــة وحركة التحرر الوطني والقومي وصدق عزمه على التضامن معها في مقاومـــة الامبريالية ، بالغاء حكومة الثورة جميع الامتيازات والتنازل عن جميع الممتلكات التي كانت لروسيا القيصرية في بلدان الشرق في ايران وتركيا وأفغانستان ، وتقديمها العون دون قيد او شرط لحركة مصطفى كمال الوطنية التحررية والكشف عن المعاهدات السرية التي تواطأ الحلفاء فيها علــى اقتسام ممتلكات الدولـــة العثمانية . وعبر لينين عن ضرورة التضامن الوثيق بين الاتحاد السوفييتـــي وحركات التحرر الوطني والقومي في الشرق في مواجهة الامبريالية فقال «غني عن القول ان حركة شعوب الشرق الثورية ... اذا لم تكن على صلة وثقى بالنضال الثوري الذي تخوضه جمهوريتنا السوفييتية ضد الامبريالية العالمية فلا يمكنها ان تتطور بنجاح كما لا يمكنها ان تجد حلا لمشاكلها . وبحكم جملة من العوامل منها تخلف روسيا ومساحاتها الشاسعة ووقوعها على تخوم اوربا وآسيا ، على تخوم الغرب والشرق ، ترتب علينا ، ونحن نرى في ذلك شرفا عظيما ، ان ننهض بكامل العبء الذي يحمله البادىء بالنضال العالمي ضد الامبريالية . ولذلك فان كل مجرى الاحداث المتوقعة في المستقبل القريب ينبىء بأن النضال ضد الامبريالية العالمية سيتسع ويشتد وبأنه سيكون حتما على اتصال بنضال الجمهورية السوفييتية ضد قوى الامبريالية الموحدة» (١٠٣) .

٨ ـ الماركسية بعد لينين .

توفي لينين في الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٢٤ نتيجة نزيف

في الدماغ وهو في الحادية والخمسين من العمر . وأثبتت الاحداث التي اعقبت وفاته ان افتقاده المبكر كانت له نتائج أضرت بالاتحاد السوفييتي وانعكس تأثيرها على الحركة الاشتراكية ومفاهيم الماركسية بصورة عامة . فقد تميز لينين ، بالاضافة الى فهمه العميق للماركسية ، بواقعية ابعدت عن نظرته الى الامور الشطط والاوهام، وكانت له ثقة عظيمة بالشعب جعلت ايمانه بالحرية والديمقراطية راسخا ومنسجما مع مستلزمات الواقع الجديد ومبادىء الماركسية . رفعته ثورة أكتوبر الى قمة السلطة فلم يذكر عنه انه حاول ان يكبت صوتا للمختلفين معه في اجدى السبل لتحقيق اهداف الثورة حتى عندما بلغ بهم الامر ان اتهموه بالجاسوسية وبالعمالة لقيصر المانيا ورفعوا اصواتهم عاليا إثر عقد معاهدة برست ليتفوسك يدينونه بالخيانة وهو قائد الثورة والثورة في أحرج ظروفها ، فلم يخرج عن حدود مقارعة الحجة بالحجة ولم يفكر ان يواجههم بالعنف على الرغم من ان ماضي بعضهم لم يكن خاليا من المآخذ ، واكتفى ان يقول فيهم ان مثلهم مثل ذلك الفارس المسك بحسامه يردد وهو على فراش الموت : «السلم عار والحرب مفخرة» (١٠٤) . وقال : «انهم ينظرون الى الامر من موقع الارستقراطي وأنا انظر اليه من موقع الفلاح» (١٠٥) . وكان يحمل لروسيا حبا عظيما وخالصا ، قال فيه احد خصومه: «ان لينين يمت لتربة روسيا بوشائج القربى» (١٠٦) . وقال احد الشعراء : «ان لينين لصيق بتربة روسيا اكثر من اي بشر مشى عليها» (١٠٧) . وقيل انه بلغ من حبه لعامة أهل وطنه انه لم يشأ ان يتميز في العيش عن سائر الناس فيه ، فعاش وهو يقيم في الكرملن ، مقر القياصرة ، عيشة البساطة والكفاف دون تكلف ، ينام على سرير من حديد في غرفة ارضها عارية . وكان مما حبّب نظام السوفييت الى نفسه تمكينه فقراء الناس وعامتهم من ممارسة الديمقراطية بعد ان كانت الديمقراطية بمراسيمها وتعقيداتها التقليدية وقفا على فئة الخاصة . وبقي واثقا من ان النصر سيكون للشعب بفضل السوفييت الذي مكن الشعب من مواجهة المعتدين مواجهة مباشرة وتولى مسؤولية الدفاع عن ايمان وبقي ثابتا واثقا من النصر حتى بعد ان استولت القوات المضادة للثورة بمساعدة انكلترة وفرنسا واليابان وأميركا على القسم الاعظم من اقاليم روسيا ولم تبقَ لحكومة الثورة الا جزءا لا تتجاوز مساحته امارة موسكو في القرن السادس عشر . وفي الوقت الذي كان فيه كثيرون يرون استحالة قيام ديمقراطية حقيقية قبل ان يتم تحقيق الاشتراكية كان هو يرى العكس ، يرى الضرورة الى ان تسبق الديمقراطية قيام الاشتراكية لان البروليتاريا يتعذر عليها تحقيق الاشتراكية قبل ان يتهيأ لها السبيل الى تحقيقها بالنضال من اجل الديمقراطية . كما كان يرى اهم واجبات النقابات في دولة الاشتراكية ، تدريب العمال على ممارسة الديمقراطية والتخلق بأخلاقها. وكان من طبعه ان يسمع الآراء المتعارضة كلها قبل ان يأخذ بما يراه الصواب الذي يرضي الاطراف الاخرى . وكان قوي الحجة ، منكرا للذات ، لا يعنيه في السلطة غير خدمة الثورة ، يناقش الامور ببساطة وأمانة وتواضع ، متجنبا زخرفة

القول وتملق السامعين او استثارة مشاعرهم ، لا يترك مناقشة الراي حتى يبلغ به مرامه ويقتنع بأن الآخرين ادركوا وجه الصواب فيه وارتضوه عن طيبة خاطر . وهكذا استطاع ان يجمع الكلمة ويحافظ على وحدة الصف ويجتاز اعظم المخاطر التي تعرضت لها الثورة (١٠٨) .

وبوفاته افتقدت الثورة كل ذلك وافتقدته الاشتراكية والماركسية من ورائها، فتعرضت للتعثر والبلبلة . فقد تفجّر الخلاف في صفوف قادة الاتحاد السوفييتي فتصدعت وحدتهم واتجه الحكم من ديمقراطية مركزية الى الاستقطاب في فردية مركزية لجأت الى اعتماد الشدة والقهر والى التصفيات الجسدية ، فضاعت الجدوى في نظام السوفييت الذي فقد جوهره في شكلية ميتة مسيطرة فيها بيروقراطية كان لينين يتطير منها ويتحين الفرص لازاحتها وهو يقول «ان دولة السوفييت دولة عمال تشوهها البيروقراطية» (١٠٩) . ويقول «كلما ازددنا تصميما على اقامة حكم حازم ، جاد وثابت ، وجب ان نزداد تشبثا بكل ما يضمن هيمنة القاعدة الشعبية لنتمكن بصورة اكيدة وجازمة من اجتثاث جذور البيروقراطية». وكانت اغلى أمنياته ان يشارك المواطنون جميعا في ادارة شؤون الدولة فيتمرسون في ادارة شؤونها ويستغنون عن الحاجة الى البيروقراطية المتفطرسة (١١٠) .

ومع انه قد لا يصح ان تحصر بستالين وحده شوائب الفترة التي نسبت اليه ولو ان اثر شخصه كان بارزا ولا يمكن اغفاله . فليس هنالك شك بوجود عوامل اخرى استطاع لينين ان يتغلب عليها او يجمدها ، استعادت نشاطها من بعد ، ترجع الى خلفية المجتمع الروسي والى تعجل الاخذ بالاشتراكية دفعت اليه ظروف خاصة والى المادة البشرية التي ورثتها الثورة وهي كما قال لينين «قد افسدتها سني الرق والعبودية والراسمالية والصراع بين الجار وجاره من اجل مزيد من الربح» (١١١) . ومن وراء ذلك كله كانت الضغوط الخارجية المتفاقمة التي لم تترك منفذا تنفذ منه لتفسد وتشوه او تستثير المقاومة السافرة والخفية الا ولجأت اليه حتى خلقت جوا من التأزم القلق والريبة جعل السلطة في مواجهة خطر ماثل لا سبيل لدفعه ، كما بدا لها ، الا ان تأخذ امرها بالحزم . وأيسر الحزم في شريعة الحاكمين ، الاستبداد وأخذ الناس بالشدة ، برغم انهما في واقع التاريخ ، دفع الخطر بما هو اشد خطرا .

هكذا استقطبت السلطة في مركزية بيروقراطية طغت فيها روح الآمرية وفرضت الالتزام بنهج ثبّتت حدوده سلفا وعين بمقتضاه ما يجب الاخذ به وما يقتضي تجنبه . ووضع ستالين بنفسه صيغة خاصة للمادية الديالكتية اعتبرت الدليل الوحيد المعتمد في جميع المسائل النظرية ومعيار الخطأ والصواب فيها ، وبقيت المعول عليها حتى سنة ١٩٥٦ . وكان من جراء ذلك ان دكتاتورية البروليتاريا التي هي في جوهرها دكتاتورية الطبقة العاملة او بالاحرى سيطرة الشعب تحل محل دكتاتورية البورجوازية ، استحالت الى دكتاتورية حزب اتخذ شكل الهرم وأدت الى حكم بيروقراطي حدي جمدت فيه حرية الاجتهاد والتنظير نيفا وثلاثين سنة وقامت فيه عبادة الشخصية واستحالت الماركسية الى مسلمات تجتر لا تحتمل المناقشة

وتتسم بالقطعية وخرجت على احدى اهم خصائصها وهي الواقعية التي تفرض ان يؤخذ بحركة التغيير والتطوير حساب الوضع التاريخي وطبيعة التركيب الاجتماعي وأحكام الضرورة فيه وامكاناته المادية والمعنوية. وقد كان من جراء الحملة التي تعرض لها الاتحاد السوفياتي من الراسمالية العالمية، منذ اول عهده ، ان برزت الضرورة الى التضامن بين الاحزاب الشيوعية مع الحزب الشيوعي السوفييتي الذي حقق بثورة اكتوبر اول دولة اشتراكية وقام بأول تجربة فعالية للماركسية وكان من الطبيعي ان يشغل في الحركتين الاشتراكية والماركسية مقام القيادة . فلما اتخذت اوضاع الاتحاد السوفييتي بعد وفاة لينين وجهتها في الفترة الستالينية ، تأثرت الحركتان الاشتراكية والماركسية في نطاقهما العالمي وكذلك الاحزاب الشيوعية غير السوفييتية بشوائب هذه الفترة التي التزم فيها مبدأ التطابق في النهج والخطط وأغفل التفاوت في ظروف وامكانات ومتطلبات وخصوصيات كل أمة . وبدا الامر وكأن الاشتراكية تستخف بالشعور الوطني والقومي الذي كان في البلاد غير المتقدمة بوجه خاص في بدايات تكوّنه وشدة حساسيته ، كما بدا لشعوب الدول المتقدمة في غربي اوربا وكأنه يتنكر لتقاليدها الديمقراطية التي الفتها وأصبحت جزءا من طبيعتها وتكوينها ويغفل وجود الفردية التي كانت من مقومات حياتها العامة . وكان من جراء ذلك كله ان تهيأ للقوى المضادة ان تتهم الاحزاب الشيوعية بالتبعية واللاوطنية واللاقومية واللاديمقراطية.
ويصف «التوزه» ذكرياته عن هذه الفترة وأثرها في جيله فيقول :

«كنا نقضي جل وقتنا بالشغب واثارة القلاقل في الوقت الذي كان يجدر بنا ان نتوجه لممارسة حقنا وواجبنا في طلب العلم والمعرفة لنكون على بينة من الامر ... فلم نكن نعرف شيئا ... حتى عن نضال لينين التاريخي ضد التطرف اليساري والنظري ولا كنا على دراية بأعمال ماركس المتأخرة . كان كل ما نتوق اليه ونتلهف اليه هو ان نجد في كتابات ماركس الملتهبة التي تضمنتها اعماله المبكرة ما يرضي احساساتنا المتقدة . وانه ليثير عجبنا الان امر كبارنا الذين كان عليهم ان يرشدونا الى الصواب ! ترى ما الذي دهاهم فعانوا ما عانينا من غفلة ؟ بل ما الذي اصاب ذلك التراث الذي صقلته التجارب والاحداث وزهت به متون الكتب حتى استحال في نظرهم الى نصوص ميتة ؟» (١١٢) .

ويشير الى الحزب الشيوعي الفرنسي في تلك الفترة فيقول :

«... واضطر الحزب ان يولي الاولوية للسياسة فأخفق في تقدير اهمية النظرية ، لاسيما النظرية الفلسفية ... وبرغم انه ضم الكثير من المفكرين من كبار الادباء والشعراء ورجال الفن وعلماء بارزين في علوم الطبيعة والتاريخ وفي علم النفس ، انتموا اليه بدوافع سياسية في الدرجة الاولى ، لكنه لم يجتذب فلاسفة يدركون ان الماركسية لا يقتضي ان تكون مجرد نهج سياسي او طريقة تحليل وتطبيق فحسب بل من الضروري ان تكون قبل ذلك وفوق ذلك ميدانا لبحوث نظرية اساسية لازمة لتقدم علوم الاجتماع وسائر العلوم الانسانية ولازمة

ايضا لتقدم علوم الطبيعة وللفلسفة . وهكذا قدّر للحزب الفرنسي ان يولد ويتكون وهو يعاني الحاجة الى ذخيرة من التقاليد النظرية تعينه في اخراج اساتذة منظرين يأخذون بقياده .

«وكان هذا هو الوضع الذي واجهناه وحملنا على ان نعمل ، معتمدين على انفسنا ، اذ اننا لم نجد اساتذة مبرّزين في الفلسفة الماركسية يرشدوننا الى الصواب ... صحيح ان الحزب لم يكن يفتقر الى شخصيات متفانية وعلى قدر كبير من الثقافة او الى علماء وأدباء مرموقين لكنه كان في الواقع بأمسّ الحاجة الى متضلعين في الفلسفة الماركسية ينشأون في كنفه وهم على بينة من تاريخنا الخاص ، ومؤهلين لفهم أوضاعنا الخاصة ووصف العلاج لها ...» (١١٣) .

الى ان يقول : «وان اولئك الذين يلقون على ستالين ، رغم ما ارتكب من آثام واقترف من اخطاء ، كل الذي اصابنا من خيبة الامل وتعرضنا اليه من الزلل وحل بشتى أوجه حياتنا من بلبلة ، لا بد وأن تتولاهم الحيرة حين يجدون انفسهم مضطرين الى الاعتراف بأن انتهاء عهد الدوغمائية الستالينية لم يُعد الى الماركسية كامل صفائها ... بل ان زوال تلك الدوغمائية وضعنا وجها لوجه امام هذه الحقيقة وهي : ان الفلسفة الماركسية التي وضع ماركس خطوطها الاساسية بعد اكتشاف نظريته في التاريخ ما تزال بأمسّ الحاجة الى اتمامها ، اذ هي ما تزال، كما قال لينين ، لم ينجز منها غير وضع الحجر الاساسي ...» (١١٤) .

٩ ـ نظرة ماركسية الى مجتمع الشرق

وتجمعت إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية عوامل شتى ، بدت وكأنها وضعت الماركسية على عتبة مرحلة جديدة . من هذه العوامل زيادة الاهتمام بها بعد خروج الاتحاد السوفييتي من الحرب منتصرا باعادة النظر في أصولها والرجوع الى نصوصها الاصلية بحيث وضع في العشرين سنة التي اعقبت الحرب في شتى موضوعاتها من الدراسات والبحوث اكثر مما وضع في مجمل الموضوعات الانسانية الاخرى . ومنها امتداد حدود المجتمع الاشتراكي ليشمل شرق اوربا والصين وجنوب شرق آسيا وأميركا الجنوبية والوسطى ويتردد صدى الافكار الماركسية في شتى انحاء العالم الاخرى . ومنها كذلك ، انتهاء الفترة الستالينية وارتفاع الحجاب عن مبادئها وتصوراتها كما عبر عنها ماركس وانجلز ولينين والماركسيين الاولين ؛ وانبعاث النشاط في حركة التحرر الوطني والقومي في اندفاع وحيوية جارفة وهي لا تجد من يمد لها العون الصادق ، ماديا ومعنويا ، غير بلدان الاشتراكية المظفرة . وانفتحت آفاق جديدة لتطور النظرية الماركسية بعد ان تيسر الاطلاع على اعمال لماركس ، بالدرجة الاولى ، لم يتيسر الاطلاع عليها على نطاق واسع من قبل ، وهي على جانب عظيم من الاهمية ، منها كتاباته المبكرة التي تضمنت «نقد فلسفة هيغل في القانون» و«مقدمة» هذا النقد وهي ذات اهمية

عظيمة ، والنص الكامل للايديولوجية الالمانية والمخطوطات الاقتصادية والفلسفية لسنة ١٨٤٥ ، و«المسودات الاساسية» (الكروندريس) التي اعتمدها ماركس في اعداد رسالة «اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» وكتاب «رأس المال» وهي تقع في الف صفحة قال عنها «انها حصيلة تحقيق وتتبع استغرق خمس عشرة سنة من احسن سني حياته» (١١٥) والتي يظن بعض المحققين ان انجلز ولينين ربما لم يطلعا عليها اذ هي اكتشفت سنة ١٩٢٣ ونشرت بالالمانية سنة ١٩٣٩ ولم تنشر بالانكليزية الا سنة ١٩٧٣ (١١٦) .

وتعتبر «المسودات الاساسية» عظيمة الاهمية بالنسبة للماركسية لانها اجملت افكار ماركس في المرحلة الاخيرة من حياته وحسمت في عديد من أمور بقيت معلقة وموضع خلاف . فقد كان ينظر الى الفكر الماركسي حتى ثلاثينات هذا القرن على انه في جوهره اقتصادي على اساس ان جل ما جاء به ماركس انه حلل الرأسمالية في كتاب «رأس المال» وكشف ما تنطوي عليه من متناقضات افترض انها سوف تؤدي لا محالة الى انهيار الرأسمالية وقيام الاشتراكية . ونظر اليه، أعتمادا على ما جاء في أطروحة الدكتوراه وفي كتاباته الاولى وفي «نقد فلسفة هيغل في القانون» و«مقدمتها» وفي «مخطوطات باريس» ، على انه يعبر عن نزعة انسانية تؤكد حرية الفرد ومسؤوليته» (١١٧) . حتى قام جدل حول النظر الى الفكر الماركسي أهو فكر واحد ام انه ذو أوجه متفاوتة وأدوار متعاقبة ، فذهب بعض المعنيين بفلسفة الماركسية وفي مقدمتهم المفكر الفرنسي «التوزه» (١١٨) الى القول بأن حياة ماركس المفكر يقتضي النظر اليها على انها تتكون من اربعة مراحل تتمثل الاولى بكتاباته المبكرة بين عامي ١٨٤٠ و١٨٤٤ ؛ والثانية دور انتقال شغل سنة ١٨٤٥ وتمثل بمخطوطات باريس ؛ والثالثة عبرت عنها كتاباته بين عامي ١٨٤٥ و١٨٥٧ وسميت مرحلة النضوج ؛ وأخيرا مرحلة النضج بين عامي ١٨٥٧ و١٨٨٣ التي وضع فيها رسالته «اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» ، وكتاب «رأس المال» ، والمسودات الاساسية . والمرحلتان الاخيرتان في راي التوزه ، هما المعول عليهما في فهم جوهر الماركسية . وبنى التوزه رأيه هذا على ما افترضه من تلاشي تأثير هيغل في المرحلتين وإغفال ماركس موضوع الغربة والاستلاب وآثار بقايا التفكير المثالي والطوبائي التي بدت في المرحلتين السابقتين . غير ان المسودات الاساسية التي ظهرت اخيرا وعاد فيها ماركس الى بحث موضوع الغربة والاستلاب باسهاب شغل ثلاثمائة من صفحاتها وكشف فيها عن مبلغ تأثره بهيغل ، حسمت الامر بأن رجحت راي الذين يعتبرون الفكر الماركسي وحدة متماسكة نمت وتطورت (١١٩) .

وكان مما تضمنته المسودات الاساسية بحث مجدد للمراحل الاجتماعية جاء على ذكر مجتمع الشرق وخصائصه وما يميزه عن بقية المجتمعات ، وهو موضوع يعنينا بوجه خاص ويستلزم منا التمعن فيما ورد فيه . وكان موضوع المقارنة بين خصائص المجتمعات التي فصلت في هذا البحث المجدد وما كشفت عنه من راي في تفاوت المجتمعات في أهليتها وقدرتها على التطور واختلاف سبلها اليه قد اغفلت

تماما خلال الفترة الستالينية ربما خشية ان تتزعزع بكشفها وحدة الاحزاب الشيوعية وتضامنها في صراعها المرير مع الرأسمالية العالمية ومواجهة الهجمة الامبريالية الشرسة قبيل الحرب العالمية الثانية وفي اثنائها مما فرض الضرورة لتأكيد موضوع السلّم الواحد للتطور ، ترتقيه الشعوب رغم تفاوت طبيعة تكوينها وتاريخها بسرعة تختلف باختلاف مستوياتها وظروفها (١٢٠) .

وبقي الماركسيون الى نهاية الحرب العالمية الثانية وزوال تأثيرات الفترة الستالينية يأخذون براي ماركس وانجلز الاول ، وهو الذي عيَّن مراحل التطور الاجتماعي والتاريخي بالنسبة لاوربا الغربية بأنها : البدائية التي اعتمد الانسان فيها الصيد والرعي في كسب قوته وانحصر فيها تقسيم العمل في حدود العائلة او الجماعة ؛ ثم العهود القديمة التي اعتمد فيها على الزراعة ونشأت فيها الملكية الخاصة وبرز التفاوت بين حياة الريف وحياة المدينة ؛ فمرحلة الاقطاع التي نشأت في أعقاب انحلال الامبراطورية الرومانية وتمثلت بغلبة الريف على المدينة وأصبحت ملكية الارض مدار الحياة الاقتصادية وقد انحصرت بأمراء الاقطاع ، وظهرت فيها المراتب الاجتماعية متمثلة بأمراء الاقطاع والنبلاء والقساوسة والفلاحين والحرفيين والصناع والمتدربين والدهماء ؛ واخيرا ، مرحلة البورجوازية الراسمالية التي عادت الغلبة فيها الى المدينة واتسع فيها مجال التجارة متجاوزا الحدود المحلية وخلق قدرة في الانتاج حولت الثروة الى تجارية صناعية على نطاق واسع ، وظهرت فيها القومية بمفهومها الحديث واشتد التنافس الراسمالي متخذا القومية واجهة له . ولم يكن في هذا التصور لمراحل التطور جديد ولم يقصد به ماركس في الحقيقة الا تجسيد فكرة التعاقب ولو انه اكثر ما اهتم فيه بمرحلة الاقطاع بسبب صلتها المباشرة بنشوء البورجوازية الرأسمالية وهي موضوع بحثه (١٢١) .

ولم يظهر حتى عام ١٨٥٠ ما يدل على ان ماركس اهتم بتاريخ الشرق او تجاوزت معرفته بمجتمعه ما ذكره هيغل في تاريخ الفلسفة عن حكم الطغيان والاستبداد فيه . على انه بعد انتقاله الى فرنسا ومراجعته كتب مفكري عهد التنوير ومعرفته ان هيغل اخذ فكرته في الموضوع عنهم ، وعلى الخصوص من مونتسكيو ، رجع الى هذا الاخير فأخذ عنه تصورا اكثر عمقا . وكان مونتسكيو في كتابه «روح القوانين» ، قد اشار ، وهو بصدد نقد حكم الاستبداد في فرنسا، الى ان هذا النمط من الحكم اكثر ما يلائم مجتمعات الشرق ، لاسيما تلك التي تقوم في وديان الانهر الكبيرة مثل وادي النيل او وادي الرافدين او وادي الكنج حيث تمتد السهول الشاسعة الحارة ذات الطبيعة الصحراوية التي يصعب فيها حفظ النظام في حين تشتد الحاجة اليه ، وحيث تقوم الحاجة الملحة للسدود اتقاء لاخطار الفيضانات ولمؤسسات الري لتنظيم الري وضبط توزيع المياه وكلها امور لا طاقة للافراد والوحدات الاجتماعية الصغيرة تدبر امرها فلا يكون من مناص من ان يوكل امرها الى سلطة مركزية عليا . وهذا هو في رأي مونتسكيو اساس الحكم المطلق في تلك المجتمعات التي اصبحت الامور فيها رهنا بمشيئة حاكم فرد تحكّم بحياة الناس ومصائرهم حتى بلغ من امره ان ادعى الالوهية او انه اقرب

الى الآلهة منه الى الناس وان الآلهة اوكلت اليه امر رعايتهم . وقال مونتسكيو ان من شأن هذه المجتمعات ان تبقى الاحكام فيها ثابتة لا تتغير وأن تنتفي فيها ملكية الارض اذ تبقى وقفا للسلطان لا يتجاوز حق الناس فيها حق التصرف القلق، مما يضعف فيهم الشعور بالذات ويزيدهم خمولا فوق الخمول الناجم عن حرارة الطقس ويفتقدون الطموح وروح المبادرة بافتقادهم الحرية ويغلبهم اليأس وينعدم فيهم شعور المواطنة ويحل محله الخنوع والاستسلام فيطغى فيهم الاستبداد ويتفاقم احساس الناس بالتفاهة والمسكنة (١٢٢) .

وبانتقال ماركس الى انكلترة ومتابعته دراساته الاقتصادية واشتراكه وانجلز في اعداد المقالات الصحفية عن الهند والصين والشرق الاوسط ومراجعتهما لهذا الغرض مؤلفات المستشرقين ومحاضر البرلمان (١٢٣) واهتمامهما بعد السبعينات بتتبع شؤون روسيا القيصرية والحركات الثورية فيها ، اتسعت معرفتها بأحوال هذا الجانب من العالم وعدل ماركس تصوره لمراحل التطور بأن أدخل الى عواملها عامل الاقتصاد وأعطاه الاولوية من حيث مدى تأثيره ، على العوامل الطبيعية التي اخذ بها مونتسكيو ، وافترض ان التطور التاريخي الذي اعقب المرحلة البدائية جرى في ثلاثة اتجاهات تمثلت بثلاثة انماط من المجتمعات هي الآسيوي والقديم والجرماني ، وهي تسمية اصطلاحية لانه لم يعتبر الآسيوي مثلا ، ينحصر في آسيا وحدها اذ قد تقوم له نماذج تحمل خصائصه ولكن في غير آسيا . ورأى ان ابرز ما يميز بين الانماط الثلاثة طبيعة علاقات الانتاج والطريقة التي يستخلص فيها فائض الانتاج وكذلك درجة تقبل كل منها للتطور والتغيير وطبيعة الصراع الطبقي (١٢٤) .

فالنمط الآسيوي يتميز في ان جهاز الدولة فيه كان المستغل الرئيسي الذي يستوفي فائض الانتاج وتتشخص به الطبقة المستغلة ويكون مرجع الاستغلال فيه الى الوظيفة لا الى الملكية او الى رأس المال ولو ان هذا لا ينفي وجود ملاكين كبارا للعقار وتجارا وماليين اضافة الى الفلاحين لكنهم جميعا تجاه هيمنة الحكم المطلق لا يكون لهم أثر سياسي يستحق الذكر (١٢٥) . والنمط الآسيوي في رأي ماركس، أقل الانماط الثلاثة تقبلا للتطور وأشدها مقاومة للتغيير بسبب الاكتفاء الذاتي الذي تتسم به الجماعات والوحدات الصغيرة التي يتألف منها وهي تقوم متناثرة في ريفه وليس فيها أثر لصراع طبقي ، فكل وحدة فيه تنتج كل ما تحتاج اليه وبضمنه فائض الانتاج الذي تقدمه للسلطة المركزية . وبسبب هذا الاكتفاء الذاتي تصبح الوحدات الاجتماعية فيه منغلقة على نفسها ، تحيا في عزلة تجمد فيها على عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ونسق حياتها على مر السنين ولا تشعر بحاجة الى المدينة او الى الحياة المدنية . ومن هنا كانت المدن في الشرق لا تقوم وتنمو في الغالب بصفتها مقرا لمجتمع وانما بصفتها معسكرا ومقرا لفاتح او متسلط احاط نفسه بمؤسسات العبادة والادارة وجباية الضرائب والاتاوات في قلعة مسورة ومحصنة وفي مكان متسلط وبمعزل عن سكان البلاد. وقد يلحق بهذا المقر المركزي

احيانا مقرات فرعية في مواقع جغرافية صالحة لتبادل البضائع تستبدل فيها ما تفيض عن الحاجة من المنتجات بأخرى تكون هنالك حاجة بها او تكون مركزا لتجنيد العساكر وتسخير الايدي العاملة (١٢٦) .

اما النمط الثاني ، القديم ، فقوامه المدينة والارض الزراعية الملحقة بها ، وهو يتسم بالانفتاح والفعالية والقدرة على التوسع والنمو والتغير ، ونموذجه مجتمعا الاغريق والرومان ، ويقوم اقتصاده على العبيد وتكون له قدرة التحول الى الاقطاع ثم الى الراسمالية (١٢٧) . واخيرا ، النمط الجرماني الذي يتألف من مجموع من الاسر تشكل كل منها وحدة انتاجية مستقلة ترتبط بالوحدات الاخرى ارتباطا طليقا لاغراض الدفاع والعبادة وتسوية المنازعات والمشاركة في المراعي ومناطق الصيد ، ويتسم هذا النمط بشدة النزعة الفردية ويكون اكثر فعالية وتقبلا للتغيير والتطور من النمط الآسيوي .

واجمل ماركس رايه في الانماط الثلاثة بهذه الصورة : «إن تاريخ المجتمع القديم تاريخ مدن قامت على ملكية الارض وعلى الزراعة . اما التاريخ الآسيوي فقام على تنافر المدينة والريف والمدينة فيه ليست الا معسكر ومقر للامارة مفروض على الريف ومحمل على تركيبه الاقتصادي . اما النمط الجرماني الذي تشخص بالقرون الوسطى فانه بدأ تاريخه بملكية الارض ونما وتطور بفعل التضاد بين الريف والمدينة ، ومنه نشأ المجتمع الحديث بتحضير الريف لا بتريبف المدينة كما جرى عليه النمط القديم» (١٢٨) .

ويمكن بيان الاختلاف بين هذه الانماط الثلاثة بالنسبة لعلاقات الانتاج والصلة بين المدينة والريف بهذه الصورة : في النمط القديم استوفى السيد فائض الانتاج بوصفه يملك الارض والرقيق ، وفي النمط الاقطاعي (الروماني) استوفى الاقطاعي فائض الانتاج بوصفه مالكا للارض فقط وان بقي القن ملحقا بالارض بحكم اعتماده في كسب عيشه على الصلة التي تربطه بالاقطاعي . اما في الآسيوي فان السيد يستوفي نصيبه من فائض الانتاج لقيامه بوظيفة يخدم بها السلطة التي هي المالك الوحيد . وعلى هذا ، يتمتع المنتج الفعلي في النمط الآسيوي باستقلاله الذاتي بصفته الفردية بخلاف ما يكون عليه المنتج في النمطين الآخرين ، لكنه تشمله عبودية عامة برعويته لحاكم بأمره مطلق السلطة (١٢٩) . وليس للرق وللقنانة مكان في النمط الآسيوي وان وجد الرق فيه فانه لم يكن الا مظهرا جانبيا انحصر في حدود الخدمة المنزلية وفي الاعمال الشاقة احيانا كما في استخراج المعادن ، فلم تزد نسبة الرق فيه في اقصى حدودها في الصين مثلا، الذي اعتبره ماركس نموذجا النمط الآسيوي ، على واحد ونصف في المائة من مجموع السكان (١٣٠).

والمدينة في النمط القديم كانت مدار النشاط الاقتصادي والاجتماعي والفكري والريف ملحق بها ، بعكس النمط الاقطاعي الذي صار الريف فيه هو المدار ولو انهما كانا في تعارض وتضاد أثار صراعا بينهما كان مبعث التطور الاجتماعي . وفي النمط الآسيوي كان الريف مركز الانتاج لكن المدينة فيه لم تكن ، كما رآها

ماركس ، غير نمو سرطاني لم تعبر مهما بلغت سعتها وعظمتها عن روح الشعب ولم تؤدِ وظيفة انتاجية بل كانت كخراج مرضي يمتص الانتاج ومرتعا لحاشية الحكم المطلق وزبانيته (١٣١) ، او مركزا يقوم في موقع جغرافي تتوافـــر فيه ميسرات التبادل (١٣٢) .

وربما امكن حصر الفروق الاساسية بين النمطين الآسيوي والاقطاعي في ثلاثة: الاول يتعلق بطبيعة تكوّن كل منهما ، فالآسيوي يقوم في اقاليم واسعة تؤلـــف الارض الصالحة للزراعة فيها جزءا صغيرا يزدحم بالسكان ، كما في مصر الذي ازدحم سكانها في جزء لا تزيد مساحته على ثلاثة بالمائة من مساحتها الكلية ، وكما في الصين حيث لم يتجاوز معدل نصيب الفرد فيها سدس الايكر . وتكون الارض في هذا النمط بسبب حاجتها الدائمة للري والتسميد غالية الثمن بالقياس للفرد فيها الذي يهون شأنه لتوافره بأعداد كبيرة .

اما الاقطاع ، فقد نشأ على العكس ، في اماكن توفرت فيها ارض صالحة لا تحتاج الى العناية بقدر حاجتها الى اليد العاملة ، ولها حدود طبيعية كالانهار او الغابات او الجبال تحددها وتفصلها عن غيرها . وكان من وراء ذلك ان عز شأن الفرد فيها بالنسبة للحاجة اليه . وهذا الفارق هو من جملة اسباب التفاوت في النظرة الى الفرد في الغرب وفي الشرق .

اما الفارق الثاني فيرجع الى طبيعة ملكية الارض التي تتعين بها عائدية فائض الانتاج . ففي النمط الآسيوي انحصرت ملكية الارض بالدولة وحدها بينما انحصرت في الاقطاع بأمير الاقطاع ويرثها من بعده اكبر ابنائه . وعلى هذا كانت الدولة في النمط الآسيوي تتقاضى فائض الانتاج على شكل ضريبة هي في الحقيقة أجـــر الارض وينال كل فرد في الطبقة الحاكمة التي يتألف منها جهاز الدولة نصيبه منه بمرتب لوظيفة فعلية او اسمية ، بينما ينحصر هذا الفائض في النمط الاقطاعـــي بأمير الاقطاع وحده يتقاضاه مستقلا عن الدولة بشكل منتوج او خدمات او بكليهما.

أما الفارق الثالث فيتعلق بمركزية السلطة في الدولة . ففي النمط الآسيوي تتولى الدولة وظيفة حيوية اذ هي تقوم بانشاء وصيانة مؤسسات الري وضوابطه وتتعهد خزن الاحتياط من الحاصلات الزراعية لسني القحط كما كانت تفعل في مصر ، وتكون مسؤولة عن حماية البلاد وعن أمنها وقد تحيطها بالاسوار كما فعلت في الصين، وهي لقاء ذلك ومن اجلهتنفرد بالسلطة وتتدبر شؤونها بموظفين تعيّنهم ويكون لها حق عزلهم . اما في الاقطاع ، فالامر على العكس ، تكون السلطة فيه لامركزية ، وامير الاقطاع يتكفل فيه جميع شؤون اقطاعيته: الدفاع وجبايةالضرائب والرسوم وكلها تعود اليه ، واجراء العدل بكل درجاته الى حد المصادقة على احكام الاعدام . ولا يشغل الملك بالنسبة لامراء الاقطاع غير المكان الاول بين متساوين ولا تتجاوز سلطته الفعلية حدود اقطاعيته ؛ وكثيرا ما اختار أمراء الاقطاع احدهـــم ليكون ملكا . ولم يظهر في هذا النظام ملوك مطلقي السلطة مثل لويس الرابع عشر الا في اواخره .

١٠ ـ الماركسية وعالم الغرب بعد الحرب العالمية الثانية

تواجه الماركسية منذ نهاية عهد ستالين بوجه خاص نقدا من الماركسيين انفسهم، يهدف الى استبعاد شوائب الفترة بين وفاة لينين ونهاية عهد ستالين، والى اعدادها لمسايرة التغيير المتواصل في عالم اليوم لتكون كما أريد بها، دليلا في كشف واقع المجتمعات وتعيين مستلزمات تقدمها وامكانات التغيير فيها. وما من شك في ان ردود فعل الفترة الستالينية التي اعقبت تجربة لينين بتحقيق الاشتراكية في بلد واحد ومتخلف، واسهاماته العظيمة الاهمية في تطوير الماركسية، وكشف مستلزمات اعدادها لمواجهة الرأسمالية في مرحلة الامبريالية، وتأكيد الضرورة لتضامن الحركة الاشتراكية وحركة التحرر الوطني والقومي في النضال المشترك ضد الامبريالية، ثم اتساع نطاق الاشتراكية وشمولها مجتمعات متفاوتة في مستوياتها وأصولها التاريخية، وتحقق التحرر للشعوب على نطاق واسع، وما ظهر من اعمال ماركس التي كشفت ما كان مجهولا من آرائه وعززت ما كان معروفا منها، كل ذلك هيأ الحافز والطاقة ومهّد السبيل لتطور مُجدٍ.

وقد ظهر ان الماركسية عندما تعرضت الى ازمة في حالتين سابقتين، الاولى في الدولية الثانية عندما اتخذ شطر منها نهجا اصلاحيا تمثل بحركة الاشتراكية الديمقراطية في غرب اوربا، والاخرى في الفترة الستالينية، كان مرد الازمة في الحالتين اصابتها بالدوغمائية نتيجة اغفالها اولوية الواقع ومستلزمات الثورية وتجاهل الارتباط بين النظرية والتطبيق. ذلك انها وهي تولي الاولوية للعوامل المادية (الاقتصادية) تبدأ بالواقع المادي وتفترض ان صحة الرأي او النظرية لا تثبت الا بثبوت جدوى اي منهما في الواقع، عبر الممارسة والتطبيق. فالواقع المادي، ثم الفكرة او النظرية المستخلصة منه ديالكتيا، ثم وضع هذه الفكرة او النظرية موضع التطبيق، هذه الامور الثلاثة تؤلف تسلسلا مترابطا ومتكاملا يؤدي الاخلال به الى الاخلال في صحة الماركسية لدى التطبيق. فاعطاء الاولوية للفكرة وهي حالة كثيرا ما تقع في ظروف التسلط والانفراد بالسلطة، وإغفال الواقع المادي بفرض فكرة غير مستنبطة منه او مجلوبة اليه من خارجه، يفقد الماركسية سلامتها ويحولها الى مثالية ويجعل من النظرية صيغة مقطوعة من الزمان والمكان، معزولة عن الممارسة والتطبيق فيحول دون التثبت من صحتها وجدواها.

وفي حالة الازمة الاولى التي أدت الى انحراف الدولية الثانية، انفصمت الصلة بين النظرية والتطبيق فيها فغلبت الدوغمائية وأفقدتها ثوريتها ودفعتها في اتجاه اصلاحي. والماركسية تنظر الى الاصلاح بريبة وترى انه لا يستهدف المعالجة الجذرية بل يحاول التستر على العلة واخفاء تأثيراتها السلبية ليكون وسيلة تخدير يرجىء الانفجار وقد لا يتعدى ان يكون مجرد خدعة وطعما يقصد به كسب الوقت فحسب.

اما في حالة الازمة الثانية في الفترة الستالينية، فالامر جرى على عكس ما جرى في الازمة الاولى ولكنه انتهى الى النتيجة عينها. فقد اغفلت النظرية بأن

عزلت عن الممارسة والتطبيق اللذين ربطا بسياسة الدولة وأنيطا ببيروقراطية تأخذ الامور بروتينية آلية تسوقها الاحداث بدلا من ان تأخذ هي بزمام الاحداث مستعينة بالنظرية. فكان ان تحولت الماركسية الىنهج سياسي سلطوي ميكانيكي واستحالت الى دوغمائية مفروضة من فوق الواقع .

وفي الظروف الحرجة التي احاطت بالاتحاد السوفييتي وبلغت من الشدة بحيث عرضت وجوده الى الخطر بتفاقم امر النازية ، برزت الضرورة بصورة ملحة الى تأكيد وحدة الحركة الاشتراكية وتماسكها في النطاق الدولي . لكن هذا التأكيد في ظل الدوغمائية الستالينية بدا بمظهر الولاية وبفرض نهج موحد اغفل المبدأ الذي يلزم كل طرف من اطراف الحركة الاشتراكية اخذ واقعه اساسا لنهجه الخاص الى جانب التزامه بالخط العام . فكان من جراء ذلك ان تولد لدى الاطراف غير السوفييتية شعور بالتبعية اصطدم باحساساتها القومية والوطنية مما أضر بتماسك الوحدة الاشتراكية بدلا من ان يعززها .

ويحاول مفكرو الماركسية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، في اوربا الغربية بوجه خاص ، القيام بدراسات وبحوث يراد بها تحليل العلل التي نجمت عن تعثر الماركسية في ظل الستالينية وفترة الحرب العالمية الثانية وطغيان النازية واعداد الماركسية لمواجهة الرأسمالية الامبريالية في ظروف عالم اليوم ، وترتسم في مجرى هذه الدراسات والبحوث ملامح تيارين تزداد بروزا يوما بعد يوم ، يركز اولهما على مشاكل الماركسية في مواجهتها مجتمع الرأسمالية الصناعية المتقدمة بالدرجة الاولى ويعتمد من حيث الاساس وبالدرجة الاولى آراء ماركس وانجلز وما جاء بكتاب «رأس المال» من تحليل لمجتمع الرأسمالية في غرب اوربا . ويأخذ التيار الثاني بالماركسية كما كيَّفها لينين بالدرجة الاولى لمواجهة الرأسمالية في مرحلة الامبريالية ويطرح مشاكل العالم خارج اوربا الغربية حيث تواجه الشعوب المتخلفة في الامبريالية عقبة كبرى تسد بوجهها آفاق التحرر والتقدم .

ويعيدنا التيار الاول الى الجدل الذي دار اثناء الحرب العالمية الاولى وقبيل ثورة أكتوبر وفي بداياتها حول امكان تطبيق الماركسية في مجتمع لم يستكمل مرحلة الرأسمالية الصناعية ، واصرار الماركسيين التقليديين وعلى رأسهم بليخانوف وروزا لكسمبرك ، على ان الماركسية لا يصح تطبيقها الا في بلدان الرأسمالية الصناعية وبعد بلوغ الرأسمالية فيها الاحتكار واستكمال استقطابها بحيث تكون قد اشرفت على نهايتها وتكون البروليتاريا في الوقت عينه قد استكملت وعيها وأتمت عدتها وتأهلت للاخذ بقياد المجتمع الجديد ، وهمد هذا الجدل وفقد جدواه برجحان كفة لينين الذي قاد الطرف المخالف ، بنجاح ثورة اكتوبر وتطبيق الماركسية في روسيا ؛ ولكنه عاد وظهر بصورة اخرى كرد فعل لمحاولة ستالين فرض ولايته على الكومنترن وكان البادىء به وفد الحزب الشيوعي الايطالي بأن وقف بوجه محاولة ستالين منذ صيف سنة ١٩٢٦ . وعبر احد اعضاء الوفد ، اماديو بورديغا (١٣٣) عن موقف الوفد في خطاب نقتطف منه هذه الفقرة لما تضمنته

من جوهر الخلاف . قال بورديغا :

«يقال ان حزبا واحدا بيننا حقق الثورة الظافرة هو الحزب البلشفي الروسي وعلينا ان نترسم الخطى التي أدت به الى النصر . وهذا صحيح ، ولكنه ليس كل الحقيقة . فقد ناضل الحزب الروسي في ظروف خاصة ، ناضل في بلد لم تكن الارسطقراطية الاقطاعية قد هزمتها بورجوازية رأسمالية . اما نحن فيترتب علينا ان نواجه بورجوازية ديمقراطية حديثة لها وسائلها الخاصة في افساد البروليتاريا وتضليلها من جهة ، وتستطيع من جهة اخرى ان تدافع عن وجودها في ساحة الكفاح المسلح بفعالية اعلى مما فعلته الاوتوقراطية القيصرية . وهذه الحال لم تواجه الحزب الشيوعي الروسي ... ويقال لنا ان الحل الصحيح يكون مضمونا اذا تولى الحزب الروسي الدور القيادي . لكننا لنا تحفظات على هذا القول يقتضي ان لا تُغفل . ترى ما هو العنصر الحاسم في الحزب الروسي ذاته ؟ اذا فرضنا ان هذا العنصر يتشخص بالرعيل اللينيني الاول ، فان الاحداث الاخيرة تشير بوضوح الى ان هذا الرعيل يمكن ان ينقسم على نفسه . وعليه فالحل الصحيح يقتضي ان يستند الى امر آخر ، الى الاممية بكاملها ؛ اي انه من الضروري ان يكون المرجع طليعة البروليتاريا الدولية بتمامها . ثم ان تنظيمنا هرمي ، وهو ما يجب ان يكون عليه ، ليكون مجرى الامور كلها من القاعدة الى القمة . لكن هذا الهرم يقف في واقع الامر ، على راسه ولهذا فهو مزعزع غير مستقر ، ولاجل ان يستقر يقتضي ان يقلب ليقوم على قاعدته . واذا سلمنا ان الثورة العالمية لم تكتمل عدتها بعد في البلدان الاخرى فعندئذ يكون من الضروري ان تقوم السياسة الروسية على الارتباط بالسياسة العامة للبروليتاريا . ما من شك في ان النضال يعتمد بالدرجة الاولى على الطبقة العاملة الروسية وحزبها الشيوعي ولكن من الضروري ان يعتمد ايضا على البروليتاريا في البلدان الراسمالية وعلى وعيها الطبقي »(١٣٤) .

ومع ان النقاط الجوهرية التي ميزت هذا التيار بدت واضحة في هذه الفقرة، بالتنويه بتفاوت ظروف المجتمع الروسي عن مجتمعات اوربا الغربية وبتأكيد الديمقراطية والمساواة بين الاحزاب الشيوعية وتجنب تسلط طرف واحد مهما تميز عن غيره ، فان الخطوط العامة لهذا التيار فصلّها فيما بعد، انطونيو غرامشي، احد ابرز مفكري الحزب الشيوعي الايطالي ، بل ان هنالك من ينظر اليه بوصفه ابرز منظري الماركسية في فترة ما بعد الحرب في غرب اوربا . وغرامشي الذي ولد سنة ١٨٩٠ وأسهم في بناء الحزب الشيوعي الايطالي في العشرينات ، كان من اوائل من أحس بالضرورة الى تكييف الماركسية لمواكبة التغييرات الجارية او المتوقعة في اعقاب الحرب العالمية الاولى في المجتمع البورجوازي الغربي . وهو برغم وجوده في فترة غمر فيها تأثير الثورة البلشفية اوساط الماركسية ، وبرغم اعجابه العظيم بلينين والتزامه اللينينية كمعين لآرائه ، فان تفاقم نفوذ البيروقراطية المركزية في الاتحاد السوفييتي وبروز الفاشية كقوة مناهضة للاشتراكية وخيبة امله في احزاب الاشتراكية الديمقراطية التي ثبت عجزها ونفرته الشديدة من

الدوغمائية ، كل ذلك ولد شعوره بضرورة تكييف الماركسية للظروف الجديدة التي غلبت في الرأسمالية الغربية . وبرغم ان ظروفه الخاصة لم تسعفه في انجاز هذه المهمة اذ عاجلته الفاشية بالحكم عليه بالسجن فقضى نحبه بين ضيق الحبس الانفرادي وتراكم العلل التي ألمت به ، غير انه استطاع في محنته ان يواصل النضال وهو سجين في حقل العمل الفكري فترك للماركسية ذخيرة ثمينة في «دفاتر السجن» التي ضمّنها آراء عظيمة الاهمية والقيمة بخصوص تكييف الماركسية، هي اليوم مرجع المعنيين بتطوير الماركسية لمواجهة الرأسمالية الصناعية المتقدمة بوجه خاص .

وكان مما لاحظه غرامشي ، ان تعقيدات المجتمع المدني المتزايدة في ظل الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، من شأنها ان تؤكد العامل الايديولوجي وتبرزه ليكون محور الصراع الطبقي ، من جراء زيادة اهتمام السلطة بالهيمنة الفكرية في توطيد سلطتها بدلا من الاعتماد على العنف . وان تلاشي التفاوت الظاهري بين القاعدة والتراكيب الفوقية في هذا المجتمع المتقدم ، وتيسر تحقيق تناسق في العلاقات بين مختلف الاطراف فيه ، يجعل العملية الثورية عملية كلية بحيث لا يعود عامل التحول الى الاشتراكية يتركز في عامل خاص كحلول ازمة اقتصادية او الاستيلاء على السلطة . ومن شأن هذا المجتمع ايضا ان يضم أصنافا شتى من البروليتاريا تتفاوت في مستوياتها الاجتماعية والفكرية ، وأن يتعرض الى تفجرات تكنولوجية متلاحقة ، ويتسع فيه أثر العلم في حقل الانتاج ، وتتغلغل فيه انماط متفاوتة من البيروقراطية ، وتعم فيه ثقافة جماهيرية تجعل المستوى الوسطي يغلب فيه ، وتتنوع وسائل التواصل فتيسر للطبقة الحاكمة اسباب التأثير ؛ وهذه كلها مما يزيد في صعوبة قيام حركة ثورية فيه . ولكن رغم ذلك يتهيأ في هذا المجتمع مجال متسع لمواجهة فعالة بين السلطة وقوى الثورة تجعله اشد تعرضا للسقوط عندما تركز المعارضة جهودها للفوز بالهيمنة الايديولوجية التي تصبح العامل الحاسم في التحول الاجتماعي وهو ما يجعل طبيعة النضال فيه تختلف اختلافا اساسيا عن تصورات الماركسيين التقليديين وعما افترضته اللينينية من جراء تحول الصراع الطبقي الى صراع فكري ينصب فيه التعرض لأسس المجتمع البورجوازي الفكرية والادبية والاخلاقية .

وفي ضوء هذه الملاحظات استخلص غرامشي وصاياه او مقترحاته للحركة الشيوعية في البلدان الصناعية المتقدمة وضمنها «دفاتر السجن» ومن اهمها :

تأكيده ضرورة النشاط السياسي الفعال بدلا من التعويل على المتناقضات التي ينطوي عليها النظام الاقتصادي الرأسمالي التي افترض انها تؤدي بالضرورة الى انهياره عاجلا ام آجلا وقيام النظام الاشتراكي . وقال غرامشي ان ترجيح النشاط السياسي الفعال من شأنه ان ينشىء الماركسية على أسس فلسفية رصينة تعيد لها حيويتها الانسانية بأن تضع الانسان في قلب العملية الثورية وتؤكد اهمية التخطيط وحسن التدبير لا المغامرة ، في السعي لتحقيق الاهداف . كما ان من

شأنه تأكيد المبدأ الماركسي الذي يربط النظرية بالممارسة والتطبيق ويجمع بين الموضوع والهدف ويجعل الحركة الثورية لا تقوم بالدراية العقلانية وحدها وانما بالإقدام المفعم بالحماسة وبفيض من العاطفة وبالمشاركة الفعلية في عملية الصراع السياسي اليومي . ويفترض بعد هذا ، اعطاء الاولوية للصراع الايديولوجي لان السيطرة الطبقية في المجتمعات المتقدمة تقوم بطريق الهيمنة الفكرية بالدرجة الاولى بينما تفرض في المجتمعات الاخرى بالاكراه او التهديد به . وكان من رأي غرامشي ان التعليم والوسط الاجتماعي والقانون والتربية وغيرها من الوسائل التي تسهم في تكوين الآراء والمعتقدات والقيم الاجتماعية والتقاليد وهي كلها تسند النظام القائم ، تجعل من الضروري ان يتوجه الصراع الى احراز الغلبة الفكرية للمعارضة، وان ينظر الى عملية الثورة من حيث هي عملية اجتماعية لا مجرد حدث وانها بطبيعتها هذه تتطلب هيمنة فكرية ترتبط ارتباطا عضويا بعملية التغيير .

ورأى غرامشي ان التغيير الثوري يقتضي بطبيعته ان يتناول جميع أوجه المجتمع بحيث يحقق تبدلا كليا في بنية المجتمع ، بخلاف ما يقول به الماركسيون التقليديون بالتأكيد اساسا على العلاقات الاقتصادية . ولهذا قال غرامشي بضرورة الاهتمام بجملة العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والايديولوجية حتى لا تبقى ناحية من نواحي المجتمع لا يمتد اليها الصراع الطبقي ولا يبقى شأن له أثر في حياة الناس ، حتى المسائل الاسطورية والخرافية لا يتناوله . فشؤون الحياة في الماركسية مشتبكة بحيث ان اي تغيير في اي جزء منها يؤدي الى تغيير شامل وكلي .

وكان من رأيه ان يتخذ التبدل الثوري طابعا شعبيا بحيث يجنب الثورة سيطرة «النخبة المختارة» فيقيها من التشويه السلطوي ويحقق لها تنظيما جماهيريا لصيقا بحياة الناس اليومية يتغلغل في جميع قطاعاتها بدلا من ان ينحصر في حزب طليعي عالي المركزية معني بالاستيلاء على السلطة فحسب . وعلى هذا رجح ما رجحه لينين ان يكون اساس التنظيم لجانا شعبية من قبيل السوفيتات .

ورأى الضرورة الى تكييف الماركسية لتلائم في ايطاليا ، مثلا ، ظروفها الخاصة وتكون ذات طابع بلدي لتصبح بحق حركة شعبية جماهيرية . فالثورة لاجل ان تكون ظاهرة شعبية لا بد للنظرية فيها ان تأخذ بخصوصية التاريخ والبنية القومية وبمنظور وحدوي وبلغة تخاطب تراث وتقاليد وأماني وتطلعات الشعب الى جانب التأكيد على الاممية كأساس للتضامن السياسي وللنضال من اجل تحقيق الاهداف البعيدة .

وأكد لزوم تجنب الثورة استعارة مخططات جاهزة مجلوبة تطبق بصورة آلية؛ وان يستبعد بوجه خاص فرض نموذج واحد في كل الظروف . وربما قصد بذلك استبعاد تطبيق النموذج السوفييتي في ظروف تختلف عن ظروف روسيا . فغرامشي رغم تأثره العميق بالثورة البلشفية واستلهامه الكثير من آرائه الاساسية من اللينينية الا ان ذلك لم يمنعه من ملاحظة وتأكيد التباين بين وضع ايطاليا ووضع روسيا القيصرية او اوضاع ما قبل الرأسمالية وأوضاع اوربا الغربية .

كما أكد الضرورة الى الانفتاح وتجنب المذهبية التي هي مبعث الانغلاق والتعصب ، لتكون الحركة الثورية وثيقة الصلة بعموم الناس ونظريتها وأهدافها واضحة لهم ومقبولة من لدنهم ولا تستبعد بطريقة تعسفية او اعتباطية الافكار والمستحدثات ذات الاصول البورجوازية او تزدري بالتظاهر او التصرف التلقائي او الساذج الذي يبديه العامة في التعبير عما يرتضون او يرفضون .

وبقي الحزب الشيوعي الايطالي معنيا بموضوع تطبيق الماركسية في مرحلة الرأسمالية الصناعية المتقدمة حتى بعد وفاة غرامشي وتولي بالميرو توغلياتي الذي أدام وجود الحزب ونشاطه عبر فترة الفاشية وطيلة فترة الحرب العالمية الثانية وخرج به وهو اقوى حزب شيوعي في اوربا الغربية ، وبتأثيره تبنى الحزب في مؤتمره الثامن ، في اواخر الستينات ، مبدأ الاستقلال الذاتي والنهج الخاص المستنبط من ظروف ايطاليا ورجح طريق الديمقراطية لبلوغ الاشتراكية والانفتاح على القوى السياسية الاخرى الى جانب الالتزام في موقفه الدولي بالتضامن مع الاحزاب الشيوعية الاخرى وبالاممية . وتقدم توغلياتي بهذا القرار الى مؤتمر الاحزاب الشيوعية سنة ١٨٦٠ وضمنه وثيقة يالطة التي نشرت بعد وفاته . ومع ان مجمل ما جاء بالقرار تبنته الاحزاب الغربية بوجه عام الا ان موضوع تطبيقات الماركسية في مواجهة الرأسمالية الصناعية المتقدمة لم تستقر بعد على اساس نظري ثابت . فملاحظات غرامشي او توغلياتي لم تتجاوز مقترحات عامة مبنية على ما نوه به ماركس وانجلز ولينين وليس فيها في حدودها هذه جديد . فقد سبق لماركس وانجلز ان قالا بامكان تحقيق الاشتراكية بطريق الديمقراطية البرلمانية في بلدان اوربا الغربية التي ألفت هذا النظام وأكدا ضرورة الربط بين النهج الثوري في كل بلد وظروفه وامكاناته . وميَّز لينين من حيث الاساس بين النهج الثوري الاشتراكية في البلدان الصناعية المتقدمة وتحقيقها في غيرها ولم يحصر الوصول الى الاشتراكية بطريق واحد وقال «ان كل من يفكر مليا في المتطلبات الاقتصادية الاساسية لثورة اشتراكية في اوربا ، لا بد ان يتضح له أن البداية فيها شديدة العسر بينما البداية لنا يسيرة (ويقصد البلاد غير المتقدمة) ، بيد ان مواصلة الثورة من قبلنا اكثر صعوبة مما هي بالنسبة لاوربا» (١٣٥) . وقال «ان الامم جميعها سوف تبلغ الاشتراكية ، ذلك امر لا مرد له . لكنها لن تبلغها بطريق واحد ... وكل من يتصور ان الثورة الاجتماعية سبيلا واحدا ، فانه لن يجد هذا السبيل مهما طالت حياته ... فكل بلد سيضفي على الثورة سمته الخاصة بالنمط الديمقراطي الذي يختاره او بديكتاتورية البروليتاريا التي يرتضيها او بما يعمل على تطويره من أوجه الحياة الاجتماعية ... وانه ليس بمستبعد ان ترجح بورجوازية بلد صغير مجاور لدولة كبيرة تحققت فيها الاشتراكية ، التنازل عن السلطة طوعا دون مقاومة» (١٣٦) . وبلغ شعور لينين بضرورة اختيار كل بلد سبيله الى الاشتراكية ان قال اوفد جاءه من القفقاز ، وهي جزء من روسيا يطلب مشورته في السبيل الذي يسلكه الى الاشتراكية، فرد عليه قائلا «لا تنقلوا عنا طريقنا اليها

بل فكروا لانفسكم بما حملنا على اختيارنا سبيلنا هذا اليها والظروف التي دفعتنا الى اختياره وما سنصل به اليها من النتائج» (١٢٧) .

وهنالك الان محاولات جادة لتشخيص واستكمال الاسس النظرية لتطبيق الماركسية في مجتمعات الرأسمالية الصناعية المتقدمة ولو ان هذه المحاولات أنجزت في الفترة الاخيرة ، بتأثير الدعايات الغربية المعادية ، الى حملة تشويش اتخذت من الموضوع منفذا لمحاولة تمزيق وحدة الحركة الماركسية وتلاشيها ، مستغلة انزلاق بعض قادة الاحزاب الشيوعية ومنهم سنتياغو كاررللو ، سكرتير الحزب الاسباني ، الى الانحدار بالموضوع من مستوى النقد العلمي الى النظرة الضيقة التي غلب فيها الانفعال ، بمعالجته الموضوع فيما سمي باليوروكوميونزم ، اي الشيوعية الاوربية ، معالجة خرج بها على مبادىء اساسية في الماركسية هي كليتها وارتباط تراكيبها الفوقية بطبيعة قاعدتها الاقتصادية (١٢٨) . فالقول بضرورة تطوير الماركسية لتطبيقها في ظروف مستجدة او متفاوتة شيء ومحاولة الخروج بها عن مبدأ او اكثر من مبادئها الاساسية شيء آخر . وتأكيد بورديغا او غرامشي او توغلياتي ضرورة تطوير الماركسية واتمامها بما هو مستنبط أو مشتق مما جاء به ماركس وانجلز او مبني عليه كما فعل لينين امر يختلف عما يقول به كاررللو في اليوروكوميونزم التي جاء فيها بتغييرات تخرج عن تلك الاصول وتناقض مبادىء الماركسية وتغفل اللينينية التي هي جزء لا ينفصل عن الماركسية ومتمم لها ، حتى بدا فيما ذهب اليه وكأنه يفترض ان لكل وضع ماركسيته وخرج ببدعة الشيوعية الاوربية بينما الماركسية بأصولها واحدة ولو انها تأخذ في التطبيق طبيعة وظروف الوضع الذي تحلله وتعالج مشاكله .

١١ ـ الماركسية اللينينية والامبريالية في العالم الثالث

اما التيار الثاني فقد اعتمد بالدرجة الاولى ، الماركسية كما طوّرها لينين ، اي انه اخذ الماركسية في مواجهة الامبريالية في مرحلتها الراهنة ، مؤكدا نظرية لينين فيما تؤدي اليه هذه الامبريالية من اقتسام العالم بين الدول الراسمالية الكبرى وتفاقم الاحتكار على نطاق عالمي والتركيز على تصدير رؤوس الاموال والاعتماد على الاستثمارات الخارجية ، وآخذا برؤية ماركسية أتم وأوفى من الوجهة النظرية تواجه الظروف المستجدة وتتناول على الخصوص تأثير الامبريالية في معارضة حركة التحرر الوطني والحركة الاشتراكية في الاقطار المتخلفة . وأهم ما يتميز به هذا التيار :

اولا ، وضعه الاحتكار في قلب العملية الاقتصادية ليحل محل التنافس الذي اعتبرته الماركسية ما قبل اللينينية مدار الاقتصاد الراسمالي ، ومتابعة ابعاد وامتدادات تأثيره . فلينين ولو انه أكد غلبة الاحتكار ومدى تأثيره في العملية الاقتصادية في مرحلة الامبريالية ، لكنه لا هو ولا اي من معاصريه تهيأت له

الامكانات او سمحت له الظروف لان يدرك أبعاد تلك الغلبة ومدى تغطيتها حركة الاقتصاد الرأسمالي كما كشفت عنه البحوث التي أجريت لاستقصائها بعد الحرب العالمية الثانية . وكان مما توصلت اليه ، ان الوحدة النموذجية في الاقتصاد الرأسمالي في مرحلته الراهنة ، لم تعد المؤسسة الصغيرة التي تنتج صنفا من السلع لسوق غير معينة او محددة ولا سيطرة لها عليها ، بل اصبحت مؤسسة كبرى تنتج على نطاق واسع جزءا رئيسيا من منتوج صناعي معين او جزءا رئيسيا لعدد من الصناعات ، مما ييسر لها قدرة على التحكم بالاسعار وتحديد مواصفات المنتوج ومقاديره ؛ وهو ما كان في الاصل من خصائص الاحتكارات التي تحولت الان الى ما يسمى باحتكارات القلة (Oligopoly) وهي جمع من المؤسسات تسيطر على خط صناعي معين وتتحكم بسوقه على نطاق عالمي (١٢٨) .

ثانيا ، اخذه بالنظرية القائلة بأن رأسمالية الاحتكار ادت في طورها الراهن الى تدويل الصراع الطبقي وغيرت من طبيعته بأن حولت المبادرة الثورية من بلــدان الرأسمالية الصناعية التي افترض ماركس ان البروليتاريا فيها هي التي تقــوم بتلك المبادرة ، الى البلدان المتخلفة حيث تتولاها الجماهير الكادحة التي تعاني شدة العوز فتجعل من الصراع الطبقي حركة جماهيرية ثورية ذات طابع شعبــي وأهداف وطنية او قومية عامة وهي تعي أن ما تعاني هو من صنع الامبريالية ومن ورائها رأسمالية الاحتكار (١٣٩) . وهو في هذا يستند الى راي لينين بــأن رأسمالية الاحتكار من شأنها ان تيسر بما تعود به من أرباح طائلة ، فرز جزء صغير من هذه الارباح يستخدم في رفع مستوى حياة فئة من الطبقة العاملــة يسميها الارستقراطية العمالية ، تستميلها به الى جانبها وتوحي لها بأن ما تنعم به من رفاه يرتبط بدوام الامبريالية وتعدها وتستخدمها في السيطرة على الحركـة العمالية وشل النشاطات الثورية في اوساطها (١٤٠) .

ثالثا : اعتباره ان الامبريالية ومن ورائها رأسمالية الاحتكار يحملان بطبيعتهما عللا سرطانية لا تؤدي الى هدر جزء كبير من طاقات الانتاج ومواده في صنــع وسائل الدمار واغراق المجتمع بدعايات تحجب عن الناس رؤية الامور على حقيقتها وتشيع من وسائل الترف واللهو والعبث والتخدير ما يبلد الشعور ويحط النفوس ويشجع الرذيلة والمجون فحسب ، بل انهما يؤديان الى اثارة حروب تتهدد حياة الناس وتعرض المجتمعات الى الدمار . وهذه العلل ليست طارئة ولا عارضة وانما هي من مفرزات الامبريالية ورأسمالية الاحتكار ، ولا يجدي فيهــا اي علاج ولا سبيل الى الخلاص منها الا بزوال الامبريالية ورأسمالية الاحتكار (١٤١) . وكل ما تتظاهر به الامبريالية من رغبة في تخفيف شقاء الشعوب وحرص على الحرية وعلى حقوق الانسان انما هو محض رياء ، شأنها فيه شأن دعاة الحروب عندما يقيمون لضحايا حروب أطماعهم النصب بدعوى تخليد ذكراهم ولا يبغون بها الا ان يخدروا في الناس الاحساس بوحشية الحرب ويخففوا من وقع فظائعها في النفوس .

رابعا وأخيرا ، ان الارباح الطائلة التي في قدرة رأسمالية الاحتكار جنيها هي

معين طاقتها الهائلة والفعالة في ادامة التخلف . فالفائض الاقتصادي الذي هو الفرق بين كلفة ما ينتج وما يستهلك في مجتمع ما ، لا يقتصر في رأسمالية الاحتكار على الايرادات الاعتيادية التي هي العوائد والارباح والفوائد في حدودها الاعتيادية المألوفة ، بل يتجاوزها الى حد بعيد بحيث يصح فيه تشبيه المدخول الحقيقي بجبل الثلج العائم لا يبان منه الا أقله ويبقى معظمه مخفيا عن الانظار . وهذا الجزء الخفي الذي تدخله رأسمالية الاحتكار ، كله ، في باب النفقات ، هو بيت الداء . فالامبريالية لا تلجأ الان الا عند الضرورة القصوى ، الى ما كانت تلجأ اليه في مرحلة الاستعمار قبل الامبريالية ، الى التهديد علنا بالقوة المجردة لفرض ارادتها على الدول التي تريد تطويعها . ولم يعد يجدي كثيرا مع هذه الدول في الظروف الدولية الراهنة ، زمجرة من قبل وزارة الخارجية او ظهور بارجة حربية قرب سواحل البلد المراد تطويعه لتعيد الى حكومته رشدها بعد ان قامت في مواجهة الامبريالية قوة اخرى يُحسب حسابها ، ترقبها ؛ وقام كذلك رأي عام دولي له شأنه . وأصبح فرض الهيمنة عملية معقدة تتطلب تطبيع رجال سلطة وقادة رأي ، إما مقدما قبل وضعهم في مناصبهم، واما بتطويعهم بالتهديد والوعيد والرشاوي وابقائهم تحت طائلة الفضيحة ؛ والاعتماد على القروض والمساعدات المالية لانشاء القواعد والمطارات العسكرية التي تفرض على هذه الدول انشاءها وادامتها بدعوى المحافظة على سلامتها واستقرارها الاقتصادي والاجتماعي بينما يكون الغرض الحقيقي اخماد انفاس حركات التحرر فيها وإدامة سيطرة حكومات منصوبة «معتدلة» ومرنة تلتزم الاتجاه المفروض وتكون طوع مشيئة الامبريالية كقوة قاهرة مسلّطة على الشعوب التي تحكمها . وهذه القروض هي، في الوقت عينه، وسيلة لاستنزاف ثروة البلد وجعله في عوز دائم . وهذا على نطاق العالم يكلف نفقات تبلغ مئات المليارات ويستلزم بصورة مستديمة دعاية واسعة متعددة الوجوه والالسن ، تحجب حقائق الواقع بدخان كثيف وتلقن الافكار الملائمة ، ويتطلب وجود جهاز معد يستطيع عند الضرورة ان يفتعل الاحداث ويثير القلاقل ويدفع بعملائه حتى الى تحدي السلطة او استفزازها ضد عناصر معينة ليبقيها دوما مزعزعة منبوذة من الشعب يسهل الاطاحة بها عند انتفاء الحاجة اليها او ظهور حاجة الى تبديلها بغيرها لتمثيل دور جديد . وهذه الاجراءات كثيرا ما تتعهدها وكالات الاستخبارات الخارجية التي تخول صلاحية تعاطي اية وسيلة تشاء لبلوغ الغرض المطلوب . وكل النفقات تسترد بالتالي مع ما يترتب عليها من فوائض ، عن طريق المكاسب الخفية لراسمالية الاحتكار بسبيل الصفقات التجارية والخدمات .

ويفترض هذا التيار ان مجتمع الانسان بوجه عام ، ولو ان تطوره يتم على اساس انه كلّ من حيث الوجهة والمصير ، لكنه في واقعه الراهن يقوم في ثلاثة قطاعات هي الامبريالي والمتخلف والاشتراكي ، يضم كل منها اقطارا متفاوتة في مستوياتها ضمن وحدتها الخاصة وهي تجابه فيها مشاكل متماثلة بحيث يتيسر عليها ان تستفيد من تجارب بعضها البعض في معالجة هذه المشاكل . واذا صح هذا الراي ، صح ايضا القول بامكان استفادة كل قطاع من تجارب القطاع الاقرب

اليه وتعذرت بعكس ذلك ، الاستفادة من تجارب القطاع الابعد ؛ وترتبت على هذا الافتراض نتيجتان : الاولى ، امكان الاستفادة من تجارب البلاد الاشتراكية بوجه عام في معالجة مشاكل البلاد المتخلفة المزامنة لها على اساس ان الاشتراكية اقتصر قيامها حتى الان في بلاد متخلفة ، وتعذر اخذ البلاد المتخلفة بتجارب الاقطار الرأسمالية المتقدمة للتفاوت التاريخي الذي يفصل بينهما . والثانية ، ان التفاوت التاريخي الذي يفصل القطاع الامبريالي في الرأسمالية المتقدمة عن القطاعين الآخرين هو بذاته عامل يربط هذين القطاعين احدهما من الآخر ويؤلف بين موقفها من القطاع الامبريالي الذي هو في الواقع العدو اللدود للقطاع الاشتراكي وعلاقته بالقطاع المتخلف علاقة الذئب بالشاة .

ويخلص فريق هذا التيار الى ان الرأسمالية بعد ان بلغت الذروة في استثماراتها الداخلية وطفح لديها الفائض الاقتصادي وانصرفت بطاقاتها في مرحلة الامبريالية الى الاستثمارات الخارجية ، ما لبثت ان وجدت نفسها مهددة من القطاعين الآخرين ، احدهما باشتراكيته والآخر ، المتخلف ، ببدء يقظة شعوبه وتنامي ثوريتها . وان الماركسية اذا كانت قد أكدت في مرحلتها الاولى دور الازمات الاقتصادية والتناقضات التي دفعت بها الى حروب طاحنة وساعدت في حشد عوامل الثورة ودفعت بها الى الانفجار ، فان الامر اختلف ببلوغ الرأسمالية مرحلة الاحتكار وبلوغ الاحتكار درجة العنفوان . فالرأسمالية في الوقت الذي بدت وكأنها اصبحت قادرة على مواجهة الازمات الاقتصادية وتخفيفها او صرفها وتصفية قسم من تناقضاتها ما لبثت ان وجدت نفسها في مواجهة خطر اعظم هو خطر الركود، لاسيما بعد ان لم يعد يسيرا عليها اللجوء الى العسكرية، تلوذ بها بعد ان برزت امامها عسكرية لا تقل عن عسكريتها بأسا وباتت الحرب تنطوي على خطر ماحق وشامل . وهكذا اصبح الركود الاقتصادي الخطر الذي يتهدد رأسمالية الاحتكار لانه كان يبدأ قبل الاحتكار بنطاقه الدولي بالرأسمالية الصغيرة ويساعد الكبيرة اما الان فليس له مخرج غير الركود. والركود زمامه، في رأي هذا الفريق، بيد البلاد المتخلفة ، فهو رهن بيقظتها ونضالها في سبيل حريتها السياسية وبناء كيانها الاقتصادي ، وكل ما تقدمت في هذه الميادين ضاقت بالاحتكار مجالات البقاء ونضب معين وجوده . والقطاع المتخلف لا يستطيع بمفرده ان يواجه الاحتكار ويتغلب عليه ، وحليفه الطبيعي في هذه المواجهة هو القطاع الاشتراكي الذي يقاسمه المعاناة من رأسمالية الاحتكار ويشاركه في مواجهتها . وهكذا ينتهي فريق التيار الثاني الى هذه النتيجة وهي ، ان الصراع الطبقي يتحول في مواجهة رأسمالية الاحتكار الى صراع بين الشعوب المتخلفة والقطاع الاشتراكي في جانب ورأسمالية الاحتكار في الجانب الآخر . وان هذا الصراع لا يلبث ان يأتيه العون من الطبقة العاملة في مواطن رأسمالية الاحتكار عندما تضيق به الحال فيعجز عن ان يوفر لها سعة العيش فتفيق وتخرج من ضياعها وتستعيد ثوريتها

وتحول الراسمالية المتقدمة الى اشتراكية متقدمة فتستكمل الاشتراكية وجودها على نطاق عالمي .

١٢ ـ تجربة الماركسية في الاتحاد السوفييتي

عندما فوجئت الراسمالية وهي في غمرة تناقضاتها وصراعاتها ، في نهاية الحرب العالمية الاولى ، بقيام اول نظام اشتراكي في الاتحاد السوفييتي ، حشدت كل ما تيسر لديها من طاقة للاطاحة به ، فواجهته بالحرب الاهلية والحصار الاقتصادي ، ثم بالحرب العالمية الثانية والحرب الباردة التي اعقبتها . لكنه خرج من كل هذه المهالك ظافرا ليكون عاملا حاسما في تغيير موازين القوى في العالم، رغم بدايته المتخلفة واضطراره لتخصيص قسط كبير من طاقاته لبناء صناعة ثقيلة توفر مستلزمات وإدامة قوة عسكرية ضخمة ووسائل دفاع منيعة في وقت كان فيه بأمسّ الحاجة لاستخدام امكاناته في تنمية صناعية تعينه في تصفية ما ورثه من معالم التخلف وتمكنه من توفير الحياة الرضية لشعوبه .

وكان من جراء التركيز في بناء هذه الصناعة الثقيلة ذات الطبيعة الخاصة على عجل ، ان جرى تحول في السكان من الريف الى مراكزها مما أدى الى ان يفتقد القطاع الزراعي نسبة عالية من الايدي العاملة اللازمة لتوفير المواد الغذائية الاساسية لعدد متزايد من النفوس ولجيش جرّار غير منتج . فكان ان واجه قلة في المواد الغذائية اجبرته على الاخذ بمكننة الزراعة وعلى عجل ايضا . لكن المكننة رغم انها استنفذت قدرا كبيرا من الطاقات والمواد لم تعد بالمقدر او المطلوب من المحصول . وظهر ان المكننة لا تكفي لتعود بوفرة في المحصول ما لم ترافقها صناعة كيمياوية تعد ما تحتاج اليه من اسمدة ، وجهود تبذل في تحضير بذور محسنة وما تتطلبه زراعة متقدمة من معرفة ومهارة . ولم يكن ذلك ممكنا في ريف هجره اغلب ذوي الطموح والحيوية من شبابه ، مرجحين حياة المدينة التي تعج بالبهجة والحركة بالنسبة لركود الريف وخلوه منها . وعلى هذه الصورة تعاقبت المشاكل وتزايدت الحاجة الى بذل الجهود التغلب عليها . وكان مما أدى اليه الضياع في النفوس والجهود والمواد والوقت ان بقي حال البلاد ، حتى بعد ان انقضت بضع عشرات من السنين ، يجسد تفاوتا بينا في مستوى الحياة في مجتمع الاشتراكية التيعلقت بها الآمال، ومجتمع الغرب الذياستمر يتقدمويزدهر، فتولّد احساس بالخيبة اتخذ منه اعداء الاشتراكية مادة لدعاية صورت الاشتراكية عاجزة عن بلوغ الحياة الرضية التي وعدت الناس بها .

وربما كان من الامور التي لا مفر من التسليم بها ، في ضوء هذه التجربة وغيرها ، ان لا مفر للامم التي تريد ان تختزل سبل التحول من التخلف الى الاشتراكية من مواجهة مثل هذه المشاكل والمتاعب والعقبات وكأنها كتب عليها أن تسدد حساب السلف الذي لم تسعفه الظروف او تقاعس عن أداء مهمته التاريخية

فلم يبذل الجهد الذي بذله معاصروه في احراز التقدم . على ان الارجح ان يكون ما توجهه الامم التي تنشد التقدم الان أخف وأيسر على الاجتياز مما واجه الاتحاد السوفييتي والامم الاخرى التي سبقتها بفضل ما توفر من خبرة وما يمكن ان يسديه العالم الاشتراكي من معونة ، لو ان هذه الامم احسنت تدبر شؤونها وحذرت مكائد الامبريالية ومؤامراتها وميزت بين حلفائها الطبيعيين وأعدائها .

والانتقال من التخلف الى مرحلة متقدمة ، وعلى الاخص ، التحول من التخلف الى الاشتراكية لا بد وأن يحمل معه بعض سمات التخلف فترة من الزمن كوليد جاء قبل أوانه . فالاشتراكية وهي ترتبط اساسا بدرجة تقدم الانتاج وما يلازمه من تقدم في العلاقات التي تتمثل بمستويات الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ، تبقى تواجه العسر الى ان يتسنى لها تصفية تركة التخلف وقد لا يتم لها بلوغ المستوى الذي تريد بلوغه قبل زوال الامبريالية وانجاز تحول الدول الصناعية المتقدمة الى الاشتراكية . وهكذا يبدو ان الامرين متلازمان ، فمثلما يتيسر تحقيق الاشتراكية في الدول المتخلفة بتزايد عدد الدول المتقدمة التي تأخذ بالاشتراكية، كذلك ييسر تحرر الدول المتخلفة او تقدمها في طريق الاشتراكية ، تحقيق الاشتراكية في الدول الصناعية المتقدمة بسبب ما يكون لذلك من الاثر في إضعاف الامبريالية وتسهيل التغلب عليها . وكلما ازداد وعي شعوب الامم المتخلفة فرجحت الجهد الطوعي وتحمل أعباء النضال في سبيل الحياة الحرة على حياة المذلة والخراب في ظل امبريالية عاتية ، تيسرت مهمة حركة التحرر وضاق مجال الامبريالية .

واذا كان التضاد بين قطاع رأسمالية الاحتكار والقطاع الاشتراكي امرا بينا فان التضاد بينه وبين القطاع المتخلف تلفه تعمية تلقائية مبعثها التخلف ذاته وما تلازمه من جهالة ، وتعمية متعمدة ومخططة مردها في كثير من الحالات ارتباط الطبقة الحاكمة وتعلق مصيرها بالامبريالية والتناقض بين مصالحها وطموحاتها وبين تحرر شعوبها الذي يعني كذلك التحرر من تسلطها في الوقت عينه . لكن امرا واحدا يظهر جليا في طبيعة العلاقة بين التخلف والامبريالية ويصلح ان يكون مدخلا لكشف الحقيقة . وهو ان البلاد المتخلفة هي دون اي شك، المعين الذي تستمد منه رأسمالية الاحتكار المواد الخام ، والمجال الذي تستثمر فيه الفائض من رؤوس أموالها ، والسوق الذي تصرّف فيه منتجاتها ، فهي اذاً ، منطقة تموين واستثمار وسوق وقد تكون كذلك معينا للايدي العاملة الرخيصة ، وهذه كلها أمور حيوية لرأسمالية الاحتكار لا تستطيع الاستغناء عنها . ولهذا فان اي تغيير في وضع البلاد المتخلفة كنشوء صناعة وطنية اساسية ومتكاملة تستنفذ المواد الخام وتعزز او تحقق الاستقلال الاقتصادي وتضيق مجال الاستثمار الاجنبي ، لا يكون امرا ضارا برأسمالية الاحتكار فحسب وانما يعرضها لخطر نضوب معينها والى اختناقها . وهي لهذا تقاوم قيام مثل هذه الصناعة وتقاوم كل حركة تعزز الاستقلال الاقتصادي . اما اذا قامت حركة جادة

في اتجاه تحرري يعادي الامبريالية وراسمالية الاحتكار فمقاومتها تتحول الى حرب صليبية تستنفر لها كل طاقاتها على نطاق عالمي وتندفع للاطاحة بها اندفاع الوحش الجريح وتستبيح كل وسيلة .

وقد تكررت بالفعل محاولات التحرر الثورية وتكررت كذلك عمليات الاجهاز عليها بحيث انكشف الكثير من ستراتيجية راسمالية الاحتكار في مواجهتها . وهذه الاجراءات تتخذ اعتياديا شكل ثورة مضادة يمهد لها بدعاية واسعة للحرية والديمقراطية وحقوق الانسان وللاعتدال والانفتاح الاقتصادي والإعمار وبوعود مفتوحة للحصول على المعونات والمساعدات الاقتصادية والتسهيلات المالية من «العالم الحر» ، وبدعوة لاطلاق العنان للتشبث الفردي يستثير احلام الطامعين بالاثراء السريع. لكن الثورة المضادة لا تكاد تحقق مهمتها حتى تأتي في اثرها حملة مسعورة تصفي كل مقومات الحركة الثورية وتفرض الوضع الذي تريده الامبريالية . وقد تضخ في البدء مبالغ من المال يتداولها الناس وتنتعش بها آمالهم ردحا من الزمن، لكن هذا المال لا يلبث ان يختفي كوابل من المطر نزل على منحدر صخري .

ومما ييسر الغموض والالتباس في صلة راسمالية الاحتكار بالتخلف ، انهما يخضعان لمعايير اجتماعية واخلاقية وفكرية متماثلة ويرجعان الى مصدر واحد هو التراكم الراسمالي، يمثل فيه احدهما الوجه الموجب والآخر الوجه السالب لاقتصاد واحد ، واعراضهما ذات جذور واحدة ولو انها تكون في احدهما على نقيض الصورة التي تظهر في الآخر . ومن أعراض التخلف ، ضآلة الفائض الاقتصادي بسبب انخفاض مردود العمل ، وانتفاء او قلة الافادة من الطاقات البشرية والموارد الطبيعية ، وغلبة زراعة بدائية في حقل الانتاج ضئيلة المحصول لا يصيب الفلاح منها الا اقل القليل . والفائض الاقتصادي في التخلف على ضآلته لا يستثمر في توسيع الزراعة وتحسين وسائلها وفي بناء الصناعة بل يُصرف في ابواب الاستهلاك والخدمات . والنشاط الاقتصادي فيه يكاد ينحصر في القطاع التجاري الذي ينتزع مدخوله من جمهور المنتجين ويُهدر في مجال غير مثمر ما تتميز به اغلبية العناصر التي يجتذبها من حيوية وكفاءة وروح مبادرة، وهو الصنف الذي انشأ مثيله في البلاد المتقدمة الصناعة وأقام أسس المجتمع الراسمالي الصناعي ؛ لكنه في البلاد المتخلفة ممتنع عليه تكوين طبقة صناعية وطنية منشئة وخلاقة بسبب هيمنة الامبريالية ووضعها العقبات في سبيل تطور الصناعة الوطنية سواء باغراق اسواق البلاد المتخلفة بالسلع الاستهلاكية او بالحيلولة دون استثمار رؤوس الاموال الوطنية في انشاء الكيان الصناعي . والاستثمار ، كما هو معلوم ، يولّد الحاجة الى المزيد من الاستثمار لانه ينمي القدرة على الشراء فيزيد الحاجة الى الانتاج ، حتى ليشبه بكرة الثلج تزداد حجما كلما تحركت في وسط الثلج . اما انغلاق مجاله فيؤدي على العكس ، الى توقف حركة التطور والى جمود اجتماعي وفكري تستشري فيه عوامل الانحلال وهو ما تريده الامبريالية ان يكون في البلاد المتخلفة . واذا كان البعض قد تصور ان الظروف تصبح مؤاتية لبناء صناعة وطنية في البلاد المتخلفة بمجرد حصولها على الاستقلال فقد اثبتت الايام ان تصوره لم

يكن الا ضرب من الوهم . فما دامت البلاد المتخلفة تقوم في حدود ما يسمى بالعالم الحر ، والحرية فيه حرية الرأسمالية الامبريالية في الاستغلال وفي التصرف بشؤونه بأساليب شتى ، فسيبقى في تخلفه او يزيد فسادا .

وقد نجد من يستشهد بنماذج من بلدان متخلفة ارتبطت بالرأسمالية الاحتكارية الامبريالية فازدهرت فيها الصناعة وتطورت ، لكن الواقع ان كل الذي حصل ان الاستثمارات الاجنبية وجدت في هذه البلاد ، واغلبها يقع في الشرق الاقصى، ايدٍ رخيصة ومجدّة وطيّعة فرجحت استثمار رؤوس اموالها فيها وهي تحت نفوذها ، كما هو الحال في تايوان وكوريا الجنوبية حيث ترى الشعب يكاد يختنق بتقدمه ويتحفز يريد خلاصا منه . وقريبا منا نجد نماذج اخرى لبلاد نشدت التقدم بطريق الارتباط بالرأسمالية الامبريالية فاذا هي تزداد تخلفا وفسادا بعد ان انقضى ما يزيد على نصف قرن على هذا الارتباط .

والحقيقة ، ان الاحتكار منذ ان توطد له الامر بطريق الامبريالية ، فأنشأ صناعات كبرى ذات امكانات هائلة وتقنية عالية يسرت له ان يغلق بأذرعه الاخطبوطية كل آفاق التطور بوجه البلاد المتخلفة ، لم يعد في الامكان قيام الصناعة فيها الا في ظل رأسمالية الاحتكار وبرعايتها . وصناعة تبنى بمشيئة الاحتكار ودرايته لا يمكن ان تكون مؤهلة لانشاء كيان صناعي سليم بل تقوم بالضرورة لخدمة اغراض الامبريالية وتؤدي مهمة ضخ الثروة الوطنية الى خزينها . فهذه الصناعة ، ولو انها لا تتجاوز حدود صناعة استهلاكية وتكميلية ، لا يمكن ان تسمح رأسمالية الاحتكار بوجودها الا اذا اطمأنت الى انها تخدم مآربها ولا تنطوي على خطر يتهدد مصالحها . ومثل هذه الصناعة لا تدفع لرأسمالية الاحتكار فقط قيمة ما تحتاج اليه من مكائن وعدد ومواد احتياطية وقطع غيار وخبرة وجعالة ومواد معدة او شبه مصنوعة ، وكلها بأسعار عالية ، وتعد لها سوقا لتصريف منتجاتها ، بل هي تهيء لرأسمالية الاحتكار ان تنتزع بطريقها مقدما كل ما يمكن ان تعود به من أرباح بحيث لا تبقي لها الا ما يمكن ان يدخل في حدود عمولة الوكالة التجارية . وشأن هذه الصناعة ان تنشأ كسيحة مصابة بفقر دم مزمن فلا تقوى على استكمال نموها ، بل ربما لا تقوى على البقاء دون دعم من الدولة فتصبح عالة على دافع الضريبة وتكون في الوقت عينه عبئا على المستهلك تفرض عليه بضاعة من الدرجة الثانية في احسن الاحوال ، بسعر بضاعة من الدرجة الاولى ولا تخلق قطعا بورجوازية وطنية حرة بل تخلق كومبرادور هو رديف للامبريالية يعمل في خدمتها ويديمها ليدعم وجوده .

وعندما دخلت الرأسمالية مرحلة الامبريالية واتجهت الى الاستثمارات الخارجية ، في سبعينات القرن الماضي ، اقتصرت في استثماراتها في البدء ، على المشاريع الزراعية ثم اهتمت بالتعدين واستخراج النفط . وهي في الحالين، حصرت عنايتها بتهيئة ما تحتاج اليه صناعاتها من مواد خام وطاقة . ففي الزراعة حصرت الانتاج في كل حالة في صنف او صنفين من المنتوج ولم تحسب اي

حساب لاهل البلد ومستقبلهم او ما يصيب الارض من خراب من جراء الاقتصار على زراعة نبات واحد مثل القطن او قصب السكر او المطاط يجهد الارض ويدمرها، ولم تأخذ بالحسبان ان انصراف الفلاح عن زراعة المواد الغذائية وتقيده بصنف واحد من العمل الرتيب يفقده سعة الخبرة والمرونة ويزيد من ضيق أفقه وضياعه. اما في استخراج المعادن والنفط، فقد استنزفت قسما من الخزين في غفلة من الزمن، بثمن بخس يتجاوز حدود الغبن الفاحش الى السلب العلني والابتزاز . حتى ان المرء ليحار في أيهما كان أشد نكرا ، ما فعله غزاة الاستعمار الاوائل الذين نزلوا نزول اللصوص في بلاد ما وراء البحار فسلبوا ما وقعت عليه أيديهم وعادوا به الى بلادهم في عهد التجارية ، ام هذا السلب والابتزاز عن طريق الاستثمار في عهد الحضارة الامبريالية .

وكانت كل تلك الاستثمارات ، سواء في الزراعة او المعادن او النفط التي اخذت امتيازاتها والمساحات الشاسعة من الارض التي اقتطعت لها في ظل النفوذ السياسي الامبريالي، قد استحصلت بثمن زهيد لم يتجاوز احيانا رشاوى قدمت للحكام والساسة ولم تستثمر فيها غير رؤوس أموال صغيرة لم يصب البلد الذي استثمرت فيه غير فتاتها اذ أعيد القسم الاعظم منها الى البلد المستثمر لتسديد ثمن المكائن وسائر التجهيزات والخدمات الفنية حتى صارت العملية في مجملها عملية تجارية رابحة. وعندما توسعت هذه الاستثمارات وتطلبت زيادة رؤوس الاموال، جاءت الزيادة كلها من جزء صغير مما كانت تدره ارباح الاستثمارات الاولى . فبين عامي ١٨٧٠ و١٩١٣ مثلا ، في الفترة التي ارتفعت فيها رؤوس الاموال المستثمَرة في البلدان المتخلفة من مليار الى اربعة مليارات باون استرليني ، لم تتجاوز هذه الزيادة نسبة اربعين بالمائة من مجموع الارباح التي عادت بها الاستثمارات في خلال هذه الفترة (١٤٢). واثبتت الاحصاءات التي أجريت اخيرا، ان حياة الطبقات الفقيرة في الاقطار المتخلفة في ظل الاستثمارات ، كانت تزداد سوءاً سنة بعد اخرى . فبينما كان يصيب ٦٧ بالمئة من السكان ١٥ بالمئة من الدخل القومي في سنة ١٩٤٩ هبطت هذه النسبة الى ١٣ بالمئة في سنة ١٩٦٩ . ولم تزدد البلاد المتخلفة بوجود هذه الاستثمارات فقرا فحسب بل ان الاشد فقرا من سكانها زاد سوءاً على سوء . ففي المكسيك مثلا ، وهي التي تحيا تحت أنف رأسمالية الاحتكار ، كان نصيب ٣٠ بالمئة من السكان وهم الاشد فقرا في سنة ١٩٥٠ يعادل ٩ر٩ بالمئة من الدخل القومي ، فهبط سنة ١٩٥٨ الى ٣٣ر٨ بالمئة ، ثم هبط سنة ١٩٦٣ الى ٣٩ر٧ بالمئة (١٤٣) . واثبتت الاحصاءات ايضا ان غالبية الشركات البريطانية استوفت أرباحا لا تقل نسبتها عن ٥٠ بالمئة من راس المال في كل سنة من الاربعين سنة المنتهية في عام ١٩٥٣ (١٤٤) ، وان الشركات المستثمِرة لم تكن تقدم على الاستثمار في البلاد المتخلفة الا اذا ضمنت استعادة رأس المال المستثمَر في مدة أقصاها خمس سنين (١٤٥) .

وواجهت الامبريالية ، اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية وضعا جديدا فرض عليها تعديل سياستها وموقفها تجاه البلاد المتخلفة ، لاسيما المستعمَرة او الخاضعة

للنفوذ الامبريالي. ووصفجون فوستر دالاس، وزير خارجية الولايات المتحدة يومئذ الموقف فقال «لما اشرف القتال في الحرب العالمية الثانية على نهايته ، كانت قضية المستعمرات القضية الاساسية الفريدة بأهميتها التي واجهناها . فلو ان الغرب حاول ان يبقي المستعمرات على حالها ، لكان انفجار ثورة عنيفة امرا لا محيص عنه ، ولكانت الهزيمة محققة . وعليه توصلنا الى ان السياسة الوحيدة المجدية هي ان نقدم الاستقلال بسلام للاكثر تقدما من السبعمائة مليون من سكان البلاد الخاضعة لنا ...» (١٤٦) .

وكان على الامبريالية في مواجهة الظروف التي استجدت بعد الحرب العالمية الثانية ، ان تبتكر اساليب ووسائل جديدة تتدبر بها امرها . وكانت الولايات المتحدة الاميركية قد اصبحت زعيمة عالم الرأسمالية الاحتكارية الامبريالية وقطبها دون منازع . وأثبتت الاحداث منذ نهاية الحرب ان من بين الاساليب والوسائل التي لجأت اليها الامبريالية : تفكيك الوحدة الوطنية باستنفار المتناقضات الداخلية ، واستخدام المعونات الاقتصادية والقروض . وهكذا دفعت اعوانها من الكومبرادور وكبار الملاكين والمزارعين، من الذين سبق لهم ان تعاونوا مع شركاتها، الى مراكز قيادة الحياة العامة وجمعت حولهم عملاءها في دوائر الدولة ومرافقها؛ وبهم جميعا تحت لواء الدعوة الى الديمقراطية والاعتدال والشرعية واجهت حركة التحرر والتقدميين المطالبين بالتغيير كأعداء ألدّاء للنظام والقومية والدين يريدون الهدم والفوضى . وتحولت المواجهة الى صراع اتسم بالعنف وأشاع الاضطراب في الحياة العامة وهيأ للامبريالية ان تحول عهد الاستقلال الى جحيم تجرع الناس فيه ألوانا من مر العذاب . وراحت الامبريالية في وسط البلبلة تتحكم بالنظم حسبما تمليه عليها مصالحها ، فتأتي الى السلطة بمن تشاء وتبعد عنها من تشاء ، ولا تجد نظام حكم فاسد او حكومة تهدر مصالح الشعب بشكل اجرامي او دكتاتورية شرسة او متردية الا ورعتها وأمدتها بالمعونة .

اما المساعدات والمعونات والقروض فيجدر بنا ان نسمع ما قاله عنها اهلها اولا ؛ فالرئيس كندي مثلا ، قال : «ان المساعدات الخارجية ليست الا وسيلة تحافظ بها الولايات المتحدة على نفوذها وسيطرتها في العالم ، فتدعم أعوانها المعرضين للسقوط او تجتذب الى جانبها من تخشى ان ينحاز الى الكتلة الشيوعية ..» وقال الرئيس نكسن في خطاب انتخابي «ان علينا ان نتذكر ان الغرض الرئيسي من المعونات الاميركية ليست مساعدة الامم الاخرى بل مساعدة انفسنا .» (١٤٧) .

ولم يكن الغرض من المساعدات والقروض والمعونات بعيدا عن اغراض الاستثمارات كما يتضح مما جاء في منهج النقطة الرابعة من ان «من بين الاغراض الرئيسية في حقل التعاون التقني مع البلدان المتخلفة تعيين مواطن المعادن ومصادر الطاقة ودراسة الانتفاع بها اقتصاديا ... باعتبار ان كثيرا منها ما يزال غير مستثمر ... وله اهمية كبرى بالنسبة للامم المتقدمة وبضمنها الولايات

المتحدة ... ولما يمكن ان يسهم به في تعزيز الدفاع عن العالم الحر» (١٤٨) . وجاء في تقرير آخر لهذه المنظمة «ان القاطنين في الاقطار المتخلفة لو تركوا غير قادرين على تحقيق طموحاتهم المعتدلة لجعلتهم تعاستهم تربة خصبة لاية ايديولوجية تعدهم بمنفذ الى حياة خير من حياتهم ...» (١٤٩) .

وهكذا يتضح ان المساعدات والقروض والمعونات للدول المتخلفة لم يكن الغرض منها في الدرجة الاولى ، الا ضمان مصلحة الامبريالية بتثبيت مكانتها وتعزيز علاقات ايجابية لها بالبلدان المستقلة حديثا وإبقاء الابواب مفتوحة لاستثماراتها وتأييد سلطة في الحكم مرضي عنها او مرغوب بها وتوجيه الانفاق في وجوه لا تغير من جوهر التخلف وتصرف الاهتمام عن انشاء صناعات اساسية متكاملة الى ما يعني الامبريالية ويحول المساعدات والقروض الى صفقات تجارية تعيد المبالغ كاملة مع ربح وافر ، وتعود بالفائدة في الوقت عينه ، على الشركات الاحتكارية بأن تأتيها بعملاء جدد وتهيء لها اسواقا جديدة وتوسع المجال لاستخدام فنيين وخبراء ومتقاعدين عسكريين عيونا لها ويتقاضون في الوقت عينه رواتب عالية .

ويستدل من متابعة الاوجه التي تصرف فيها المعونات والمساعدات والقروض ان جلها ينفق بصورة رئيسية في بابين : باب التسليح والانشاءات الستراتيجية من قواعد ومطارات وشبكات رادار ومراكز استخبارات وتجسس بدعوى حماية البلد السيء الطالع من أخطار مزعومة بينما المقصود الحقيقي خدمة الستراتيجية الامبريالية وحماية انظمة مفروضة على شعوبها . وباب الانشاءات ووسائل المواصلات من طرق وجسور وسكك حديد ومطارات وفنادق ودوائر مواصلات برقية واذاعة وتلفزيون ومولدات الطاقة الكهربائية ، وهذه كلها ولو انها من معالم الحضارة ومستلزمات الحياة لكنها جميعها ابواب صرف لا انتاج ومنافذ للاستيراد ومجارٍ تعيد المبالغ مع فوائده من حيث اتت . وأثبتت الدراسات لموضوع المساعدات والقروض ان حوالي ستين بالمائة منها يشترط فيها حصر الاستيرادات المرتبطة بها بالبلد الذي قدمها . وذكر تقرير لاحدى دوائر هيئة الامم ان مستوى اسعار هذه الاستيرادات المشروطة يزيد عادة بما لا يقل عن ٢٥ بالمئة عن اسعارها في السوق الحرة (١٥٠) . وبالرغم من ان المساعدات والمعونات يتحملها دافع الضريبة في البلد الذي قدمها فان جل فائدتها تنحصر بالشركات الاحتكارية . وارتفعت تخصيصات المساعدات بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٩ من ستة مليارات وعشر المليار الى ثلاثة عشر مليار دولارا . وزادت مبالغ القروض بين ١٩٦٢ و١٩٧٠ من ٢٢ مليارا الى ٦٠ مليار دولار ؛ وبلغت فائدتها السنوية سنة ١٩٦٩ خمسة مليارات دولار في السنة بفائدة معدلها ٤ر١٠ بالمئة (١٥١) . وفي مدى قرابة نصف قرن ، اي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، لم تستطع امة واحدة ان تتخطى حالة التخلف في ظل النفوذ الامبريالي وبمعوناته وقروضه ان لم تزد سوءاً .

واذ ثبت الان بما لا يترك مجالا للشك، ان قد فات الاوان الذي تستطيع فيه البلاد المتخلفة ، المرتبطة بالنظام الرأسمالي الاحتكاري او بالاحرى بالامبريالية ، بصورة من الصور ، مباشرة او غير مباشرة ، ان تحظى ببورجوازية وطنية تكون لها القدرة

على اخراجها من تخلفها كما فعلت البورجوازية في اوربا الغربية او اليابان ؛ او ان تجد عونا يساعدنا على الخروج بطريق المعونة والمساعدات والقروض التي تقدمها الامبريالية التي لا سبيل لها لادامة وجودها الا بدوام التخلف ، فليس للبلاد المتخلفة الا ان تجد الى تحررها سبيلا غير هذين .

١٣ ـ الماركسية والتخلف

التخلف وضع عام كلي في التكوين الاجتماعي ، لكل من حالاته خصوصيتها. ولهذا كان من الضروري لاستقصاء مشاكله وحلولها ، تشخيص سمات خصوصيته. والماركسية بوصفها طريقة علمية ديالكتية تاريخية يمكن ان تؤدي هذه المهمة . فماركس ولو انه اقتصر في كتاب رأس المال، على تحليل نظام الرأسمالية في غرب اوربا، الا انه وضع نموذجا لطريقة مجدية ودقيقة في نقد الاوضاع الاجتماعية وتحليلها وتشخيص طبيعتها وامكاناتها ومستلزمات تطورها . وقد تجاوزت اهتماماته بعد منتصف القرن التاسع عشر ، كما رأينا ، حدود اوربا الغربية ، الى مجتمعات اخرى غيرها ، وترك لنا في «مسوداته» تلميحات واشارات ومطالعات قيّمة بخصوص مجتمع الشرق وطبيعته وسماته، تلقي بعض الضوء على منشأ وأصول الانظمة الاجتماعية ووجهتها في عديد من بلدان آسيا وشمال افريقيا وامريكا الجنوبية يمكن الافادة منها. ولما جاء لينين وطبق ما جاء به ماركس وانجلز وطوّره، ابدى اهتماما خاصا بحركة تحرر شعوب الشرق ، ولعله كان اول الماركسيين الذين ادركوا الصلة الوثيقة بينها وبين الحركة الاشتراكية وقدر اهمية تضامنهما والضرورة اليه في كفاحهما المشترك ضد الامبريالية ، لاسيما بعد همود حركة البروليتاريا الثورية في الغرب الرأسمالي (١٥٢) . وجاءت الدراسات الماركسية الاخيرة التي قامت بها جماعة من الماركسيين المرموقين ، اساتذة ومفكرين ، في امريكا الشمالية والجنوبية بوجه خاص ، تؤكد وجهة نظر لينين وتوصلت الى ان الصراع في مرحلة الامبريالية ورأسمالية الاحتكار لم يعد مقتصرا على الصراع الطبقي بين الرأسمالية والطبقة العاملة بل تحول في البلاد المتخلفة الى حركة ثورية شعبية ضد الظلم والاضطهاد وفي سبيل التحرر الوطني والقومي والتطور الاجتماعي ؛ وان الصلة بين الحركة الاشتراكية وحركة تحرر الشعوب وهي تسعى للتخلص من تخلفها ، لم تعد قضية ترجيح وانما اصبحت لزوما لا خيار فيه حتى ليصح ان يؤخذ موقف حركة التحرر من الحركة الاشتراكية والعالم الاشتراكي دليلا على سلامة حركة التحرر وسدادها ، بعد ان ثبت بما لا مجال للشك فيه ان طريق التطور الرأسمالي لم يعد غير ميسور بالنسبة للبلاد المتخلفة فحسب ، لفوات أوانه بحكم تبدل الظروف التاريخية ولوقوف راسمالية الاحتكار عائقا منيعا بوجهها وتصميمها على الابقاء على التخلف لادامة وجودها ، بل لم يعد للبلاد المتخلفة سبيل

للتخلص من تخلفها والسير في طريق التطور الا سبيل التضامن والتعاون مع الدول الاشتراكية اولا ، لانهما يواجهان عدوا مشتركا هو الامبريالية تسد عليهما سبل استكمال وجودهما ؛ وثانيا ، لان كليهما ينشدان التطور والتغير في اتجاه واحد ؛ وأخيرا لما بين واقعهما من تقارب ييسر للبلاد المتخلفة ان تفيد من تجارب البلاد الاشتراكية في اجتيازها مرحلة التخلف وييسر للحركة الاشتراكية ان تفيد من تحرر هذه الشعوب وانحسار التخلف عنها لما في ذلك من إضعاف الامبريالية (١٥٢) .

ولم يعد موضوع التخلف وعلاج مشاكله بالامر الذي يجري التصرف فيه اعتباطا ؛ فالتخلف من حيث هو ظاهرة اجتماعية ، ذات طبيعة كلية جذورها اقتصادية بالدرجة الاولى ، أجريت في موضوعها دراسات وبحوث واستخلصت في معالجتها نظريات مبنية على التجارب الفعلية التي جرت في حقلها الواسع لاسيما منذ قيام الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي التي كانت مسألة التخلف من أعقد المشاكل التي واجهها وكانت تجربته اعظم تجربة شهدها العالم . وأوضح لينين الفرق بين الثورة البورجوازية والثورة الاشتراكية في بلاد متخلفة في ضوء هذه التجربة بقوله ، ان التنظيم الاقتصادي الذي تنشده الثورة البورجوازية يتكون تدريجيا في رحم النظام الاقطاعي فيغير معالمه شيئا فشيئا بحيث لا تواجه الثورة غير مهمة واحدة هي ازاحة العقبات وتحطيم القيود التي تعيق قيام المجتمع الجديد . وباتمام هذه العملية تكون الثورة قد أتمت كل ما هو مطلوب منها ... بينما المهمة التي تواجه ثورة اشتراكية في مجتمع متخلف أشد تعقيدا من ذلك الى حد بعيد ، اذ ان مهمتها لا تقتصر على ازاحة النظام القائم فقط بل عليها ان تنشىء نظاما جديدا يختلف عنه الاختلاف كله . والثورة البورجوازية اذ تنتهي مهمتها بالاستيلاء على السلطة فان الاستيلاء على السلطة بالنسبة لثورة اشتراكية في بلاد متخلفة هي بداية مباشرة المهمة الشاقة التي تواجهها .

وتجربة الاتحاد السوفييتي في تحقيق الاشتراكية في بلاد متخلفة وبمواجهة ظروف شديدة العسر والحراجة ، تجربة رائدة غنية بالعبر فيما انجزته وفيما اخفقت فيه ، بحيث باتت مرجعا لا غنى عنه في دراسة مشاكل التخلف ومعالجتها. والاساس فيها معالجة البنية الاقتصادية التي هي في الماركسية القاعدة التي تقوم عليها تراكيب المجتمع الفوقية ، بدءاً بتنمية الانتاج وفق خطة مبرمجة لبلوغ هدف معين وعلى مراحل يعين في كل مرحلة منها ما يراد تحقيقه من زيادة في الدخل القومي وما يراد ان يعود به من زيادة في دخل الفرد وارتفاع في مستوى المعيشة وتحسن في الصحة العامة واتساع في التعليم وفي مقومات الحياة الاجتماعية الاخرى وما يقتضيه تحقيق ذلك من تخطيط في الانشاء الصناعي والتنمية الزراعية وتقدم في المواصلات وسائر اعمال الانشاء الاساسية الاخرى. وكانت التنمية على هذا المنوال من مبتكرات تحقيق الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي دأبت على الاخذ بها كثير من بلدان ما يسمى بالعالم الثالث سواء في تحولاتها الاشتراكية ام في معالجة مشاكل التخلف فيها .

ومما يجدر تأكيده بخصوص خطط التنمية هذه ، ضرورة التزام الواقعية وتجنب التقليد الذي لم يكلّ لينين من التحذير منه ، لانه كثيرا ما يكون منفذا لما يصيبها من فشل ومن ضياع جدواها بسبب ما بين مستلزمات التنمية في كل بلد والامكانات المتوفرة فيه وطبيعته ووضعه الجغرافي وسعته وتاريخه وما ألفه اهله من نظم وعادات وتقاليد ، من ترابط يقتضي اخذه بالحسبان .

وأول مستلزمات التنمية توفير ما يمكن توفيره من الفائض الاقتصادي وقوة العمل لمواجهة حاجتها . ففي رأس المشاكل التي تواجهها التنمية في البلاد المتخلفة ، العجز في الفائض الاقتصادي والضياع في قوة العمل . وفي التحول الاشتراكي عولجت مشكلة الفائض الاقتصادي الى حد ما بما توفر من عوائد ما صودر من الاستثمارات الكبيرة الاجنبية والاهلية ، وبحبس رؤوس الاموال من التسرب الى الخارج ، وبالاستيلاء على املاك كبار الملاكين ، وباستبعاد الزيادة في استيراد الكماليات ووسائل الترف وتقليص المصروفات الى اقصى حد ممكن . ولكن اثبتت تجربة الاتحاد السوفييتي وتجارب الدول الاشتراكية الاخرى ان الفائض الاقتصادي مهما عادت عليه كل هذه الاجراءات فلن يتوفر له في البداية وربما لفترة من الزمن ما يفي بالنفقات التي يستلزمها التحول الى الاشتراكية وما ينجم عن الانحسار التدريجي للتخلف مما يؤدي بالضرورة الى ارتفاع في المستوى العام للمعيشة ، ثم تحول السكان من الريف الى المدينة وما يؤدي اليه هذا التحول من تعثر الزراعة وهبوط المحصول الزراعي واشتداد الضغط في الوقت عينه على المواد الغذائية ومستلزمات الحياة الاخرى من سكن ومرافق عامة كالمستشفيات والمدارس ووسائل المواصلات وغيرها مما يلازم بالضرورة اتساع مجالات الحياة المدنية ونمو الصناعة وزيادة دخل الافراد . ولهذا كان من مستلزمات اية خطة للتنمية لمعالجة التخلف ، اتباع سياسة التقشف مهما كان مقدار الفائض الاقتصادي كبيرا . ومع ان سياسة التقشف تشتد وطأتها في وسط محدود بوجه خاص ، الا انها كثيرا ما تخلق حالة نفسية يتخذ منها المعارضون وسيلة لاستثارة استياء الناس وتبرمهم . ولهذا السبب ولاسباب اخرى ، رجح ان تتخذ سياسة التقشف اتجاها شعبيا وطوعيا فيشارك الناس في تطبيقها والالتزام بها وهم يدركون انها من مستلزمات مكافحة التخلف ومواجهة الامبريالية ورأسمالية الاحتكار ومن اجل بناء حياة حرة كريمة لاجيالهم القادمة . وغني عن الذكر، ضرورة مرافقتها لمجال متسع للتمتع بالحريات الديمقراطية التي تضفي عليها طابع الشعبية .

ولا ريب في ان وطأة التقشف تختلف بين بلد وآخر ولعلها يمكن ان تكون في بلاد النفط أخف وطأة من البلدان الاخرى لجسامة الفائض الاقتصادي الذي تعود به مبيعات النفط ولقلة سكانها نسبيا . اما في البلاد المتخلفة المزدحمة بالسكان حيث يكون الفائض في اغلب الاحيان صغيرا نسبيا ، فان وطأته تكون اكثر شدة . والتقشف بأية حال ، يقتضي ان ينظر اليه من حيث هو سلاح في معركة البناء وفي

مواجهة الامبريالية لانه يقلل من تآكل الفائض الاقتصادي ويضعف الامبريالية بنسبة ما يخفض من أرباحها ويؤثر في الوقت عينه في تخفيف الفوارق الاجتماعية ويصرف الناس الى حد ما عن الاهتمام بوسائل الترف التي كثيرا ما تسري عدواها بين الناس سريان الوباء وتستنزف جهودهم فيما لا جدوى فيه .

وفي كثير من البلدان المتخلفة ، لاسيما تلك التي تزدحم بالسكان ، لا تكون تعبئة الايدي العاملة من حيث الكم مشكلة كبيرة لوجود نسبة عالية من البطالة الخفية لاسيما في الريف ؛ لكن المشكلة تكمن في افتقارها الى المهارة وما ينجم عن انتقالها الى المدينة من الريف، حيث كانت تحيا حياة الكفاف وهي تنتج جل ما تحتاج اليه ، من اشتداد الضغط على المواد الغذائية ولوازم الحياة الاخرى . والتحولات في السكان التي ترافق بالضرورة قيام الاشتراكية والتنمية الصناعية المرتبطة بها تعتبر من اهم مشاكلها . فهي تحيل في المدن الى البطالة عددا كبيرا ممن كان يشتغل بأعمال الوساطة من تجارة وسمسرة وصيرفة وغيرها ، انتفت الحاجة اليه فتحول الى عبء ومبعث للمشاكل . وتحول السكان من الريف الى المدينة يؤدي ابتداء وبالضرورة الى تدهور الزراعة وهي غير ممكننة فيهبط الانتاج ويتأثر خزين المواد الغذائية الاساسية ويؤدي الى تحمل الفائض الاقتصادي عبء تلافي النقص بالاستيراد . وفي الوقت عينه يؤدي حشد الايدي العاملة المجاوبة من الريف ، في المراكز الصناعية ، وهي تفتقر الى الكفاءة والمهارة الى عبء آخر على الفائض الاقتصادي عندما لا يغطي انتاجها نفقات إعالتها . وتعرض الفائض الاقتصادي الى التآكل لهذه الاسباب وغيرها هو من جملة المشاكل الرئيسية التي تواجه التنمية في البلاد المتخلفة .

اما المسألة الاخرى بعد مسألتي الفائض الاقتصادي وقوة العمل فتتعلق بأولويات تخصيص الفائض الاقتصادي وفي مقدمتها مشكلة الترجيح بين الزراعة والصناعة . وكان الغرب الرأسمالي قد نظر الى ترجيح الزراعة على الصناعة كأمر مفروغ منه في البلاد المتخلفة ، لكن انتشار الافكار الاشتراكية وتجربة الاتحاد السوفييتي أثارت الشكوك في امر هذا الترجيح ولو لم يكن البت فيه سهلا ، فترجيح الصناعة يخلق في الواقع حاجة ملحة ومتزايدة للمنتجات الزراعية كلما تقدم المجتمع وارتفع فيه مستوى المعيشة بحيث يبدو الامر وكأن الاسبقية يجب ان تكون للزراعة .

على ان الماركسية في تجربتها في الاتحاد السوفييتي بابرازها فكرة المزارع التعاونية والجماعية القت على الموضوع ضوءا جديدا حول الترجيح بين الزراعة والصناعة الى المقارنة بين المزارع التعاونية والجماعية المدعومة بالمكننة والقروض الحكومية ومراكز الآلات الزراعية والمجهزة بالبذور المحسَّنة والاصناف الجيدة من الابقار والاغنام والدواجن وبين المزارع الفردية المدعومة والمجهزة بهذه كلها . ورجحت الزراعة التعاونية والجماعية اولا لملاءمتها الاشتراكية ولثبوت أرجحية الزراعة على نطاق واسع على الزراعة الفردية لسهولة تحويلها الى زراعة ممكننة وتوفير وسائل البحوث ومراكز التجارب العلمية فيها ولان لها في حساب الماركسية

فوائد اجتماعية لا تتيسر بالزراعة الفردية . وتأيد هذا الرأي بترجيح الراسمالية نفسها الزراعة على نطاق واسع ولو انها حصرتها في البلاد المتخلفة لانتاج المواد الخام لاغراض الصناعة . ولكن مشكلة هذه الزراعة انها تفترض ان تسبقها او ترافقها حركة تصنيع تعد لها ما تحتاج اليه من المكائن والآلات والوسائل العلمية والكفاءة الفنية والمهارة لحسن استعمال وتطبيق تلك الوسائل وهي ليست من الامور السهلة في بلاد متخلفة وفي مجتمع الريف .

على ان المسألة الاساسية فيما يتعلق بالصناعة والزراعة وبقضية التنمية اجمالا تكمن في نظر الماركسية ، في افضل السبل لمعالجة عجز البلاد المتخلفة عن تصنيع المواد الخام المتوفرة او التي يمكن ان تتوفر لديها، وهو العجز الذي يجعل منها معينا لرأسمالية الاحتكار ويفرض عليها التبعية الاقتصادية ثم التبعية السياسية والفكرية والاجتماعية . وخلصت الماركسية في تجربتها الى هذه النتيجة : ليس الجدوى في أيهما تكون له الاسبقية او الارجحية ، الزراعة ام الصناعة ، بل الاصح ان يوجه الاهتمام الى كليهما في آن واحد ، على ان يكون للتصنيع الحظ الاوفر من الاهتمام ابتداء ، في تخصيصات الخطة وأن تزداد تخصيصات الزراعة تدريجيا بزيادة مردود الصناعة فتجهز بالمكائن والآلات بأقصى ما تستطيع الصناعة ان تمدها به .

وما ان تنتهي المسألة بالخلاص الى هذه النتيجة حتى تبرز مسألة اخرى هي: أي شطري الصناعة تكون له الارجحية ، الصناعة الثقيلة التي تعنى بانتاج وسائل الانتاج ، مكائنه وآلاته واعداد ما يتصل بها من تقنية وما تحتاج اليه من كفاءة ومهارة ، ام الصناعة الخفيفة التي تعنى بتوفير حاجات الاستهلاك ؟ ولم يترك ماركس مجالا كبيرا للاخذ والرد بخصوص هذه المسألة ، فقد عالج الموضوع في الفصل الحادي والعشرين من الجزء الثاني من كتاب رأس المال وخلص الى ضرورة ترجيح الصناعة الثقيلة ابتداء (١٥٤) . وهو ما أكده لينين بقوله « ان التوسع في الانتاج ... يتطلب البدء بانتاج وسائل الانتاج» . وعليه ، اعتبرت الماركسية الصناعة الثقيلة اساس التنمية التي تيسر تحقيق الاستقلال الاقتصادي وتؤهل البلد الى الاخذ بزمام امره فلا تعود الامبريالية تهيمن على حياته ومن ثم على شؤونه السياسية وتبقي التخلف يتحكم فيه . ولو ان امر انتاج الاسلحة التي تمكن الاتحاد السوفييتي من الدفاع عن نفسه كانت من جملة الاسباب الرئيسية في اهتمامه بالصناعة الثقيلة .

على ان امر هذا الاختيار في التنمية ليس بالسهولة التي يبدو بها نظريا وللوهلة الاولى ، ذلك ان تنفيذ خطط التنمية تجري بالضرورة في مجتمعات الفت الانتاج الراسمالي وظروفه ومعاييره بينما التنمية على أسس اشتراكية او اجتماعية تفترض ظروفا اخرى . ففي الراسمالية مثلا ، يكون مردود الانتاج وتعيين ما يخصص منه للاستهلاك او الاستثمار رهنا بارادة الراسمالي الذي يأخذ بالحسبان امكانات التوزيع والارباح التي يجنيها ، بينما هذه التنمية المخططة تفترض ان يفي

الانتاج بمتطلبات الحاجة العامة ، وهذه المتطلبات في مجتمع متخلف في حالة تحول تكون من التعقيد والتعرض للتغيرات والطوارىء ما يجعل ضبطها والتحكم بها امرا عسيرا . وفي هذا الامر بعينه ، واجه الاتحاد السوفييتي وواجهت الدول الاشتراكية الاخرى اشد المشاكل . فمن شأن البلد الذي يريد التنمية وبناء الصناعة ليعالج تخلفه ، ان يواجه بالضرورة تزايدا مستمرا في حاجات الاستهلاك ما دام الانحسار التدريجي للتخلف يلازمه اطراد التحسن في مستوى المعيشة وبالتالي اطراد الزيادة في الاستهلاك وفي ارتفاع الاجور من جهة وانخفاض ساعات العمل من جهة اخرى . والبلاد المتخلفة فوق هذا وفي الوقت عينه ، تكون بحاجة متزايدة ايضا لتوفير السكن ونشر التعليم ورفع مستوى الثقافة وتحسين الصحة العامة وغير ذلك من متطلبات الحياة المتطورة التي تشتد الحاجا مع كل خطوة في مضمار التقدم . على ان اعظم ما يثقل وطأة هذه المتغيرات ويجعل ضبط حسابها متعذرا ، حروب الاعتداء والمؤامرات التي تدبر ضد البلد وتستنزف مبالغ جسيمة جدا للاحتياط للطوارىء .

وفي جميع الاحوال ، تتطلب اية خطة للتنمية دقة فائقة في الموازنة بين اقصى ما يمكن تخصيصه للصناعة الثقيلة والحد الادنى من الاستهلاك . وأي افراط او تفريط في احد حدي هذه الموازنة قد يثير مشاكل اقتصادية وسياسية تعرض خطة التنمية برمتها الى الفشل، خصوصا وان النجاح فيها يرتبط بدرجة المشاركة الفعلية والطوعية الواعية من جميع الاطراف المعنية بها .

وبعد هذا يأتي الخيار بين احد امرين : التركيز على رأس المال بترجيح الاعتماد على المكائن والآلات ام التركيز على الايدي العاملة . وقد دأب المخططون غير الماركسيين على ترجيح التركيز على الايدي العاملة في البلاد المتخلفة لما يتوفر فيها عادة، لاسيما في الاقطار المزدحمة بالسكان ، من بطالة خفية يمكن حشدها وتحويلها من طاقة ضائعة الى طاقة منتجة ورخيصة . لكن هذا الراي تعترضه عدة مشاكل : منها ان الايدي العاملة التي قد تحشد للانتاج لا يمكن ان تبدأ به الا اذا توفرت لها المكائن والآلات والمهارة ؛ ثم ان البطالة الخفية التي تبدو قائمة في البداية لا يلبث الانتاج ان يمتصها ، فلا يمضي وقت الا وتظهر حاجة ملحة الى مزيد من الايدي العاملة ينشأ عن افتقادها تباطؤ في الانتاج الذي يعتمد عليها بصورة رئيسية ؛ كما ان حشد هذه الايدي العاملة التي تفتقد الكفاءة والمهارة قد يزيد ما تستهلكه على ما تنتجه فتكون عبئا على التنمية لا عونا لها ، خصوصا وان نفقات تحولها من الريف الى مراكز الصناعة وتوفير مستلزمات الحياة المدنية لها قد تزيد على كلفة المكائن .

اما المخططون الماركسيون فقد رجحوا الاعتماد على المكائن والآلات واعتبروا الاتكال على الايدي العاملة غير الماهرة ابتداء ، عقبة تعيق تقدم الصناعة وتخفض مستواها وتبطىء سرعة النمو الاقتصادي وتنطوي على اغفال لامرين جديرين بالاعتبار : الاول ، ان الصناعة الثقيلة التي يجب ان يحسب حسابها في تنمية

هدفها الاستقلال الاقتصادي ، تفرض استخدام الآلات الدقيقة والاعتماد على تقنية متقدمة وهو امر لا يجوز فيه الركون الى الايدي العاملة غير الماهرة ؛ والثاني ، ان الفائدة الكبرى التي يمكن ان تجنيها بلاد متخلفة من تخلفها هي امكان اختيارها في بناء صناعتها أحدث مبتكرات الصناعة المتقدمة لعلها تعوض بذلك ما فاتها وتعجل اللحاق بالاقطار التي تقدمتها، وفي كلا الامرين تعجز الايدي العاملة غير الماهرة من الايفاء بالمطلوب . وفي ضوء كل هذا ، بدا ترجيح الاعتماد على الايدي العاملة غير الماهرة المجلوبة من الريف في البدء بانشاء الصناعة من الامور غير المستحسنة .

ومما يجدر الالتفات اليه في الحذر من أخطار الامبريالية ، ان الخشية من احباطها خطط التنمية ومعالجة التخلف لا ينبغي ان تبلغ الحد الذي يؤدي الى الانغلاق او الى التنكر لمقومات الحضارة العصرية . فالاحرى ان ينظر الى الامبريالية من حيث هي علة انتابت الحضارة ، شأنها شأن التخلف ، لا تعالج بالانقطاع عن الشعوب الاخرى بل بالانفتاح عليها بمزيد من الثقة بسلامة طبيعتها وبمزيد من التعاون والتضامن معها في الخلاص من علل مشتركة . وما من امر يروق للامبريالية وتنتفع به كانقطاع الشعوب المتخلفة وانطوائها على نفسها يلهيها التغني بماضيها عن سوء حاضرها وتمضي في تقوقعها فتزيد تخلفها تفاقما ، والامبريالية تشجعها فتدعم من طرف خفي او تشجع اولئك الذين يدعون عن جهالة او سوء قصد الى التنكر لحضارة العصر التي هي من صنع الانسانية كلها، والى الغلو في تمجيد الماضي لإشغال الناس عن منكرات الحاضر .

وما من شك ان الاجدى من الانغلاق ان تملك الامة زمام امرها فتمارس حريتها في الاختيار وفي البت في شؤونها بوعي وحزم ولا تترك غيرها يتحكم فيما يعنيها او يتصرف بما يعود لها ؛ وأن تتعامل مع الغير تعامل من يعرف حقه ويدرك مصلحته ويدري كيف يدفع الغبن . او بكلمة اخرى ، ان تعمل على تحقيق استقلالها الاقتصادي ولكن لا بمعنى ان تقتصر في حاجاتها على ما تصنعه لنفسها بنفسها وهو ما لم يعد ممكنا في عالم اليوم بعد ان باتت متطلبات الحياة من الكثرة والتنوع بحيث تجاوزت قدرة اية امة على توفيرها بغير تبادل العون مع غيرها .

والاستقلال الاقتصادي كان الى عهد قريب ، وقفا على الامم القوية المتقدمة ولكنه اليوم في حدود قدرة من يصمم على تحقيقه ويأخذ السبيل اليه . فبوجود الاتحاد السوفييتي وقطاع العالم الاشتراكي لم تعد الامبريالية مطلقة اليد تقتحم اساطيلها وقواتها حدود الدول المتخلفة والضعيفة لتفرض ارادتها او تتواطأ فيما بينها لتقتسم من أقطار العالم المتخلف والضعيف ما تريد اقتسامه . وتهيء بوجود العالم الاشتراكي بديلا يغنيها الى حد ما وهي حرة ، عن اللجوء الى الامبريالية تطلب عونها كشاة تطلب عون ذئب . وما من ريب ان قدرة الدول الاشتراكية في اسداء العون في اتساع وهو عون صادق وحقيقي لانه مبني على مصلحة متبادلة ودفع خطر مشترك .

ومما يقتضي الالتفات اليه في التنمية ، ان التزايد المستمر في عدد الصناعات وفي تنوعها وارتفاع مستوى الدقة ولزوم حسن الأداء في صنعها قد ولد ضرورة

الى الاختصاص او بالاحرى الى لزوم اقتصار كل قطر على صناعات معينة وفقا لامكاناته في توفير مستلزماتها وأسواقها ، وان يعين الصناعة الثقيلة التي يجعل منها قاعدة لاقتصاده وأساس خطته في التنمية .

ويشير تاريخ تطور الصناعة ان الاسواق المتسعة كانت اساس الانتاج الواسع النطاق والحافز الابعد اثرا في نشوء المكننة وحركة الاختراع وتطور وسائل النقل والمواصلات . وما يزال توفر امكاناته تؤخذ في الحسبان في تعيين الصناعات التي يقدر لها النمو والنجاح . ومع ان اختيار الصناعات في خطط التنمية لا يحسب فيها حساب الربح وحده وانما ينظر ايضا الى مردوداتها الاقتصادية والاجتماعية على المدى البعيد ، غير انه تبقى عند اختيار الاختصاص ضرورة ترجيح الصناعات التي تتوافر لها اسباب النجاح مثل تيسر المواد الاولية وامكانات الانتاج الاقتصادي ووجود الاسواق المتسعة حتى لا تنقلب الى عبء لا يجدي فيها العون والاسناد . فالصناعة إما ان تكون عملية اقتصادية ناجحة فتنمو وتزدهر وتؤدي ثمارها الاجتماعية او لا تكون فتتدهور وتؤدي الى عواقب سيئة ، اقتصادية واجتماعية ، ولا حل وسط بين الحالين .

الباب الثاني

خلفية الفكر الماركسي

- ١ -

الثورة الصناعية

يرجع انجلز أصول الماركسية الى الاقتصاد السياسي الانكليزي والى الاشتراكية الفرنسية والمثالية الالمانية ، اي انه يرجعها ، بكلمة اخرى ، الى الثورة الصناعية التي هيأت بواعث الفكر الاقتصادي السياسي الحديث ، والى الثورة الفرنسية التي هيأت بواعث الفكر الاشتراكي والى فلسفة المثالية الالمانية التي كانت ردا على ما احدثته الثورتان من تأثير في المجتمع الالماني .

وكانت انكلتره وفرنسا موطنا الثورتين ، الصناعية والفرنسية ، اللتين برزت اولى بوادرهما منذ ثمانينات القرن الثامن عشر ولو ان بواعثهما لا يمكن حصرها ببضع سنين او حتى ببضع عشرات من السنين . فبعض المؤرخين يرجع بداية الثورة الصناعية الى الثورتين اللتين حدثتا في انكلترة في ١٦٤٢ و١٦٨٠ وأعدتا الظروف المؤاتية لنشوء الطبقة الوسطى . وآخرون يأخذون حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر ، بداية نشوء الطبقة الوسطى ويرجعون الى تلك الحركة ظهور بوادر الفكر البورجوازي . بينما يعتقد غيرهم ان الاستكشافات الجغرافية هي التي زلزلت حياة القرون الوسطى وحركت بواعث التغيير وادت الى بروز الطبقة الوسطى .

وربما يفي بغرضنا اخذ ثمانينات القرن الثامن عشر بداية لمتابعة حركة هذه الثورة . وكانت تغلب في المجتمع الاوربي يومئذ ، حياة الريف التي قوامها الزراعة ، وكان فكره الاقتصادي فكر الفيزيوقراط الذين حسبوا الزراعة وايجار

الارض الزراعية ، المصدران الرئيسان للثروة ؛ واعتبروا العلاقة بين من يزرع الارض لينتج الثروة وبين من يملك الارض فيجمع الثروة ، مدار النشاط الاقتصادي ؛ واعتبروا الطبقات الاساسية في المجتمع تتشخص بطبقة القن التي تزرع فتنتج ، وطبقة السادة التي تملك فتحكم . وكانت الزراعة في حالة بدائية تقتصر على زراعة القمح والشعير والشوفان ، وهي مادة الغذاء الاساسية (١) .

وفي بقعة واحدة مقابل غرب اوربا هي بريطانيا ، بدت بوادر التحول . فقد اخذت ملكية الارض تتجمع حتى انحصرت في قلة وتحولت الى ملكيات كبيرة قسمت الى قطع اخذ الملاكون يؤجرونها الى مزارعين استخدموا في زراعتها عمالا أجراء؛ فنشأ من جراء ذلك ، منذ عام ١٧٦٠ ، تكوين اجتماعي جديد تمثّل بمستثمرين زراعيين في احد طرفيه ، وبروليتاريا زراعية في طرفه الآخر . وبدت بدايات نشاط في التجارة والصناعة بعثت الحيوية في المجتمع وعززت في الناس الثقة بالنفس فتملكهم تطلع الى تحسين حالهم دفعهم الى المغامرة وركوب البحار فأنشأوا فيما وراءها مستعمرات اخذت تتسع وتمتد بسرعة مذهلة وتدر ثروات طائلة . وعاد المغامرون يحملون أكداسا من الذهب والفضة غمرت البلاد بثراء لم يحلم به احد من قبل ، راحوا يستثمرونه في الزراعة والصناعة والعمران ، فولّد انتعاشا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية انعكس في الحياة الفكرية وبعث فيها نشاطا متدفقا فتح ابواب العلم والمعرفة على مصراعيها ، واخرج علماء ومفكرين ومخترعين ، مدللا على ما بين تقدم العلوم وتألق الفكر وبين الانتعاش الاقتصادي من وثيق الصلة . وكان من حسن طالع البلد ان تميز البعث الفكري الذي نجم عن هذا الانتعاش ، بالعلمانية والعقلانية والفردية التقدمية الخلاقة فنزع الى التحرر من تقاليد القرون الوسطى ومن طقوس الكنيسة ومن الاعتبارات التي تفرق بين الناس ورفع مشعل الحرية والمساواة (٢) .

في هذه التربة الصالحة ، تفجرت نهضة صناعية بدت لشدة تدفقها وكأنها ثورة ، وأطلق عليها بالفعل اسم الثورة . ومع ان تقديم ذكرها على الثورة الفرنسية لا يطابق الواقع رغم ان بوادرها استبقتها ، لكنها لم يكن لها اثر بارز خارج بريطانيا الا في ثلاثينات القرن التاسع عشر ، ولم تصبح مدار اهتمام وتتناولها ادبيات العصر الا في الاربعينات ، ولم يطلق عليها اسم الثورة الا سنة ١٨٢٠ ، قياسا على الثورة الفرنسية ؛ اطلقه مفكرون اشتراكيون في انكلتره وفرنسا ، لكن تقديمها يساعد في فهم تطور الحياة في اوربا اكثر مما يساعد تقديم الثورة الفرنسية . وبرغم انها لم تستئثر الاهتمام الذي أولي للثورة الفرنسية فانها وضعت في الواقع، الاسس المادية للمجتمع الحديث وأحدثت كما يقول هوبسبون ، اعظم تغيير في حياة الانسان في تاريخه الحديث (٣) .

ووصفت الثورة الصناعية بأنها تفجر في طاقات الانتاج ادى الى تكاثر مطرد في عدد النفوس وتزايد في السلع والخدمات الاجتماعية لم يسبق له مثيل . ووصفها انجلز بأنها تحول اساسي في أسلوب الانتاج من العمل اليدوي الى العمل

الممكنن ومن المشاغل الى المعامل ، وما انها تعتبر ثورة بما احدثته من تغيير جذري في التركيب الاقتصادي والاجتماعي ، نقل المجتمع الاوربي من الاقطاع وحياة القرون الوسطى الى الراسمالية الصناعية والى العصر الحديث وامتد تأثيرها ليغطي العالم كله . وكانت تحولا مشهودا أكده ابرز مؤرخي القرن التاسع عشر ولكن الماركسيين وحدهم شخصوا مدى تأثيره في تغيير التراكيب الاجتماعية وفي تطوير الافكار والمعتقدات والنظم الاجتماعية والسياسية (٤) .

وللثورة الصناعية سابقات ، في القرن الثالث عشر والسادس عشر وفي نهاية السابع عشر ، لكنها كانت أحداثا عابرة لم تلبث ان ضاعت معالمها وكل ما تركته انها أكدت أثر الانفتاح واتساع الاسواق وانتعاش التجارة في التنمية وتطور الحياة الاجتماعية والفكرية . ولعل ابرز هذه السابقات أثرا ، تلك التي جرت في ايطاليا في القرن السادس عشر ، اثناء الحروب الصليبية التي فتحت للمدن الايطالية سبل التجارة مع الشرق وبعثت فيها نشاطا اقتصاديا ساعد في نموها وغلبتها على الاقطاع وادى الى تكاثر نفوسها وتحسن سبل المواصلات وتزايد الحاجة الى السلع بحيث لم يعد الانتاج الفردي المبعثر يفي بمتطلبات الاسواق الداخلية والخارجية فنشأت مشاغل متسعة طورت الانتاج وشجعت الاختراع وحققت تقدما تقنيا لا سابقة له دلل عليه ما وجد في مخلفات ليونوردي دي فنشي من مخططات لعدد من المكائن والآلات كما أدى الى اجراء تحسينات في صناعة الزجاج وصناعة النسيج وفي الدباغة وتنقية الذهب والفضة وصناعة الساعات والدواليب الهوائية وفي بناء السفن . وربما كانت اعظم واجلّ مآثرها اليقظة الفكرية وحركة إحياء العلوم التي امتد تأثيرها الى بقية الاقطار الاوربية . لكن ذلك كله لم يلبث ان ذوى بانغلاق ابواب الشرق في نهاية الحروب الصليبية وتحول الاهتمام الى الاستكشافات الجغرافية التي توجهت اليها أقطار اوربا الغربية (٥) .

ولعل مما حمل الباحثين على اخذ ثمانينات القرن الثامن عشر على انها بداية الثورة الصناعية ، ما دللت عليه احصائيات فترتها من قفزة في الخطوط البيانية لاقتصادياتها لم يسبق لها مثيل . والتسارع الاقتصادي لا يكفي دليلا الا اذا رافق او نجم عن تحولات اقتصادية وسياسية واجتماعية ثابتة وأساسية . والواقع ان القفزة في الخطوط البيانية لاقتصاديات انكلتره اخذت دليلا على الحدث لانها كانت نتيجة تراكمات من التغيير أعدت الظروف المؤاتية لتفجيرها . فقد كانت قد انقضت قرابة مائة عام على اطاحة الانكليز بآخر ملوكهم المطلقي السلطة وعلى تمتعهم بحرية تعززت بها مكانة الفرد ونما وعيه وقويت نزعته الى تحسين حاله واستطاع ان يحمل السلطة لتجعل التنمية الاقتصادية في مقدمة مهماتها . وكانت الزراعة الى جانب ذلك ، قد وجدت الحل الملائم بتركيز ملكية الارض في حوزة حفنة من الملاكين ذوي العقلية التجارية ، وزعوها بطريق الايجار على مزارعين استخدموا في زراعتها عمالا أجراء مما أدى الى تضاؤل عدد القن الذين ارتبطوا بالارض والى ظهور عمال احرار وتحول الزراعة الى زراعة تنتج للسوق اسوة بالصناعة فراحت تنمو لتوفي بمتطلباته المتزايدة وتوفر الغذاء لعدد متزايد من سكان المدن وتحقق

أرباحا تتراكم لتكون رأس مال للاستثمار . وكانت النتيجة ان اصبحت نسبة الذين يكسبون عيشهم بالعمل المأجور في انكلتره اعلى منها في اي بلد اوربي آخر ، ونسبة الذين يسكنون المدن فيها اعلى مما هي في غيرها، وتميز التكوين الطبقي فيها ببروز طبقتين رئيسيتين ، طبقة وسطى وطبقة عاملة ، قبل غيرهـــا من بلدان اوربا ، وانعكس هذا التكوين الطبقي في الحياة السياسية ليوجه تنظيمها السياسي بحيث اقتصر على حزبين رئيسيين بدلا من ان يتمزق في شتات من المطامح الفردية (٦).

ومن شأن التغيير الاجتماعي في الماركسية ان يرتبط بالضرورة اليه ووعي هذه الضرورة ، وان يتوقف اليسر او العسر في تحقيقه بدرجة مرونة الانظمـــة الاجتماعية والسياسية في قدرتها على تقبله والتكيف لمستلزماته . ولعل انكلتره انفردت بتوفر هذه الشروط من دون بقية الاقطار الاوربية ، فلم يواجه التحول الى الرأسمالية الصناعية اية معارضة بعد ان فقد النظام القديم قدرته علـــى المقاومة منذ نهاية القرن السابع عشر عندما اطاحت ثورتان متعاقبتان بملكين فلقنتا من جاء بعدهم دروسا لم ينسوها ، وبعد ان فترت همة الارستقراطية الانكليزية حتى كادت تكون نمطا من أنماط البورجوازية ، وتوازن التركيب الطبقي بحيث لم تعد للسلطة قدرة على تعبئة قوى المدينة ضد الريف او ضد الطبقة العاملة دون ان تعرض مصالحها ومصالح البلد الى الخطر وايقنت ان ترك التناقضات تشتـد لتبلغ درجة الانفجار والثورة امر ينطوي على عواقب تضر بها . وتوفرت في انكلتره الذي كان اول بلد ظهرت به الصناعة ، هيمنة عددية للطبقة العاملة بسبب تشتت الطبقات الاخرى وتجمع العمال في مراكز الصناعة في ظروف قاسية فتكونت فيه قبل غيره قاعدة ثورية تدفع في اتجاه التغيير وفي مواجهتها تراكيب فوقية مرنة تقبلته وقنعت بالاحتفاظ بالاشكال التقليدية في الواجهة على سبيل الاحتفـــاظ بالتراث . وكانت الثروة الطائلة التي تراكمت فيها في خلال القرن التاسع عشر ، والقوة البحرية التي ضمنت لها السيادة على البحار والتزام الطبقة الوسطـــى سياسة ثابتة تجنبت فيها المقالات في تحدي الطبقة العاملة وترجيحها مساومتها واسترضاءها دفعا لما هو أشد ضررا وتقبلها التغيير الذي لا تجد منه مناصا وتنفيذه بطيبة خاطر ، كل ذلك اكسبها مناعة ضد الاحداث الخارجية والداخلية المهددة لاستقرارها فلم تهزم في حرب ولم تتعرض للاضطرابات الداخلية العنيفة طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ولهذا كله ، يرى هوبسبون انه لا يصح القول بأن انكلتره كانت موطن الثورة الصناعية بسبب عوامل جغرافية او بسبب توافر المواد الاولية الاساسية كالفحم والحديد قريبة من بعضها ، كما لا يصح ربط أسبقيتها بها بأحداث تاريخية كالاستكشافات الجغرافية او اليقظة الفكرية او حركة إحياء العلوم كما قدر بعض الباحثين ، لان هذه العوامل ومنها الطبيعي الثابت منذ زمان ومنها ما شمل أثره غرب اوربا بكامله ولم ينحصر ببريطانيا . وعليه فالاصل في رأيه ، بأسبقية بريطانيا ترجع فـــي الدرجة الاولى الى مؤثرات اجتماعية غيرت انسانها وجعلته قادرا على الاستعانـة

بتلك العوامل ليحقق ما لم يستطع غيره تحقيقه ، ولو ان ذلك لا يعني ان تلك العوامل لم تكن ذات أثر ، بل الواقع انها كانت ذات أثر كبير لكن قدرة الانسان على الاستفادة منها تبقى هي الاصل ؛ وهي قدرة تهيأت للانكليز قبل غيرهم بتأثير ظروفهم الاجتماعية والسياسية ويمكن اجمال اهم خصائصها في ثلاثة هي (٧) :
ان الطبقة الوسطى في انكلتره لم تواجه في ظهورها وتكوّنها المقاومة التي واجهتها الطبقة الوسطى في فرنسا وفي بقية الاقطار الاوربية واضطرتها الى خوض معارك دموية دامت اكثر من نصف قرن . فالارسطقراطية البريطانية بعد ان اصابها الوهن من جراء صراعاتها الداخلية في «حرب الوردتين» ، وهي حرب انقسمت فيها الارستقراطية على نفسها واتخذ احد طرفيها الوردة البيضاء شعارا له واتخذ الطرف الآخر الوردة الحمراء ودامت ثلاثين سنة ، رجحت على مقاومة الطبقة الوسطى الاستفادة مما هيأته لها من فوائد اقتصادية كما رجح ابناؤها شغل المناصب التي عرضت عليهم في المستعمرات واشباع طموحاتهم ببناء الامبراطورية فانصرفوا اليها . وكانت الطبقة الوسطى في الوقت عينه ، قد استمالت الملوك الى جانبها بما قدمته لهم من مال وما أعدته لهم من بسطة في الجاه والنفوذ ورجحوها على طبقة النبلاء . وهكذا احتلت الطبقة الوسطى مقام الصدارة في الاقتصاد والسياسة .

ويرجع السبب الثاني الى اعتماد الانكليز على القوة البحرية في الدفاع عن وجودهم ، وأدى اعتمادهم هذا الى تفوقهم على اساطيل اسبانيا وهولندة والبرتغال واستيلائهم على معظم مستعمرات هذه الدول والاستفادة من مواردها وأسواقها . ولما صارت لهم في خلال الثورة الفرنسية وحروب نابليون الغلبة على غريمتهم الطبقة الوسطى الفرنسية ، انفردوا في السيادة على البحار وانشأوا امبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس .

وأما العامل الثالث فمرده الى عدد من الميزات اجتمعت لهم وساعدتهم في بناء اقتصادهم الصناعي قبل غيرهم ، منها : تفوقهم في علم الميكانيك واهتمامهم به منذ عهد نيوتن ؛ ومنها توافر مواد اولية اساسية للصناعة الثقيلة مثل الفحم والحديد قريبة من بعضها وفي مواقع تصلح لان تكون مراكز للصناعة وموانىء بحرية في آن واحد ؛ ومنها اخذهم ابتداء بصناعة النسيج وهي صناعة سهلة نسبيا لا تحتاج الا للقليل من المهارة ويستطيع القادمون من الريف التدرب عليها بسرعة ويسر ولها اسواق اتسعت قبل غيرها في الداخل والخارج وتوافرت موادها الاولية ، القطن الذي اتسع انتاجه في المستعمرات والصوف الذي انتجت بريطانيا أجود اصنافه بسبب ملاءمة المناخ وترجيح ملاك الاراضي تربية المواشي على الزراعة لزيادة عوائدها وقلة الايدي العاملة التي تحتاج اليها وكان من جراء ذلك ان استغنوا عن عدد كبير من العمال الزراعيين نزحوا الى المراكز الصناعية وامدوا الصناعة بما احتاجت اليه من الايدي العاملة الرخيصة .

وظهرت أولى بوادر الثورة الصناعية بفعل التأثير المباشر لزيادة الطلب على السلع ، بتأسيس اصحاب رؤوس الاموال «المشاغل» وكانت تقوم في قاعات كبيرة

تتسع لعدد من الحرفيين قد يبلغ احيانا الثلثمائة يعملون بها وكل منهم يحمل اليها ادوات حرفته التي هي ملكه ويعمل بأجر لحساب صاحب رأس المال وبتوجيهه وتحت اشرافه . وفي هذه المشاغل تحول الانتاج الحرفي الفردي والصناعات المنزلية الى نمط من الانتاج الرأسمالي الواسع اعتمد التقنية اليدوية وابتكرت فيه تحت ضغط الحاجة المتزايدة الى السلع ، طرق في الانتاج كان لها اعظم الاثر في نشوء وتطور الانتاج الصناعي اهمها تقسيم العمل والاختصاص . فبعض هذه المشاغل كانت تنتج سلعا كاملة استلزم انتاجها مشاركة حرف عديدة واجتماعها ، كالنجارة والحدادة والسمكرة ؛ وبعضها الآخر اختص بانتاج صنف واحد وفيه ابتكر تقسيم العمل والتخصص لزيادة الانتاج وتيسر عمليته وكان لذلك اكبر الاثر في تسهيل اعداد الكوادر وتدريبها والاستعاضة عن العمل اليدوي بالآلة البسيطة التي فتحت باب الاختراع والوصول الى الانتاج المكنن (٨) .

وبرزت في هذه المشاغل اولى سلبيات الانتاج الرأسمالي . فقد افتقد الحرفي بتحوله الى اجير ، استقلاله واستقراره والالفة التي كانت تربطه بالمتدربين عنده وحلت محلها علاقة مادية صرفة خالية من اي شعور انساني . فنظرة رب العمل الى العامل لم تعد تتجاوز نظرته الى أداة من ادوات الانتاج لا يعنيه منها غير ما تؤديه من عمل يجني من ورائه ربحا . ولم يعد العامل يعنيه من رب العمل غير الاجر الذي يتسلمه لقاء مجهوده . ليس ذلك فقط ، وانما تولد لدى العامل من وراء تقسيم العمل والاختصاص ومشاركة الآلة في الانتاج ، شعور بالغربة نجم عن افتقاد العامل احساسه بصلته بما هو من صنعه بعد ان ضاع مجهوده في سلعة لم ينتج غير جزء صغير منها لا يكاد يميزه ، بحيث صارت السلعة غريبة عليه وقد استلبت منه ، ولم يعد يجد فيها أثرا لما بذله من جهد وما يجسد مهارته ويشعره بمتعة انجازه وخلقه .

واستمرت التحولات في الصناعة في حدود التكنيك اليدوي حتى العقد السادس من القرن الثامن عشر ، عندما اشتد عجز الانتاج عن مواجهة الطلب الداخلي المتنامي والطلب الخارجي الذي امتدت اسواقه الى اقاصي آسيا وأفريقيا والعالم الجديد ، وفرض الاستعانة بالاختراع . وكان مما يسَّر سبل النجاح فيه ، اخذه ابتداء بصناعة النسيج التي كانت الصناعة الرئيسية في بريطانيا حتى سميت بملكة الصناعة . وهي صناعة بسيطة يسهل فيها الابتكار والتغيير والتدرب على ما يستجد فيها . ولم تقترب ثمانينات القرن على الانتهاء حتى تم اختراع انوال الغزل والنسيج الآلية وأتم جيمس واط اختراع محركه البخاري فتحررت به المصانع من الاعتماد على الطاقة المائية وملازمة مصاب الانهر وتحولت الى مواقع اكثر ملاءمة للتركز والتطور . وبزيادة الحاجة الى الفحم والحديد التي تطلبتها صناعة الآلات والمكائن، تطورت عملية صهر الحديد وتحولت الى الاعتماد على الفحم الحجري الشديد الحرارة بدلا من الخشب، واتسعت الحاجة الى قاطرات سكك الحديد لمواجهة مستلزمات التعدين والنقل ، وكان من جراء ذلك ان تفجرت ثورة

صناعية قوّمت نظام الانتاج الرأسمالي (٩) .

كان هذا ، الوجه الموجب للثورة الصناعية . اما وجهها الآخر فاتخذ شكل مأساة قلبت الحياة رأسا على عقب . فقد دمرت ما بقي لاصحاب الحرف من الشعور بالذات باكتساحها المشاغل وإزالتها من الوجود بقايا الصناعات الفردية الصغيرة . وأفرغت الريف من اهله وأحلت محلهم قطعان الماشية ، واخرجت الى الوجود صنفا جديدا من الخلق ، صعاليك تحرروا من كل التزام وهاموا على وجوههم وهم لا يحملون معهم من حطام الدنيا غير طاقة العمل يعرضونها للبيع في مراكز الصناعة حتى اذا وجدوا عملا تكدسوا في اكواخ قذرة محرومة من حرارة الشمس ونورها ومن الهواء النقي ومن كل مستلزمات الصحة . ولم تلبث هذه الجموع التي لفظتها مواطنها ان انستها مساوىء حياتها الحاضرة معاناتها في حياتها الماضية فراحت تتحسر عليها ، على ما فيها من استقرار وعلاقات الفتها ، فأخذت تتبرّم من سوء حالها وتنظر نظرة ملؤها النقمة والحقد الى سيدها الجديد، صاحب رأس المال، وترى فيه وفي آلاتهمصدر شقائها وضياع استقرارها، بعد ان لم يعد الواحد منها يدري بأية لحظة يلقى به في جحيم البطالة ليحل محله من هو اقل منه اجرا واقوى ساعدا . فلما تجاوزت نقمتها حد الاحتمال ، انتفضت بسذاجة وصبت حمم غضبها على تلك الآلات الشيطانية التي كانت وراء ما تعاني من شقاء وضياع ، فدمرتها وأحلت الخراب في مصانعها . وكانت تلك اولى انتفاضات البروليتاريا وبلغت اقصى شدتها سنة ١٨١٥ وأطلق عليها اسم الحركة «اللودية» قيل نسبة الى عامل يدعى «لود» وقيل نسبة الى جنرال أسطوري اتخذ رمزا للانتفاضة . وصادفت هذه الانتفاضة طغيان الردة في اوربا بعد مؤتمر فيينا فسحقت بقسوة (١٠) .

وأعقبتها محاولة اخرى رفعت مسعى العمال في سبيل حقوقهم الى مستوى العمل السياسي للمرة الاولى ، فطالبوا بتغيير ظروف العمل وتحسين شروطه وبالحريات الديمقراطية ، لكن الردة كانت ما تزال في عنفوانها فردت مطالبهم بشدة بيد انهم لم ينثنوا عنعزمهم بل ازدادوا تصميما وثباتا، وواصلوا مسعاهم الىان أقر لهم سنة ١٨٢٤ ، بحق التنظيم للدفاع عن حقوقهم وبحق المطالبة بزيادة أجورهم وتحسين حالهم . وكان هذا القرار بداية التنظيم النقابي الذي سبقت به انكلترة بقية أقطار اوربا .

وكان العمل السياسي وقفا على حزبين حزب محافظين يعارض التغيير وهو حزب الملاكين ؛ وحزب احرار، صار منذ سنة ١٨٣٠ بوجه خاص ، يعبر عن مصالح الطبقة الوسطى ويسعى للتغيير بتحفظ ويطالب بتعديل شروط الانتخاب ليضمن لنفسه الغلبة لكنه تجاهل حقوق العمال ومطاليبهم . وردا على هذا التجاهل تشكلت سنة ١٨٣٦ «جمعية عماللندن»، اخذت على عاتقها الدفاع عن حقوقالعمال وثبتت اهدافها في «وثيقة» (Charter) اصبحت علما عليها فصارت تدعى بالحركة الوثيقية .

وكان لنشوء الطبقة الوسطى المبكر في انكلترة ظواهر عدة من اهمها تطور

طريقة البحث العلمي وفلسفة المادية التجريبية وظهور مفكرين كان لهم تأثير بعيد المدى في الفكر الاوربي الحديث منهم فرانسس بيكن صاحب الطريقة الاستقرائية وتوماس هوبس وجون لوك واسحق نيوتن وجورج بيركلي ودافيد هيوم. ومن ظواهرها ايضا ظهور مدرسة الاقتصاد السياسي التي وضعت أسس الاقتصاد السياسي الرأسمالي وأبرز رجالها آدم سمث ودافيد ريكاردو اللذين كان لهما في الفكر الماركسي تأثير مباشر بحيث اصبح الاقتصاد السياسي الانكليزي احد الاركان الثلاثة للفكر الماركسي .

فقد قدم آدم سمث في مؤلّفه الشهير «ثروة الامم» سنة ١٧٧٦ ، اول دراسة للقضايا الاساسية في الاقتصاد السياسي الرأسمالي كشف فيها الصلة بين القيمة والعمل باعتبار العمل مصدر القيمة ، وصوّر بنية المجتمع البورجوازي الطبقية بطبقاتها الثلاث : طبقة العمال الأجراء والرأسماليين والملاكين الزراعيين ، ووضع العمل في الطرف المضاد للطبقتين وكشف حقيقة الربح والريع باعتبارهما اقتطاع من منتوج العمل بحيث اقترب تصوره من تصور «فائض القيمة» الذي ابتكره كارل ماركس .

اما ريكاردو فأوضح في مؤلّفه الشهير ايضا وهو «مبادىء الاقتصاد السياسي والعبء الضرائبي» صلة القيمة والعمل بصورة موسعة وجعلها اساس الاقتصاد السياسي واستخلص اعتمادا عليها جميع مقولات الاقتصاد الرأسمالي : رأس المال والاجور والربح والريع وغيرها ، متجاوزا نظرية القيمة التي صوّرها آدم سمث وقال ان القيمة التي ينتجها العمل هي مصدر الاجور والربح والريع وأقرّ بأن تخفيض الاجور يزيد الربح وبذلك كشف التضاد بين مصلحة الرأسمالي ومصلحة العامل ، وبلغ بالاقتصاد السياسي ذروته في زمانه . وقدّر ماركس نظرياته وأثرها التقدمي ، لاسيما نظرية القيمة والعمل .

واستعان ماركس بآراء آدم سمث وريكاردو من بين رجال الاقتصاد السياسي بوجه خاص وكشف بنقدها ديالكتيا جوانبها السلبية التي تشخصت بها مصالح الرأسمالية والتعارض بينها وبين مصالح الطبقة العاملة واتخذها اساسا لآرائه في تحقيقاته في الاقتصاد السياسي في فترة استقراره في انكلترة منذ منتصف القرن التاسع عشر حيث وجد مختبرا حيا للمجتمع البورجوازي يجري التغيير فيه على مشهد منه ، مما يسّر له تشخيص خصائصه الاجتماعية والسياسية على الطبيعة . وكان يحمل في ذهنه عند خروجه من المانيا صورة مشوهة للبورجوازية بعد الذي لمسه من وهنها وتقاعسها في المانيا فلم يلبث بعد الذي شهده من واقعية البورجوازية الانكليزية وقوة عزيمتها ان أكبر فيها حيويتها وأعجب بانجازاتها الحضارية وبلغ من تقديره لأثرها في تطور المجتمع البريطاني ونظامه البرلماني والتنظيمات العمالية فيه ان تصور جواز تحقق الاشتراكية فيه بسبيل الوفاق والتسويات من غير حاجة الى صراع طبقي او ثورة دموية كالتي جرت في فرنسا . والواقع ان التحول من الحكم المطلق الى الحكم البرلماني الذي تحقق بثورة سنة ١٦٨٨

ألتي سميت «بالثورة المظفرة» (١١) لانها كانت ثورة بيضاء حققت اهدافها دون اراقة دماء باجتماع كلمة النبلاء ورجال المال من كبار التجار على تنصيب وليم اورنج وزوجته ماري على العرش وفق شروط «ميثاق الحقوق» (١٢) الذي جرد الملك من حق تعطيل القوانين او اعفاء الافراد من الخضوع لها ومنع تدخله في الانتخابات او تعرضه لحرية اعضاء البرلمان في تأديتهم واجباتهم ، واشتراط موافقة البرلمان على ما يفرض من ضرائب وعلى ما ينفق على الجيش ، واشترط ايضا ان يجري حكم هذه الموافقة لمدة سنة واحدة فقط ليكون اجتماع البرلمان مرة في السنة على الاقل. وكان نتيجة ذلك ، تحول السلطة من الملك الى البرلمان او بالاحرى من الملك الى ممثلي الطبقة الوسطى ، وهم يومئذ كبار التجار ورجال المال الذين كاد ان يكون حق الانتخاب رهن تصرفهم . فقد قدّر ان رجلا واحدا من بين كل عشرة رجال كان يمارس حق الانتخاب بينما كان يجري اختيار نواب المدن الكبيرة من قبل حفنة من المتنفذين من اثريائها ، حتى كان ما يزيد على نصف اعضاء البرلمان بين سنة ١٧٦٠ و١٨٣٢ من كبار المتمولين او من معتمديهم (١٣) .

وبرغم ذلك ، أدت هذه الديمقراطية البرلمانية مهمتها التاريخية في امرين على الاخص : الاول ، اطلاق يد الطبقة الوسطى في سن القوانين وفرض الضرائب وتوجيه سياسة الدولة وتخطيط السياسة الخارجية وفقا لمصالحها الخاصة مما شجعها على استثمار رؤوس أموالها على نطاق واسع في تأسيس المشاريع وتوسيعها دون ان تخشى تدخل اي سلطة اخرى ، فكان من جراء ذلك ان سهلت تصفية النظام القديم وبناء اعظم مجتمع صناعي متقدم في زمانه . والثاني ، ابراز فكرة ممارسة السلطة استنادا الى ارادة الشعب ولو نظريا ؛ ففي حين بقيت شعوب القارة الاوربية حتى اواخر القرن الثامن عشر ، يحكمها ملوك مطلقي السلطة استنادا الى ما سمي بالحق الإلهي ، كان ملوك بريطانيا يحكمون بارادة الشعب ممثلة بالبرلمان حتى بدا المجتمع البريطاني لدعاة الحرية في اوربا نموذجا لمجتمع متحرر وديمقراطي فصار قبلة أنظار الاحرار في القارة وأثر تأثيرا عميقا في تصورات مفكري عهد التنوير .

- ٢ -

الثورة الفرنسية

ومثلما تجمعت بواعث التغيير في انكلتره وبلغت ذروتها في ثمانينات القرن الثامن عشر وفجرت الثورة الصناعية ، كذلك تجمعت مثل هذه البواعث في القارة وولدت ازمة سياسية واجتماعية تحسستها كل أرجائها ، لكنها بلغت عنفوانها في فرنسا ففجرت فيها اول ثورة سياسية كبرى في العصر الحديث . وكان من بين الاسباب التي ميزت فرنسا على جيرانها ، الانتعاش المطرد في تجارتها الخارجية الذي أدى

الى ارتفاع معدل عوائدها من اربعين مليون دولار في بداية القرن الى قرابة ما يعادل مائتين وستين مليونا في أواخره ، وساعد على نمو مدنها وتكاثر نفوسها وارتفاع مستوى المعيشة فيها ودفع بأهلها الى ازالة ما ضاقوا به ذرعا من بقايا حياة القرون الوسطى فخرجوا على أسوار مدنهم وحولوها الى منتزهات عامة وأنشأوا فيما وراءها أحياء جديدة ذات شوارع وساحات فسيحة . وبرزت الى الوجود في هذه المدن طبقة جديدة ، وسط بين النبلاء والعامة ، مؤلفة من التجار والصيارفة وباعة الجملة ووجوه الاصناف وذوي اليسار من أرباب الدكاكين ، سميت بالبورجوازية نسبة الى كلمة «بورج» Bourge اي المدينة (١٤) .

وشهدت اوربا وفي طليعتها فرنسا ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، اقبالا على العلم لم تشهد له مثيلا من قبل ، ارتبط بنمو الحياة المدنية فيها . فتقدمت الطباعة وانتشرت معاهد البحوث العلمية وراجت نشرياتها وصدرت موسوعات تضمنت احدث البحوث الاجتماعية والفلسفية والعلمية . وتأثر المثقفون الفرنسيون بالنزعة العقلانية التي ظهرت في انكلترة اكثر مما تأثر بها الانكليز انفسهم فأخذوا عن جون لوك ، احد ابرز مفكري العقلانية في انكلترة ، قوله ان السلطة مردها الى عقد ضمني بين الحاكم والمحكوم والاصل فيها رضى الناس بها ؛ وقوله بضرورة التسامح في الدين ولزوم نشر المعرفة حتى لا تغمر الاضاليل والطقوس قوانين الطبيعة وأحكامها . وتأثروا بغيره من فلاسفة المادية التجريبية في انكلترة الذين انتقدوا تزمت الكنيسة وطقوس العبادة فيها مشككين بصحتها وعقلانيتها في ضوء مكتشفات العلوم الحديثة . وكان من جراء تأثيرهم ان نشأ في فرنسا مفكرون عالجوا شؤون الحياة الاجتماعية وعللها وفق قواعد العلم ودعوا الى تغيير جذري شامل وقالوا ان الانسان خيِّر بطبعه وأهل لان يبلغ الكمال اذا ما توفرت له اسباب العدالة والحكم الصالح ، وان عالما افضل من الموجود يمكن ان يتحقق اذا ما تحكم العقل . وكان هؤلاء المفكرون ثوريي النزعة بدعوتهم الى التغيير الجذري وانسانيين باعتقادهم ان الانسان خيِّر بطبعه وعقلانيين باعتقادهم ان العقل يستطيع ان يصلح العالم وطبعوا بطابعهم هذا عصرا بكامله عرف بعصر التنوير ، وكان في طليعتهم فولتير وديدرو ومونتسكيو وروسو (١٥) .

اما فولتير الذي عاش بين ١٦٩٤ و١٧٧٨ فقد اتخذ العقل سبيلا الى بلوغ الحقيقة ونظر الى كل ما يستند الى الطقوس الشكلية بأنه باطل وضار وقال ان من شأن التقاليد ان تستعبد الانسان اذ تفرض عليه ان يسلم بالموجود المليء بالسيئات، ورأى في الكنيسة اقوى دعائم التقاليد . وبلغ فولتير في الشهرة درجة جعلته عنوان زمانه ولقب بأمير البيان وذاعت آراؤه وكانت كلمة منه تتردد أصداؤها في القارة كلها، وخشيه الملوك وتملقوه ونقم عليه النبلاء وضاقت به الكنيسة ذرعا ، وقد انهال عليهم جميعا بسخرية لاذعة جعلتهم أضحوكة للناس وسحر الجيل بأسلوبه الرائق ونقده الحاد الساخر في قصصه ورسائله التاريخية والادبية التي ملأت مائة مجلد وانتشرت في اطراف القارة وأشاعت الوعي واليقظة ودعت الى

الاعتماد على العلم التجريبي والى معرفة سنن الطبيعة والرجوع اليها في اقـــرار الصواب في كل ما يتعلق بشؤون الحياة الاجتماعية . وآمن فولتير بوجود الخالق ولكنه رأى في القصر ورجال الكنيسة مضللين وأهل دجل ومكر . وكان من اكبر دعاة الحرية في زمانه ، شديد الاعجاب بنظام الحكم في انكلترة لاعتقاده بأنه يوفر اسباب الحرية (١٦) .

ورغم ان دنس ديدرو الذي عاش بين سنة ١٧١٣ و١٧٨٣ ، لم يبلغ فـــي الشهرة وبعد التأثير ما بلغه فولتير ، لكنه كان عظيم الحذق والبراعة . وأعظـــم آثاره «الموسوعة» التي اصدرها بسبعة عشر مجلدا وجمع فيها معارف العصر في الرياضيات والفلك وعلوم الطبيعة والعلوم الانسانية والفلسفة وشاركه في تحريرها فولتير وروسو وكوندوسيه وتوركو وكثيرون غيرهم من ابرز رجال الفكر والعلـــم والاقتصاد في زمانهم . وكانت قد صدرت قبلها موسوعة بريطانية وأخرى المانية ، لكن موسوعة ديدرو انفردت بالابتكار والاصالة فلم تكن مجرد تبويب لمعلومات جامدة بل تضمنت نقدا صريحا وجريئا للنظم السائدة وكشفا لطبيعة أحكامها وخلفياتها المفعمة بالقسوة والتعصب وضيق الافق ، كما كانت بيانا للتفكير الراديكالي بأبعد حدوده بحيث تجاوزت الدعوة الى العقلانية وحثت على الايمان بالطبيعة وحدها . لكن مجمل افكار ديدرو ، شأنها شأن افكار فولتير ، لم تتجاوز حدود بث المعرفة ونقد الاوضاع السائدة والدعوة الى التسامح ونبذ التعصب فلم تكن اكثر من تمهيد لدعوة الاصلاح التي خرج بها مونتسكيو وروسو (١٧) .

ويختلف مونتسكيو الذي عاش بين ١٦٨٩ و١٧٥٥ عن فولتير وديدرو في انه كان من رجال القانون والمعنيين بالتاريخ ومن ذوي الميول المعتدلة ، فلم تلق كتاباته وآراؤه الاقبال ولم يكن لها التأثير الذي لقيته آراء فولتير وديدرو في أوانها ، لكنه كان موضع احترام الاوساط الاكاديمية وأصبح عضوا مرموقا في الاكاديميـــة الفرنسية منذ ١٧٢٧ . وطاف مونتسكيو اقطار اوربا واستقر فترة طويلة فـــي انكلترة وكان معجبا بنظامها السياسي . وكان يشغل منصبا في القضاء فلما عاد من أسفاره اعتزل واستقر في باريس وانصرف الى وضع كتابـــه الشهير «روح القوانين» الذي اثبت فيه رأيه في ان انظمة الحكم وليدة التاريخ والبيئة والتقاليد والدين والظروف الاجتماعية . وقال ان لكل نظام سيئاته فان غلبت فسد ؛ وان الحرية السياسية لا تستقر وتدوم الا بالفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فبفصلها يتحقق توازن تكون الحرية حصيلته ، اما جمعها فيؤدي الى الاستبداد (١٨) .

وعلى خلاف هؤلاء جميعا كان جان‌جاك روسو(١٩) الذي عاش بين١٧١٣ و١٧٧٨ ، فقد كان راديكاليا من طراز خاص ، في خصوصياته الشخصية نموذجـــا للعبث والضياع، لكنه لغير ذاته، مبعث هداية وإلهام . وفي حين اكتفى العلماء من الطبيعة بدراستها واستقصاء قوانينها فان روسو تعشقها وهام بها . وعارض العقلانيـــة بتأكيد اثر العاطفة، وأخذ على المفكرين اغفالهم لها او التقليل من شأنها ، وقال ان الاحساس العاطفي لا يقل اثرا في حياة الانسان من العقل ، ولم يلتزم بتعاليـــم

الكنيسة وطقوسها ورأى جوهر الفضيلة في ان يريد المرء لغيره ما يريده لنفسه. وقد عايش الطبقات الفقيرة وشاركها معاناتها ولهذا كان اكثر من غيره تحسسا بآلامها وصدقا في التعبير عما تقاسي . وأخذ على المتعلمين قلة مبالاتهم بما يكابد الضعفاء من قسوة الحياة وشدائدها حتى تصور ان من شأن التعليم ان ينمي الانانية فرجح على المتعلمين بسطاء الناس ورآهم اكثر تمسكا بالعفة والفضيلة من المتعلمين المستعظمين . وبلغ تبرمه بالمتعلمين ان حمل على المعرفة في رسالة «بحث في العلوم والفنون» واعتبرها مصدر الانانية والخبث وقال انه خير للناس ان يبقوا في حالة البدائية من ان تستعبدهم القلة الماكرة الظالمة الشرهة من المتعلمين . وتطلع روسو الى مجتمع تسود فيه الحرية والمساواة وتكون فيه الارض مشاعة فلا يقوم صراع واقتتال على الماديات ولا تكون فيه ضرائب ولا امتيازات ولا فلاسفة يضللون الناس . وصوّر في رسالته «أصل عدم المساواة بين الناس» كيف استولى الاقوياء على الارض المشاعة وأجبروا الضعفاء ان يقروا لهم بملكيتها فنشأت الملكية الخاصة التي هي مصدر التسلط وعدم المساواة ومبعث السخرة والعبودية والشقاء . وصوّر روسو في رسالته «العقد الاجتماعي» كيف اتفق الناس طواعية في فجر حياتهم ، على ان يودعوا السلطة لفئة منهم تتفرغ الى ادارة شؤونهم العامة فكان ذلك اصل الدولة والشرائع .

وفكرة العقد الاجتماعي وان لم تكن من ابتكار روسو الا انها بالصورة التي عرضها ، أكدت لزوم اقرار القوانين بطريق الاقتراع العام واعتبار السلطة وديعة الشعب لدى الحاكمين وهذا معناه ان من حقهم ان يستردونها . واعتبر روسو النظام الجمهوري افضل انظمة الحكم لانه اكثرها تعبيرا عن ارادة الجمهور . وكان لروسو تأثير عميق ومباشر في اتجاهات الثورة الفرنسية لان فكرة العقد الاجتماعي والقول بأن الحكم يقتضي ان يعبر عن ارادة الشعب وان الثروة لا يقتضي ان تبقى من نصيب الاقلية وحدها ، هذه الآراء اوحت بشعارات الحرية والمساواة والأخوة وجعلتها أمنية الاحرار في اوربا كلها .

وبرغم ان فرنسا كانت اوسع دول اوربا رقعة وأكثرها نفوسا بعد روسيا ، وفي غمرة يقظة راديكالية ونزعة انسانية امتد تأثيرها الى ما وراء حدودها ، ما كان لها ان تصبح موطن الثورة الكبرى لولا التناقضات في أوضاعها التي اشتدت حدتها حتى بلغت درجة الانفجار ، ولو لم يتهيأ لها سبب مباشر كان الشرارة التي اشعلت الناس . فقد قام بمواجهة يقظتها حكم كان نموذجا للحكم المطلق الارستقراطي الغاشم بلغ فيه التضاد بين القوى الاجتماعية أقصاه (٢٠) . فطبقته الارستقراطية التي تمتعت بامتيازات لم يتمتع بها غيرها في اوربا كلها ، اعرضت عن طلب العلم والمعرفة حى بلغت غاية الجهالة والتفاهة ، وترفعت عن القيام بأي عمل اجتماعي او اقتصادي لكسب عيشها واستعاضت عنه باحتكار المناصب العليا في الدولة وفي الجيش دون اي حساب للاهلية والكفاءة ؛ بينما الطبقة الوسطى الناشئة رغم ما هيأته لها ثروتها من اسباب القوة والكفاية ، حثت ابناءها على طلب

العلم فانصرفوا اليه حتى برزوا في كل ميادينه فتولّد لديهم شعور بأنهم الأحق بتعهد شؤون الدولة من ابناء الارستقراطية التافهين الذين كان استئثارهم بالسلطة سببا في ان يغمر الوهن والفساد كيان الدولة فيضعفها ويدمر اقتصادها . وبرغم محاولة توركو وزير لويس السادس عشر وعميد الاقتصاديين الفيزيوقراط ، معالجة الوضع الاقتصادي بتحسين استغلال الارض وتوسيع مجال التجارة وتشجيع الاستثمار وتطمين مصالح البورجوازية ، باءت محاولته بالفشل بسبب مقاومتها من قبل الارستقراطية التي كانت تعارض كل تغيير . فكان ان يئست البورجوازية من امكان اصلاح الوضع فقررت ان تتوجه الى الشعب تقوده في ثورة تقتلع فيها حكم الاستبداد والارستقراطية ، وكان انعطافها هذا اول خطوة في طريق الثورة (٢١) .

وكانت حال الفلاحين الذين يؤلفون ثمانين بالمائة من سكان البلاد ، تزداد سوءاً في ظل هذا الحكم ، يوما بعد يوم . فغالبيتهم لم تكن تملك ارضا ، ومن ملكها منهم ضاقت به سبل العيش من جراء تكاثر النفوس وارتفاع الاسعار وانخفاض المحصول بسبب التخلف المستمر في اوضاع الزراعة ، وبسبب ما يقتطع منه لتسديد رسوم الاقطاع وعشر الكنيسة وضريبة الدولة . وكانت الخزينة قد اشرفت على الافلاس قبيل الثورة بسبب تدخل فرنسا في حرب الاستقلال الاميركية معارضة لبريطانية ، وبسبب اسراف البلاط وحياة البذخ فيه التي كانت مضرب المثل ، مما اضطر الملك ان يلجأ الى الارستقراطية يطلب معونتها ، لكن الارستقراطية آثرت ان تغتنم سوء الوضع فتفرض على الملك منحها المزيد من الامتيازات واشترطت للموافقة دعوة مجلس الطبقات ولم يكن قد التأم منذ نيف ومائة وسبعين سنة . ولم يجد الملك مناصا من الاستجابة لمطلبها . واذا دعوة المجلس تكون الشرارة التي توقد نار الثورة (٢٢) . ولم يكن وراء هذه الثورة التي صارت من اعظم ثورات التاريخ خطة مبيتة او حزب يتدبرها او حركة ارادتها ولا كانت من صنع رجال ارادوا بها تنفيذ نهج مقرر . كل ما كان وراءها آراء رددها مفكرون وفلاسفة عبرت عن روح العصر واجتذبت بوجه خاص طبقة جديدة ناشئة هي البورجوازية رات في الحرية التي رددها اولئك المفكرون والفلاسفة سبيلها الى السلطة والقوة فرفعت لها الرايات التي سحرت الجماهير واجتذبتهم الى جانبها وسخرتهم لتحقيق اغراضها وتولت القيادة (٢٣) .

وكان مجلس الطبقات الذي دعي الى الالتئام يتألف من ممثلي ثلاث طبقات : طبقة النبلاء وطبقة الاكليروس والطبقة الثالثة التي افترض انها بقية الشعب وكان قد زيد عدد ممثليها بحيث اصبح معادلا لمجموع ممثلي الطبقتين الأخريين ولكن رغم ذلك بقي لكل طبقة صوت واحد فكان صوت الطبقة الثالثة لا تأثير له امام اجتماع صوتي النبلاء والاكليروس . لكن الذي غفل عنه الملك والنبلاء والاكليروس هو عامل الزمن فلم يقدروا التغيير الذي طرأ على تكوين الطبقة الثالثة ولم يدركوا انها، ولم يكن لها شأن فيما مضى ، قد برزت فيها الان فئة واعية من البورجوازية تقودها ، تعرف ما تريد وكيف تسعى الى تحقيقه . والذي حدث هو ان ثلثي ممثلي

الطبقة الثالثة في مجلس الطبقات الجديد وكانوا من المحامين والقضاة والعلماء ورجال الاعمال والمال، فاجأوا المجلس في اول التآمه باقتراح طلبوا فيه ان يتحول الى جمعية وطنية يجري التصويت فيها لا بالطريقة التقليدية بل على اساس ان يكون لكل عضو فيه صوت واحد بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي اليها، وأن يعهد الى المجلس بوصفه جمعية وطنية وضع دستور جديد للبلاد . وتغافل الملك عن الاقتراح على افتراض ان يتولى النبلاء والاكليروس معارضته ويتخذ هو موقف المحايد ويقصر اهتمامه على المسألة المالية التي تعنيه . وأصر ممثلو الطبقة الثالثة على ان يبت في اقتراحهم قبل ان ينظر بأي شيء آخر واستمر الاخذ والرد قرابة شهر دون جدوى . فقرر ممثلو الطبقة الثالثة تجاه هذه المماطلة ان يجتمعوا في قاعتهم الخاصة ليتخذوا قرارا لكنهم وجدوا ابواب القاعة موصدة فاجتمعوا في ساحة للتنس قريبا منها وكوّنوا من انفسهم جمعية وطنية واقسموا يمينا على مواصلة العمل حتى يتموا وضع دستور لفرنسا . وتظاهر الملك بقبول الامر الواقع ، لكنه بادر في الخفاء الى استدعاء حرس الحدود الشرقية الى باريس وفرساي بقصد احباط محاولتهم بالقوة . فلما انكشفت محاولته طلبت الجمعية الوطنية ابعاد الجيش فرفض الملك وعندئذ هبت جماهير باريس لنجدة الجمعية الوطنية وحسمت الامر باقتحام الباستيل في الرابع عشر من تموز سنة ١٧٨٩ ، فكان اقتحامه الشرارة التي اشعلت نار الثورة . وأحدث سقوط الباستيل دويا تجاوز باريس وحدود فرنسا وتجاوبت أصداؤه اطراف اوربا كلها . وفي التوتر الذي خيم على فرنسا في أعقاب موسمين زراعيين سيئين أديا الى ازمة اقتصادية حادة لم يكن ما يشبه تأثير سقوط الباستيل كرمز لنظام سيء تبرّم به الناس وبلغ ضيقهم به اقصى الحدود ، فبسقوطه هوى النظام برمته . واشتعلت الثورة في أقل من شهر واحد في جميع فرنسا فأتت على الاقطاع وعلى جهاز الحكم وعلى طبقتي النبلاء والاكليروس ولم تبق غير الجمعية الوطنية التي بادرت على عجل الى الغاء الامتيازات واقرار حقوق الانسان (٢٤) .

وكان اقرار بيان حقوق الانسان اول اجراء في سبيل التغيير كرس المبادىء التي نادى بها روسو وكشف في الوقت عينه عن طبيعة المرحلة وخصائصها وعن طريقة البورجوازية في التستر على اهدافها بشعارات جذابة ومثيرة . فقد اعلن البيان ان الناس يولدون ويبقون احرارا متساوين في حقوق عامة هي حق الحرية وحق الملكية وحق الطمأنينة وحق مقاومة الظلم والاضطهاد ؛ وان القانون اعراب عن الارادة العامة يشارك كل مواطن في وضعه بشخصه او بواسطة من يمثله ويكون هذا القانون واحدا للجميع ؛ ومنع اتهام او حجر او سجن اي مواطن الا في الحالات التي يعينها القانون وبالكيفية التي يحددها ؛ وأعلن التسامح في الدين والاقرار بحرية الرأي وحرية الصحافة ؛ ولعل اهم ما جاء فيه اعلانه ان الامة وحدها مصدر السلطة وبذلك ترك الباب مفتوحا للخروج من سلطة البورجوازية التي كشفت عن طبيعة النظام الذي تريده بالنص في دستور سنة ١٧٩١ الذي هو

اول دستور مكتوب في اوربا أقر نظام الملكية المقيدة والفصل بين السلطات ، باختيار طريقة انتخاب على درجتين وحصر حق التصويت بدافعي الضريبة وحصر إشغال وظائف الدولة بمالكي العقار ، كشفت بذلك عن شدة حذرها من عامة الشعب وأثبتت ان الذي ابتغته هو زوال الحكم المطلق الارستقراطي واستبداله بنظام ملكي دستوري وعلماني يقضي على نفوذ النبلاء والاكليروس ولكنه يضع بيدها مقاليد السلطة ويطلق العنان للتشبث الفردي ويؤكد قدسية الملكية الخاصة ويجعلها اساس ممارسة السياسة والحكم .

على ان الذي اخرج الثورة الفرنسية من حدودها هذه وميزها ، ظهور فريق من ابناء البورجوازية هو فريق اليعاقبة ابقى راية الثورة خفاقة وتجاوز بها اهداف طبقته وصار رمزا للراديكالية والثورة المستمرة . ولعل مرد اندفاعه هذا، عدم اكتمال وعيه الطبقي. فمصالح الطبقة الوسطى في هذه الثورة التي هي اول ثورة بورجوازية لم تكن قد اتضحت على حد سواء لجميع ابنائها . ولعل الذي دفع اليعاقبة الى التزام الراديكالية الثورية تأثرهم بجماهير باريس الذين أطلق عليهم اسم «البروليتاريا» وأطلق عليهم اعداء الثورة اسم «الرعاع» وكانوا هم الذين اقتحموا الباستيل وحرسوا الجمعية الوطنية وحافظوا عليها وحملوا الملك على مغادرة معقله في فرساي وأبقوه في قبضتهم في باريس وتفانوا في الذود عن الثورة وترصدوا حركات اعدائها . وقد انتابتهم خيبة الامل لما وجدوا انفسهم بعد كل الذي فعلوه ما يزالون يعيشون حياتهم الرثة البائسة وكأن الحال لم تتغير بأكثر من ان تحل البورجوازية محل النبلاء والاكليروس . ولعل فريق اليعاقبة أحس بهذه الخيبة اكثر من غيره وقد احتفظ بعلاقته بالعامة وأدرك انها تفتقد قيادة تخرج من بين صفوفها فقرر ان يتولى قيادها (٢٥) .

وبقيادة اليعاقبة تحولت «البروليتاريا» التي تضم جمهور الكادحين ومعهم صغار الحرفيين والصناع وأصحاب الحوانيت وجموع العاطلين والمشردين ، الى قوة ثورية ضاربة برعت في تنظيم المظاهرات واثارة الصخب واقامة المتاريس وخوض معارك الشوارع . والتزم اليعاقبة بنهج يجمع بين الحفاظ على الملكية الخاصة والعداء لكبار الاغنياء ولكبار الموظفين وذوي النفوذ ويتميز بنزعة راديكالية الى الحرية والمساواة ويرجح نظاما يعتمد على ما يشبه ديمقراطية مباشرة ويضمن العمل للمواطنين جميعا والعيش للعاطلين ويعبر اجمالا عن مصالح صغار الناس الذين يحتلون في المجتمع مكانا بين البورجوازية والبروليتاريا كما تصورها ماركس.

وأظهر اليعاقبة تفانيا ونشاطا ملحوظا وأسسوا لنظامهم فروعا في جميع انحاء فرنسا تولت توزيع بياناتهم وصحفهم وقيادة المقاومة الشعبية . وحرصوا على ابقاء صلتهم وطيدة بالعامة وجعلوا منهم قوتهم الرئيسية في مواصلة الثورة والذود عن مكاسبها . واشتهر من قادتهم : مارات ودانتون وروبسبيير وسان جوست ، وتميزوا جميعا بالراديكالية وبتكريس حياتهم للثورة والتفاني في سبيلها . وعن طريق تأثيرهم على العامة اصبح لهم نفوذ غالب في الجمعية الوطنية برغم هيمنة الجيروند العددية عليها وكانوا يمثلون البورجوازية المعتدلة فيها .

وكان من جراء تطرفهم ان اشتدت مخاوف المعادين للثورة من تجاوز تأثيرها حدود فرنسا فقرروا استعجال مهاجمتها والاطاحة بها . وتطرفهم بعينه دفع الجيروند في الوقت نفسه ان يلتزموا جانب التطرف في سياستهم الخارجية ويحبذوا نشر مبادىء الثورة في اوربا بالقوة على أمل ان يصرفوا العامة الى توجيه غلوهم الثوري الى القوى الخارجية المعادية للثورة . وهكذا التقت رغبـــة الفريقين ، اليمين الرجعي واليسار المعتدل في حرب اعلنت في نيسان سنة ۱۷۹۲ وجاءت على عكس ما اراده بها الفريقان ، اذ عجلت بسقوط الملكية المقيدة وقيام الجمهورية وبابدال الجمعية الوطنية بجمعية جديدة خرجت على الاعتدال الذي رجحه الجيروند وأدت الى سيطرة اليعاقبة على السلطة (٢٦) . اذ ما كادت الحرب تعلن حتى واجـــه الجيروند وضعا غاية في الحراجة اوشكت فيه قيادة الجيش ان تنحاز الى اعداء الثورة ، ووجدوا انفسهم بين امرين : ان يبذلوا قصارى جهدهـــم لاحراز نصر كامل او يصابوا بهزيمة يكون فيها القضاء على الثورة. فاختاروا الامر الاول واتخذوا اجراء لم يسبقهم اليه احد وهو اعلان حرب كلية وشاملة عبأوا لها كل طاقـات الامة ، فأعلنوا التجنيد العام وسيطروا على مواد المعيشة وطبقوا نظاما للتمويـــن حددوا فيه الاستهلاك الفردي وأسعار السلع والغوا كل الفروق التـي تميز بين المجند وغير المجند واعتبروا الامة كلها في ساحة حرب . ورحب اليعاقبة والعامة باجراءاتهم ورأوا فيها السبيل الوحيد لرد الخطر الخارجي كما رأوا فيها قربا الى المساواة بين المواطنين .

وحاول الجيروند ان يجمعوا بين اجراءات الضبط العسكري والحفاظ على المد الثوري . لكنهم ما لبثوا ان ادركوا تعذر الجمع بين ما تقتضيه الحرب من نظام صارم وبين المد الثوري الذي يمتنع فيه الضبط وتغلب التلقائية ، فلما رجحـــوا الصرامة توترت علاقتهم باليعاقبة والعامة الذين خشوا ان تتخذ الصرامة وسيلة لتسلط اليعاقبة وانفرادهم بالسلطة . وكانت جيوش اعداء الثورة تقترب مـــن باريس حتى باتت تتهددها . عندئذ ثارت جماهيرها وعزلت مجلس الولاية وانتخبت مجلسا جديدا اغلبيته من اليعاقبة بزعامة دانتون واتهمت الملك وحاشيته بكشف اسرار الجيش وخططه للاعداء وطالبت باعدامه فلجأ الى الجمعية التشريعيـــة التي انتخبت اخيرا وأغلبيتها من الجيروند فحاولت انقاذه خشية ان يؤدي اعدامه الى تشديد الحملة على فرنسا . لكن اليعاقبة والعامة أصروا على اعدامه وطالبوا بأن تتخذ الجمعية التشريعية قرارا بانتخاب مجلس وطني جديد بالاقتراع العـام ليسن دستورا جديدا ، فتم لهم ما ارادوا وشرع دستور سنة ۱۷۹۳ الذي أقـر باستفتاء عام كان اول استفتاء في التاريخ . وفرض هذا الدستور على كل فرنسي قادر على حمل السلاح ان ينضم الى جيش الثورة وشكل اول جيش شعبي شهدته اوربا . وأخذ نفوذ اليعاقبة تؤيدهم عامة الشعب ، يتسع بتفاقم الخطر الخارجي حتى تمت لهم السيطرة فغيروا وجهة الثورة (٢٧) .

ولم تعد تذكر الثورة الفرنسية منذ ذلك اليوم الا ويمثل في الذهن ذكر قادة

اليعاقبة ، مارات ودانتون وروبسبيير وسان جوست ، ولجنة السلامة العامة ومحكمة الثورة والمقصلة ، وهي الصورة التي طبع بها اعداء الثورة عهد اليعاقبة فمثلوه بحكم ارهابي دموي في غاية من القسوة والبشاعة ونعتوه بعهد الرعاع وبالغ مؤرخوهم في تضخيم سيئاته وأغفلوا ذكر خيانة البلاط ورجاله والفظائع التي ارتكبها النبلاء الذين دخلوا فرنسا مع الجيوش الغازية وتجاهلوا ذكر الانجازات التي تجلت فيها روح الثورة واقتصروا على ذكر مآسيه التي كانت في حقيقتها انفجارات الكبت وردود فعل القهر وتصفية حساب ما كابد الناس من ظلم المتسلطين الذين سحقوا الشعوب وأفنت مجازرهم ملايين الابرياء على مدى الزمن. والواقع ان كل ما جرى في عهد اليعاقبة لا يقاس بما جرى ويجري في عهود الردة من مذابح جماعية واستباحة للقيم الاخلاقية والانسانية . ومهما يكن من امر ، فان المواطنين الفرنسيين لا يرون في عهد اليعاقبة غير ثمرة ثورتهم ومدعاة فخرهم واعتزازهم ، اذ ما كادت الجيوش الغازية تقترب من باريس حتى هبت فرنسا عن بكرة ابيها فتوافدت الجموع الغفيرة من كل صوب تحمل رايات الثورة وشعارات الحرية والأخوة والمساواة وبرزت من بينها على الخصوص حشود مارسيليا تنشد المارسيليز الذي اصبح منذ ذلك الحين نشيد فرنسا الوطني . وانتصر جيش الشعب في معركة فالمي التي قال فيها غوته عندما بلغه نبأها «اليوم بدأ عهد جديد في التاريخ» وتملكت الجماهير في أثرها حماسة طاغية فحملوا المجلس على الغاء الملكية واعلان الجمهورية والحكم على جميع المهاجرين بالنفي المؤبد وطلبوا سوق الملك الى المحاكمة فحوكم وأعدم (٢٨) . وعلى الاثر تضافرت جميع الدول المحيطة بفرنسا وهاجمتها واجتاحتها من كل جانب وفقدت حكومة الثورة ستين مقاطعة من مجموع ثمانين وبدا الوضع ميؤوسا منه وفرغت خزينة الدولة. وعندئذ حصلت المعجزة ، فلم تمض بضعة شهور حتى رد الغزات على أعقابهم واستردت جيوش الثورة كامل ارض فرنسا واحتلت بلجيكا وأشرفت على عشرين عاما من الانتصارات المتوالية اجتاحت في خلالها كل اوربا وأدامت فرنسا من خلالها جيشا يعادل ثلاثة أضعاف جيشها عام ١٧٩١ بنصف نفقاته .

وبرغم انشغال اليعاقبة بالحرب استطاعوا ان يحققوا أثبت انجازات الثورة وأبعدها أثرا . فقد وضعوا الدستور الجديد وطبقوه وكان اول دستور ديمقراطي أقر الاقتراع العام واعترف للمواطنين بحق مقاومة الظلم والاضطهاد بقوة السلاح وضمن لهم حق العمل والاعالة في حالة البطالة وأعلن ان ضمان سعادتهم حق لهم على الدولة لا يكفي ان ترفعه شعارا بل عليها ان تحققه والا أخلت بأهم واجباتها ؛ وعملوا على تضييق الفوارق بين المواطنين حتى بدت الثورة وكأنها تسعى نحو الاشتراكية ، فألغوا تعويض الاقطاعيين عن اراضيهم المستولى عليها وجزأوا الملكيات الكبيرة الى وحدات صغيرة عرضوها للبيع على من لا ارض له بأقساط ضئيلة وألغوا ايجار الارض وجميع ديون الفلاحين وألغوا عقوبة السجن لقاء الدَين وشرعوا انظمة للتعليم اصبحت اساس انظمة التعليم الحديث وفصلوا السلطة الدينية عن السلطة المدنية واقروا حرية العبادة ووضعوا أسس القانون المدني الذي أتم نابليون تشريعه

وفرضوا توزيع الميراث بالتساوي بين الاولاد بعد ان كان محصورا بالولد الاكبر والغوا الرق في المستعمرات ومنحوا المرأة حق التملك وعززوا بوجه عام مقام الديمقراطية الاجتماعية والسياسية وكان لهم اجمالا ، اكبر الاثر في جعل فرنسا موطن البورجوازية الصغيرة . لكنهم افرطوا براديكاليتهم على عهد روبسبيير الذي يعد رغم مغالاته في الثورية ، اعظم من انجبتهم الثورة بعد نابليون ، وكان مثاليا متأثرا بآراء روسو ، اراد ان تعم فرنسا العدالة والفضيلة . وبرغم انه لم يشغل منصبا رسميا في الدولة وانما كان مجرد عضو في لجنة السلامة العامة ، صار اقوى رجل في فرنسا مستمدا قوته من تأييد العامة له ، فلما سحبت تأييدها فقد نفوذه فأطيح به وبلجنة السلامة العامة . ولم يكن افراط اليعاقبة في راديكاليتهم امرا غريبا ، فمثله جرى في الثورات على مدى التاريخ ؛ ولعله مظهر للتفاوت بين ما تريد تحقيقه وما يحتمله الواقع او مؤشرا لما يمكن ان يتحقق في مستقبل الزمن تنزلق به الثورة فتتجاوز حدودها التاريخية .

وتعرضت الثورة بسقوط لجنة السلامة العامة واعدام روبسبيير لفترة من الاضطراب وأخذت المؤامرات تحاك ضدها وندم العامة على ما فعلوه بروبسبيير وافتقدوه ولم يدفع الخطر الذي أحدق بالثورة الا ظهور نابليون الذي استمر يحارب ويغطي نفقات جيشه وحكومته بما تعود به انتصاراته المتلاحقة من مكاسب قرابة عشرين عاما ، ترك فرنسا بعدها وهي اغنى دولة في اوربا . وترك اليعاقبة لنابليون جيشا ثوريا تعلم افراده وقادته صناعة الحرب بالممارسة ، يبقى فيه من يختار البقاء ليواصل القتال ويهجره من يعجز عن مواصلته ؛ وقد استمد من روح الثورة تفوقا مكن نابليون بقيادته الفذة ان يهزم به كل جيوش القارة . وبقي هذا الجيش على منوال ما نشأ عليه ، جنوده من الكادحين يختارون الانضمام اليه ولا يتقيدون بنظام المعسكرات ؛ يعاملون فيه معاملة الرجال ، كل منهم ملؤه شعور بأنه يحمل الى اوربا وشعوبها رسالة الثورة ، وأفراده يرقون الى اعلى الدرجات بما يظهرونه من جدارة وشجاعة في المعارك ، ولا يحتاج الى صناعة اسلحة تجدد سلاحه لان انتصاراته المتلاحقة على عجل اغنته عن الحاجة الى استبدال سلاحه، وقد تميز بقدرة فائقة في الهجوم واستطاع قادته العصاميون الذين برزوا من صفوف مجنديه وبلغوا مناصبهم بما اثبتوه من دراية وشجاعة وإقدام وحسن قيادة ، ان يهزموا حتى جيش بروسيا الذي كان اقوى جيوش أوربا واشتهر قادته باتقانهم اساليب الحرب وكان النموذج في النظام والالتزام بالتقاليد العسكرية .

وادى نابليون مهمته التاريخية بانهاء عهد الثورة وتثبيت حكم البورجوازية . وبرغم كل اخطائه فما زالت البورجوازية الفرنسية ترى فيه اعظم رجل انجبته فرنسا في تاريخها الحديث . وقدّر فيه معاصروه تعدد البراعات واتقاد الذهن وسعة الخيال ، ورأوا فيه قائدا فذا ومخططا دقيقا وزعيما مقداما ورجل دولة واسع الاطلاع . على ان الذين قدروا فيه هذه المزايا عرفوه وهو في أوج عظمته . وهو وان اصبح اسطورة عصره لكن هذه الاسطورة لا ترتبط بميزاته

الشخصية فقط بل تعود ايضا الى ما تركه من أثر . فان كثيرا من رجال التاريخ وفاتحيه نشأوا ملوكا او حكاما او أمراء أما هو فقد درج من ضابط مغمور وتقدم بسرعة خارقة ليسيطر على قارة بكاملها بمواهبه الشخصية . وكان كثير القراءة ، حاول نظم الشعر وكتابة القصص ، شديد الاعجاب بروسو ، نموذجا للطموح ولرجل عصري متمدن ، محبا للبحث والتحقيق ومستنيرا يجمع بين العقلانية والرومانسية والثورية ، لعل اعظم آثامه تدميره ثورة اليعاقبة وقضاؤه على احلامهم في الحرية والأخوة والمساواة وعلى أسطورتهم التي هي اعظم واكثر اصالة من أسطورته ، فشخصيته بكل ما امتازت به لم تعد ، بعد زواله تحرك التاريخ بينما بقيت اسطورة اليعاقبة مصدر إلهام للشعوب مدة تزيد على قرن كما بقيت الثورة الفرنسية الممثلة بهم مثار اعجاب الطبقات النيرة والاحرار في العالم ولو ان نابليون حوّلها الى امبراطورية وطبع كل افكارها ومثلها بطابع المحافظة والمركزية والتسلط ووضع للنظام البورجوازي غير السكسوني نماذج نظمه القانونية والقضائية وتقسيماته الادارية واصوله التعليمية (٢٩) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه اخيرا ، ان الثورة الفرنسية فوق كل مآثرها ، اعطت لكثير من الكلمات المتداولة في الاجتماع والسياسة معانيها التي نعرفها ، فلم تكن كلمة وطن او شعب أو قومية او يسار او يمين او تطرف او اعتدال او رجعي او تقدمي تحمل قبلها ، المفهوم الذي تحمله الان . فكلمة حر لم تكن تعني غير المعنى المخالف للعبد المملوك ، ولم يكن يفهم من كلمة وطن غير مكان المولد او للقوم او القومية مفهومهما الاجتماعي المحدد الان . وكانت هذه الثورة فيما عبرت عنه ، كما قال ماركس ، فوزا للملكية البورجوازية على الملكية الاقطاعية وللقومية على الاقليمية ولتبعية الارض لمن يزرعها على تبعيته لها ؛ كما كانت فوزا للمعرفة على الطقوس والمسلمات ، وللقانون المدني وأحكامه العامة على امتيازات القرون الوسطى ؛ وهي في مجملها ، فوز للقرن الثامن عشر على القرن السابع عشر . ولم يكن ارهابها غير أسلوب العامة وطريقتهم في تصفية الحساب مع اعدائهم وأعداء البورجوازية مشخصين بالحكم المطلق وبنظام الاقطاع وبأعداء التقدم عموما. وهي بحق أم الثورات ومعينها الذي لم ينضب رغم انقضاء قرن ونيف (٣٠) .

- ٣ -

المادية التجريبية

كان من نتائج اكتشاف طرق المحيطات الى الشرق والى العالم الجديد ، ان انتقل مركز الحركة التجارية من ايطاليا الى غرب اوربا وتبعتها حركة الفكر بوصفها من ظواهرها . وكان من جراء ذلك ان بدت في هولندة وكانت اول بلد في غرب

اوربا تأثر بهذا الانتقال ، بوادر الانتعاش الاقتصادي وظلائع الطبقة الوسطى وهي تشق طريقها الى التحرر وقامت فيها في الوقت عينه ، بزعامة رجل دين يدعى كلفن ، حركة اصلاح ديني عرفت بالكلفنية تميزت عن اللوثرية ذات الطابع الريفي، بالاستنارة المنفتحة على التجدد وبالنزعة المدنية الديمقراطية ومالت الى تشجيع حرية الفكر . وجعل كل ذلك من هولندة مقرا لاكبر فلاسفة اوربا ومفكريها يومئذ، وفي مقدمتهم رينه ديكارت (١٥٦٩ ـ ١٦٥٠) ويعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة وبندكت سبينوزا (١٦٢٢ ـ ١٦٧٧) ابرز مفكري القرن السابع عشر .

كان ديكارت من اوائل المفكرين الذين تقصوا ماهية المعرفة واعتبروا العقل مقرها ونظروا الى الاحساس والذاكرة والتخيل بوصفها وسائل العقل للوصول اليها . وتصور ديكارت ان الله خلق المادة من هباء واخضعها للقوانين التي تحكم الطبيعة فجعلت من الهباء مادة الاشياء كلها . وحاول في تصوره هذا ان يوفق بين فكرة الخليقة وفكرة النشوء على سنن الطبيعة في فلسفة مثالية ثنائية افترضت للفكر مرجعا مستقلا عن العقل يسبق وجوده وجود العقل وميزت بينه وبين الوسائل التي يستعين بها(٣١). واوضح في رسالته «بحث في الاصول» طريقته التي رجح فيها العقل على الخبرة والتجربة وقال بتدرج الفهم من البسيط الى المركب واعتبر الشك بداية المعرفة والسبيل الى اليقين (٣٢) .

وجاء سبينوزا من بعده فعارض ثنائيته وقال ان الحقيقة مرجعا واحدا هو الطبيعة ولكن التصورات المستخلصة منها او المبنية عليها متعددة ومتفاوتة ؛ وقال ان لكل وجود علة الا الطبيعة فهي علة وجودها ؛ وجعل علوم الطبيعة معين المعرفة وغاية العلم معرفة اسرار الطبيعة والاستعانة بها في تحقيق التقدم واصلاح حال الناس . واكد سبينوزا الضرورة الى حرية الفكر ولكنه خص هذه الحرية بالعلماء والفلاسفة من دون العامة لانهم في رأيه لا يحسنون استخدامها والانتفاع بها . وميز بين الحقيقة المطلقة والتصورات الفكرية والحسية التي تتولد عن انعكاساتها . وقال بوجود عقل مطلق هو وحده يدرك الحقيقة المطلقة ، اما العقل البشري فلا يدرك منها الا ظواهرها . ورأى ان الانسان يجمع في كيانه الجسم والروح وان قوام الروح الفكر والعاطفة . وقال ان المعرفة معرفة بالعقل ومعرفة بالحس ، والاولى ارفع درجة من الثانية وبهذا قلل من شأن المعرفة بطريق التجربة والاختبار ورجح المعرفة بالالهام . وكانت فلسفته في مجملها بهذه الصورة ، مثالية ذات نزعة مادية . ودعا سبينوزا الى حرية الفكر في العلم وفي الدين وقال ان غاية الدين تلقين مبادىء الفضيلة لا التحقيق في اصل الموجودات ومنشئها فذلك من شأن العلم وحده ؛ ورجح الديمقراطية على سائر الانظمة ؛ وكان لفلسفته تأثير كبير في مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر (٣٣) .

على ان ما حققه ديكارت وسبينوزا وغيرهما من مفكري هذه الفترة لم يكن غير تمهيد للتطور الذي تحقق في انكلترة في العلم والفلسفة بعد ان اصبحت موطن الثورة الصناعية وارتبط تقدم الصناعة فيها بتقدم البحث العلمي في كل ما يتعلق

بالملاحة البحرية والاختراع وتطوير طرق التعدين وصناعة الاسلحة وغير ذلك مما استلزمه نمو الراسمالية الصناعية واتساع التجارة والعمران ؛ واتخذ هذا البحث وجهة مادية اعتمدت التجربة والاختبار وبرّز علماء وفلاسفة كان في طليعتهم فرانسس بيكن (١٥٦٠ ـ ١٦٢٦) وتوماس هوبس (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) وجون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٣) الذين جعلوا من انكلترة ، كما قال ماركس ، موطن المادية الحديثة طيلة القرن السابع عشر (٣٤) .

ويعتبر فرانسس بيكن رائد المادية التجريبية ومن أوائل الذين عارضوا مثالية الاغريق ، لاسيما مثالية ارسطو التي اعتمدها مفكرو القرون الوسطى والكنيسة الكاثوليكية ودفعت الفكر في متاهات التجريد وجعلت من الانسان عبدا للطبيعة بعد ان كان السيد فيها ، كما قال بيكن الذي رأى ان لا سبيل للانسان لاستعادة مكانته غير سبيل العلم بطريقته التي ابتكرها وثبت قواعدها وهي طريقة استقرائية تستخلص الاحكام العامة من أوليات تستند الى التجربة والاختبار والمشاهدة بعكس طريقة ارسطو الاستنتاجية التي تستند فيها الاحكام الى قواعد عامة مقررة ومسلّم بها . وقال بيكن ان غاية الفلسفة تفسير المسائل العملية والحياتية وتعليلها لا معرفة ما وراء الطبيعة او الوصول الى الاحكام المطلقة المجردة ، فالناس لا تعنيهم معرفة افكار مجردة عن الطبيعة وماهية الموجودات بقدر ما تعنيهم القدرة على فهم الطبيعة والانتفاع بخيراتها واستثمار طاقاتها . واعتبر بيكن مصادر المعرفة ثلاثة : الذاكرة والتخيل والعقل ؛ الذاكرة تجمع المفردات الحسية وتختزنها لتستذكر عند الحاجة اليها وتستعاد كمادة تاريخية عن الطبيعة والمجتمع ، يصوغ منها التخيل تصورات تطابق الواقع فتكون صحيحة وتخالفه فتكون غير صحيحة . اما العقل فمهمته كما رأى ، ان يصوغ من الاحساسات والتصورات «فِكرا» تعبر عن ظواهر الطبيعة والحياة ، وهذه هي الفلسفة . والفلسفة إما ان تعني باللاهوت او بالطبيعة والانسان ، والثانية هي الاحرى بالاهتمام . وهذه إما ان تكون نظرية تبحث في عناصر الطبيعة وخواصها او عملية تطبيقية تتحرى الاسباب والعلل المادية للموجودات . وقال ان قدرة الانسان على المعرفة رهن بقدرة حواسه وما يستطيع عقله ان يدرك مستعينا بها . وتصور بيكن الطبيعة ساكنة ومستقرة ولم يتصور ان لها دينامية تجعلها في تغير دائم ، فعصره لم يكن قد ادرك هذه الحقيقة بعد (٣٥) .

اما هوبس فجمع الى تأثره بأستاذه بيكن ، تأثره بغاليلو ونظرائه الذين عنوا منذ بداية القرن السابع عشر بدراسة شؤون الطبيعة والوجود وسمُّوا بالعلماء تمييزا لهم عن الفلاسفة ، وتميز باهتمامه بالشؤون الاجتماعية والسياسية . وبدأ هوبس من حيث انتهى بيكن الذي اعتبر الحواس مصدر المعرفة وتجاوزه الى القول بأننا لا نحس من الطبيعة الا تأثيرها متمثلا في ظواهر تنعكس في الذهن ؛ وشبه الوجود ، بسبب تأثره بالعلماء ، بركام من اجسام مادية تحكمها قوانين الحركة الميكانيكية التي تسري في عالم الانسان والحيوان وفي الطبيعة على حد سواء موجهة

من قوة خارجية ، وأخذ على المثالية قولها بتجاوز معرفتنا حدود ما تدركه حواسنا ، مؤكدا ان كل ما نتصوره مما هو خارج عالم الأحساس ليس الا وهماً وعلى هذا أنكر وجود الروح ورفض الاخذ بنظرية الحق الالهي ورجح نظرية العقد الاجتماعي (٣٦) .

وواصل جون لوك ، ثالث فلاسفة المادية التجريبية ، عمل سلفيه بيكن وهوبس . وكان قد تحقق للطبقة الوسطى في بريطانيا السيطرة على مراكز القوى في أعقاب «الثورة المظفرة» التي ساهم بها لوك كفيلسوف واقتصادي وكاتب سياسي الى جانب اسهامه في البحوث العلمية لاسيما بحوث الانواء والكيمياء . وبدأ لوك نشاطه الفلسفي بنقد فلسفة ديكارت وبقية الفلسفات التي ترجع المعرفة الى الالهام او الفطرة مؤكدا ان المعرفة مردها الى تأثر الحواس بالاشياء المادية . وقال ان الذهن صفحة بيضاء وكل ما ينقش فيه مرده الى التجربة والخبرة وان الاشياء الخارجية تؤثر في حواسنا فتولد افكارا بسيطة هي المعطيات التي يستقبلها الذهن وينشىء منها الافكار التي تتكون منها المعرفة كما تتكون الاجسام من الذرات . وقال ان للذهن قدرة على خزن هذه المعطيات ثم استعادتها وتمحيصها ووصلها بعضها ببعض بأشكال لا نهاية لها وتكوين افكار مركبة منها . ولا يستطيع الذهن ان يصنع من لدنه ابسط فكرة ليس لها صلة بمعطيات الحواس . وصنف لوك المعطيات صنفين ، معطيات تنشأ عن تأثر حواسنا بخصائص أصلية لها وجود فعلي مثل الصلابة والامتداد والشكل والعدد والحركة ويسميها المعطيات الاولية ؛ وأخرى تنتج عما تأثرت به حواسنا فلا تكون من الخصائص الاصلية في الاشياء ولا يكون لها وجود خارج حواسنا مثل اللون والمذاق والرائحة والصوت والحرارة ويسميها المعطيات الثانوية . وتوصل لوك الى نتائج كان لها ابعد الاثر في الفلسفة الحديثة . فقال ، ان كل ما نلاحظ او نتصور او نفهم او نعرف ، وكل فعل من افعال المعرفة من ابسطها الى أعقدها هي محض افكار ذاتية عن الاشياء وليست الاشياء ذاتها ، اي انها ليست الشيء بذاته كما اصطلحت الفلسفة الحديثة على تسميته. وعليه ، فكل ما نعقل وكل ما يتولد فيالذهن بتأثير الاشياء الخارجيةليس الا افكار لا كيان مادي لها . فنحن لا نعرف عن حقيقة الاشياء الا أقل القليل وسنبقى نجهل حقيقة المادة الى الابد . وقال ، ان للمعرفة معينا واحدا هو التجربة ، وان جوهر افكارنا ليست الاشياء المادية الخارجية بل افكارنا الذاتية الصرفة عنها ، وهذه الافكار تكون صحيحة عندما تطابق الواقع بالتجربة ولدى التطبيق . على ان لوك رغم قوله بعجزنا عن ادراك حقيقة المادة لم يحسب على اللاأدريين لانه رأى ان ليس من شأننا ان نعرف اكثر مما تعنينا معرفته في حياتنا الفعلية ، وان لدينا من القدرة ما يفي بحاجتنا . لكن آراءه هذه جاءت مناقضة تماما لما سبق ان قاله عن المعطيات الاولية التي أرجعها الى احساسنا بخصائص اصلية لها وجود فعلي في العالم الخارجي . وكان من جراء هذا التناقض ان ترتبت عليه فلسفات متعارضة كان من اهمها فلسفة المثالية الذاتية التي استندت الى

قوله بأن المعرفة هي محض افكار ذاتية ، ومن اشهر رجالها جورج بيركلي (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣) وفلسفة اللاأدرية التي استندت الى قوله بعجزنا عن ادراك حقيقة المادة واشهر رجالها ديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) ، كما اصبحت تصوراته عن المعطيات الاولية اساسا للمادية الفرنسية التي تركت للقرن التاسع عشر تراثا افاد منه ماركس وانجلز في بناء المادية الديالكتية (٣٧) .

واستند بيركلي في بناء فلسفته الى قول لوك ان منشأ المعرفة افكار تتولد في الذهن بتأثير الاشياء الخارجية ، اخذ بالشق الاول وأغفل الشق الثاني فقال ان المعرفة تقوم بأفكار تتولد في الذهن إما بطريق الاحساس او بتصورات تنبعث عن انفعالات الذهن ونشاطاته الذاتية او انها من عمل الذاكرة والمخيلة ، وهي في جميع هذه الحالات تكون من صنع الذهن وحده . وعلى ذلك قرر أن الموجودات التي يتصورها الذهن ليست سوى احساس محض ، فالمنضدة او اي شيء آخر في مدى رؤيتي ولمسي موجود ما دمت اراه او ألمسه ، وكذلك الرائحة ما دمت أشمها ، والشراب ما دام في متناولي أتذوقه ، والصوت ما دمت اسمعه . لكن ذلك لا يعني ، كما قال ، «انني أنكر ان تكون الافكار التي ترسم في الذهن حقيقة موجودة وانما الذي أنفيه هو وجودها مستقلا عن الذهن الذي يحس بها ، وأرى جميع الاشياء غير العاقلة التي تدركها الحواس لا يمكن ان يكون لها وجود مستقل عن الاحساس» . وحاول بيركلي ان يستقصي اصل الاحساس فلم يجد تعليلا له الا ان يرجعه الى موهبة في الانسان هي الالهام تمكنه من ادراك الحقيقة بالقناعة الذاتية التي تغني عن الدليل الحسي اعتمادا على الايمان . لكن هذا التعليل أوقعه في تناقض لم يجد له مخرجا ، اذ ما دام في الامكان التوصل الى حقيقة ما بالالهام فلمَ لا نصل الى ادراك حقيقة المادة بهذا الالهام (٣٨) ؟

وحاول هيوم من بعده ان يجد مخرجا لهذا التناقض فأدت به محاولته الى فلسفة اللاأدرية . فقد بدأ بالقول بأن كل ما يدرك بطريق الاحساس إما ان يكون انطباعات في الذهن كاللون او الصوت او الرائحة او اللمس او اللذة او الالم ، او ان تكون تخيلات وذكريات وتأملات . ولما كان كل ما يقوم في الذهن هو الادراك، وهو مسبق لما يدرك، لانه لو لم يكن كذلك لاستحال تصور شيء او التفكير به وليس في الذهن وجود لاولياته . وبكلمة اخرى ، اننا لا نستطيع ان نعرف شيئا او فكرة ليس لهما صورة او مفهوم مسبق مطبوع في الذهن . فالكرسي والحرية مثلا اذا لم تكن في الذهن صورة او مفهوم لاولياتهما تعذر على الذهن ادراكهما . ولهذا لا نستطيع قطعا ان نخرج عن انفسنا او نتجاوز ذاتنا . وبهذا أكد هيوم ما سبق ان قاله بيركلي بصورة اخرى . لكنه تجاوزه بعد ذلك فنفى الذات بعينها اذ قال : «انني كلما عدت الى نفسي وانصرفت اليها بكليتي لا اجدها في اية لحظة الا وهي مشخصة باحساس معين كالحرارة او البرودة او الضياء او الظل او الحب او الكراهية او الالم او اللذة ، فنفسي في لحظة ما اذاً ، ليست غير احدى هذه الاحساسات ... وعليه استطيع ان اجزم ... ان الفرد ليس الا ... حزمة من الاحساسات تتعاقب وتتدفق باستمرار وبسرعة خارقة ... حتى ليجوز لي ان

اقول ان ما نسميه عقلا او ذاتا ليس الا شتات من الادراكات الحسية ... افترض خطأ ان يكون بينها تناسق او انسجام ...» ولاجل ان ينفي التناسق والانسجام بين المدركات الحسية عمد الى نفي السببية في عالم الحس بأن قال ان كل ما يقوم بين حس وآخر ليس الا تواجد وتتابع بين أحداث الفناها متتابعة في الزمان او المكان . ولهذا ليس السبب والنتيجة في رأيه غير احساس يلازم احساسا آخر بحيث توحي فكرة احدهما الى الذهن بفكرة الآخر وتصور لنا أن احدهما سببا للآخر او نتيجة له بالنسبة لموقع اي منهما من الآخر في ان يسبقه او يعقبه . وقال ان التكرار والاعتياد هما اللذان يدخلان في روعنا وجود الاشياء الخارجية ويوهماننا ان ذاكرتنا تحفظ صورا حقيقية لماضينا . واذا كان لا مفر من الابقاء على هذه الظنون فانها في الحقيقة لا تستند الى مبرر عقلي ، فليست المعرفة غير ومضات من افكار سريعة الزوال . وهكذا خلص هيوم الى ان المعرفة ليست سوى انطباعات وأفكار «الانا» وبهذا قلب فلسفة المادية التجريبية الى فلسفة «الانانة»، ثم عاد فنفى وجود «الانا» بأن قال ان النفس ليس الا حس والحس ليس له وجود ما دام ليس سببا او نتيجة . على ان هيوم من حيث اراد ان ينفي المادية انتهى الى نفي ما لم يكن مطلوبا نفيه وهو الروح ، ولهذا نراه عاد في نهاية الامر مستدركا وقال «ان الذي يدرك بحسه المرهف نقائص المدارك الفطرية لا يجد غير ان يلوذ بالايمان والالهام» (٣٩) .

ولكن ما سر تحول المادية التجريبية الى المثالية الذاتية واللاادرية ؟ ان الفلسفة التقليدية لا تحاول ان تجد جوابا لهذا السؤال لانها لا تتجاوز بيان ما جرى . لكن الماركسية ترى علة هذا التحول في التغير الذي طرأ على المجتمع البريطاني بعد ان استتب فيه الامر للطبقة الوسطى التي لم يعد يعنيها غير الحفاظ على الوضع القائم الذي يضمن مصالحها ودوام سلطانها . وان سبق لها ان استعانت بالفلسفة التي تؤيد التغير وتتفتح على المعرفة التي تكشف سبله وتساعد في ازالة العقبات التي تعترض سبيله فقد اخذت المخاوف تنتابها وهي في السلطة من تجاوز تلك الفلسفة وتجاوز المعرفة حدود خدمة اغراضها والخروج على ضبطها الى ما يعرض الوضع الذي تريد بقاءه الى الخطر باثارة الشكوك في صحة تكوينه وعدالة نظامه. وكان شأن الذين هيمنوا على المجتمع قبلها ان يحجزوا العلم والمعرفة في جانب مؤتمن ويمنعوهما عن جمهور الشعب ويبقوا الناس ملزمين بمسلمات مقررة لا يحيدون عنها . لكن حجز العلم والمعرفة في مجتمع الرأسمالية الصناعية لم يعد ممكنا بل لم يعد في مصلحة الطبقة الوسطى لحاجة الصناعة اليهما . وكان من جراء ذلك ان وجدت هذه الطبقة نفسها في حيرة من الامر حتى لجأت الى المثالية واللاادرية اللتان افترضتا العالم عالمين عالم الحس والواقع وعالم الروح والفكر، ووليتا العلم شؤون عالم الحس وتركت العالم الآخر ، عالم ما وراء الواقع والفكر الى الالهام والايمان ، وهكذا حصرت العلم في نطاق الاختبارات والتجارب والمشاهدة الحسية يتوصل بها الى ما يخدم الصناعة والانتاج ويضمن استمرار حركة

الاختراع والتقدم التقني ويوفر لها ما تحتاج اليه من وسائل ادامة هيمنتهـا ، وأوحت بأن يكون العلم في المسائل الاجتماعية والسياسية على الحياد او يتجنبهما على ان للتاريخ أحكامه فقد اراد غير ما ارادت ، فقد ثبت ان الذي رات فيه الطبقة الوسطى سلامتها سلاح ذو حدين ، فحجز المعرفة عن الناس او بلبلتها قد يجدي هذه الطبقة عندما تكون قوية ، لكنها اذا احاق بها الخطر ونالها الوهن وعجزت عن أداء مهمتها التاريخية انقلب افتقاد الناس العلم والمعرفة الى وبال عليها ، فالناس اذا بلغ بهم سوء الحال مداه واندفعوا يريدون التغيير ، ينقلبون الى قوة مدمـرة ويرتكبون من الامور ما لا تمت الى العقلانية بصلة . اما ان الامر لم يؤد بانكلترة الى مثل هذه النهاية فمرده الى ظروفها الخاصة التي كان شأنها دائما ان تحول دون بلوغ الامر حدود الانفجار .

ولما لم تجد المادية التجريبية متسعا لها في انكلترة وجدت سبيلها الى القارة، الى فرنسا ، حيث توفرت ظروف مؤاتية ساعدت على مواصلتها التقدم لكنهـا اتخذت منطلقا جديدا ؛ فبينما سلكت المادية التجريبية في انكلترة طريق المصالحة في تسوية التناقضات بين الطبقة الوسطى وبين الاقطاع ونبلائه ، نزعت الماديـة الفرنسية نزعة ثورية . ولم يعن الماديون الفرنسيون بوضع نظام نظري متماسك للفلسفة بقدر ما ارادوا ان يتخذوا من المادية عونا في معرفة نقطة البدء في حركة التغيير السياسي والاجتماعي والديني الذي تطلعوا الى تحقيقه . وبينما اعتبرت المادية الانكليزية القوة سبيلها الى السعادة ، وعلى الاخص القوة الاقتصادية ، كما عبر عن ذلك فرانسس بيكن في قوله «ان المعرفة هي القوة ، فنحن نستطيع ان نصنع الاشياء عندما نكون على علم بطبيعتها . ولم يجتز الناس طور البربريـة ويبلغوا الحضارة الا بمعونة الاختراع والمهارة الميكانيكية» (٤٠) ؛ رأى الفرنسيون ان الحرية هي السبيل الى السعادة . وبينما اتخذت المادية الانكليزية طريق المسالمة والمسايرة وعمل اشهر رجالها في خدمة الدولة ، رفع الماديون الفرنسيون رايـة الثورة ضد الحكم المطلق والكنيسة وطقوسها وحاربوا التقاليد والأعراف التي فات أوانها ووضعوا على محك التجربة كل المسلمات وجعلوا من الفلسفة الماديـة أداة نضال . وكان من وراء متابعة سبيل المادية ان وجدوا نقطة البدء بالتغيير ، فقد كشفت لهم ان الانسان نتاج تفاعل وجوده والبيئة التي يحيا فيها وأنكرت ان يكون مجرد عبد مستسلم لاحكام الطبيعة او انه ابن الخطيئة فولدت في نفسه الثقة بأن في قدرته تحقيق التغيير الذي ينشده بالسيطرة على الطبيعة وضبط البيئة وانه بسعيه يستطيع ان يبلغ ذروة الكمال . وتحولت المادية في فرنسا الى أداة نضال شعبية على خلاف ما كانت عليه في انكلترة . فبينما الماديون في انكلترة كانـوا ينشرون آراءهم في اوساط الخاصة وباللغة اللاتينية ، نشر الفرنسيون آراءهم بالفرنسية الدارجة التي تميزت بالرقة والسلاسة وزوقوها بالنكتة البارعة حتى تجاوز انتشارها حدود فرنسا الى البلدان الاوربية الاخرى .

ووجدت المادية الفرنسية تحت تصرفها كل ما اكتشفته البحوث الحديثة في الطب والكيمياء والفسيولوجيا وعلم الأحياء بالاضافة الى ما اكتشفه الانكليز في

الفيزياء والميكانيك واستندوا اليه في ماديتهم ، فتيسر لها ان تتوصل الى آراء مبتكرة في الاخلاق والاجتماع والسياسة وأن تنقد آراء ديكارت وسبينوزا وهوبس ولوك وتنقيها من شوائبها ، وأن تقف من المسلمات موقفا صريحا وحاسما لاسيما وقد فرضت ظروفها عليها ان تقف تجاه الكنيسة موقفا بعيدا عن التسوية والمصالحة . واعتمدت آراء هوبس ولوك بالدرجة الاولى ، فأخذت عن هوبس نظريته في ان الوجود مادة في حالة الحركة ، واخذت عن لوك نظريته بأن الافكار مبعثها الاحساس . ومع ان الماديين الفرنسيين بوجه عام ، تجنبوا البحث في الوجود خارج نطاق الاحساس ، غير انهم تصدوا الى مسألة اساسية لم تتطرق اليها المادية الانكليزية وهي مسألة نشوء الاحساس او الوعي في المادة . وكان اول من تصدى لها الفيلسوف لاماتري (١٧٠٩ ــ ١٧٥١) الذي يعتبر مؤسس المادية الفرنسية . فقال ان الحس من خصائص المادة وان الفارق بين الانسان والحيوان في الاحساس فارق كمي وان الافتراض بوجود عنصر اضافي في الانسان غير موجود في الحيوان لا صحة له اذ الاعضاء في كليهما واحدة وتؤدي وظيفة متماثلة دون فارق جوهري ، بل انه ذهب الى ابعد من ذلك فقال بوجود الحس في النبات وان الاحساس ترتفع درجته بارتفاع درجة الصنف ويبلغ اقصى درجاته في الانسان (٤١) .

وجاء ديدرو برأي مماثل لرأي لاماتري بمزيد من الوضوح . وقال ان الحياة والاحساس صفات اصلية في المادة ، اذا لقيت ظروفا مؤاتية نشطت ونمت والا بقيت في حالة همود ، وان درجة الاحساس والوعي ترتبط بدقة تركيب المادة، وان ما ينسب للفطرة ليس في حقيقته الا نتيجة عدد لا يحصى من التجارب الصغيرة تراكمت في الذهن ، وان كل شيء فينا مرده الى هذه التجارب وان كنا لا نتذكرها او نعيها . واعتبر ديدرو المعرفة مزيجا من الفهم والتفكير والاستقراء والاستنتاج ؛ وقال ان الاحساس يتحول الى تفكير بطريق الفعل ورد الفعل بينه وبين الفكر .

وعارضهما اولباخ (١٧٢٣ ــ ١٧٨٩) الذي اعقب ديدرو في رأيهما في ان الاحساس صفة اصلية في المادة وقال ان الصفة الاصلية هي خاصة تشبه التخمر تتولد ذاتيا في حركة غير ملحوظة لكننا ندركها بنتائجها ، ولهذا كانت الفيزياء التي تتناول موضوع الحركة اساس العلم كله (٤٢) .

لكن الماديين الفرنسيين وجهوا جل اهتمامهم الى الشؤون الاجتماعية وجعلوا المادية وسيلة نضال في سبيل الحرية وسيادة الشعب ، وبرز في طليعتهم في هذا الخصوص ، فولتير ومونتسكيو اللذان حملا من انكلترة الى موطنهما آراء جديدة في الفلسفة والسياسة والاجتماع والتاريخ كانت الحجر الاساسي للحركة الفكرية في فرنسا . فقد اخذ فولتير بمادية لوك وجمع اليها آراء نيوتن في الفيزياء والميكانيك وأنشأ عليها «فلسفته في التاريخ» الذي كان اول من قال بها واعتمدها في تفسير تطور المجتمع وكان له اكبر الفضل في نقل نتائج التطور

الفلسفي والعلمي من انكلترة الى فرنسا والقارة ودعا الى المساواة امام القانون والى حرية الفكر وقال بضرورة فرض ضريبة على الارث (٤٣) .

اما مونتسكيو فانه اعتمد المادية في المقارنة بين انظمة الحكم بالنسبة لمصلحة الشعب وكان من اوائل الذين قالوا بصلة النظام الاجتماعي بطبيعة البيئة والظروف التاريخية ورأى ان المؤسسات والدساتير يشترط في صلاحها ودوامها وحسن ادائها لوظيفتها ان تتواءم مع طبيعة البيئة والخصائص القومية واسلوب الحياة وانه لهذا ندر ان يلائم نظام نشأ في أمة أمة اخرى. ويعتبر مونتسكيو من ابرز الاوائل الذين استخلصوا طبيعة المجتمعات من دراسة العلاقات التاريخية (٤٤) . وأعقبه الفيلسوف «الفاسيوس» (١٧١٥ – ١٧٧١) فأيده في تأكيد تأثير البيئة ، لاسيما البيئة الاجتماعية ، واعتبر وعي الناس وحماستهم محركين فعالين في تطور المجتمع وقال ان عزل الناس عن المشاركة الفعلية في ادارة الشؤون العامة تكون له نتائج سيئة اذ تنتفي بسببه محفزات المشاركة الفعلية بالحياة العامة والشعور بالمسؤولية والترفع الخلقي . وربط الفاسيوس بين نظام الحكم والتقدم الفكري والخلقي لان نظام الحكم من شأنه ان يعين طرق التعليم وفقا لمصلحته وطبيعته . وقال ان من قبيل الرياء ان يندد الاخلاقيون بالنقائص الشخصية في الافراد ويتغاضون عن مساوىء الحكم ومظالمه وسوء اثرها وهم يعلمون انها مصدر النقائص في الافراد . وربط الفاسيوس الفضيلة بالعمل الذي يعود بالنفع على العدد الاكبر ، وقال ان الذين يبذلون النفس في سبيل الخير العام وينالون احترام الناس وتقديرهم يجدون في ذلك متعة لا تعدلها متعة ؛ والنبيل الفاضل من يطلب المتعة النبيلة (٤٥) .

وبرز روسو بين الماديين الفرنسيين الى يسارهم جميعا ؛ فدعا الى الحرية والديمقراطية والمساواة وطالب بأن تكون غاية التعليم والتربية اعداد المواطنين للعمل واحترامه . ومال الى مذهب الطبيعيين واعتبر توزيع العمل هو السبب في افتقاد المساواة بين الناس وانهم بسبب ضياع المساواة اضطروا الى الارتباط بعقد اجتماعي يحفظ للذين يملكون الثروة ثروتهم. وهكذا ارجع الى الثروة ضياع المساواة ثم قيام الدولة التي كرست الفوارق بين الناس وشرعت القوانين التي زادت الضعفاء ضعفا والاقوياء قوة ودمرت الحرية الطبيعية وجعلت الجنس البشري يرزح تحت نير التسلط والكدح والعبودية والبؤس (٤٦) . وقال روسو ان التشريع العادل هو التشريع الذي يمنع ان يبلغ الثراء بفرد يسر له ابتياع غيره ويهبط بآخر الى الدرك الذي يرتضي فيه بيع نفسه (٤٧) .

ويذكر عن لاماتري قوله ان الحاجة هي المحرك الاقوى أثرا في الحياة ، وان التقدم تتعين درجته بالقدرة على الحركة لسد الحاجة ، وان الانسان يحتل المقام الاول بين الأحياء بسبب كثرة حاجاته وقدرته على اعداد ما يفي بها ، وان المخلوقات التي لا تشعر بالحاجة ينتفي فيها وجود العقل (٤٨) . واستنكر ديدرو وجود مؤسسات وظواهر في مجتمع عصره لا يقرها العقل ولم يكن لها وجود حتى في اطوار الهمجية ولم يجد تعليلا لوجودها غير خوف الناس من المجهول واستغلال

السلطة هذا الخوف لاتخاذ هذه المؤسسات والظواهر وسيلة لاحكام تسلطها . وقال «لو امعن المرء النظر لوجد ان الجنس البشري رزح مدى قرون تحت نير حفنة من الاوغاد ... فليحذر الناس اولئك الذين يزعمون انهم يريدون حفظ النظام لانهم تحت ستار هذا الزعم يعملون للتسلط عليهم ...» (٤٩) .

- ٤ -

المثالية الالمانية

قال هيغل في بحث له عن الدستور سنة ١٨٠٢ : «لم تكن المانيا حتى العقد الاخير من القرن الثامن عشر ، دولة . فقد طغى فيها استبداد الاقطاع واشتدت وطأته ، وفرقها في وحدات صغيرة متنافرة ... بلغت الثلثمائة ، غمرتها عبودية في الارض كان الفلاحون فيها يحيون حياة البهائم ، وكان بين أمرائها من يؤجر رعاياه او يبيعهم ليجندوا في جيوش اجنبية . وفرضت على الفكر فيها رقابة متعسفة لم تترك منفذا لبادرة من بوادر التنوير ...» (٥٠) . ووصف حالها كاتب آخر فقال «ليس في حياتنا تآلف او روح قومية ولا قانون ينظم شؤونها او عدالة تقومها ، الضرائب فيها تفرض اعتباطا ، وحريتنا وحقوقنا فريسة سهلة لسلطة مستبدة، وأحدنا لا يدري ما سيكون من امره وأمر اولاده في يومه او غده» (٥١). وكان أمراء الاقطاع يمارسون سطوتهم الاستبدادية ، كما قال غوته «ولا احد يحقد عليهم لتمتعهم بامتيازاتهم او ينغص عليهم ما ينعمون به في حياتهم الذي يغمرها الترف والبهجة ...»

وفي هذا الوضع المفكك، توزعت السلطة العليا بين آل هبسبورغ أمراء النمسا وآل هوهنزلورن أمراء براندنبرغ . لكن الاخيرين علا شأنهم على عجل فتمكنوا من انشاء دولة بروسيا التي كان لها في مستقبل الامة الالمانية الاثر الاعظم ، وطبعوه بطابعهم الخاص الذي تميز بالاعتماد على العسكرية والبيروقراطية . فقد ركز فردريك وليم وابنه فردريك الذي لقب بالكبير ، كل اهتمامهما في اعداد جيش ما لبث ان اصبح اقوى جيش في القارة ونموذجا لحسن التنظيم والتدريب ، وبيروقراطية صارت مضرب المثل بالكفاءة والضبط ، وجعلا من حكمهما المطلق نموذجا للحكم في المانيا زهاء قرن ونيف . ولما تفجرت الثورة الفرنسية تطير حكام المانيا واستبدت بهم الهواجس فشددوا الخناق على رعاياهم واحكموا الرقابة ليمنعوا تسرب الافكار «الهدامة» وباتت المانيا في الاستبداد والطغيان اشبه بدولة قياصرة الروس منها بدول اوربا الغربية .

وكان من جراء ذلك ، ان امتنع في هذا الوضع المغلق قيام بورجوازية موحدة وقوية ومؤهلة لانجاز المهمة التاريخية التي انجزتها البورجوازية في انكلترة وفرنسا.

واذا كان قد لاح امل للبورجوازية الالمانية بالانفراج بقيام الثورة الفرنسية فانه ما لبث ان خبا بظهور اليعاقبة وأخبار الارهاب ، وارتدّت مرعوبة وقد عاودها اليأس ورجحت الاستكانة والخنوع ، ولازمها الخوف من العامة حتى بعد ان واتتها الظروف وصارت ذات شأن وقوة بعد اربعينات القرن التاسع عشر . ويعزي انجلز هذه الظاهرة في البورجوازية الالمانية الى تأخر ظهور الرأسمالية الصناعية في المانيا ، الامر الذي أدى الى تعثر الطبقة الوسطى وفوات فرصتها في بلوغ السلطة؛ فلما توفرت لها اسباب القوة في أعقاب الثورة الفرنسية كانت حركة العمال في اوربا قد بلغت درجة من الوعي جعل البورجوازية الالمانية تواجه ما سماه انجلز بنقطة انعطاف، وهي فترة تولى البورجوازية فيها احساس بأن خطر البروليتاريا يوشك ان يحيق بها ففقدت قدرتها على مواجهة الطبقة الحاكمة وانتزاع السلطة وتراجعت تبحث عن حلفاء يدفعون عنها خطر البروليتاريا ولم تجدهم الا في الاوساط الرجعية فتحالفت معها واتخذت جانبها . وانعكس وضع البورجوازية هذا في مجمل المثالية الالمانية وانعكس نقيضه في الماركسية التي مثلت وجهه الآخر وجاءت ردا على ردة البورجوازية (٥٢) .

ولم تقتصر هذه الظاهرة في المانيا على البورجوازية وحدها ، بل امتدت الى طبقات اخرى . فالبورجوازية الصغيرة التي تليها في السلّم الطبقي والتي كان لها في اقطار اوربا الاخرى دور بارز في الثورات وحركات التحرر وأبدت نشاطا عظيما في مواجهة الاقطاع والحكم المطلق وفي النزوع الى الحرية تفوق في كثير من الحالات على نشاط البورجوازية ، كان موقفها في المانيا لا يقل سوءاً عن موقف البورجوازية . وبرغم انها كانت بسبب تأخر حركة التصنيع وركود حركة النزوح من الريف الى المدينة تكوّن بين سكان المدن الاكثرية ، فانها بسبب موقعها وسطا بين البورجوازية والبروليتاريا وحرصها على بلوغ مصاف البورجوازية وتجنب الانحدار الى دركة البروليتاريا ، اصبحت ، كما وصفها انجلز (٥٣) ، شديدة التقلب والانتهازية ، مذعنة في ذلة وخنوع في ظل الاقطاع والملكية المستبدة ومغالية في الليبرالية اذا ما اتسع لها المجال في ظرف مؤات للطبقة الوسطى حتى تتملكها نوبات من الاندفاع المفرط في اتجاه الراديكالية ثم لا تلبث ان يستبد بها الفزع وتصاب بحالة من اليأس والقنوط اذا لمست بادرة تململ في وسط البروليتاريا فترتد متخاذلة لتكون مطية للرجعية . وهذا هو بالفعل ما جرى عندما انتكست البورجوازية الصغيرة لتكون اداة طيعة بيد النازية .

ويقول انجلز ان وجود بروليتاريا كبيرة العدد وقوية ويقظة ، يسير جنبا الى جنب مع وجود طبقة وسطى كبيرة العدد وغنية ومسيطرة . وحركة الطبقة العاملة لا تكون قط مستقلة وذات سمة بروليتارية الا بعد ان تتم الطبقة الوسطى ، ولاسيما فئة كبار الصناعيين ، احتلال مركز السلطة وتغيير بنية الدولة وفقا لحاجتها . وعندئذ فقط يحين أوان الصراع الذي لا مناص منه بين رب العمل والعامل ولا يكون سبيل لارجائه او صرف الطبقة العاملة عنه بالوعود والآمال . لكن وضع الطبقة العاملة في المانيا كان على العكس ، فلم يكن يستخدم العمال فيها

سادة صناعيون كأولئك الذين اخرجت منهم بريطانيا نماذج فذة ، بـل كـان يستخدمهم اصحاب اعمال تجارية صغيرة ، جهازهم الصناعي من مخلفات القرون الوسطى . وكما يكون الفارق كبيرا بين سيد من سادات صناعة النسيج مثلا ، وصاحب حانوت خياطة متواضع ، كذلك يكون الفارق بين عامل في مصنع حديث وصانع نجار في بلدة صغيرة في الاقاليم . ومثل هذا كان حال البروليتاريا في المانيا المتخلفة صناعيا يومئذ بالنسبة للبروليتاريا في فرنسا وانكلترة (٥٤) .

اما الزراعيون والعاملون في الزراعة الذين الف مجموعهم اكثرية ضخمة ، فقد صنفهم انجلز في اربع مراتب : المزارعون الكبار الذين استخدموا العمال الزراعيين وشأنهم شأن الطبقة الوسطى وموقفهم من القضايا العامة مثل موقفها . ثم صغار الزراعيين الذين كثر عددهم في الاجزاء المحاذية لفرنسا حيث ضعف فيها الاقطاع وابتاع الفلاحون اراضيه . ويليهم مستأجرو الارض الاقطاعية الذين بقوا يعملون ويعيشون في ظل الاقطاع . واخيرا ، العمال الزراعيون . والمراتب الثلاثة الاخيرة لم يكن لها ، في راي انجلز ، تأثير في الحياة العامة لانها كانت بعيدة عن ادراك مشاكل المجتمع وقضاياه السياسية (٥٥) .

وعندما بدأت حركة التطور الصناعي في المانيا ، في اربعينات القرن التاسع عشر ، جرت بسرعة كبيرة بحيث تجاوزت كل بواعث الصراع بين البورجوازية وبين الحكم المطلق والارستقراطية ووضعت التعارض بين مصالح الطبقة البورجوازية والطبقة العاملة في الواجهة . وكان من جراء ذلك ان اندفعت البورجوازية وتبعتها البورجوازية الصغيرة والفئات الاخرى غير البروليتارية الى الوقوف في صف الملكية وحلفائها لتواجه الطبقة العاملة التي نمت على عجل واشتدت يقظتها بتأثير الافكار الاشتراكية والحركات العمالية في غرب اوربا ، لاسيما في فرنسا ، وخلقت وعيا ثوريا متفجرا . فكان ان قامت فـي المانيا ملكية مـن النمط البونابارتـي بزعامة بسمارك ، ونشأ وضع يختلف اختلافا كليا عن الوضع في انكلترة وفرنسا، ارتبطت فيه البورجوازية بالتجمع الرجعي وارتضت الخنوع والانقياد لسلطتـه الحاكمة التي ادركت من جانبها الضرورة الى تعزيز الصناعة وايجاد الاسواق لها لتوفر لنفسها اسباب القدرة على مواجهة الدول التي سبقتها في ميدان الاستعمار وسدت بوجهها ابواب التوسع الاستعماري . وقام بين هذه السلطة والطبقـة الوسطى اتفاق ضمني فكانت السلطة تعدل القوانين بما يلائم مصالح البورجوازية وتزيل كل ما يعترض تقدم الصناعة من العقبات وتوفر لها كل ما يستلزمه نموها وتضع قوة العمل تحت تصرفها دون قيد ، والبورجوازية من جانبها تدعمها فـي تصرفها المطلق بالسلطة السياسية وتقدم لها كل ما تحتـاج اليه من القروض وترتضي ما تفرضه من الضرائب وتوافق على ما تخصصه لنفقات الجيش ولنفقات مغامراتها التوسعية وتقر احتفاظها بجهاز قمعي واسع النطاق .

وانعكس كل هذا الواقع في الفكر الالماني فولد تصورات تفاوتت عما تولّد في انكلترة وفرنسا . ففي الوقت الذي افترض فلاسفة حركة التنوير في فرنسا ان

العقل قوة ذات فعل تاريخي وهدف يرمى اليه ، وعمد قادة الثورة الفرنسية الى تحقيق فكرة الحرية في واقع الحياة العامة وقالوا ان العقل يستطيع اذا ما تحرر من أغلال الاستبداد ، ان يجعل العالم متسعا للتقدم والسعادة وأن يتغلب بقوته الذاتية على اللاعقلانية ويطيح بمضطهدي بني البشر ويجعل الزور يتلاشى والحماقات تذوي «٥٦» ، كان الالمان قد دخل في روعهم منذ عهد لوثر واصلاحه الديني ، ان الحرية امر باطني لا يتأثر بالاسترقاق الخارجي ، وان طاعة اولي الامر من طاعة الله ، وان المعاناة تطهر النفس . وكان من جراء ترويضهم على هذه المفاهيم ان انصرفوا عن المطالبة بالحرية في واقع حياتهم الى التماسها في عالم الروح الذي صوّر لهم انه عالم الجمال والحرية والفضيلة المجرد من الشوائب ولا يتأثر بأحداث الوجود المادي لانه يقوم بمعزل عنه فلا تناله مآسيه ولا يصيبه بؤسه ؛ فرجحوا اعتزال شؤون الحياة العامة وتوخوا الصبر عليها وانصرف مثقفوهم الى الفن والفلسفة التأملية واللاهوت والعلوم البحتة متجاوزين بانشغالهم بها بؤس حاضرهم وتعاسته ونزعوا الى التجريد فرجحوا التفكير بالشيء على الشيء بذاته وآثروا حرية التأمل على الحرية الفعلية والتمعن بمبادىء الفضيلة على تحقيق العدالة . وبقي هذا حالهم حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما وجدت التجريبية الانكليزية سبيلها اليهم فتأثروا بها وتململت حركة الفكر لتتجاوز قوقعتها وبدا النشاط فيها بمعارضة الارسطية الجديدة والتزمت اللاهوت وتحدى روادها التقليد السائد فأخرجوا مؤلفاتهم وما نقلوه عن اللغات الاخرى بالالمانية الدارجة في مواجهة استنكار التقليديين الذين رأوا في كتابة اعمال الفكر والفلسفة بغير اللاتينية حطا من مقامها ، وظهرت في حياة الفكر ومضات من النزعة المادية والتجريبية والعلمانية .

على ان اهتمام الحركة الفكرية الناشئة انصرف في البدء الى علم النفس الذي اصبح موضع العناية منذ ان تعزز مقام الفردية بقيام البروتستانية ، واقبل المثقفون على آراء روسو وتحمسوا لنزعته الانسانية ورفعه من شأن العاطفة وجعلها في مقام العقل . لكن آراء روسو التي كانت في فرنسا منبعا للنزعة الثورية انحصر تأثيرها في المانيا التي كانت دواعي الاهتمام بالشؤون العامة ما تزال مفتقدة ، في حقول الآداب والفنون التي برز فيها هردر وغوته وادت الى غلبة الرومانسية . وكانت الكنيسة التي هيمنت على التعليم وقاومت المادية التجريبية والافكار التقدمية قد راق لها الاهتمام بعلم النفس ورواج الرومانسية وحاولت ان تستعين بهما في نهجها التوفيق بين العلم والدين . وهكذا بدات حركة الفكر ملغمة ، فمثلما غالت الرجعية الفرنسية في التضييق على حرية الفكر وعرقلة سبيل التطور فساعدت في تفجير الثورة الفرنسية ، حصل الامر عينه في المانيا بصورة اخرى اتخذت طريق الغموض والتضاد ، فكان ان اتخذت الفلسفة وجهة مثالية ولكنها مبنية على منطق التناقض الديالكتي الذي يفترض الظاهر عكس الحقيقة .

وعلى هذه الفرضية فقط نستطيع ان نفهم انجلز وهو يقول : «واكبت الثورة الفلسفية في المانيا في القرن التاسع عشر ، الانهيار السياسي كما واكبته في

فرنسا في القرن الثامن عشر ، ولكن مع الفارق . فقد اعلن المفكرون الفرنسيون الحرب على التلقين الرسمي للمعرفة وعارضوا الكنيسة والدولة في احيان كثيرة وطبعوا كتبهم عبر الحدود في هولندة وانكلترة وأدخلوها الى بلدهم بطريق التهريب وكثيرا ما تعرضوا لخطر السجن في الباستيل ؛ بينما كان أقرانهم الالمان اساتذة جامعات اختارتهم الدولة لتعليم النشء ، مؤلفاتهم كتب مقررة للتدريس والمذهب الذي انتهت اليه فلسفتهم في نهاية المطاف هو المذهب الهيغلي الذي بلغ من امره ان شغل مقام الفلسفة الملكية للدولة البروسية . فهل يا ترى كانت روح الثورة تتستر بجلابيب هؤلاء الاساتذة وبعباراتهم المبهمة وحذلقتهم المملة المتعبة ... ان الذي خفي على الحكومة ولم يتبينه الاحرار ، ادركه شخص واحد منذ سنة ١٨٣٣ ..» (٥٧) ويوضح انجلز هذا بالاستشهاد بقول هيغل «كل ما هو واقع معقول وكل ما هو معقول واقع» ويقول «ما من فرضية فلسفية حظيت برضى الحكومة ضيقة العقل واستثارت غيظ الاحرار القصيري النظر وغضبهم كهذه الفرضية ، فقد اخذت على انها تكريس لما يجري بالفعل ومباركة للاستبداد والحكم البوليسي والمحاكمات السرية والرقابة ... لكن هيغل ما كان يرى الواقع دون ريب في هذا الذي يجري دون تحفظ ، فشرط الواقع عنده ان يكون ضروريا ، اذ الواقع كما قال ، يقتضي ان يقوم بقيام الضرورة الى وجوده» (٥٨) . وبهذا المفهوم قال انجلز «وبغير الفلسفة الالمانية ، لاسيما فلسفة هيغل ، ما كان يمكن ان تظهر الاشتراكية العلمية » (٥٩) .

والحقيقة انه لم يكن في المستطاع ان تبقى الفلسفة الالمانية تتجاهل حقائق العلم وأثر الحركات الفكرية والاجتماعية التي احاطت بها وأن تلتزم مثالية مجافية لروح العصر ، فبدا رجالها وكأنهم يضمرون غير ما يعلنون وبدت مثالية «كانت» مثلا ، وكأنها تتستر على مادية ولاأدرية ، واتخذت فلسفة هيغل صورة مادية ديالكتية وقفت على راسها ، كما قال ماركس . فهل تراهم كانوا يخفون وراء هذه المثالية آراءهم الحقيقية حفاظا على مراكزهم وحرصا على مجال مواصلتهم العمل في ظروف غير مؤاتية ؟ الواقع ان الذي يتمعن في المثالية الالمانية وما جادت به فلسفة «كانت» و«فيخته» وفلسفة هيغل التي بلغت الذروة، لا يتمالك الا انيذهب هذا المذهب في تعليل التباين بين ظاهرها وفحواها .

وعندما انشغلت انكلترة وفرنسا عن التفكير الفلسفي بتطبيقاته في نهاية القرن الثامن عشر ، بعد ان بقيتا مقرا له طيلة قرنين ، فانصرفت فرنسا الى شؤون ثورتها الكبرى وانصرفت انكلترة الى بناء امبراطورية مترامية الاطراف ، لم يجد الالمان سبيلا الى اشباع طموحاتهم غير ان ينصرفوا الى الفلسفة والعلم النظري يثبتون به وجودهم ، فأنشأوا فلسفتهم المثالية التي كان رائدها وواضع أسسها «امانوئيل كانت» ثم فيخته من بعده حتى جاء هيغل فأتم بناءها . وعكست هذه الفلسفة ما كان يجيش في وعي الجيل النيّر في المانيا ويعبر عن موقفهم من ظروفها الداخلية المتخلفة . ووصفت فلسفتهم هذه بأنها نظرية الثورة الفرنسية

لا من حيث انها فسرت أحداث هذه الثورة بل لان الذين انشأوها كانوا تحت تأثير هذه الثورة وبدافع اثبات وجودهم بوجه التحدي الفرنسي (٦٠) . وكانوا قد اجمعوا على الترحيب بها برغم نقدهم المرير لعهد الارهاب حتى وصفوها بأنها فجر عهد جديد وعملوا جميعا على الوصل بين مبادئهم السياسية وبين المثل العليا التي عبرت عنها فامتد تأثرهم بها الى صميم مذاهبهم المثالية لانها لم تقف عندهم في حدود محاربة الاقطاع والحكم المطلق وإحلال النظام السياسي الملائم لمصالح الطبقة الوسطى وانما بدت لهم وكأنها تتمة الحركة البروتستانية ، ترفع من شأن الفرد وتجعله سيد حياته وتصنع له من المعرفة سلاحا يصارع به الطبيعة والنظم الاجتماعية العاتية ويطبق فيها أحكام العقل ولا يعترف الا بما يطابق العقلانية ويعمل على تحرير نفسه بقوة العقل لا بقوة السلاح (٦١) .

واتخذت المثالية الالمانية موقف التحدي التجريبية الانكليزية بمحاولتها ان تحتفظ للفلسفة بحق توجيه جهود الانسان للسيطرة العقلية على الطبيعة والمجتمع واخضاعهما لقوانين ذات شمول ومفاهيم مطلقة تستند الى الحقيقة المجردة الكلية ، على عكس التجريبيين الانكليز الذين رأوا ان ليس ثمة تصور او قانون واحد للعقل يمكن ان يقوم على اساس الشمول فوحدة العقل لا تعدو في تصورهم ان تكون غير وحدة العادة والعرف . فقال لوك «ان الافكار العامة تستخلص من الجزئي وتمثله وحده» وهذه الآراء لم تنكر على العقل قدرته على صنع الواقع فحسب بل انكرت عليه ادراك حقائق لا تستند في صحتها على التجربة والخبرة ؛ ورأى المثاليون الالمان فيها خطرا جسيما لانها تبقي الناس في حدود الانظمة القائمة وليس لهم من امل في تجاوزها بتغيير الواقع . وبدا التجريبيون الانكليز والمثاليون الالمان على طرفي نقيض ، اذ اعتبر التجريبيون الاحكام العامة مستخلصة من التجارب بينما رأى المثاليون ان العقل هو مصدرها ؛ ورأى التجريبيون ان عوامل تغيير الواقع تكمن في الواقع ذاته ، بينما رأى المثاليون ان التغيير يجري وفق أحكام مطلقة وكلية من صنع العقل وابتكاره (٦٢) .

وتعد بداية عهد الفلسفة الالمانية بصدور كتاب كانت «نقد العقل الخاص» سنة ١٧٨١ . وكان كانت قد درس في مطلع حياته الفكرية مؤلفات فولتير وروسو وألم بالادب الالماني ولو انه وجّه جل اهتمامه الى علوم الطبيعة وفتح اول ثغرة في نظرياتها التقليدية بكتابه «التاريخ العام للطبيعة ونظرية السماء» الذي اصدره سنة ١٧٥٥ وفنّد فيه النظرية التي تقول بثبوت الطبيعة على حال واحدة منذ الأزل .
وبرغم تقدم علم الطبيعة في النصف الاول من القرن الثامن عشر عما كان عليه عند الاغريق فقد كان متأخرا عنه في المفهوم العام للطبيعة . فقد كان فلاسفة الاغريق يرون ان العالم انبثق من هيولي ومنها تطور الى ما صار اليه ، بينما بقي ينظر اليه طيلة القرون الوسطى على انه كيان خلق مرة واحدة وبقي كما كان منذ الأزل، الى ان ظهر «كانت» واكد في كتابه نظرية الهيولي مدللا على ان المنظومة الشمسية تكونت من سديم وان هنالك عوالم اخرى غيرها . فكانت آراؤه هذه بمثابة اشارة لانطلاق حركة الفكر وظهور فكرة التطور ، اذ ما دام يصح القول بأن الكون كيان

متكون فلا بد ان يصح القول كذلك على الارض وما فيها من تراكيب جيولوجية وظواهر جغرافية ومناخية وكل ما عليها من حيوان ونبات وجماد ، ثم لا بد ان يكون لهذه الارض تاريخ ببداية وتكوّن وتطور وزوال ، فكل ما هو صائر يزول . ولم ينحصر تأثير هذه الآراء في تطور الفلسفة والعلم وانما أسهم في تكوين الفكر الديالكتي (٦٣) . ويشير انجلز الى ذلك فيقول : «ان تصوروا دقيقا لنشوء الكون وتطور البشرية واثر هذا التصور في أذهان الناس لا تتضح عمليته بغير الطريقة الديالكتية التي تتعقب عملية الفعل وردوده في الصيرورة والتغير ، وهي الطريقة التي اخذت بها الفلسفة الالمانية الحديثة منذ البدء . فقد استهل كانت نشاطه العلمي بأن حوّل نظرية نيوتن عن المجموعة الشمسية ووجودها السرمدي الثابت غير المتغير منذ الدفعة الذاتية الاولى ، الى عملية تاريخيـــة تكونت بها الشمس والكواكب من كتلة من سديم دوار . وتوصل الى ان المنظومة الشمسية ما دامت تكونت بهذه الكيفية فلا بد هي اذاً ، صائرة الى الزوال بحكم الضرورة . وجاء لابلاس بعده بنصف قرن ، فأكد صحة هذه النظرية بطريقة رياضية ، واختـــرع المطياف بعد نصف قرن آخر وبه ثبت وجود كتل غازية متوهجة في الفضاء بدرجات متفاوتة في الكثافة» (٦٤) .

وتأثر كانت بآراء لوك ، لاسيما بقوله بوجود مستقل عن الاحساس به ، وتبين الفرق بين النظرة الواقعية والنظرة المنطقية وادخل الى الفلسفة البعد السلبـــي ورجح طريقة الاستقراء على الطريقة الاستنتاجية ونقد رومانسية معاصريه وقدر في الفلسفة طريقتين ، المادية واللاأدرية ؛ وعارض المادية لكنه لم ينفر منهـــا نفرة عمياء ، ونظر الى اللاأدرية نظرة ايجابية ، لكنه لم ينظـــر اليهما من حيث اعتقاده بصحة اي منهما ، وانما لانه راى فيهما ما يساعـد على نمو المعرفـــة وتقدمها (٦٥) . وأخذ كانت منذ سنة ١٧٧٠ ، بطريقة النقد ، متأثرا بفلسفة هيوم الذي قال عنه «انه اول من ايقظني من سباتي العقائدي» ولعله قصد بذلك قـول هيوم بأننا لا نستطيع ان نتوصل الى فكرة السببية عن طريق الاحساس او بطريق التجربة وهما معين معرفتنا (٦٦) . واخذ كانت قول هيوم هذا اساسا لدراسة توصل بها الى نتيجة جعلها اساس فلسفته . فهو رغم تسليمه بصحة راي هيوم بمحدودية معرفتنا الحسية لـــم يسلم بعجز عقل الانسان عن ادراك السببية . وقسم كانت المعرفة الى معرفة نتوصل بها بطريق الحس واخرى نتوصل اليهـــا بطريق الفهم ؛ الاولى تعتمد التجربة والاختبار والثانية تعتمد على يقيننا بـــأن لكل حادث سبب . وقال كانت ، ما دام لا سبيل الى معرفة الاسباب بطريـــق الاستقراء فلا بد اذاً ان نتوصل الى معرفتها بطريق الاستنتاج ولا بد ان يكون للعقل قدرة ذاتية يتوصل بها الى معرفة الاسباب . واعتبر كانت نفسه مدينا الى هيوم للوصول الى هذه النتيجة . وراح كانت بعد هذا يتحرى عن الطريقة التي توصل بها العقل الى هذه الملكة الذاتية ، ملكة معرفة الاسباب وتوصل الى هذه النظرية : ان الانطباعات الحسية التي يستقبلها الذهن لا يقبل بها على علاتها وانما يبادر

الحسي وبين الاشياء بذاتها التيهي خارج نطاق الاحساس. والتناقض المتأصل في الذهن ، في رأي كانت ، هو الذي اوجب التمييز بين الادراك بالحس والادراك بالايمان وجعل الديالكتية طريقة الوصول الى الحقيقة في المثالية الالمانية (٦٩) .

ومما ميز فلسفة «كانت» عن التجريبية والحسية واللاأدرية تأكيدها قدرة النشاط الذهني على الابتكار والابداع . فالذهن في فلسفة لوك وبيركل وهيوم ، جهاز غير فعال ، يتلقى الانطباعات الحسية فحسب ، بينما هو يمتلك ، في فلسفة «كانت» ، القدرة على خلق عالمه الخاص بترتيب الانطباعات الحسية وتنسيقها مستعينا بالمقولات التي ادركها بالفطرة . ووصف «كانت» فلسفته بالنقدية لانه اعتبر مهمتها تمحيص المعرفة واستبعاد كل ما يعود الى عالم الاشياء بذاتها منها لتبقى في حدود عالم الظواهر لا تتجاوزه ، واعتبر عالم الظواهر عالما زائلا وانه صورة ناقصة لعالم الحقيقة مليئة بالمعايب التي لا قدرة لنا على اصلاحها بسبب عجزنا عن تجاوز حدوده الى عالم الحقيقة . وهكذا وقفت فلسفة «كانت» عند حدود النقد فلم تقصد التغيير وايجاد بديل لما هو قائم في عالم الظواهر فوافقت روح البورجوازية الالمانية في عصره وقد استكانت واستسلمت للقدر وتركت له تقرير مصيرها ، كما قال ماركس (٧٠) .

وكان من ابرز خصائص الفكر الالماني تأكيد حرية الروح التي ينبعث من جوهرها الوميض الذي يكشف للذات اسرار الوجود . وليس الاصلاح الديني الذي يُعد بين اعظم مآثر الامة الالمانية في القرون الوسطى ، الا ثورة الذات وقد توصلت الى ادراك حرية الروح وقدرتها ، على الكنيسة التي استهانت بذات الفرد وتعمدت اذلالها . وكان من تأثير فلسفة «كانت» تعزيز الثقة بالذات بعد ان اكدت قدرة العقل على استقبال الانطباعات الحسية وتركيب التصورات والافكار المعقدة منها . ولما جاء «فيختته» بعد «كانت» ، وكان ابرز تلامذته ، رفع من مقام هذه الذات بأن اكد ان الارادة والنشاط من خصائصها الاصلية وبهما تثبت وجودها .

ولم تكن فلسفة فيختته في مجملها غير ايضاح وتتمة لفلسفة «كانت» وكان لها في التفكير الماركسي تأثيرها الذي اشار اليه انجلز بقوله «اننا نحن الاشتراكيون الالمان لفخورون بأن أصولنا لا تمتد الى سان سيمون وفوريه واوون فقط بل الى كانت وفيختته وهيغل ايضا ..» (٧١) . واعتبر فيختته في كتابه «مقدمة في مذاهب الفلسفة» مهمة الفلسفة تعليل التجربة ، تقوم بها باحدى طريقتين : طريقة المثالية وطريقة الدوغمائية . وقال ان ادراكنا يتناول الاشياء والافكار ، وعندما نستخلص الاشياء من الافكار ، اي نعتبر الافكار هي الاصل نأخذ بطريقة المثالية؛ وعندما نستخلص الافكار من الاشياء ، اي نعتبر الاشياء هي الاصل ، نأخذ بطريقة الدوغمائية التي قال انها تشمل المادية والسبينوزية ؛ وان اختيارنا اي الطريقتين رهن بظروفنا وطبيعتنا ، لان الفلسفة ليست عرضا غير ذي حياة وانما هي تنبثق من أعماق النفس وعندما ترجح النفس الحرية والنشاط تختار المثالية وعندما ترجح الاستسلام والاتكال ترجح الدوغمائية . ورجح فيختته المثالية وعلل ترجيحه

لها بقوله : «عندما نمعن النظر في الموضوع يتضح لنا من الوجهة النظرية البحتة، ان المثالية أجدر بالاختيار لان من الشيء الاجوف لا نستطيع ان نستخلص الفكرة او الوعي او الذات ولهذا كانت الدوغمائية عقيمة لانها تقوم على تناقض يمتنع فيه تعليل وجود الفكر ؛ اما المثالية فانها تبدأ بالفكر ولكنها لا تدرك الاشياء بذاتها لان ادراكها ممتنع ، بل هي تتوصل الى انطباعات تستخلص منها بالتجربة مختلف الفكر » (٧٢) .

وقد لا يكون في هذا كله جديد . لكن الجديد الذي جاء به فيخته ربطه الفكر بالذات باعتباره الذات وليدة النشاط والممارسة ، او بكلمة اخرى ، انه جعل الشرط الاول للادراك ثبوت الذات وتأكيدها وجودها او وعي وجودها بفعل نشاطها الذاتي . وقال ان الذات تبدأ بادراك وجودها بما سماه الادراك الخالص الذي هو اول الوعي . وقال اننا لا نعرف كيف يحصل ذلك لان الذات يجب ان تعي وجودها قبل ان نعي نحن وجودنا ولذلك فاننا لا نعي الذات الا بعد ثبوتها اي اننا ندرك وجودها كنتيجة وأمر واقع . ويكون كل ما تثبته الذات او تعيه بعد ذلك يمثل الحقيقة . وعلى هذه الصورة تنبثق المعرفة من الذات بالنشاط والممارسة . ثم تناول فيخته مبعث النشاط واثبت ان مبعثها هي الارادة ، فهي اذاً الحقيقة الاولى . وتليها الحقيقة الثانية التي هي ادراك اللاذات . فوعي الذات وجودها لا يكتمل الا بوعي اللاذات نقيضها ، فالاشياء لا تتميز الا بمواجهة اضدادها . وافترض فيخته اننا الى جانب الكثير مما نعيه الذي هو حصيلة نشاط الذات ، نعي اشياء اخرى ليست وليدة نشاطها ، فنشاط الذات محصور بنطاق التجربة وهذه الاشياء الاخرى لاذاتية تقوم خارج حدود التجربة . وهذا يعني ان هذه الاشياء اللاذاتية هي من صنع ذات اخرى ، ذات مطلقة ، نشاطها لا حدود له ، نستطيع بوجودها فقط ان نتبين سر وجود الاشياء اللاذاتية وندرك حدود ذاتنا . وهكذا حاول فيخته ان يثبت أسس فلسفته بطريقة ديالكتية ، فبدأ باثبات وجود الذات المحدودة ثم اثبت استنادا اليها وديالكتيا اللاذات المحدودة ومن تركيبهما ، اي من الموضوع ونقيضه توصل الى الذات المطلقة . وفلسفة فيخته رغم غموضها والابهام فيها كانت دون شك ذات اثر في تكوين طريقة هيغل الديالكتية (٧٣) .

ومما كان له أثر من فلسفة فيخته في الفكر الماركسي ، تصوره ان للتطور خمسة مراحل : مرحلة بدائية يقوم فيها النظام بالفطرة السليمة ، يتدبر الناس فيها شؤونهم بالحسنى ويلتزمون الفضيلة بالسليقة من دون حاجة الى المعرفة والفنون ؛ ثم المرحلة الثانية التي تكون على نقيض الاولى ، مرحلة تشتت يسود فيها الشقاق وتتغلب فيها النزوات الهمجية ويقوم فيها صراع بين البربرية والحضارة ينتهي بقيام السلطة كضرورة لا غنى عنها ، وتعقب هاتين المرحلتين مرحلة يؤول فيها طغيان السلطة وفسادها الى بزوغ نزعة الحرية ويقوم فيها صراع بين الحرية والطغيان ينتهي بفوز الحرية . لكن الحرية في هذه المرحلة تكون نمطا من الفوضى تقوض كل القيم ان انشأتها السلطة وتنتهي بغلبة الغوغائية وتطغى فيها

النزوات الفردية وتكون بمثابة مرحلة انتقال الى المرحلة الرابعة . وتكون المرحلة الرابعة مرحلة المعرفة المتزنة التي يصفو فيها الذهن وينجلي الفهم ويدرك الناس واجباتهم ويحسنون اداءها ، ولو ان ادراكهم فيها يبقى محدودا يفتقد العلم والفن. وتليها المرحلة الخامسة والاخيرة وفيها يتجه الناس الى الاهتمام بالعلوم والفنون فيتكامل العلم وترتقي الفنون ويتسنى للانسانية تنظيم شؤونها وعلاقاتها على اساس المعرفة والتسامي الخلقي . والمهم الذي يلاحظ في هذه المراحل، ان التحول فيها يكون من الايجاب الى السلب وان عوامل التحول من مرحلة الى اخرى تنبعث من صميم الظروف السلبية الكامنة في المرحلة التي يجري التحول منها . وفي الامرين تتجلى الصلة الوثيقة بين تصوراتها والمادية الديالكتية والتاريخية في الماركسية .

وكان لفيخته اثر في غير ميدان الفلسفة كان له صداه في الفكر الماركسي . فبالرغم من ان الثورة الفرنسية كانت في رأي الكثيرين ثورة في سبيل الحرية لكن معالمها طمست في المانيا بدعايات مضللة شوهتها ، فكان ان انبرى فيخته لاظهار طبيعتها الحقيقية بتأكيده التلاحم بين الحرية وانسانية الآدمي المتصف بالوعي والذكاء ، وتأكيده كذلك، فكرة التقدم من حيث هي ضرورة ملازمة لحياة الدولة وتطور المجتمع ، تفرض اطراد التغيير وإلا صارت الامة الى التخلف فالاضمحلال (٧٤) . وفي تصوره تطبيق فلسفته في مضمار الحياة العامة ، ربط بين عناصر فلسفته ، الذات والحرية والممارسة مشخصة بالانسان الواعي وفي الفكر الخلاق، وبين الانسان الحر الذي لا يعترف بأية شريعة غير التي يصنعها بنفسه لنفسه . وقد اعتبر الحرية ضرورة في كل دولة تريد البقاء والتقدم وقال «ان الانسانية تنبذ الصدفة العمياء وسلطة القدر وتأخذ بيدها مصيرها تخضعه لارادتها وتنجز بالحرية ما عقدت العزم على انجازه» (٧٥). وقد تجاوز في آرائه آراء «كانت» الذي حصر العقل في حدود عالم الظواهر ، مؤكدا ان العقل يمتلك قدرات اخلاقية واجتماعية ذاتية . وقال ان الانسان لا يكون انسانا الا في مجتمع الانسان . والفرد الذي ينطوي على نفسه ويعتزل المجتمع ولا يعود يعنيه من امره شيئا، يتخلى عن مصيره ويفقد اهتمامه بالتقدم الاخلاقي . والانسان الذي لا يفكر الا بذاته لا يكون تفكيره اخلاقيا حتى بذاته لان الغاية المطلقة للفرد لا تكمن في نفسه وانما تكمن بالانسانية في كليتها .

— ٥ —

هيغل والهيغلية

اقرت المثالية قبل الهيغلية ، بعجزها عن ادراك الحقيقة بذاتها ، فتركت بذلك،

المجال واسعا للغيبيات والتخرصات وما يترتب عليها من تصورات لا سبيل الى ردها او اثبات لاعقلانيتها ؛ ولهذا قيل ان هيغل بلغ بالمثالية غايتها بمحاولته ان يثبت انها السبيل الى ادراك الحقيقة بذاتها بطريقته الديالكتية . لكنه بهذا اوصل المثالية، في الوقت عينه، الى نهايتها بأن مهد سبيل تحولها الى المادية، نقيضتها(٧٦).

وتعد فلسفة هيغل من اشد الفلسفات عسرا ، وبعض كتاباته فيها من اشد ما كتب ابهاما وتعقيدا . ويرجع بعض العسر فيها الى أسلوبه الذي افتقد السلاسة والى ان قسما مما نشر من مواضيعها نقل بعد وفاته عما ضبطه طلابه من محاضراته . لكن اكثر العسر فيها يرجع الى ظروف الفترة التي أعدت فيها بحوثها ، وكانت فترة هيمنت فيها رجعية مرعوبة ومستبدة ، في أعقاب عهد نابليون ومؤتمر فيينا ، اضطر فيها هيغل ، على ما يظهر ، ان يتذرع بالمعاني المبهمة وأن يستعين بكلمات تحمل معانٍ متعارضة يتسع فيها مجال التأويل ، ليتستر على مقاصده (٧٧) . ولم يكن هو غافلا عن العسر فيما كتب ، فقال انه لم يجد غير شخص واحد استطاع ان يفهمه ، بل حتى هذا لم يفهمه كما ينبغي (٧٨) .

واهتم هيغل في بدء حياته الفكرية ، في ايام الدراسة في جامعة توبنغن وفي خلال توليه التدريس في برن وفرنكفورت ، باللاهوت والتاريخ اكثر من اهتمامه بالفلسفة (٧٩) . لكنه كان منذ مطلع حياته الفكرية وحتى نهايتها ، لصيقا بالواقع ، يبدأ يومه ، كما قيل ، بقراءة الصحف ويقول عنها انها صلاة الصبح الفعلية ، يتعقب فيها الاحداث ويجمع المقتبسات والشواهد ، وهي هوايته التي لازمته الى اواخر ايامه (٨٠) . وكان مما قراه في هذه الفترة وتأثر به : مؤلفات هيوم في الفلسفة وكتب آدم سمث في الاقتصاد وأعمال روسو ومونتسكيو وكتاب «كيبن» في «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» (٨١) .

وقسم الباحثون حياته الفكرية الى خمسة أدوار : الاول بين ١٧٩٠ و١٨٠٠ وغلبت فيه نزعة تحررية راديكالية ؛ والثاني دور سنة ١٨٠١ وحاول فيه ان يحدد موقفه الفلسفي بنقد مدارس الفلسفة المعاصرة المتمثلة بفلسفة «كانت» وفيختـه وشيلنك ؛ والثالث بين سنة ١٨٠١ و١٨٠٦ وسمي بدور «يينا» نسبة الى مدينة يينا التي كان يقيم فيها ، وفيه وضع الخطوط العامة لمذهب فلسفي متكامل شمل المنطق والميتافيزيقا وفلسفة الطبيعة التي ضمّنها فلسفة الواقع ونظام الاخلاق ؛ والرابع هو دور الفينومينولوجيا «علم ظاهرات الروح» نسبة الى رسالته بهذا العنوان والتي صدرت سنة ١٨٠٧ ؛ والخامس والاخير ، الذي امتد من ١٨٠٨ الى ١٨٣١ وأتم فيه فكره السياسي فأصدر كتابه في المنطق بجزءين ، ودائرة معارف الفلسفة بثلاثة أجزاء ، وفلسفة الحق ومحاضرات برلين في فلسفة التاريخ وفي تاريخ الفلسفة والجماليات والدين. وكان من عادته ان يلحق بمؤلفاته نبذا سياسية يطبق بها آراءه الفلسفية في تفسير الاحداث التاريخية ويضفي على تصوراته طابعا تاريخيا وواقعيا (٨٢) .

وهيغل برغم مثاليته لازم الواقع الذي رآه مشخصا بحياة الشعوب ، فلم يعن بالفلسفة ، كما يقول ماركوز ، الا من اجل المزيد من التصدي المباشر للحياة

الانسانية كما تتجلى في التاريخ (٨٣) . وكان للتاريخ عنده مفهوم خاص ، فأحداثه لم تكن تعنيه الا بمقدار ما تكشف له عن روح شعب او جوهر دين سعيا وراء فهم حياة الانسان وكنه وجوده في شعب . وليست المهمة الاساسية للفلسفة في رأيه ، الا التأمل بالحياة ، وهو يقصد بها حياة الروح التي لا تنفصل عن التاريخ الذي يشخص العلاقة الحية بين الفرد ومجتمعه ويكون بمثابة المرآة التي تعكس ذاته .

واقتصرت الفلسفة الالمانية قبل هيغل على الاهتمام بعالم الروح وبالحقيقة في ذاتها واغفلت حياة الانسان الفعلية المتمثلة بتاريخه . وحصر ادباء الالمان مثل شيلر وغوته جل اهتمامهم بمسألة العلاقة بين الانسان والطبيعة ووضعوا افكارهم في صيغ مطلقة لا ترتبط بتاريخ فكانوا بعكس هيغل الذي اكد في مؤلفات شبابه على الخصوص ، مسألة التطور التاريخي لحياة الانسان في نشوئها ومصيرها (٨٤).

ويرجع اهتمام هيغل بروح الشعب وبالتاريخ الى اهتمامه بمصير شعبه ، وهو ما شغل باله وبال جيله ، لاسيما بعد هزيمة بروسيا في معركة «يينا» امام جيوش الثورة الفرنسية وجيوش نابليون ، وقد كشفت ما خفي من تخلفه وتشتته وتردي أوضاعه وولدت شعورا عبَّر عنه الشاعر الالماني «هولدران» صديق هيغل ، بقوله «طوبى للانسان الذي ينهل سعادته وقوته من ازدهار وطنه» (٨٥) . ولم يكن هيغل يرى الفرد بذاته المحدودة يمثل حقيقة الانسان التامة وهي لا تتشخص الا بالكلي الذي هو الشعب . وهذا هو ما عبرت عنه فلسفته كما أوضحها في كتابات شبابه في توبنغن وبرن وفرنكفورت ، في الفترة التي تزعزع فيها كيان الرجعية الاوربية بانتصارات الثورة الفرنسية وطفح فيها الميل الى الحرية واتيح لشباب المانيا ان يعبروا عن مكنونات نفوسهم فتجلى تأثرهم بعصر التنوير وأفكار الثورة الفرنسية وصوّر هيغل شعورهم بقوله ان في العقل قوة تاريخية موضوعية قادرة بطريق الحرية ان تغير العالم . وكتب الى صديقه شيلنك سنة ١٧٩٣ يقول : ان العقل والحرية سيظلان المبدأين اللذين نؤمن بهما (٨٦) . ولم يبدُ في كتاباته في هذه الفترة ما يميز بين المعنى الفلسفي والمعنى الاجتماعي لمفهوم فكرتي العقل والحرية . فقد عبر عنهما بعين اللغة الثورية التي عبر بها اليعاقبة وقال ان اهمية عصره تكمن في «ان الهالة التي احاطت بآلهة الارض وقادتها الظلمة اختفت ، وراح الفلاسفة يثبتون كرامة الانسان ولسوف يتعلم الناس كيف يشعرون بها فلا يقفون عند حد المطالبة بحقوقهم التي تمرغت بالوحل بل ينتزعونها بأيديهم ويجعلونها ملكا لهم» . وقال «لقد لعبت الكنيسة والسياسة اللعبة عينها ، فلقنت الناس ما اراد الطغيان ان يلقنهم اياه، وهو احتقار الانسان وعجزه عن بلوغ الخير وتحقيق ماهيته بجهوده الخاصة». بل اننا نجد في كتاباته في هذه الفترة ما هو أشد تطرفا، في دعوة صريحة الى الثورة وهو يقول «ان العقل يتطلب تدبيرا لقلب النظام القائم» وانه «لم تعد هنالك فكرة للدولة ، فقد تحولت الدولة الى شيء آلي ، بينما لا يصح ان تطلق فكرة الدولة الا على ما هو موضوع للحرية . ولهذا بات واجبنا ان نتجاوز هذه

الدولة لانها تعامل الناس الاحرار كما لو كانوا تروسا في آلة ، فلا بد اذاً من زوالها . .»(٨٧). على ان هيغل ما لبث ان تخلى عن حماسته هذه كما تخلى عنها كل جيله؛ عندما اضطر بحكم الظروف ان يقنع بالتغني بنشيد المارسيليز في منتجعاته البعيدة المنعزلة ويكتفي بزرع اشجار الحرية ويتوعد ، بينه وبين نفسه ، المستبدين واذنابهم بالويل والثبور . ولم يبق للمعنيين بالمعرفة الا ان ينصرفوا الى الاهتمام باللاهوت او يتمعنوا بحياة العصور الغابرة وطاب لكثير منهم تتبع حياة الاغريق وفلسفتهم وحياة المسيحيين الاوائل .

وتصور هيغل في مطلع حياته الفكرية ، الحقيقة المطلقة تمر بثلاث حالات : فتتشخص في البدء، بفكرة مجردة هي محض مفهوم مطلق كالحرية والتضحية مثلا؛ ثم تتحول الى النقيض فتتجسد في ظاهرة محددة ذات ابعاد مادية وتاريخية ؛ ثم تعود في المرحلة الاخيرة فتنتزع ذاتها من هذه الظاهرة بعد ان تستكمل حقيقتها فتتجرد وتسمو الى حقيقتها المطلقة . ويظن ان هيغل استوحى هذا التصور من قصة المسيح وهي تمثل فكرة الحرية تتشخص في آدمي يعاني العذاب ويصلب تكفيرا عن خطيئة البشر ثم تعود بعد اداء مهمتها فتتجرد وتسمو الى عالم الروح. وبدت له العملية تتكرر في قصة سقراط الذي تقمصته فكرة حرية الرأي فعانى الاضطهاد والعذاب في سبيلها ولما أتم مهمته تجرع السم ليعود حقيقة مجردة . وليس هذا التصور بعيدا عن فحوى قصة آدم وحواء اللذين ابعدا عن عالم الروح ليعانيا عذاب الدنيا كآدميين تكفيرا عن الخطيئة حتى يأتيهم الموت فينتزعهم من واقعهم ويعود بهم الى عالم الروح (٨٨) . وهكذا صوّر هيغل في مثاليته الموضوعية، الحقيقة المجردة التي تعبر عنها الفكرة المطلقة تظهر في وجود فعلي او موضوعي ثم تعود بعد ان تستكمل حقيقتها الى ذاتها المجردة . والحقيقة عنده ، تخضع في طورها الموضوعي لاحكام الواقع فتسري عليها قوانين المجتمع والطبيعة . ولهذا نجده ، بخلاف سائر المثاليين ، معنيا بالواقع وشواهده التجريبية غير ميال للاحكام القطعية ، يرى مهمة الفيلسوف متابعة الواقع وكشف عوامل التغيير فيه ، وصارت الموضوعية والتغير او التطور الفكرتين الاساسيتين في فلسفته .

وظهر هيغل في كتاباته الاولى اكثر تأثرا باللاهوت والتاريخ وأكثر اهتماما بالمسيحية وبمجتمع الاغريق وأفكار عهد التنوير منه بفلسفة كانت وفيخته . ومجّد في كتابات شبابه مجتمعات المدن الاغريقية حتى تجاوز من بعض الوجوه كل ما قاله في تمجيد المسيحية . وتصور سر عظمة هذه المجتمعات يرجع الى نموها التلقائي الحر والى ما سماه «روح الشعب» المتمثلة في تاريخها ومعتقداتها وفيما بلغته في مجال الحرية السياسية . وقصد بروح الشعب ما عناه مونتسكيو بالروح العامة او الروح القومية ولم يأخذها بالمعنى المجرد بل قصد بها المفهوم المشخص بمجمل الاوضاع الطبيعية والفكرية والتقنية والاقتصادية والاخلاقية والعقلية التي تتعين بها مكانة الامة في التاريخ (٨٩) .

وبسبب تأثره بفلسفة الاغريق ، كانت نظرته الى الوجود الاجتماعي نظرة كلية، فاعتبر الكل هو الاصل واختلف تصوره للمجتمع عن تصور روسو في نظرية العقد

الاجتماعي ، اذ لم ير الشعب أفرادا تعاقدوا ليؤسسوا مجتمعا او دولة ، بل رأى العكس ، رأى الشعب كلا يسبق وجوده وجود الافراد ، ورأى روح الشعب اتحادا يتجاوز مفهومه فكرة المجتمع ويتشخص في كلّ يسبق وجوده وجود اعضائه . فالفرد في رأيه ، لا يكون له وجود الا في اسرة او قبيلة او شعب ولو ان ذلك لا يعني بالضرورة تعارضا بين فكرتي الكل والاجزاء بقدر ما يؤكد انسجاما مسبقا بينهما بمعنى ان الفرد لا يمكن ان يعي وجوده او ذاتيته الا باشتراكه فيما يتجاوزه ويقر بوجوده ويهيء له مجال تحقيق حريته . على ان هيغل كان على وفاق مع روسو في التمييز بين الارادة العامة التي تتمثل بالمجتمع والدولة وبين ارادة المجموع . فالارادة العامة عنده تعبير عن المصالح المشتركة بينما ارادة المجموع لا تعبر الا عن المصالح الخاصة من حيث هي في طبيعتها مجموع ارادات فردية كل واحدة منها تمثل مصلحة خاصة . ورأى هيغل في تصور روسو هذا ، عن مفهوم الارادة العامة ، اعظم معطياته للفكر السياسي ؛ وهو يكشف في الواقع الفرق بين النظرة السكسونية التي تأخذ بمفهوم ارادة المجموع بمعنى ما يقره العدد الاكبر من الارادات الفردية وبين مفهوم الارادة الكلية التي تأخذ في الاساس مصلحة الكل بأنه يعبر في مضمونه عن الارادة العامة ، ففي النظرة الاولى يكون الفرد هو الاصل وفي النظرة الثانية يكون المجموع هو الاصل . ولهذا التمييز أثر عميق في مفهوم النظم السياسية ولعله اكثر ما يتجلى في مفهوم الحرية في الرأسمالية ومفهومها في الاشتراكية (٩٠) .

وبهذا المفهوم للارادة العامة ولروح الشعب ، نظر هيغل الى ما يخرجه الفنان من آيات الفن ورأى ان ما يبدعه لا يقتضي ان يؤخذ من حيث هو تعبير عن مشاعره او انه من صنع فرديته بل رأى ان ينظر اليه من حيث هو تعبير عن مجمل احساسات وعواطف وتصورات وتطلعات وحاجات المجتمع الذي يحيا فيه ومن وحيه . فالفن بهذا المفهوم نتاج اجتماعي وتشخيص لإحساس كلي ساهمت به الاجيال المتعاقبة كل جيل اورث ما ابدع الى الجيل الذي جاء بعده ، وهو بهذا المعنى لا يعبر عن مشاعر الفنان فقط ولا يعبر كذلك عن كلية وضع راهن فحسب بل انه يحمل مفهوما تاريخيا يعبر عن مجمل تاريخ الامة وتراثها . وبهذا المفهوم نظر ايضا الى اعمال العباقرة ورأى ما ينسب للعبقري انما هو في حقيقته من صنع الامة ، ووليد تاريخها وتراثها وما تطلبته ظروفها وما يسرته امكاناتها وطاقاتها ، وان كل جيل من أجيالها اسهم في تهيئة اسبابه وجاء العبقري في الظرف الملائم ليخرجه ويكرسه (٩١) .

وعالج هيغل في كتابات شبابه ، تحت تأثير اللاهوت وحياة الاغريق وفلسفتهم وافكار عهد التنوير ما سماه بـ «الشعور الشقي» وعاد فعالجه بصورة أتم في رسالته «علم ظاهرات الروح» . وعرّفه بأنه وعي التناقض بين فكرة الانسان عن حياته المتناهية وفكرته عن وجوده اللامتناهي ، وارجعه الى التحول من العالم القديم الى العالم الحديث ومن الدين الوثني الى الدين المسيحي ورأى فيه اعظم

تحول في التاريخ ؛ اذ لم يكن امرا يسيرا ، كما قال ، ان يزول دين تأصل في الحياة العامة في مدى عشرات القرون وارتبط بها ارتباطا وثيقا فنسبت اليه الآلهة وكل مظاهر الحياة وعبر عن تعلق الشعب بواقعه واعتزازه به بحيث لم يفكر بعالم آخر . فمثل هذا التحول لا يكون الا بثورة كبرى . لكن هيغل تصور ان هذه الثورة الكبرى كانت ثورة صامتة وتدريجية جرت بثورات صغيرة متتالية فلم يشعر معاصروها بما تم فيها من تحولات ، شأن تكوّن الجنين وولادته طفلا . وقال هيغل ، لعلنا ننظر الان الى الوثنية وأسرارها وكأنها غير جديرة بالاهتمام ، بيد ان افضل رجال العصور القديمة وعباقرتها آمن بها وكانوا دون شك ، يمتلكون فهما ليس دون معدل فهمنا (٩٢) . وتساءل عن سر هذا التحول وقال : اذا كانت تلك الاديان انبثقت من صميم حياة شعوبها ولم تفرض عليها من الخارج وانشأت حياة مواطنين احرار ، فلا بد ان زوالها نجم عن تغير طرأ على حياة تلك الشعوب ففقدت حريتها ، وهذا هو بالفعل ما حصل ، فلقد كانت ديانة اليونان وروما ، كما قال ، ديانة شعوب حرة وكان يجب عند فقدان هذه الحرية ان يزول كذلك كنه هذه الديانة فتفقد تأثيرها ويتلاشى توافقها مع الحياة العامة . فبتحول الحرية الى استبداد انحطت تلك الديانة وفقدت سلطانها في النفوس بعد ان اصبحت الحرية جوفاء (٩٣) .

وقارن هيغل بين مفهوم الحرية في العالم القديم ومفهومها في العالم الحديث ، فرأى انها لم تكن تعني في العالم القديم حرية الاختيار ، كما تعني الان ، بل كانت تعبر عن انسجام بين المواطن وبني وطنه ، وهو انسجام كان يومئذ ، قوام الحياة العامة وأسمى أمنية يحيا المواطن في ظلها ومن اجلها ، والهدف النهائي لوجوده . فلم يكن المواطن يواجه في مجتمع المدينة او الدولة سلطة غريبة عنه تضغط عليه ، وانما كان يخضع لقوانين وضعها بنفسه لنفسه او وضعها آباؤه وأسلافه لانفسهم ؛ فكان من اجل ذلك يضحي بحياته وبما يملك من اجل واقع هو من صنعه تتمثل فيه حريته ويتشخص به تاريخه وليس له سواه ، هو هدفه النهائي في العالم او الهدف النهائي لعالمه . ولم تكن المعايير الاخلاقية فردية بل ضمن الاخلاق العامة ، اي انه لم تكن له معايير خاصة للاخلاق يرى بها غير ما كان يراه المجتمع ، وكان حرا لانه لم يكن يضع حياته الخاصة في مواجهة ومعارضة الحياة العامة ، وكان يطيع القوانين ويضحي بحياته وما يملك في سبيل واقع ليس له سواه . وعلى هذا النحو كانت الحرية تعني اندماج الفرد في الكل فليس للفرد وعي بوجوده مستقلا عن الكل بل هو يضع القسم الخالد من ذاته في وطنه ، كما يقول هيغل ، ولذلك لم يفهم الخلود بالمعنى الذي نفهمه الان بل كان يفهمه في خلود وطنه ومجتمعه (٩٤) .

ولكن كيف جرى هذا التحول ؟ يقول هيغل ، انه حدث بتأثير الحروب وقيام التسلط الذي دفع الفرد الى الانطواء على ذاته والى انقطاع الصلة الحية التي كانت تربطه بمجتمعه ، ثم جاءت الثروة فقضت على المساواة وولدت حاجات جديدة تكاثرت دون حدود وكان من جرائها ان انغمر الفرد بمصالحه الخاصة وما عاد يعنى

بالحرية او بالمثل العليا . واتسعت الملكية الخاصة حتى اصبحت العلاقة بين المالكين مدار الحياة العامة والامر الجوهري فيها ؛ فصار الذين يملكون الثروة وهم قلة ، يرون الدولة مجرد سلطة مهمتها حماية الملكية الخاصة وحقوقها ، ولم تعد الحياة العامة تهم الذين لا يملكون بعد ان لم يعد لهم شأن فيها . وبزوال مفاهيم هـذا المجتمع ، افتقد انسانه ما كان يملأ حياته ويستوعب نشاطاته وتطلعاته وأمانيه فشعر بالغربة وبدت له نهاية الحياة موحشة وصار يفكر بالموت ويرتعب وهو ينظر اليه بمنظار فرديته فيرى فيه نهاية مفجعة ورهيبة اذ لا شيء منه سيبقى مـن بعده ، وكان قبل ذلك يحس انه جزء من كل فلم يكن يعنيه ما يكون من امره ما دام الكل باقيا وهو خالد فيه . وهكذا تولاه من الموت رعب شديد وتمنى لو يجد ملجأ في عالم آخر . ولما جاءته المسيحية بهذا العالم وصورت له الحياة فيه على ما يتمنى ، حرة وطليقة وغنية بالطيبات ، هرع اليها والقى بنفسه في احضانها كطفل وجد امه ، ورضي بكل ما فرضته عليه وتلقى كل ما لقنته . وبهذه الصورة رأى هيغل في كتاباته الاولى ، المسيحية ملاذا للشعور الشقي وانعكاسا للغربـة وللضياع اللذين واجها الانسان بعد ان فقد عالمه القديم . لكنه لم ير هذه النهاية مفجعة ، بل رأى التمزق الكبير والشعور الشقي ضروريين ليمهدا السبيل لخلق جديد ويجعلاه ممكنا ؛ وهو خلق سيكون بالضرورة ارقى وعلى صعيد اعلى (٩٥) .

وقارن هيغل في كتابات شبابه ايضا ، بين ما سمي بالدين الطبيعي والدين الوضعي ، وكانت من المسائل التي دار حولها الجدل ، اثارتها آراء روسو الذي حاول في معارضته طقوس الكنيسة ان يجعل الدين اكثر ملاءمة للشعوب الحديثة فميز بين ما سماه دين ذاتي وما سماه دين وضعي . الاول يتميز بتأمل الطبيعة ويعتمد الشعور الذاتي فيكون ، كما قال ، دين للقلب يوحي بأعظم الاعمال لانه يؤثر في الانسان بكليته ، في فكره ومشاعره وأعماله ؛ بخلاف الوضعي الذي يصاغ بمذهب وينقل الى الآخرين بالكلام ويتمثل بتعاليم فرضت في فترة معينة مـن الزمان وأصبحت بعد فوات أوانها تفرض على العقل وتثير تعارضا بين الحريـة والضبط ولا يكون الانسان فيها حرا لانه يخضع لقانون لم يضعه بنفسه ويكون بالنسبة لقناعته لا يحتمل النقاش وينشىء علاقة بين الاله والانسان هي علاقة سيد بعبد . ومثّله هيغل باليهودية ، يخضع الانسان لتعاليمها خشية العذاب فتنمي فيه مشاعر العبودية وتقيم حاجزا بين الانسان والحرية وتربطه بنظام مجتمع فات أوانه وفقد مضمونه وأصبح من رواسب التاريخ (٩٦) .

على ان هيغل بعد تعمقه في تقصي ظروف الانسان الاجتماعية ، لاسيما بعد متابعته أحداث الثورة الفرنسية ، وهنت ثقته بالنواحي الطوعية التي قومت في ظنه المجتمع القديم وغلبت عليها قناعته بخضوع المجتمع لاحكام الضرورة التاريخية ولو انه رأى في هذه الضرورة علة ابتعاد الفرد عن دولته . ففي المجتمع القديـم عاش الفرد ، كما رأى هيغل ، في وفاق مع مجتمعه لانه لم يكن يشعر بحاجة الى الحرية او يطمح في ان يسيطر على الحياة العامة . لكن هذا الوفاق الطبيعي لم

يقو على الوقوف بوجه التيارات التي غلبت في الحياة الاجتماعيـــة بعد ان أدت الحروب والثروة وحياة الترف الى ظهور ارستقراطية حرب وثروة افسدت الدولة وقضت على الحرية السياسية ووضعت زمام السلطة فيها في قبضة نفر من ذوي النفوذ وصرفت اغلبية المواطنين الى شؤونها الشخصية وجعلت الحفاظ على الملكية الخاصة المهمة الرئيسية للدولة . وقال هيغل في نبذة تاريخية كتبها سنة ١٧٩٧ ، «ان حماية الملكية الخاصة هي المحور الذي يدور حوله التشريع الحديث بأسره» . وقال في مسودة كتبها عن الدستور الالماني سنة ١٧٩٨ «ان النمط التاريخي للملكية البورجوازية مسؤول عن الانحلال السياسي السائد» . وقال في احـــدى فقرات كتاباته اللاهوتية في شبابه ، ان الملكية البورجوازية افسدت حتـــى العلاقة بين المحبين ، لان الطرف الذي لا يملك صار يرى تعلق الطرف الآخر بهذا الشيء الميت الذي هو الثروة يقوم حاجزا يفصل بينه وبين من يحب . وهكذا انتهى هيغل الى ان الملكية الخاصة جعلت الانسان يعيش في عالم هو من صنع معرفته وعمله ، لكن هذا العالم لم يعد عالمه بعد ان اصبح مناهضا لمتطلباته الروحية وتحكمه قوانين عسوفة عديمة الرحمة جعلت منه عالما هامدا مثبطا للعزم مخيبا للأمل (٩٧) .

وتجمعت عوامل عديدة اضعفت حماسة هيغل الثورية التي اتسم بها عهـــد شبابه ، وصرفته الى حياة التأمل والفلسفة . وكان من هذه العوامل ما نشأ عن ظروف المانيا التي واجهت البورجوازية فيها وضعا مغلقا لا طاقة لها على اقتحامه ولا سبيل لها فيه الى تحقيق مطامحها في الحكم والسيطرة ، فأصابها الخور ورجحت مسايرة الاقطاعية العسكرية البيروقراطية ، تتملقها وهي قانعة بمـــا يصيبها من فتات موائدها . ومنها خيبة أمل هيغل باللاهوت بعد ان وجد انه يُعنى بالانسان الفرد ويدفع به الى اعتزال ارتباطاته الاجتماعية والانصراف الـــى شؤون فرديته ، ويحثه على حصر صلته بخالقه وبعالمه الآخر ، فكان ان نفر من النزعة الفردية فيه ورجح ما اوحت به حياة الاغريق وفلسفتهم التي نظرت الى الفرد بصفته جزءا من كل . وتأثر هيغل في الوقت عينه ، بأحداث فرنسا فـــي فترة اليعاقبة التي اظهرت له كيف أدت الثورية الى العنف ، ولم يكن ينسجم مع طبعه . فنجم عن ذلك كله ان غلبت في نفسه نزعة الانصراف عن الشؤون العامة الى الفلسفة التي راى انها الشكل النهائي للمعرفة ، تتجاوز الانحلال المشهود في الاوضاع الراهنة في عصره الى تقصّي عوامـــــل التحولات الاجتماعية المقبلة او المتوقعة .

ولم يكن هذا الانصراف عن الشؤون العامة مقتصرا على هيغل ، فان كثيرين من مفكري المانيا الذين استبشروا بالثورة الفرنسية لم يجدوا تفسيرا لموجة الارهاب التي طغت فيها واستنكروا ما أدت اليه حروب نابليون من تخريب فأصابهم مـــا اصاب هيغل من خيبة الامل . لكن موقف هيغل اختلف عن موقفهم ، فهو لـــم تجرفه موجة الردة بل استخلص من مجرى الاحداث صورة جديدة لما يجب ان تكون عليه الدولة الحديثة ، وعبر عن رأيه هذا في مقدمة كتابه عن الرايخ الالماني في قوله «ان حزننا ينبع من اننا لا نجد الاشياء كما يجب ان تكون ، لكننا نستطيع

بالمعرفة ان نحرر انفسنا من هذا الشعور بأن نتعلم كيف نتعرف على الضرورة وعلى علة هذه الضرورة» . وبقوله هذا تحول من ثائر يريد التغيير الى متأمل يحاول ان يفهم ما هو موجود ويكتشف حركة الضرورة فيه ولو انه لم ينبذ الموضوعية في تفكيره وظلت تصوراته ، حتى اكثرها تجريدا ، محتفظة بالواقعية ، وظلت الفلسفة عنده تحمل رسالة تاريخية مهمتها تحليل المتناقضات السائدة في الواقع وكشف السبل التي تخلق بها هذه المتناقضات تراكيب جديدة وتدفع المجتمع الى التحول من مرحلة الى اخرى ، وبهذا ابقت على شيء من نزعتها الثورية (٩٨) .

وبعد وفاة ابيه سنة ١٧٩٩ ، انتقل هيغل الى مدينة يينا وبلغ من انصرافه الى التأمل والفلسفة انه لم يظهر اي اهتمام بهزيمة الجيش البروسي وانتصار نابليون ولم ير ما رآه غيره من الالمان من الاذلال فيه بل رأى الهزيمة هزيمة سلطة بيروقراطية فاسدة ومغرورة ، وذهب الى ابعد من ذلك فكتب الى صديق له يصف نابليون الذي رآه يستعرض جنوده بأنه «روح العصر تمتطي جوادا» (٩٩) .

وفي سنة ١٨٠١ ، عين هيغل محاضرا في جامعة يينا وكانت يومئذ مركز الفكر الفلسفي وفلسفة «كانت» تغلب فيها ، وكان فيخته وشيلنك قد شغلا المنصب الذي حل فيه . وبادر هيغل وهو يحاول ان يثبت أهليته الى المنصب الرفيع الذي شغله، الى نقد فلسفة كانت وفيخته وشيلنك ، فلفت ما كتبه الانظار اليه وأثار أهتمام الوسط الفلسفي بشخصه . وكان «كانت» قد افترض ان الذهن يحفظ صورا كلية يتعرف بوساطتها على ما تقدمه له الحواس ، وهي صور تتعلق بالزمان والمكان فتساعد الذهن في الحدس ، او تتعلق بمعايير وأشكال تصور للذهن ماهية الاشياء، والذهن بدونها ، يتعذر عليه معرفة ما تقدمه الحواس . اي ان الحواس لو نقلت الى ذهني صورة شيء ما ، فان ذهني لا يستطيع معرفة كنه هذا الشيء الا بمطابقته مع الصورة الكلية فيه ، وإلا امتنعت عليه معرفته . فلو نقلت الى ذهني مثلا ، صورة وجدت انها تطابق الصورة الكلية للكرسي في ذهني ، قلت انها كرسي ولو ان حقيقة هذه الصور الكلية تبقى فوق ادراكي . ولهذا قال «كانت» اننا ما دمنا عاجزين عن معرفة الاشياء في ذاتها التي هي اصل هذه الصور ، فالاشياء في ذاتها التي تقوم خارج الذهن ، مستقلة عنه ، تظل غير قابلة للمعرفة على الاطلاق .

وعارض هيغل هذا الراي ورأى ان «كانت» باثارته الشك في امكان معرفة الاشياء في ذاتها قد احبط محاولة انقاذ العقل من هجوم التجريبيين الذين رأوا ان مصدر معرفتنا هو الاحساس لا العقل ، لان الاشياء ما دامت في ذاتها بمنأى عن قدرة العقل على ادراكها فسيظل العقل مجرد عنصر ذاتي لا سلطان له على البناء الموضوعي للواقع . وبذلك تقوم، في العالم ، ثنائيات مثل ثنائية الذاتية والموضوعية او ثنائية الفهم والحس او ثنائية الفكر والوجود . وقال اننا ما لم ننجح في توحيد هذه الثنائيات فندخل الطبيعة والمجتمع في نطاق العقل فسوف يعجز العقل عن ادراك الحقيقة . ولاجل هذا يجب ان تكون مهمة الفلسفة تحقيق

وحدة هذه الثنائيات وجعل العقل قادرا على الجمع بين الذات والموضوع وما بينهما من تضاد لتكون كل مجالات الوجود بإمرة العقل فلا يكون العالم عالمين ، عالم للوجود وآخر للروح او للذات ، ولا تكون المعرفة معرفتين ، معرفة بالحس وأخرى بالعقل ، بل يكون العالم واحدا هو عالم الحقيقة المطلقة ، ويكون مصدر المعرفة واحدا هو العقل ، ويكون اصل الحقيقة واحدا هو العقل المطلق ، وتستبعد من المثالية الالمانية اللاادرية التي اتسمت بها فلسفة «كانت» ، والذاتية المجردة التي اتسمت بها فلسفة فيخته ، ويرتفع الحاجز الذي يفصل عالم الفكر عن عالم الواقع ، فتصير المثالية مثالية موضوعية تتمثل بها الحقيقة المطلقة بظواهر طبيعية او اجتماعية ذات أبعاد مادية او تاريخية تؤلف عالم الواقع ، اي ان تصير ، بعبارة اخرى ، مثالية ذات موضوع مادي تتسم بها الحقيقة بعنصرين اساسيين هما الحركة والتغيير (١٠٠) .

وكانت المثالية منذ عهد الاغريق ، تفترض ان الحقيقة ثابتة لا تتغير ، وكان من جراء ذلك ان انحصرت مهمة الفلسفة في وصف الحقيقة وهي في حالة سكون مستديم ، واعتبر التغيير او الحركة من الظاهرات التي لا شأن للفلسفة بها ، فاقتصرت على التأمل في المجال العقلي الصرف ، اي في عالم الاشياء في ذاتها ، وتجنبت عالم الحس او عالم الواقع الذي اعتبرته يخضع لاحكام الضرورة ولا اختيار فيه . وبأخذ المثالية الموضوعية ، كما صوّرها هيغل ، بفكرتي التغيير والحركة ورفعها الحاجز الذي يفصل الفكر عن الواقع ليصبح الفكر منبثا في قلب الواقع يؤثر فيه ويوجه حركته ، ادخلت هذه المثالية على الواقع عنصرا آخر هو عنصر الحرية التي جعلت منه حافزا على الفعل يدفع الواقع في اتجاه حقيقته ويقربه منها على مراحل . وبتحويل هيغل المثالية الالمانية الى مثالية موضوعية وادخاله عنصري الحركة والتغيير عليها واعتبار عنصر الحرية من مستلزمات التحول ، غير طبيعة المثالية من فلسفة تأمل واستقرار الى فلسفة واقع ثوري متغير ، اجتذب ماركس وانجلز وجميع الذين ارادوا الحركة والتغيير والحرية .

ونظر هيغل الى المذهب الفلسفي في موضوعيته بأنه نتيجة المرحلة التاريخية التي يبلغها بما يتاح للحرية ان تحققه من تغيير ، وان هذه الحرية تتمثل بدرجة سيطرة الانسان على عالمه بالمعرفة وبالارادة العاقلة ، وافترض ان عالم العقل يستطيع ان يبلغ بالحرية ما يبلغه عالم الطبيعة بالضرورة العمياء ، فيحقق الامكانات الكامنة في قلب الواقع ويقرب هذا الواقع في حقيقته فيجعله مطابقا لما يقتضي ان تكون فيه هذه الحقيقة في مرحلة معينة . والحقيقة بهذا المفهوم ليست صفة الاشياء والاحكام ، اي انها ليست سمة للفكر فقط ، بل هي صفة للواقع ايضا؛ فالشيء يتصف بالحقيقة عندما يكون كما يجب ان يكون وقد تحققت به كل امكانات الحقيقة الموضوعية فطابقت هويته مفهومه . والمفهوم في الهيغلية يحمل معنى مزدوجا ، فيعني ماهية موضوع ما وجوهره ويمثل الفكرة المثالية فيه ، ويعني كذلك ما تشخص في الواقع من ماهيته . فمفهوم الحرية مثلا ، يعني الحرية في حقيقتها المثالية اي كما يجب ان تكون ، ويعني ايضا مفهومها في واقعها اي كما

هي ممكنة في مرحلة بعينها او في وضع بعينه . فالديمقراطية مثلا ، تعني الديمقراطية كما يجب ان تكون عندما تستوفي كامل مفهومها وتبلغ حقيقتها ، وتعني ايضا الديمقراطية كما يمكن ان تكون في واقع معين ، اي كما هي في مفهوم البورجوازية او الاشتراكية مثلا . وقد تبلغ الازدواجية في المفهوم عند هيغل ، حد التناقض . فلو قيل مثلا ، ان هذا رجل عبد ، فذلك يعني ان الرجل اصبح في واقعه عبدا ، ويعني في الوقت عينه ان الرجل في حقيقته ، رجل حر لكن حريته استلبت منه وبقي عليه ان يستعيدها ليستكمل حقيقته .

وعلى هذا النحو افترض هيغل ان الاشياء او المفاهيم في بداهتها تكون مخالفة لحقيقتها او سلبا لها ولامكاناتها ولا تبلغ حقيقتها الا بعملية تتجاوز بها حالتها الراهنة . وفلسفته بهذا المفهوم فلسفة سلبية ، فما يبدو به المفهوم بالبداهة وفي الواقع ، اي كما يبدو للذهن العادي ، بأنه يمثل الحقيقة ، يكون مضادا لحقيقته ولا يبلغها الا بتجاوز هذا التضاد وتصفيته . وقوة الدفع والثورية في منطق الديالكتية تكمن في هذه القناعة فتعني ان جميع الموجودات وكل مضامين التصورات يغلب فيها عنصر السلب فيحدد شكلها ومضمونها في وضع معين ويكون في الوقت عينه القوة الدافعة لتجاوز واقعها الراهن وتغييره .

ونقد هيغل فلسفة «كانت» ابتداء في موضوع العقل . وكان «كانت» قد ميز بين العقل والفهم ، فجعل هيغل هذا التمييز نقطة البدء في نقده مفترضا انه تمييز بين التأمل وبين الفهم بالبداهة . واعتبر الفهم بالبداهة هو الفهم المبني على المسلمات بالعرف والعادة ، اي ما يسمى بالانكليزية (common sence)، وبه يتميز التفكير الديالكتي عن غير الديالكتي . فالفهم بالبداهة عند هيغل هو الفهم المألوف في الحياة اليومية وفي العلم ، الذي يأخذ الوجود بوصفه حشد من الاشياء المحددة ، كل شيء فيه مستقل عن غيره وله كيانه المميز ، ويدرك ما بينها من توافق وتعارض وكل ما فيها متوافق مع نفسه وليس مع شيء آخر ، بل انه بحكم هويته الخاصة هذه متعارض مع غيره ولو ارتبط به او انضم اليه لانه لا يتخلى عن هويته تلك ولا يكون غير ذاته . وهذا الانفراد والتضاد في الاشياء ، براي هيغل ، ليست الحالة النهائية لها ، اذ لا يقتضي ان يبقى العالم مركبا من متناقضات . ومن هنا تبرز مهمة العقل ، وهي ان يدرك الوحدة الضمنية وراء التضاد ويعمل على تحقيقها بازالة التناقض فيها وانجاز وحدتها . وأداء العقل هذه المهمة هي في الوقت عينه استعادة للوحدة المفتقدة في العلاقات الاجتماعية بين الناس . فالعقل اذاً ، يتميز عن الفهم في انه مجبول على استعادة الوحدة التامة ، وهو بهذه العملية ، كما يقول هيغل ، يقوض الصحة الكاذبة التي يضفيها الفهم على المدركات الحسية بالايهام وبالاعتماد على التفكير المبني على المسلمات الذي يأخذ العرض الظاهر على انه الجوهر ويصرّ على تطابق الجوهر والوجود ؛ بينما هذا التطابق لا يتم الا بجهد يبذله العقل بطريق المعرفة الواعية التي تستبعد التفكير بالبداهة وتعتمد التفكير التأملي الذي يدقق ، بعكس الفهم ، بين ظواهر

الاشياء وامكاناتها ويميز الجوهر فيها ولا يأخذ عالم الفكر وعالم المادة على انهما كل مستقر وثابت بل يراهما في حالة صيرورة وتحول . ويوضح هيغل الفرق بين العقل او التفكير الديالكتي وبين الفهم بالبداهة الذي يأخذ الامور فرادى ، فيقول ان الاول ينقد وينسخ التعارض الذي يقره الثاني ويثبت ان ما يراه التفكير غير الديالكتي امرا مفروغا منه ليس له في الفلسفة وزن ؛ فأول معايير العقل هو الارتياب بظواهر الواقع وهو الارتياب الذي يسميه هيغل «القسم الحر» في الفلسفة الصحيحة . وهكذا يخلص الى ان الصورة التي تكون فيها الحقيقة بالبداهة ليست صورتها التامة وما يدركه الفهم من الحقيقة هو الصورة الرديئة الناقصة والمحدودة . وان الحرية التي يصبو اليها العقل لا يبلغها في عالم المسلمات . وان «كانت» وفيخته بافتراضهما ان العالم عالمين ، عالم الحقيقة وعالم الظواهر ، عالم الاشياء في ذاتها وعالم الموجودات الحسية ، وحصرهما العقل بعالم الاشياء بذاتها والفهم بعالم المحسوسات والظواهر الذي افترضا ان الضرورة وحدها تحكمه ، نفيا امكان تحقق الحرية في عالم الواقع ونفيا امكان قيام الفلسفة والعقلانية فيه . وهذا هو عكس ما رآه بافتراضه ان عالم الواقع مجبول على بلوغ حقيقته بتسوية التضاد الذي يقوم فيه ، وهي تسوية من شأن العقل ان يتدبرها بممارسة الحرية التي يتمكن بها وحدها ان يحقق الوحدة والكلية للعالم (١٠١) . ويقول هيغل في مقال له عن «الاعتقاد والمعرفة» ان ما جاء به «كانت» في كتابه «نقد العقل الخالص» فحصر العقل بعالم الاشياء في ذاتها او بعالم الغيب وأخضع عالم الواقع لاحكام الضرورة وحدها ، جعل التفكير غير الديالكتي الذي يعتمد الفهم بالبداهة هو المهيمن في الفلسفة (١٠٢) .

وطبق هيغل فلسفته هذه في كتاباته السياسية فأشار في بحث له عن الدولة الالمانية ، الى ان الدستور الالماني لم يعد يتمشى مع الحالة الاجتماعية والاقتصادية فيها بعد ان بات أثرا لنظام اقطاعي حل في محله منذ زمان نظام مجتمع ذي نزعة فردية ؛ وان بقاءه برغم التغيير الجذري الذي طرأ على العلاقات الاجتماعية، يعني الاحتفاظ بحالة تتعارض مع رغبات المجتمع وحاجاته، فقدت كل تأثير وهيبة في ضمير الناس . وقال ، ان الفكر لا يستطيع ان يهاجم الشكل الاجتماعي القائم بنجاح الا عندما يصبح هذا الشكل متناقضا على نحو صريح لحقيقته ولا يعود يُعنى بمقتضيات مضمونه وأصبح الحكام فيه يرددون كلاما زائفا عندما يتظاهرون بالدفاع عن الصالح العام كذبا ، وصار معارضوهم هم الذين يقولون الحق ويعنونه في دفاعهم عن المصلحة العامة (١٠٣) .

ولكن بوادر التحول في تفكيره السياسي بدت في هذه الفترة عينها ، اذ اخذ يُظهر ميلا الى ترجيح فكرة الدولة القوية ذات السلطة المركزية ، وكانت يومئذ فكرة تقدمية بمواجهة نظام اقطاعي مزق وحدة الامة وأشاع الفوضى في الحياة الاجتماعية . غير ان تحوله لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه الى جعل مصلحة الدولة مرجحة على اي مصلحة اخرى ، بحيث رأى الحرية لا تتحقق الا بعد ان تتحقق حرية للدولة اولا ، وان الافراد لا يجدون حريتهم الا بالخضوع التام للسلطة العليا في الدولة ، وهكذا انتهى الى ترجيح فكرة التضحية والخضوع على

فكرة الحرية وخطا خطوته الاولى نحو مذهبه النهائي الذي يربط الحرية بالضرورة ويخضع الحرية لاحكام الضرورة (١٠٤) .

وكتب هيغل في هذه الفترة ايضا ، المسودة الاولى لذلك الجزء من فلسفة الروح الذي سمي بمذهب الاخلاق والذي بحث فيه تطور الثقافة وعرّفها بأنها المجموع الكلي لنشاطات الانسان الواعية والهادفة في المجتمع . ووصف مراحل تطور الثقافة بأنها تبدأ في مرحلتها الاولى بالعلاقة المباشرة بين الفرد ومحيطه وبنظرته الى الاشياء فيه بعين حاجته اليها ، وتناوله اياها بدافع الشعور بالضرورة الآنية . فاذا ارتقى في المرحلة التي تليها الى درجة اعلى في الثقافة بمباشرة العمل وأصبح به قادرا على تنظيم عالم الواقع وتكييفه لحاجته المتنامية وصار لا يتناول الاشياء بدافع حاجته المباشرة اليها فقط بل يدخرها كذلك بصفتها وسائل يديم بها حياته ، ادرك عندئذ الضرورة الى المزاملة والى التعامل مع الآخرين لتنظيم نشاط مشترك وأخذ بتقسيم العمل لانتاج حاجات تحل محل ما يستهلك وانشاء بدايات الحياة الاجتماعية التي تتخذ فيها معرفته سمة شمول يتناسب مع درجة اندماجه بغيره مبتدئا برابطة الاسرة ثم برابطة العمل ثم بروابط الملكية والقانون ثم الاندماج في دولة . ويؤكد هيغل بوجه خاص ، التناقضات التي تتكون في هذه المرحلة وتنجم عن تحول العمل الفردي الى عمل ذي طبيعة اجتماعية لا ينتج الفرد فيه حاجاته الخاصة المباشرة وانما ينتج سلعا للسوق ؛ وهو العمل الذي أطلق عليه اسم «العمل الكمي المجرد» ورأى فيه علة اللامساواة المتزايدة التي يعجز المجتمع عن ضبط التناقضات التي تنشأ عنها فيلجأ الى انشاء سلطة تتولى مهمة ضبطها . وتصور هيغل ثلاثة نظم مختلفة تتخذها هذه السلطة في أداء مهمة الضبط : تسود في الاول منها فوضى تنتج عن التناقض بين الغنى المفرط والفقر المفرط يقومان جنبا الى جنب ، ويدفع فيها العمل الكمي المجرد الناس ، ولاسيما ذلك الجزء الذي يقوم بالعمل في المصانع ، الى الاخذ بالنظام الثاني الذي يقوم فيه نمط من العدالة تنحصر في نطاق الملكية الخاصة وتضبطها بقوانين توضع لحماية هذه الملكية دون اعتبار لحاجات الفرد فيتعذر فيها تحقيق الحرية العامة . وهذا العيب فيه يدفع الى الاخذ بالنظام الثالث وهو نظام الحكم الصارم والحرب (١٠٥) .

ويرجع هيغل هذه التحولات الى البناء الاقتصادي الذي يحول دون قيام نظام مبني على الصالح المشترك الحقيقي فيؤدي بالضرورة الى قيام دولة حكم صارم . وهكذا يكشف هيغل في المسودة الاولى لفلسفته الاجتماعية عن كامل تصوره للنظام الاجتماعي المبني على «العمل الكمي المجرد» الذي سماه ماركس فيما بعد «قوة العمل» وهي التي تصير في النظام الرأسمالي سلعة معروضة للبيع والذي يكون المجتمع بسببه غير قادر في رأي هيغل ، ان يصير عقلانيا لانه محكوم بميكانيكية اقتصادية عمياء ويقوم على تضاد مستديم وتسويات وقتية وليس له الا ان يعتمد على سلطة تستطيع ضبطه بحيث لا يكون له خيار غير اللجوء الى نظام

الحكم الصارم . وهكذا انتهى هيغل الى ما انتهى اليه سائر مفكري الطبقة الوسطى منذ آدم سمث الذين رأوا في نظام البورجوازية الرأسمالي ، النظام النهائي الدائم على علاته . ولعل ماركس كان من الاوائل الذين تجاوزوا هذا التصور وأدركوا ما ينطوي عليه النظام الرأسمالي بطبيعته من امكانات التحول .

وتأثر هيغل في فلسفته هذه بحروب الثورة الفرنسية فصوّر الحرب بأنها الامتحان الكبير الذي يكشف فيه الانسان عن مكنون حياته الباطنية فيوطد حريته او يسقط في العبودية . ورأى الفرد في هذه الحرب يسمو فوق ذاته ويبلغ اندماجه بكلية أمته وهو يتعرض للموت من اجل شعبه ؛ كما رأى الحرب شرطا لصحة الشعوب الاخلاقية ، فزعم ان شعبا لا يتعرض لخطر الحرب يفقد بالتدريج معنى حريته ويسترخي ويتعلق بالحياة المادية . وقال ان سلما طويلا قد يؤدي الى ضياع أمة لان الحرب تحمي الامة من الفساد كما يحمي عصف الريح مياه البحيرات من الأسن ، ولهذا ينبغي على الحكومات لاجل ان لا تتأصل في الامة الانظمة الخاصة وتتصلب في العزلة وتجعل الكل يتفسخ والروح تفسد ، ان تهز الاستقرار بين حين وآخر بالحرب لتشعر الافراد بسيدهم الموت حتى لا ينزعوا الى الانفصال عن الكل والضياع في ذاتيتهم في ظل الطمأنينة . وهذه الفكرة هي التي وجدت فيها النازية فيما بعد ما راق لها فأخذت به (١٠٦) . وخلص هيغل الى القول بأن الانسان الحر هو الذي لا يخشى الموت ، وان التجلي المحسوس للحرية الخالصة هو الموت لان فيه ينتفي كل محدود وينتفي كل نفي. فليس في الدنيا عبيد الا لان فيها اناسا فضلوا الحياة على الموت (١٠٧) .

على ان هيغل لم يقصد بالحرب الحرب التي يراد بها استعباد شعب آخر لان مثل هذه الحرب لا تكون عندئذ تجليا للحرية ؛ بل قصد الحرب التي استوحى فكرتها من حروب الثورة الفرنسية وحروب نابليون التي كان هدفها المعلن كما تصور قهر الطغيان وتحقيق حرية الشعوب . ورأى ان الحرب تكون شرا اذا أريد بها صهر قوميات وانشاء امبراطوريات تفقد بها الشعوب شخصيتها ، لان مثل هذه الامبراطوريات لا يمكن ان تكون غاية التاريخ ولان وجود شعوب مستقلة ضرورة تاريخية كما هي ضرورة روحية . فروح الامة ، في رأيه ، لا تأخذ مكانها في التاريخ الا مشخصة في شعوب لها كيانها الخاص . اما الامبراطوريات فانها كيانات لا روح لها لان الدولة فيها تكون بعيدة عن الفرد ، معادية له ، تدفع به الى الانطواء على نفسه ، وتولد فيه شكلا من أشكال الشعور الشقي (١٠٨) .

وعالج هيغل في فلسفة الروح ايضا ، موضوع الطبقات ، فرأى ان حياة الشعوب شأنها شأن الحياة العضوية ، تفترض تنوعا في كليتها يتمثل بالطبقات ، كل طبقة فيها تعبر عن الكل وتؤدي مهمتها بطريقتها الخاصة . وقال ان الثورة الفرنسية أريد بها ان تلغي الفروق الطبقية وتجعل الكل احرارا متساوين في المواطنة ولكنها اخفقت لانها اغفلت احد اهم مقومات المجتمع المدني وهي الحياة الاقتصادية المستندة الى فردية تتناقض مصلحتها مع المصلحة الكلية او المصلحة العامة . ورأى ان اساس الفردية في هذا المجتمع الذي انشأته الثورة الفرنسية،

هي الملكية الخاصة التي حلت فيه محل الديمقراطية في المجتمع القديم الذي كان تطبيق الديمقراطية فيه ممكنا عندما لم تكن للفردية فيه مصلحة خاصة تتعارض مع المصلحة العامة ؛ لكن هذه الديمقراطية اصبحت غير ممكنة بعد ان صار للملاكين والبورجوازية في المجتمع الحديث اهمية اكبر مما يستطيعون معها ان يكونوا مواطنين عاديين وقام تعارض بين الكلي والفردي ولم تعد الحكومة تعبر عن مصلحة الكلي ونشأ انفصام بين الحاكمين والمحكومين . وقد حاولت الثورة الفرنسية ان تعالج هذا الانفصام وتجعل الدولة تعبر عن ارادة الفرد كما كانت عند الاغريق ففشلت وانقلبت الى ارهاب وفوضى ولم يستقر الامر في الدولة الا بمجيء نابليون (١٠٩) .

وعالج كذلك موضوع الدولة من حيث تمثيلها الارادة العامة ، فافترض ان لجمهور الافراد نفس الارادة العامة التي للكلّي ، لكن هذه الارادة العامة لاجل ان تكون فعلية يقتضي ان تتحول من ارادة فردية ، اي مما هو في ذاته ، الى ارادة كلية ، اي الى ما هو من اجل ذاته ، وهو تحول يتحقق بالوعي ويتناسب مع درجته . لكن الجمهور في فترات معينة من حياة الشعوب يكون شأنه شأن الطفل عندما تتمثل ذاته بارادة والديه ، فتبدو الارادة العامة بالنسبة للافراد ، في مثل هذه الفترات ، غريبة عنهم وتتمثل في زعيم او سلطة تمثلها كما في حالة للطفل ارادة والديه . وفي مثل هذه الفترات تؤسس الدولة وتصان من قبل عظماء يجسدون الارادة العامة ويفرضون انفسهم على الشعب ولو ان هذا الفرض لا يلبث ان يتحول الى قناعة فلا يعود يحتاج الى عنف ، ويصبح الاستبداد ضروريا لصهر فردية الناس في الارادة العامة ويكون عادلا لانه يصون الدولة ويبث روح الثقة في جمهورها فتسمو الدولة فوق الشر الذي يتصف به الاستبداد . وميز هيغل بين الشر في الحياة الخاصة وفي الحياة العامة ، فرأى ان ما يبدو شرا في الاولى قد لا يكون بالضرورة شرا في الثانية اذا كان من مستلزمات سلامة الدولة . لكنه أكد في الوقت عينه ، ان الاستبداد عندما يكون ضروريا في التاريخ فانه لا يكون كذلك الا للبرهة التي تفرضها الضرورة التاريخية لتحقيق اندماج الفرد في الكل وتكوين ارادة عامة ، وبعدها ينقلب الى شر ويتحول المستبد به الى طاغية تجب ازالته وإحلال حكم القانون محله . ويذكر هيغل مثلا على ذلك ، روبسبيير الذي فرضته الضرورة لانقاذ فرنسا والثورة ، ثم أطيح به عندما تخلت عنه الضرورة . ومن مجمل هذه الآراء يتبين السر الذي جعل اتجاهات سياسية متباينة ، في اقصى اليسار وفي اقصى اليمين ، تجد في فلسفة هيغل ما يروق لها ، حتى النازية اعتمدت بعض هذه الآراء في فترة من تاريخها (١١٠) .

ووضع هيغل في يينا بين عامي ١٨٠٢ و١٨٠٦ ، اول نسق لمذهب فلسفي كامل عرف بمذهب يينا ، اوجز في قسمه الاول عرضا أوليا لأسس المنطق والميتافيزيقيا ، وأوجز في الثاني فلسفة الواقع في عرض أولي لفلسفة الطبيعة وفلسفة الروح . ونقتصر هنا على ذكر ما يعني هذه الدراسة من اسس المنطق

وفلسفة الطبيعة والروح .

والمنطق عند هيغل طريقة يستعان بها في كشف صلة الوجود بذاته او بحقيقته، والفرض فيه اعادة الوحدة بين الوجود وماهيته . وبدأ هيغل منطقه بافتراضه ان الحقيقة هي الذات او الماهية والوجود انعكاسها في الواقع بظاهرة تدركها الحواس. ورأى الحقيقة تتصف بالشمول بينما الظاهرة تكون محدودة وتكون بحكم محدوديتها ناقصة تسعى الى استكمال وجودها الذي يحمل في مكنونه امكانات النمو والتطور لبلوغ حقيقته . وفي محدوديته الظاهرة يكمن النقص الذي يحمل عنصر السلب فيها ويكون مبعث دوافع النمو والتطور التي تسوق الظاهرة لبلوغ حقيقتها . فالحرية مثلا ، تكون في واقعها ناقصة لان مجالها محدود بما يتيحه لها واقعها، لكن ماهيتها تبقى في الوقت عينه مشخصة في المثل الاعلى للحرية او بالاحرى في حقيقة الحرية بذاتها . والمفهوم الناقص للحرية يحمل في مكنونه العوامل التي تسوقه لبلوغ ماهيتها الكاملة بنفي الوضع الذي يحددها وإحلال وضع تكون فيه اقرب الى الشمول الذي تتمثل به حقيقتها ، شأنها شأن البذرة وهي تحمل في مكنونها كل امكانات تحولها الى شجرة او نبتة وفي كل حالة تصير اليها تبلغها بنفي الحالة التي كانت فيها والتقدم الى حالة تكون فيها اقرب الى غايتها ؛ فبصيرورتها برعمة تنفي حالة البذرة ، وبتحولها الى نبتة او شجرة تستكمل الامكانات الكامنة في البذرة والبرعمة . وهذه التحولات تكون لغير العاقل تلقائية تنفذ مكنونات الوجود وطاقاته ، لكن العقل في الانسان بمتابعته حركة هذه التحولات يستكمل معرفته بالواقع بقدر ما يدرك من امكانات التحول والصيرورة . وهكذا يقوم منطق هيغل في خطوطه الاساسية على افتراض ان كل واقع محدود ، وكل محدود ناقص ، والنقص فيه عامل سلب ، والسلب نفي لحقيقة الشيء واستقراره ودليل على انه في حالته الراهنة رديء وسيء بالنسبة لحقيقته . ووعي حقيقة الشيء يعني في الوقت عينه ، ادراك النقص فيه وتعيين حالة السلب في وضعه ومعرفة وجهة صيرورته . وهكذا يبدو ان مدار منطق هيغل هو عنصر السلب الذي يدفع به للتخلص من محدوديته وهو فيه موطن الحيوية والنشاط والمدخل الى كشف العلل التي يقتضي معالجتها . وهذا يفسر لنا القول بأن منطق هيغل ديالكتي يهيء الطريقة الملائمة لفهم عالم تقوم فيه شؤون الحياة بعلاقات متعارضة ومضادة ، كل شيء فيه لا تتضح حقيقته الا بتحوله الى ما يخالف واقعه . ويشرح هيغل منطقه على هذه الصورة : ان معرفتنا بالاشياء تبدأ بما ندركه منها بالبداهة، اي بمعرفة صفاتها الظاهرة التي تميزها عن غيرها . لكن صفات الاشياء تتعين بالنفي ، فعندما يقال ان السماء زرقاء فوصفها هذا يتضح بنقيضه فيعني ان السماء ليست صفراء او حمراء او بيضاء . وعندما يقال هذا كثير او كبير فالمراد بذلك نفي القليل او الصغير . وعندما يقال هذا حصان فانما يراد بذلك نفي ان يكون حيوانا آخر . وهكذا تعرف الاشياء بضدها وبنفي ما ليس فيها . والشيء لا يمكن تعيينه او تعريفه بتحديد ذاته ، واذا اراد الذهن تمييزه عن كل شيء آخر واجه صلات لامتناهية يترتب عليه ان ينفيها كلها ليحدد ماهية الشيء . وادراك

هذه الصلات او العلاقات اللامتناهية هي في نظر هيغل ، الخطوة الاولى لفهم كنه الشيء . لكن اللاتناهي إما رديء او جيد ، فالرديء يتعقب الصلات اللامتناهية فيتيه فيها ؛ اما الجيد فيتابع الصلات المتناقضة التي ينطوي عليها والتي تكشف عن طبيعة حقيقته . وهيغل يفترض ان الشيء في وجوده يمتلك القدرة على اثبات حقيقته بما يثبته وينفيه بجمعه بين وجهي السلب والايجاب فيه ؛ وقدرته على النفي هي عين قدرته على الاثبات . فنفي اي وضع هو في الوقت عينه اثبات للوضع الذي يصير اليه . والنفي والايجاب في منطق هيغل لا يؤخذان بوصفهما امرين متعارضين وانما بوصفهما عنصران اساسيان في الكيان الواحد ، وهذا الجمع يسميه هيغل اللامتناهي الجيد او الصحيح لانه لا يتجاوز المحدود بل يقوم به وبالطاقات الكامنة فيه والتي يستكمل بها حقيقته . وهذا هو الذي يجعل الديالكتية لا تعرّف الاشياء بأوصافها فحسب ، شأن المنطق التقليدي ، بل تعرّفها بمتابعة أمكانات صيرورتها . فالاشياء في الديالكتية تتعين بما تصير اليه كما يتعين السبب بالنتيجة التي يؤدي اليها . وعليه ، فليس يكفي تعريف حبة الحنطة بما هي عليه بل بما تصير اليه ، فهي حبة النبتة التي تعطي محصول الحنطة . ولا يكفي ان اعرف وضعا بظواهره فقط بل بما تنطوي عليه او يؤول اليه ، فأقول هذا وضع سيء قد يؤدي الى كارثة لانه يقوم على الظلم وتنتفي فيه ممارسة الحرية وينطوي على تمزيق وحدة الامة . ويتوصل هيغل بمنطقه هذا الى ان فكرة اللاتناهي الجيد اقرب الى الحقيقة من الشيء كما هو في ظاهر واقعه ، لانه لا يقف عند تعريف الشيء كما هو بل يتجاوزه الى وصف تكوينه وما يصير اليه فيوصل واقعه بحقيقته (١١١) .

ويبني هيغل بحثه في فلسفة الروح على فرضية او وجود الجماعة سابق لوجود الفرد . وكان الاغريق قد توصلوا الى مثل هذا الرأي بطريق الاستنتاج ، وقالوا ان الانسان من دون سائر الحيوانات يحتاج الى حضانة طويلة قبل ان يكون قادرا على البقاء ، فلا بد اذاً ان يكون سبقه وجود وضع احتضنه وتوفرت له فيه اسباب البقاء قبل ان يصير انسانا . وافترض هيغل ان تاريخ الانسان لم يبدأ بصراع الفرد مع الطبيعة في سبيل البقاء بل بدأ بصراع الجماعة ؛ وان وعيه بدأ بوعي الجماعة بحيث ان الفرد ما كان يحس او يتصور او يرى غير ما تحسه الجماعة او تتصوره وتراه . وكان وعيه البدائي هذا ، ساذجا يفتقد العقلانية لانه يفتقد الحرية فلم يقوَ على مواجهة المتناقضات ؛ واعقبته سلسلة من الاندماجات بين المضادات قبل ان يصبح الانسان قادرا على اخذ سبيل التطور الذي جرى كما تصور هيغل ، في ثلاثة مراحل : في الاولى اقتصر وعي الانسان على تصورات ذاتية محدودة ؛ وفي الثانية كان وليد صراع بين الفرد وغيره من الافراد ؛ وفي الثالثة فرض هذا الصراع الدائر بين الافراد الضرورة لان تتشخص الذات والفرد الذي هو موضوعها في امة تمثل اندماجا استوعب الذات وموضوعها وجهت الامة فيه كل جهودها لسلامة هذا الاندماج الذي هو كيانها . وتواءمت مع هذه المراحل

الثلاث ، ثلاث وسائل : اللغة في المرحلة الاولى والعمل في المرحلة الثانية والقومية في المرحلة الثالثة . فحققت اللغة في المرحلة الاولى اندماجا بين الذات والفرد بأن مكنت الفرد من وعي خصوصيته من خلال سيطرته على الاشياء التي تعرف عليها فسماها وعرف بها امتداد عالمه ومنطقة نفوذه وحدود قدراته وحاجاته وتمكن بها من نقل معرفته الى غيره وتعيين موقفه منه . لكن الصلات والعلاقات التي نشأت عن طريق اللغة ولدت مضادات لم تقو اللغة على تسويتها فتوسل الانسان بالعمل الى تحقيق تسويتها وتجاوز بذلك المرحلة الاولى الى الثانية التي اصبح العمل فيها ذا اثر فعال في تقدم المعرفة واستطاع الانسان ان ينشىء به سلسلة من الاندماجات تشخصت في ثلاث كيانات اجتماعية هي العائلة والمجتمع والدولة . وبقيام العائلة قامت ملكية العائلة التي هي ذخيرتها في ادامة وجودها . لكن العائلة ما لبثت ان واجهت مضادات تمثلت بعائلات اخرى ذات ملكيات خاصة ايضا فقام بين هذه العائلات صراع من اجل الاعتراف المتبادل بملكياتها وبحقوق الاسر فيها فصار هذا الصراع عاملا حاسما ، كما يقول هيغل ، باندماج المتنازعين في مجتمع تشخص بالامة وأخرج الانسان من حالة الطبيعة الى المجتمع المدني الذي نشأ فيه الوعي الكلي الذي اطلق عليه هيغل اسم «روح الامة» لانه حول الصراع بين الافراد من اجل مصلحتهم الخاصة الى صراع بين كل وكل من اجل مصلحة الامة . لكن ما حققه العمل الاجتماعي لم يقتصر تأثيره على نقل الفرد الى وسط الامة ، بل هو جعل من الطبيعة في الوقت عينه ، وسطا ملائما لنمو الانسان وتقدمه وصهر فرديته في كلية اجتماعية ، لان العمل الاجتماعي بطبيعته نشاط كلي لا ينتج الفرد فيه حاجته الفردية المباشرة بل ينتج سلعا ذات صفة كلية يجري تبادلها في السوق ويستهلكها اناس غير الذين ينتجونها وتتعين قيمتها بمعايير قيمة العمل الكلية . وتعمق هيغل في موضوع العمل حتى كاد يقترب من مفهومه كما جاء في كتاب «رأس المال» ، ووصفه بأنه عامل اساسي في تطور المجتمع ووصف تأثيره في الرأسمالية الصناعية بعبارات تستبق على نحو واضح نظرة ماركس اليه . وقال ان المكننة التي ينبغي ان تكون الوسيلة الى تحرر الانسان من عناء العمل هي بعينها التي جعلته عبدا لعمله . فصار العامل كلما ازداد بها سيطرة على عمله ازداد فقدانا لكل حول وقوة . وصار العمل كلما ازداد مكننة قلت قيمته وزاد عناء العامل بنفس النسبة التي تزداد بها انتاجيته وآلت ملكات العامل به الى التدني وانحط وعيه الى درجة الغباء . فالعمل في رأيه ، يتحول بالمكننة من تحقيق ذات الفرد الى سلب ذاته وتتخذ به علاقات الناس شكل اعتماد متبادل اعمى ويقوم به نظام هائل من المشاركة يحتاج ضبطه الى سيطرة متشددة فيصبح لا مفر من قيام دولة قوية مهيمنة . وهكذا انتقل هيغل الى موضوع السياسة ووصف مجتمع الرأسمالية الصناعية بما يشبه الصورة التي صوّرها ماركس لهذا المجتمع (١١٢) .

ويصف هيغل في موضوع السياسة ، المجتمع المدني في ظل الرأسمالية الصناعية وكيف يفرض فيه على جموع غفيرة ان تعاني ما ينجم عن العمل في

المعامل والمصانع والمناجم من تبلد الذهن وفقدان الصحة وانعدام الامان ؛ وكيف يحدث ان تغلق او تعلن افلاسها فروع كاملة لصناعات كان يرتزق بالعمل فيها عدد كبير من الناس ، بسبب ظهور منتجات جديدة مرغوبة اكثر من منتجاتها او بسبب انخفاض قيمة منتجاتها لظهور اختراعات جديدة في بلاد اخرى تنتج بكلفة أقل من كلفتها ، او لغير ذلك من الاسباب ، فتتعرض من جراء ذلك كتل كبيرة من البشر الى البطالة والفقر المهلك . ويصف ايضا ، كيف تزداد حدة التعارض بين الثروة المتضخمة والفقر المتفاقم ؛ وكيف تصبح الثروة قوة مهيمنة وهي تتراكم بفعل المصادفة او بفعل الاسلوب العام للتوزيع ؛ وكيف تصبح للكسب اساليب متعددة الاوجه ويغطي ميادين واسعة لا تستطيع المشروعات الصغيرة ان تتكسب فيها ؛ وكيف تفضي اللامساواة بين الاثرياء والفقراء الى التفكك التام للارادة العامة والى تفشي روح التمرد والكراهية والى تعرض المجتمع الى اخطار تدفع الدولة بالضرورة الى التدخل في شتى مجالات الحياة . وهذه الحال المتردية في ظل الراسمالية الصناعية ليست في راي هيغل ، وليدة المصادفة بل هي الوسيلة التي لا بد منها من اجل ان يديم الكل وجوده كل فرد فيه . وهي تخلق بطبيعتها، الضرورة الى تدخل الدولة لايجاد مخارج للتنفيس عن الضيق المتولد فيها وتوفير الاسباب لضمان سلامة الفرد . فعلاقات الانتاج والتبادل في الراسمالية ، في راي هيغل ، هي التي فرضت الضرورة الى اندماجات تحمي الفرد من التلاشي في معركة التنافس ؛ وهي اندماجات تضبطها عقود ونظم تجعل صراع التنافس في مجتمع انتاج السلع على شدته وقسوته وعلاته ، بمستوى اعلى في سلم التطور التاريخي من سابقه لانه يقوم على اعتراف متبادل بحقوق الفرد هو خير من صراع بين الافراد والجماعات من غير ضوابط . وعلى هذا الاساس بنى هيغل رأيه بضرورة الدولة القومية التي تعلم الفرد اطاعة القانون وتجعله يدرك ان القانون لا يضمن سلامته فقط وانما يضمن كذلك ، المصلحة العامة التي فيها ضمان مصلحته الخاصة وتقدمه . على ان هيغل اشترط لاجل ان تكون الدولة قوية وتكون قوانينها مطاعة ، ان تستند الى الارادة الحرة للافراد فيها وان تعبر قوانينها عن قناعتهم بأن المقصود بها ضمان مصلحتهم . وهيغل بوصفه الدولة يبدو وكأنه يقصد الدولة كما يجب ان تكون لا الدولة كما هي في واقع الاوضاع الراهنة ، ولهذا نراه ، على شدة مغالاته في ضرورة اطلاق يد الدولة في تصريف الشؤون العامة ، يؤكد ان يكون اساس الدولة ضمان حرية الفرد ويشترط ان تؤدي كل زيادة في قوتها الى زيادة حريته . وقال هيغل ان الفرد لا يكون حرا الا بوصفه كائنا سياسيا ، وبقوله هذا افتتح بحث موضوع السلطة والحكومة . وبنى هيغل تصوره للحكومة كما هي في مدينة اغريقية . وقال ان الاندماج التام للمتناقضات الاجتماعية لا يتحقق باطاعة القانون وانما بالمؤسسات السياسية التي تتجسد بها القوانين وتتمثل بها الدولة . ورفض هيغل نظرية العقد الاجتماعي التي افترضت وجود ارادة عامة

سابقة لوجود الدولة لان الارادة العامة ، في رأيه ، لا تكون الا نتيجة لوجود الدولة؛ ولان الدولة كما تصورها ، لم تكن في الاصل وليدة ارادة الناس بل كانت من صنع رجال عظام قوّموها ولكن بغير طريق العنف ؛ لانه تصور عظماء التاريخ الذين أسسوا الدول ذوي مواهب فذة حملت الناس على الانقياد اليهم طوعا ، وتصور شخصياتهم تميزت بإلمام تام بمعارف التاريخ وتجلت بهم فضائله وبدوا له وهم يشخصون روح العالم . ورأى ان اول الدول وأدناها درجة هي دولة الاستبداد ، وان ارقى الدول هي دولة الملكية الوراثية لانها تقوم على شرعية أقرها الناس وليس بها حاجة الى حملهم على الاقرار بوجودها بالعنف او ان تصير مدار صراع على السلطة . ورأى ان الاستبداد يحقق الاندماج بأسوأ حالاته لانه يدمج الافراد في الكل بسلبهم فرديتهم وليس له الا ميزة واحدة وهي تعليمهم الانضباط والطاعة. وتعلم الفرد اطاعة الحاكم تعده كما رأى ، لاطاعة القانون . واذا تعلم الناس الانضباط واطاعة القانون انتفت الحاجة الى الاستبداد فتشتد نفرة الناس منه وينبذوه ويتحولون الى الديمقراطية التي يتحقق بها الاندماج الصحيح ، فتكون الحكومة من الناس ، والناس فيها يتحولون الى مواطنين صالحين لانهم برغم ترجيحهم مصالحهم الخاصة يعنون بالحاجات والمصالح العامة . وتصور هيغل ديمقراطية الاغريق ديمقراطية بدائية لان انصياع الفرد فيها للارادة العامة لا يمثل في الحقيقة اندماجا صحيحا لانه نجم عن فطرة وشعور هو وليد الاعتياد ولم يكن وليد وعي وإدراك عقلاني ، ولهذا كان من الضروري تجاوزه الى نظام يتحقق فيه اندماج الفرد في المجموع بمطلق اختياره ووعيه . ولكن هيغل انتهى الى ترجيح نظام الملكية الوراثية التي يكون الملك فيها ممثلا للكل ، مترفعا عن المصالح الخاصة باعتراف الكل به مما يجعله فوق الخصومات الدائرة بين الافراد والجماعات (١١٢).

وفي سنة ١٨٠٧ أتم هيغل رسالة «الفينومينولوجيا» (علم ظاهرات الروح) التي وصفها ماركس بأنها المصدر الحقيقي للهيغلية وموطن اسرارها ؛ وفيها عالج تطور الوعي من الاحساس الى المعرفة وتعرض الى فكرتين اساسيتين في الماركسية هما «اغتراب الانسان» بخروجه من عالم الطبيعة ، و«العمل» الذي انشأ به عالمه الخاص الذي هو المجتمع . وكشف فيها ايضا ، الصلة بين الذات والوجود وضمّنها أسس الديالكتية . وكان صدورها في أعقاب معركة يينا التي احرزت فيها جيوش نابليون نصرها الحاسم على الالمان وجعلت وريث الثورة الفرنسية سيد الرايخ الالماني . واعتبر هيغل انتصار نابليون على بروسيا نقطة تحول في التاريخ وأصدر حكمه النهائي على الثورة الفرنسية فقرر انها لم تحقق الحرية وانما انشأت نمطا جديدا من الاستبداد ولو ان هذا الاستبداد عبر ، في رأيه ، عن ضرورة تاريخية ولم يكن امرا عارضا . وقال ان عملية تحرير الفرد تكون بالضرورة مروّعة ومدمرة ما دام يتولاها افراد يتمردون على الدولة ، لان الدولة هي الاحرى ان تتولاها ولو كانت الحرية التي تحققها لا يمكن ان تكون حرية حقيقية لان الحرية الحقيقية لا تتحقق الا في مجال الفكر . وملاحظته هذه عن الحرية كانت اول بوادر التحول في تفكيره . فقد سبق لهيغل ان ربط في فلسفة الروح الاولى ، عملية

تحقيق الحرية بالدولة بينما قطع في الفينومينولوجيا كل صلة للدولة بتحقيق الحرية الحقيقية بحصرها في نطاق التأمل الصرف . وأرجع بعض محللي الفكر الهيغلي هذا التحول الى خيبة امله في امكان تحقق الحرية وممارستها في عالم الواقع في زمانه فلجأ الى الفلسفة ولاذ بحياة التأمل وساير الدولة بأمل ان يتسع له مجال التفرغ لحياة الفكر . لكن تحوله لم يقف عند هذه الحدود بل تجاوزها الى تغيير وظيفة الديالكتية ومهمتها . فقد كانت وظيفة الديالكتية قبل هذا التحول متابعة مسار العقل في التاريخ ، فأصبحت بعده عملية موضوعية مهمتها متابعة حركة العمل والتكامل التاريخي . ففي النسق الاول لفلسفته التي نسبت الى يينا وجهت الديالكتية الى متابعة حركة العقل في تحقيق اندماج الوجود بالذات بينما وجهت في الفينومينولوجيا بالاضافة الى مهمتها الاولى الى متابعة الاندماجات الاجتماعية وتسوية التناقضات فيها وتأكيد عامل السلب على اساس انه العامل المحرك للتحولات الاجتماعية الذي يستطيع ان يجعل من كل اخفاق او نكسة سبيلا الى الفوز ويحمّل كل مشكلة عناصر تسويتها ويحول ما تتعرض له كل حركة من انحراف او احباط وما تلقي من عنت الى محفز على تنقية كيانها وتقويته وشد عزيمتها على بلوغ غايتها (١١٤) .

وأعد هيغل الفينومينولوجيا لتكون مقدمة لكامل فلسفته لكنه فطن الى ان ما يريد بيانه يتعذر نشره في ظروفه الراهنة فاكتفى بها وضمّنها بعض ما اراد عرضه في كامل فلسفته ، وكان غرضه فيها ان تتجاوز بالادراك ظاهر الاحداث والتجارب اليومية الى عالم الفلسفة والتأمل . وبداها بأن اوضح ان الحقيقة لا تدرك بالحس الذي يعتمد البدهيات والآراء المألوفة والمسلم بها وانما تدرك بطريق الفلسفة ؛ وقال ان ما يدركه الحس سرعان ما يتبين لدى التأمل انه ناقص وغير جدير بالثقة ولا يوصل الى الحقيقة . ووصف التأمل بأنه ادراك بالحس ينتابه الشك ويغشاه الشعور بأنه ما يزال بعيدا عن الحقيقة فيدفعه الشك الى تجاور الاحساس ومواصلة السعي وراء الحقيقة مستعينا بالعقل . ولهذا كان التأمل ، من شأن المعنيين بالفلسفة لا المنشغلين بشؤون حياتهم اليومية . والدافع الى التأمل في رأي هيغل ، هو التغيير الذي يطرأ على الاشياء باستمرار ، فالذات المفكرة عندما تمعن النظر في مفاهيمها والاشياء حولها ، تجد ان علاقتها بها تتغير مع الوقت ، حتى ان المفاهيم والاشياء التي تبدو ثابتة ومستقلة عن المعرفة هي في الحقيقة لا وجود لها بمعزل عنها ، بل هي تستمد موضوعيتها من معرفتها بها ، لان الذات العارفة تمتلك في ذاتها صورة شاملة للمفاهيم والاشياء تستطيع بها ان تشخص خصوصية هذه المفاهيم والاشياء وحدودها من عندياتها . وهذا يعني بكلمة اخرى، ان الواقع انما هو من صنع النشاط الذهني للذات ، يرتبط بها بصورة او بأخرى، ويستند في وجوده اليها . وهكذا تدرك الذات ان العالم انما هو واقع بحكم قدرة الوعي على فهمه . وهذا عند هيغل ، هو مفهوم المثالية التي تعلو على الوجود المادي وتعبر ، كما يقول ، عن الحقيقة الفلسفية (١١٥) .

على ان هيغل لا يقف عند هذا الحد في مفهوم المثالية بل يتجاوزه الى القول بأن على الوعي الذاتي ان لا يكتفي بفهم الواقع بل ان يثبت ان المفهوم الصحيح للواقع يكون بادراك الحقيقة بعينها . ولاجل هذا يفترض ان الذات هي نفي مطلق للواقع بمعنى انها قادرة على نفي الحال واعادة صنعه اعتمادا على وعيها . لكن قدرتها على اعادة صنع الواقع لا تنحصر بالمعرفة او تتحقق في مجالها لانها عملية لا يمكن فصلها عن الصراع التاريخي بين الانسان وعالمه وهو الصراع الذي تجتاز به الذات السبيل الى الحقيقة . فالذات اذا ارادت ان ترى في العالم حقيقتها فعليها ان تجعله من صنعها وحدها ، وذلك بأن تحول عملية المعرفة الى عملية تاريخية تتمثل فيها عملية تقدم الانسان الى الحرية وتتجلى فيها أنماط شتى من الوعي، كل نمط يتشخص في حياة حقبة او عصر من التاريخ . ويتعقب هيغل هذه العملية في الفترة الممتدة بين حياة المدن الاغريقية والثورة الفرنسية التي يصفها بأنها اطلاق العنان لحرية مدمرة لذاتها بسبب ان الوعي الذي اراد تغيير العالم وفقا لمصلحته الذاتية لم يكن قد اهتدى الى حقيقة مصلحته ليخضع نفسه مختارا لقوانين تضمن حريته وحرية الكل . ولهذا كانت الدولة التي صنعتها الثورة ، كما رآها ، ليس الا تغييرا ظاهريا للواقع فأخفقت في تحقيق الحرية الحقيقية ، وكان هذا هو السبب الى نقل مفهوم الحرية من صعيد التاريخ الى صعيد الروح وجعلها موضوعا اخلاقيا ، كما هي في فلسفة «كانت» . لكن هيغل لم يرتض هذه الهزيمة للحرية بل افترض ان الصراع لا يلبث ان يتجدد بين ما يمليه الواجب الاخلاقي وبين الرغبة بالسعادة والمتعة في الحياة فيدفع الانسان الى التحري على سبل اخرى لعلها تؤدي به الى الحقيقة . وحاول هيغل نفسه ان يتحرى هذه السبل بطريق الفن ثم بطريق الدين لكنه لم يجد سبيله اليها الا بالديالكتية التي يمكن بها، كما تصور ، تسوية كل تعارض بين الوعي والذات وجعل العالم في متناول الذات تلتمس في واقعه حقيقتها . وتعد مقدمة الفينومينولوجيا واحدة من اعظم الانجازات الفلسفية في جميع العصور ، كما يقول ماركوز ، اذ لم يكن هدفها أقل من اعادة الفلسفة الى مكانتها الرفيعة بوصفها ارفع صور المعرفة البشرية بل هي العلم كما يجب ان يكون ، وسنقتصر فيما يلي على التنويه بأهم ما جاء فيها (١١٦) .

يبدأ هيغل المقدمة بتحليل نقدي للتيارات الفلسفية في نهاية القرن الثامن عشر ، ويخلص من نقده الى ان المدركات التي تتوصل اليها المعرفة بالخبرة المباشرة لا ترضيها لانها تجدها لدى التأمل سطحية وناقصة ولهذا تلجأ الى تقصي حقيقة الاشياء في مفهومها مفترضة ان المفهوم الصحيح ليس مجرد صورة ذهنية للشيء بل ماهية الشيء في ذاته . وبافتراضها هذا تخطو خطوتها الاولى نحو اكتشاف العلاقة بين الماهية والوجود ، وهي العلاقة بين الحقيقة التي يحملها المفهوم والحالة الفعلية التي تكون فيها الاشياء . ولاجل ان نفهم ما يقصده هيغل بقوله هذا ، علينا ان نتذكر ان الذي يميز فلسفته عن غيرها هو ان الحقيقة عنده نمط من الوجود ونمط من المعرفة في الوقت عينه ، وان العلاقة بين الوجود وحقيقته

علاقة موضوعية بين الشيء وماهيته ، وان حقيقة الشيء تختلف في الفلسفة عنها في سائر العلوم . فالحقيقة الرياضية مثلا ، هي واحدة في كل زمان ومكان ؛ فحاصل ضرب عددين هو واحد في كل آن ، وخصائص المثلث المتساوي الساقين او المتساوي الاضلاع ثابتة لا تتغير . وذلك ، كما يقول هيغل ، هو لان الحقيقة الرياضية ومثلها الحقائق العلمية تستند الى قاعدة مستقلة عن ذات موضوعها ، مفروضة عليه من خارجه ، ولهذا تصح قاعدة ضرب عددين في كل حالة ضرب ، وتكون خصائص المثلث المتساوي الساقين وما يترتب عليها واحدة في اي مثلث متساوي الساقين مهما اختلفت أبعاده . اما الحقيقة الفلسفية فان موضوعها على العكس ، ذو علاقة ملازمة لها لانه من صلب مفهومها . فالقول بأن الانسان يحتاج بطبعه الى الحرية او انه مجبول عليها ، ليست حقيقة مفروضة على الانسان من قاعدة فلسفية مستقلة عنه وانما هي صفة متأصلة في طبيعته ، والبرهان عليها ليست عملية معرفة خارجية بل هي قائمة في تاريخه وهي فيالوقت عينه حدث فعلي كأي برهان في الفلسفة . فالانسان كلما وجد نفسه معزولا عن حقيقته بسبب افتقاده الحرية ، سعى بطبعه لتحقيق حريته ، وهو يحققها بالفعل عندما يعي فيدرك امكاناته وقدراته . ومفهوم الانسان لا يكتمل الا بالحرية لان الانسان غير الحر انسان ناقص ، ووجوده ومفهوم حقيقته مترابطان واستكمال وجوده لا يتم الا باستعادته حريته لانه بها يبلغ حقيقته (١١٧) .

ويقصد هيغل بالمعرفة الفلسفية ، المبادىء الاساسية التي تؤثر في مصير الانسان وعالمه ، وهدفها اظهار هذا العالم على حقيقته من حيث هو فكر يتشخص بتطور الانسان . وهذه المعرفة جزء لا ينفصل عن موضوعها بعكس الحقيقة الرياضية او العلمية التي لا تعنيها خصوصية موضوعها كما رأينا . وأكد هيغل ان الطريقة الديالكتية هي الطريقة المثلى التي تلائم طبيعة الصلة بين الموضوع وحقيقته كما هي في الفلسفة لانها نسق يجمع بين السلب والايجاب ويكرر عملية التحول من السلب الى الايجاب ومن الايجاب الى السلب حتى يبلغ بالموضوع حقيقته ؛ ولان الواقع فيه ينطوي دائما على نقص بالنسبة لحقيقته ، اي انه ينطوي على سلب يقتضي ان ينتفي وبنفيه يتحول الواقع الى واقع جديد يكون اقرب الى حقيقته من سابقه. لكنه رغم تحوله من حال الى اخرى يبقى دون حقيقته فيواصل عملية التحول حتى ينتفي فيه عنصر السلب نهائيا فيصبح مطابقا لحقيقته . ويرجح هيغل الطريقة الديالكتية ايضا ، لانها تأخذ سبيل الشمولية والاطلاق الى ادراك المفهوم . فعندما يقال ان هذا ملح ، مثلا ، فان هذا القول يعتمد على الخصائص العامة والشاملة للملح وليس الى ما نرى في المادة امامنا . وهذه الخصائص العامة لا تقتصر على الخصائص الموجبة وحدها في تشخيص الملح وانما تكون سالبة ايضا لانها تنفي كل الخصائص التي لا تكون في الملح . ويضيف هيغل الى الديالكتية فوق خصائص السلب والايجاب والشمولية والاطلاق خاصة الفعالية . فالظاهرة في الديالكتية تعني امرين : الاول ، ان ظاهرها غير حقيقتها ؛ والثاني ، ان هذا الظاهر ليس

هو ما يُحس فحسب وانما هو تجسيد للحقيقة يبدو ظاهرة فقط ، فالظاهرة ليست لا شيء وانما هي ما يبدو من جوهر الشيء . ويثبت هيغل ان جوهر الشيء ليس الا الفاعلية ، وهي ليست وجودا تحدده مواصفاته وانما هي تصور ندركه بأثره ، فهو لا شيء بغير ما يحدثه من تأثير . والقول بأن جوهر الاشياء ليس الا الفاعلية يعني ان عالم الوجود ليس الا ميدان حركة . لكن الفاعلية ليست محض حركة بل هي اكثر من حركة لانها لا تنتهي بالحركة بل تحتفظ بطاقة فعلية تدفع الوجود حتى تبلغ به حقيقته .

على ان الفلسفة وهي تخترق ستر الوجود لتكتشف الجوهر فيه لا تجد في نهاية المطاف غير الذات ولا تصل لغير نتيجة واحدة هي وعي الذات . فليس اذاً، وراء الوجود وكل ظواهره غير وعي الذات التي هي وراء كل ما في الاشياء من جوهر . ولكن ماذا وراء التوصل الى هذه النتيجة ؟ يقول ماركوز ، ان هيغل اراد بقوله هذا ان يدحض الفلسفة الوضعية التي عنيت بالظواهر وأغفلت تقصي ما وراءها ، فأثبت هيغل ان حقيقة الاشياء لا تدرك التي بتجاوز عالم التشيؤ وهو عالم الظواهر ، الى ماورائه . والتشيؤ مصطلح اعتمده ماركس في التدليل على ان العلاقات بين الناس في العالم الرأسمالي تبدو وكأنها صلات بين اشياء ، وان ما يبدو في عالم الاجتماع من صلة بين الاشياء وقوانين الطبيعة ليس الا علاقات بين الناس والقوى التاريخية ، كما يتبين في السلعة التي تتجسد بها العلاقات الاجتماعية للعمل ، او رأس المال الذي تتجسد فيه القدرة على التحكم بالناس . وهذا الوضع المعكوس الذي نجم عن التشيؤ أدى الى ان يكون الانسان في خدمة الاشياء بدلا من ان تكون الاشياء في خدمته وأصبح العالم بتأثيره في حال من «الغربة» حتى اصبح الانسان لا يعرف نفسه وما لها او عليها او يعرف سبيله الى تحقيق ذاته بعد ان استبدت به الاشياء الهامدة وقوانينها الجامدة . وهذا الذي توصل اليه ماركس بطريقته الخاصة شبيه بما توصل اليه هيغل بفلسفته . فالادراك اعتمادا على البدهيات والمسلمات وكذلك الفكر العلمي التقليدي ، يفترضان ان العالم حشد من اشياء قائمة بذاتها ، ويسعيان الى الحقيقة بطريق الحواس وكأن الحقيقة مستقلة عن الذات التي تدركها ، ويصوران الآراء اقرب الى الصواب كلما بعدت عن حوافز الذات ومصالحها وحاجاتها . وهذا في رأي هيغل ، اعظم تشويه للحقيقة . فليس هنالك في رأيه ، في نهاية المطاف ، حقيقة لا تتعلق من حيث الاساس بالانسان . والعالم يبقى يعاني الغربة وهو بعيدا عن حقيقته ما دام الانسان لا يبادر الى اختراق ظواهره الهامدة ليكشف حقيقة نفسه التي تحجبها عنه الاشياء والقوانين الجامدة المستحكمة في حياته . وعندما يظفر الانسان بالنهاية، بوعيه الذاتي يأخذ سبيله الى ادراك حقيقة ذاته وحقيقة العالم ويبادر الى العمل ليعيد الى عالمه حقيقته فيجعله كما يجب ان يكون . وهكذا اراد هيغل من وراء ذلك ان يثبت ان قدرة الانسان على أداء مهمته تشترط وعي ذاته وان اكبر خطر يتعرض له هذا الوعي هو الاعتماد على المعرفة الوضعية التي تقف عند ظواهر الواقع وتبقى في غفلة عن الامكانات الكامنة فيه ؛ كما اراد من وراء حملته على الفلسفة الوضعية

ان يدلل على ان امكانات الانسان وما يكمن في الاشياء لا تفي بها ظواهر الواقع ولا تفي بها العلاقات بين الناس والاشياء وهي في حالتها الراهنة ، وان ما من وضع خاص سواء في الطبيعة ام في المجتمع يضمن للانسان الحقيقة كاملة ، فالانسان اكبر مما كان في الماضي ومما هو الان ومما سوف يكون في المستقبل المنظور .

وفي الفينومينولوجيا يتم هيغل بحث وعي الذات الذي بداه في «مذهب يينا» ، فيأتي على ذكر السيد والعبد الذي أوضح فيه دور العمل وقال ان الاشياء التي ينتجها العمل ليست مواتا بل تجسيد حي لجوهر الذات . وفي ايضاح قوله هذا افترض ان العالم الذي يتعين على الوعي الذاتي ان يثبت وجوده فيه منشق الى شطرين متعارضين ، في احدهما يتقيد الانسان بالعمل الذي يتحكم في حياته بأسرها ؛ وفي الآخر يستحوذ الانسان على ما ينتجه عمل غيره فيتملكه ويصير بعملية الاستحواذ والتملك هذه سيدا ويجعل من الاول عبدا . والعبد ليس انسانا يعمل بل هو في ذاته محض عامل لان وجوده يقوم بعمله ، يصنع به اشياء لا تعود له بل لغيره لكنه لا يستطيع برغم ذلك ، ان يفصل وجوده عنها بل يبقى مقيدا بها وواقع بسببها تحت رحمة من يملكها . وعبودية العامل هذه لا تفرضها صفات شخصية او حالة نقص او وهن بل تفرضها الاشياء بعينها لانها نتيجة علاقة الانسان بنواتج عمله ؛ فالعمل هو الذي يقيد العامل بما ينتجه على نحو يجعل وعيه ذاته لا وجود له الا بهذه الاشياء ، حتى يحوله الى شيء ويحصر وجوده في كونه مستخدما ويجعل وجوده بكليته وجودا من اجل غيره . لكن هذا العمل بعينه لا يلبث ان يتحول الى اداة تقلب هذه العلاقة . فعمل العامل تحتفظ به الاشياء التي يصنعها وتضفي عليها طابعه ؛ والاشياء تتكاثر حتى تملأ العالم وتجعل العامل يدرك انه هو الذي يجعل بها العالم كما هو ، فيعي ذاته مشخصة في نواتج عمله ويتبين ان هذه الاشياء ليست اغلالا تجعل منه عبدا لغيره بل اشياء مؤثرة وذات نفع اوجدها هو ذاته . ومثلما تبعث هذه الاشياء الوعي في العامل تخلق وعيا من نوع آخر في السيد . فالسيادة كما يقول هيغل ، ليست سوى الحصول على اشياء يصنعها الآخرون ومتعة السيادة تنجم عن تحررها من العمل الذي يتولاه الغير فيكفيها عناء مواجهة الجانب السالب في الاشياء . لكن هذه السيادة وهي تستحوذ على اشياء تحمل طابع الذات التي صنعتها لا تلبث ان تعي لنفسها وتتبين ان وجودها لا يقوم بذاته وانما هو في الاساس عالة على وجود الآخرين وقائم بعمل العاملين . وعلى هذه الصورة ينتهي هيغل الى القول بأن العلاقة بين السيد والعبد لا تلبث ان تتحول الى حال يرى كلا طرفيها حقيقته مشخصة في الطرف الآخر . فيرى العامل انه هو السيد الحقيقي وان العبودية كامنة في السيد ، ويرى السيد انه هو العبد الحقيقي وان السيادة كامنة في العامل ، فيزول التعارض الذي ما يزال يحير الفكر ويحل محله وعي مدرك ، وعي ذاتي يفكر . وبكشف هذا الوعي يكشف هيغل جوهر فلسفته وهو ان الوعي الذي يدرك انه مادة العالم ويثبت ان عالم الوجود هو في حقيقته عالم الذات التي تفكر فتجعل

كل شيء مفهوما وتجعله جزءا لا ينفصل عن الوعي الذاتي الحر ، هذا الوعي هو الذي يستطيع ان يحرر العالم من تعارض الاشياء مع الذات ويجعل الاشياء في خدمة الذات تستعين بها لتصلح العالم .

ويصف هيغل الفكر بأنه نمط خاص من الوجود ، ويقول ان الانسان لا يكون حرا في الفكر في العالم الحاضر ، الا اذا استقل عن الغير وكان بوجوده مع الآخرين محتفظا بكليته مع نفسه وواثقا من ان وجوده هو ملكه لا ينازعه فيه احد. لكن حرية التفكير هذه ليست الحرية الحقيقية لانها وليدة وضع يغشاه الخوف وتقوم فيه العبودية في فترة يخوض فيها الفكر معركة التحرر ويسعى فيها لبلوغ حريته الحقيقية التي تخرجه من عزلته هذه وتجعله بكامل وعيه يواجه المجتمع الذي هو عالمه وهو على يقين من ان هذا العالم هو من صنعه . وعندئذ ينتفي موقفه السلبي تجاه واقعه ويحل محله موقف ايجابي يصرفه عن اهتمامه باستقلاله الذاتي وحريته الخاصة المباشرة وحرصه الشديد على الاحتفاظ بنفسه وما تملك لنفسه، فيتوجه الى تحقيق ذاته وحريته لا بمفهوم الفردية وانما بمفهوم الجمع الذي خلا من الصراع بين السيد والعبد .

وفي آخر مراحل تطوره الفكري ، في الفترة بين سنة ١٨٠٨ و١٨١٦ ، التي تولى فيها ادارة مدرسة اعدادية في نورمبرغ ، اصدر هيغل كتابه في المنطق بجزءين وفيه عرض القواعد الاساسية للمعرفة بطريقته الديالكتية فكان لصدوره وقع لفت اليه الانظار فعرضت عليه في وقت واحد ثلاث كراسي جامعية اختار منها كرسي الفلسفة في جامعة هايدلبرغ . ثم اصدر سنة ١٨١٧ ، الجزء الاول من موسوعة العلوم الفلسفية وأعقبه بجزءين آخرين واكب فيها تيار الردة بعد مؤتمر فيينا وحاز بهما تقدير حكومة بروسيا فاختير لإشغال كرسي الفلسفة في جامعة برلين سنة ١٨١٨ ، خلفا لفيخته ، واستقر به زهاء ثلاث عشرة سنة ذاع فيها صيته في اوربا وأصبح شيخ مدرسة في الفلسفة وفيلسوف الدولة الرسمي حتى لقب بدكتاتور الفلسفة في المانيا ، وقصده مئات المفكرين من جميع أرجاء المانيا والقارة ، واحتل طلابه ومريدوه مراكز مرموقة وأصبحوا ذوي حظوة في اوساط السلطة وقلده الملك فردريك وليم الثالث سنة ١٨٣١ ، وسام التقدير وعيَّنه عميدا لجامعة برلين . وكانت آخر رسائله رسالته في «فلسفة الحق» التي صدرت سنة ١٨٢١ ، وفيها أيد دولة النظام الصارم . وتوفي سنة ١٨٣١ بمرض الكوليرا . وطبعت بعد وفاته رسائله في الجماليات وفلسفة الدين وفلسفة التاريخ وتاريخ الفلسفة منقولة عما ضبطه طلابه من محاضراته .

وبنى هيغل منطقه على مقولته ان الكلي هو الاصل والجزئي مشتق منه ، وان شرط الكلي ان يكون مطلقا غير محدود لانه مرد كل محدود وأساسه . ويستند منطقه الى تأكيد الصلة الوطيدة بين الكلي والجزئي وبين الفكر والواقع . والفصل بين الفكر والواقع في راي هيغل ، يتجاوز ضرره موضوع المعرفة لانه يؤدي الى قعود الفكر عن اداء مهمته في معالجة مشاكل الواقع ويكون بمثابة ارتداد للفكر امام التيار المدمر للآراء المبنية على البدهيات والمسلمات وأحابيل المنطق التقليدي التي

من شأنها ان ترسخ وتديم الزيف . وقال ان تطهير الواقع من الزيف لا يتم الا بالمنطق الديالكتي الذي يقوم بنقدٍ قوامه سلب ونفي للافكار التي استقرت في الذهن بتأثير التفكير المبني على الاحساس والذي اعتمد البدهيات والمسلمات . والسلب والنفي في منطق هيغل الديالكتي ، ملازم لكل وجود لان ظاهر كل وجود مخالف لحقيقته ومن طبيعته ان يتغير بفعل امكاناته وطاقاته ليقترب الى حقيقته . فالوجود في اساسه ، في منطق هيغل ، سلب يتوق الى حقيقته كما يتوق الجوع الى الشبع ؛ وهو في حركته نحو حقيقته يندفع بفعل القوى الكامنة فيه . والجزء المادي في كل وجود غريب عن حقيقته ، ولهذا يعمل السلب على اقصائه ونفيه كنقيض لوجوده . والنفي في الديالكتية هو ايجاب بقدر ما هو نفي ، لان ما هو مناقض لذاته لا يصير الى عدم او الى محض لا شيء بل يصير الى ما هو مناقض لمضمونه الخاص ، ولهذا فان الوجود يفقد بالنفي من خصوصيته او يبتعد عنها بقدر ما يكسب او يقترب من كليته او حقيقته . وبفعل السلبية التي هي في طبيعة كل شيء ، يظهر كل شيء على خلاف حقيقته ، ولاجل ان يصبح مطابقا لها يقتضي ان يكون ما ليس هو . وعندما يقال ان الشيء مناقض لحقيقته او لذاته فانما يقصد بذلك ان حقيقته مضادة لحالته الراهنة او لخصوصيته وانه بحكم هذا التضاد مجبول على تخطيها الى حالة اخرى اكثر شمولا . ويبقى الشيء ينفي خصوصيته على هذا المنوال حتى يبلغ حقيقته في الكلي المطلق . وقد اعتبرت المثالية ان الكلي المطلق لا يقوم الا بالفكر . لكن هيغل تجاوز هذه المثالية بتأكيده ان الكلي ليس موجودا فحسب بل ان له بالفعل حقيقة اكبر من الجزئي ، وقال ان الحقيقة الكلية للانسانية مثلا ، ليست حقيقة مشخصة بمجموع بني الانسان فحسب بل هي اساس وجود كل انسان .

وأول كلي اتخذه هيغل بداية لمنطقه هو الوجود المطلق «being» لانه مشترك بين الكائنات كلها. فالاشياء كلها وجود لكنها ليست وجودا مطلقا لان المطلق ليس شيئا ، ولانه ليس شيئا فهو لا شيء . وهذا اللاشيء جعله هيغل اساس منطقه، لانه الاصل والبدء الذي لا يسبقه شيء ولانه لا يحتاج الى من يوجده ؛ ولانه بعد هذا ، سلب مطلق ومصدر كل سلب . وهيغل باتخاذه اللاشيء بداية لمنطقه جعل السلب اساس كل واقع وكل وجود محدود غير كلي . وبجعله اللاشيء اساس كل كائن جمع بين الشيء واللاشيء في كل وجود ، اي انه جمع في كل كائن بين الوجود والعدم ، وجعل كل المفاهيم في الديالكتية مظهرا ودليلا على الوحدة بين الوجود والعدم . وهكذا انشأ منطقا جديدا يقوم بمهمته بطريقة لم تعرف من قبل ، يبدأ بنقض وإلغاء كل قواعد وأصول المنطق التقليدي واثبات خطئها لانها لا تقوم على اساس ان السلب والنفي هو من طبيعة الواقع ، ولانها اعتمدت مدركات الحس العام والممارسات اليومية والمسلمات المألوفة فأخذت بظواهر الوجود وكيفت مفاهيمها وفقا للاوضاع الراهنة بوصفها صورة حقيقية بعكس المنطق الديالكتي الذي يرفض الزعم بقدسية المسلمات ويهز الآراء المألوفة

فيزعزع استقرارها ويغربلها ويبعد عنها النفايات التي علقت بها على مر الزمن ويؤكد ان الظواهر لا يصح ان تؤخذ على انها وحدها الدليل على المحتوى ويفرض على كل وجود ان يثبت ان ظاهره يفي بمتطلبات مضمونه .

ويفترض المنطق الديالكتي ان الشيء لا يكون له وجوده المعين ما لم يحدد ، وتحديده هو نفي لاستقراره . فعندما يقال عن شيء انه محدود او انه متناه ، فانما يقصد بذلك ان اللاوجود هو الاصل فيه وهو مرد وجوده . فالاشياء المتناهية موجودة لكن صلتها بذاتها اللامتناهية والمطلقة صلة سلبية ، لان المتناهي لا يتغير فقط وانما يفنى عندما ينتهي الى ذاته اللامتناهية ، وفناؤه ليس عارضا وانما هو جزء من طبيعته حمل بذرته في كيانه منذ اشتق من ذاته اللامتناهية ، فكان ميلاده بدء فنائه ووجوده بدء زواله . والتناهي ليس حطا من قدر الواقع بل هو حقيقته واكتماله . فالاشياء تكون متناهية بقدر ما تكون موجودة ، واللاتناهي الذي فيه فناؤها انما هو تحقيق حقيقتها . ولهذا رأى هيغل ان قانون التناهي والفناء الذي يسري على الوجود كله هو اعلى مرحلة يمكن ان يبلغها كل وجود ، وان الفناء المستمر للاشياء هو في الوقت عينه سلب مستمر لتناهيها وسبيلها الى لاتناهيها، فالمتناهي في فنائه يبلغ غاية وجوده في ذاته ببلوغه حقيقته اللامتناهية . وهذا يظهر الاختلاف الاساسي بين المثالية التقليدية التي تعتمد المنطق التقليدي ومثالية هيغل الموضوعية التي تعتمد الديالكتية. فالتقليدية خلصت الى ان المتناهي ليس له وجود حقيقي الا في اللامتناهي ، لكن هيغل رفض هذه النتيجة التي انتهت اليها المثالية التي أطلق عليها اسم المثالية الرديئة وعالج مفهوم اللامتناهي بمنطق الديالكتية بأن افترض ان الاشياء تبلغ حقيقة ذاتها من خلال وجودها المتناهي وبه وحده لانه يرفض الثنائية في الفلسفة ولا يقر بوجود عالمين ، عالم للاشياء المتناهية وآخر للامتناهية ، اي عالم للوجود وعالم للحقيقة او للذات المطلقة ؛ ولهذا رأى ان الاشياء المتناهية تبلغ لاتناهيها في عالمها وليس في عالم آخر ، ففيه تفنى ويبلغ بفنائها حقيقتها ونهاية وجودها .

ويقول هيغل ان الوعي الذاتي هو ارفع درجات التناهي واوضح مثال لتحقق اللاتناهي ؛ وهو يعني بذلك ان الوعي الذاتي هو من خصائص الوجود ذي الادراك وان الاشياء غير المدركة لا ترقى اليه لانها لا تقوم لذاتها بل من اجل آخرين . وهذا يعني ان التناهي ينحصر في الاشياء التي لا توجد لذاتها ولا قدرة لها على استيفاء امكانات وجودها بنشاط ذاتي واع وهي لذلك، لا تفتقد الوعي فقط بل تفتقد الحرية ايضا وتكون تجمعا كميا بخلاف الاولى التي تمثل وحدة نوعية ذات وعي وقدرة على استخدام امكاناتها بمطلق حريتها .

ومن هنا تقدم هيغل الى بحث موضوع الكم والنوع ، فقال ان الكم ليس له وجود مستقل عن النوع لانه ليس الا صفة للكيفية والنوعية ولكنها صفة لها القدرة على تغيير الكيفية والنوعية . فالاشياء قد يتغير فيها الكم في الزيادة او النقصان الى حد معين فلا تتغير طبيعتها، لكن الزيادة او النقص في الكم ما ان يتجاوز حدا معينا حتى ينجم عنه تبدل نوعي في طبيعة الاشياء. مثل ذلك ما يحدث للماء، اذا تجاوزت

درجة حرارته حدا معينا فتحول الى بخار او هبطت دون حد معين فتحول الى ثلج . ومثل هذا التغير يحدث في الامة كما يقول ، فقد تتسع وتمتد فلا يحدث تغيُّر في كيانها ، لكنها ما ان تبلغ في الاتساع حدا معينا حتى تتفكك . لكن غرض هيغل لم يقتصر على ما أوضحه في المثلين بل استخلص من الصلة بين الكم والنوع نتائج على جانب عظيم من الاهمية . فقد رد بكشف هذه الصلة على الزعم بأن النشوء والزوال يجريان بعملية تدرجية ذات وتيرة واحدة وان الطبيعة لا تأخذ بالطفرات واثبت ان التدرج في النمو لا يبلغ درجة معينة الا ويحدث تغيرا نوعيا ، وان الجديد لا يكون الا بنفي القديم ، وان الزوال او التبدل لا يتم بتصحيح وتنقيح، وان الحقيقة في الاشياء لا يمكن ان تظهر كاملة وان الجديد لا بد ان يكون له وجود في قلب القديم على نحو ما ، حتى ولو كان هذا الوجود مجرد امكان يمنع الشكل السائد تحققه فعلا فيحمله على اقتحام سبيل الثورة ، وان تغيرات الوجود كلها هي عمليات تحدٍ تكسر نطاق التدرج لتحقق تغيرا يجعل الشيء غير ما كان عليه . وعليه ، فليس في العالم تحول يتم بتغير مطرد ، ولا بد للجديد من طفرة، ولا بد ان يكون ظهور الجديد موتا للقديم .

وكان مما توصل اليه هيغل هو ان التحولات الممكنة في طبيعة الاشياء لا تفرض بل ان لها بذورا كامنة تبرز عندما تحل الضرورة الى تحول الشيء الى ما يجب ان يصير اليه . وان الامكان هو ما يمكن استنباطه من مضمون الواقع نفسه ، فواقع كل وجود يقوم فيه تضاد بين ما هو كائن وبين ما يجب ان يكونه ، وهذا التضاد يحول مفهوم الواقع الى مفهوم الممكن . وان الاشياء كلها تحمل في طبيعتها التناقض ؛ والتناقض فيها هو سبيلها الى ماهيتها وبلوغ حقيقتها ، وهو مبعث كل حركة وحياة . وبلوغ الوجود حقيقته لا يتم الا بصراع بين الامكان والواقع ، وهذا الصراع لا يقوم عن تضاد بين قوى موجودة واخرى لم توجد بعد، بل يقوم بين شكلين متضادين للواقع يوجدان معا ، لكن احدهما يكون متصورا وليس متحققا ، اي يكون مجرد امكان للتحقق ، والواقعي المتحقق والواقعي الممكن تربطهما علاقة ديالكتية تحول الواقعي الممكن الى واقع فعلي عند توفر شروط تحوله . فاذا كانت العلاقات القائمة في نظام اجتماعي ، مثلا ، تفتقر الى الحرية والعدالة فان الحرية والعدالة لا تتحقق فيه ما لم تكن امكاناتها متغلغلة فيه ، اي ان تكون موجودة على شكل تراكم في تناقضات القوى الانتاجية وحاجات الناس وفي التقدم في الثقافة والنضج الاجتماعي والسياسي . وعندئذ لا تكون امكانات توفر الشروط حاصلة فقط ، بل ان حقيقة النظام الاجتماعي بذاتها تتمثل في هذه الامكانات في مقابل الشكل القائم لوجوده بحيث تكون واقعية هذه الامكانات اكثر من واقعيته حتى يصح ان يقال ان الامكان هو الواقع . هكذا صوّر هيغل الامكان المنظور بوصفه اتجاها وقوة تاريخية فعلية واقعية ، وهذا هو ما عناه بقوله ان واقعية الشيء تكون قبل ان يوجد فعلا ، وان شروط واقعية الشيء

اذا توافرت دخلت واقعيته حيز وجودها الفعلي . والتفكير عند هيغل ، يكون صائبا بمقدار ما يكون مطابقا لحركة الاشياء في واقعها ومجاريا لتحولاتها . والديالكتية تستنبط كل أصولها الموضوعية من مبدأ شامل وأحد هو النمو الفعلي للموضوع ذاته ، وهو نمو تنكشف به حالات الموضوع وخصائصه وشروط وجوده وهي تكوّن مضمونه الايجابي وليس فيها دخيل ؛ فالنمو الديالكتي ليس نشاطا خارجيا للفكر بل التاريخ الموضوعي للواقع ، ولهذا قال هيغل ، اننا لسنا الذين نصوغ مفاهيم الفلسفة الديالكتية بل ان كل الذي نفعله هو متابعة التحولات التي تطرأ عليه في مدى نموه الموضوعي .

وعالج هيغل في «فلسفة الحق» موضوع وشؤون المجتمع الذي سماه «المجتمع المدني» وعني به المجتمع البورجوازي ، وهو متأثر بأحداث الثورة الفرنسية وفترة نابليون وحروبه وواقع الردة بعد مؤتمر فيينا ، وقد خابت آماله في امكان تحقيق الحرية في زمانه ؛ فجاءت معالجته تبرز المتناقضات التي عصفت في المجتمع ، وهي تعبر عن مستلزمات دوامه ، فكانت رجعية بمقدار ما كان الوضع رجعيا وتقدمية بمقدار ما كان في الوضع من تطلعات تقدمية . وكان قد رأى العلاقات والمصالح فيه متضاربة لا تقوّم مصلحة مشتركة عامة ، حتى صار العام يفرض على الخاص والكلي على الجزئي وصارت العلاقة بين الدولة والافراد تختلف في معاييرها ومفاهيمها عن علاقات الافراد بعضهم ببعض وقام نظام تحكمت فيه الدولة بالافراد وحرياتهم وجعلت علاقتهم بها علاقة واجب اخضعت حقوقهم لمستلزماته فتحول الى نظام صارم هيمنت به الدولة على المجتمع بدل ان يكون المجتمع هو المهيمن . وهكذا تحول هيغل الذي امتدح في كتاباته السابقة محاولة الانسان تكييف واقعه وفقا للعقل الى معارض للحرية يؤيد فرض الرقابة على الرأي والتشدد في الوسائل الانضباطية وهو يدعي ان الحرية التي تطالب به الطبقة الوسطى حرية غير سليمة لا يراد بها مصلحة عامة ، رغم علمه ان الملاكين انما يريدون بقاء النظام حرصا على سلامة ملكياتهم الخاصة لا من اجل مصلحة عامة. واتخذ هيغل هذا رغم اعتقاده ان عيوب الطبقة الوسطى لا ترجع الى نقيصة اخلاقية او خصيصة متأصلة في أفرادها وانما مردها الى التكوين الاجتماعي الذي اشتد فيه تنافس وصراع على المنافع الخاصة شوه معنى الحرية . ومرجع هذا التبدل في آراء هيغل ، اعتقاده بأن فحوى اية نظريةاجتماعية يقتضي ان يستخلص من واقع المجتمع الذي تعنيه ، وان مهمة الفلسفة ان تقوم بالنقد بمعايير هذا الواقع لا بمعايير مفترضة او طوبائية او مجلوبة اليه من خارجه ؛ ولهذا رأى ان تبدل الفلسفة نهجها كلما تبدلت طبيعة المجتمع ما دامت مهمتها تعريف الانسان بواقعه . على انه رأى في الوقت عينه ، ان المجتمع المدني وان غمرته التعاسة وهيمن فيه الظلم ، يضمر كل امكانات العقلانية الحرة ؛ وعلى الفلسفة ان تؤدي الامانة بكشف هذه الامكانات ليعيها الناس فيه . وقد قال ان كل ما هو معقول واقع وكل ما هو واقع معقول ولم يكن يعني في الواقع ظواهره فقط بل ما ينطوي عليهمن امكانات، ولا يعنيبالعقلانيةالعقلانية المطلقةبل العقلانيةالقابلةللتطبيق والا فما

جدوى العقلانية التي لا يمكن تطبيقها .

وفسر هيغل في فلسفة الحق مفهوم الحق على غير ما أوضحه في كتاب المنطق فقال ان مجال الحق هو مجال الحرية بعينه ، فالكائن المفكر الذي يدرك الحق هو الكائن الحر ، وحريته من خصائص ارادته بمعنى ان الحرية هي الارادة الحرة . وقال ان احقاق الحق او تحقيق الحرية ، يفترض تجاوز الفرد حدود مصلحة فرديته الخاصة ليكون في قلب الارادة التي لا تهدف الى غاية خاصة وانما تريد الحرية بذاتها . وقصد بذلك ضرورة اندماج ارادة الفرد بالارادة العامة لينال حريته من خلال الحرية العامة . على ان هذا الاندماج لا يتم الا عندما يكون الفرد حرا بالفعل ، فارادة الانسان الحر تسعى بطبعها لتندمج في الارادة العامة . فليس لكل فرد ان يطلب الحرية او يريد الحق بل الذي يريدهما هو الحر . فالحرية بمعنى الحق لا يعرفها ولا يريدها الا الفرد الذي هو حر ، لان الانسان لا يعرف الحرية الا بعد حيازتها ، اي ان الانسان يقتضي ان يكون حرا ليصير حرا بهذا المفهوم . فالحرية ليست مجرد حالة يكون الفرد فيها ، بل هي فعل يقوم به الفرد كإنسان واع . والانسان عندما يجهل الحرية فلا يريدها لا يستطيع ان يبلغها بنفسه ولهذا وجب ان يحرر رغم ارادته . وفي مثل هذه الحالة التي تخرج فيها عملية تحقيق الحرية عن امكان الافراد الذين لا يستطيعون ان يختاروا السبيل اليها يترتب على الاحرار فيهم ان يأخذوا بيدهم اليها . ويقول هيغل ان العبد لا يكون حرا لامرين : الاول ، لانه يعاني العبودية فعلا ؛ والثاني، لانه لا خبرة له بالحرية فهو لا يعرفها ليريدها . ويخلص هيغل من ايضاح مفهومي الحق والحرية الى ان الوعي الذاتي لمفهوم الحرية هو اساس الحق والفضيلة وكل مبادىء الاخلاق .

وفي تحليل الحرية في المجتمع البورجوازي يربط هيغل مفهومها بالملكية الخاصة ويرى ان الانسان الحر في هذا المجتمع هو الذي يستطيع ان يمارس ارادته في مجال الملكية فيكون حرا بمقدار ما يستطيع ان يبعد الآخرين عن الاشياء التي يملكها او يريد ان يجعل منها اشياء خاصة به فيشعر بشخصيته من خلال قدرته على جعل ما يريد ملكا له . ويعود هيغل في بحث الملكية الخاصة الى موضوع التشيؤ مرة اخرى . وسنكتفي بأن نشير الى ما يعني هذه الدراسة فيه .

يقول هيغل ان التشيؤ هو تحول العلاقات بين الناس الى علاقات بين اشياء. فالفرد في المجتمع البورجوازي يغمره موضوع الملكية الخاصة حتى يجعل قدره رهن بمقدار ما يملك ويتشخص وجوده بالاشياء فيتمثل بها حتى يبدو وكأن وجوده شيء خارج نفسه يتصرف به كما يتصرف بسائر الاشياء ، حتى يستطيع ان يبيع طاقاته مشخصة بالاشياء التي يصنعها او يقوم بها ، ويحول المواهب والقدرات العلمية والفنية وثمرات الابتكار والاختراع ، بل حتى اعمال العبادة كالمواعظ والصلوات الى اعمال تعاقدية وأشياء تباع وتشترى . بل الانسان نفسه يصير

شيئا يباع ويشترى في نطاق العمل المأجور . وبهذا المفهوم يقول هيغل «لو انني بعت كل وقت عملي الذاتي وحصيلة انتاجي لاصبحت شخصيتي ملك شخص آخر ، وعندئذ لا اعود شخصا بل يتعين علي ان اضع ذاتي خارج مجال الحق» . اذ بهذا يكون مبدأ الحرية الذي كان المفروض انه دليل السيادة المطلقة للانسان على الاشياء ، قد حوّل الانسان نفسه الى شيء مرهون بالوقت . وعلى هذه الصورة كشف هيغل عن القوة الخفية لوقت العمل وعن الفارق بين الرقيق والعامل الحر الذي يبيع حريته في المدة التي يكون فيها اجيرا لرب العمل وأوحى الى ماركس بتصوراته عن العمل وقوة العمل .

وتوغل هيغل وهو يحلل مفهوم الحرية في المجتمع البورجوازي ، في الاعماق البعيدة لنظرية الحق واكتشف ان الجريمة والعقاب ينتميان الى الملكية الخاصة بمثل ما ينتميان الى نظام الحق . فقد راى ان حقوق اصحاب الملكيات الخاصة لا بد ان تتعارض ما دام كل منهم لا يخضع ، بينه وبين نفسه ، الا لارادته الخاصة ويتبع ما تمليه عليه نزواته ورغباته ولا تتفق ارادته مع الارادة العامة الا اتفاقا عارضا يحمل بذور المخالفة والانتقاض . ولهذا رأى ان الحق الخاص يقوم في اساسه على باطل ، لانه بحكم الضرورة ينطوي على مخالفة للحق العام . لكنه رأى في الوقت عينه ، ان الخداع والجريمة اللتين ينجرّ الفرد الى ارتكابهما في حيازة حقه الخاص لا يخرجان عن كونهما خطأ مدنيا من غير سبق اصرار لانهما جزء لا يتجزأ من تكوين المجتمع البورجوازي الذي يقوم فيه الحق على تعميم مطلق للمصالح الجزئية بحيث ان اي فرد وهو يسعى وراء مصالحه الخاصة اذا اصطدمت مصالحه بمصالح الآخرين ادعى لنفسه نفس الحق الذي يدعونه وعندئذ يكون القول الفصل لما افترض انه الحق العام الذي قد يكون باطلا ايضا . ولهذا فصل هيغل في نظرية العقوبة فكرة الخطأ وبضمنها الغش والجريمة المتعلقة بالملكية عن الاعتبارات الاخلاقية فصلا تاما وربطها بعلاقة الملاكين الافراد بعضهم ببعض لان هذه العلاقات تقوم في اساسها على باطل فتولد باطلا .

وبنى هيغل تحليله للمجتمع المدني على مبداين ماديين : الاول ، ان الفرد في المجتمع البورجوازي لا يهدف لغير مصلحته الخاصة ، يسعى مدفوعا اليها بمزيج من الضرورة والتلقائية ؛ والثاني ، ارتباط المصالح الفردية بعضها ببعض على نحو يجعل تأكيد اي منها وتحقيقها رهنا بتأكيد الاخرى وتحقيقها ، وهو تفسير مماثل لتفسير آدم سمث وغيره من مفكري القرن الثامن عشر الذين وصفوا نظام المجتمع الحديث كما هو مشخص بالنظام الاقتصادي بأنه نسق من الاعتماد المتبادل يعمل فيه كل فرد في سعيه الى مصلحته الخاصة على تحقيق مصلحة الآخرين ضمنا . لكن هيغل ينتهي الى نتيجة اخرى بتأكيده الجوانب السلبية في النظام البورجوازي فيرى هذا النظام ما كاد يظهر حتى جلب معه الافراط والبؤس والفساد المادي والاجتماعي ، ولهذا فانه لا يمكن ان يكون المجتمع الحقيقي الذي تتحقق فيه الحرية ولا يمكن ان يكون بسبب افتقاده الحرية التحقيق النهائي للعقل . واقترب هيغل في تصوره هذا من تصور ماركس ، بتأكيده ان تكامل المصالح في المجتمع البورجوازي لا

يكون بقرار عقلي حر وانما بطريق المصادفة ، فلا تظهر الحقيقة فيه بوصفها حرية بل بوصفها ضرورة ، وتضفي على عملية الانتاج فيه نظاما لا يتعين فيه مكان الفرد تبعا لحاجاته وقدراته بل تبعا لما يملك ، وتتسع فيه فجوة اللامساواة حتى «ينحدر عدد كبير من الناس الى ما دون الحد الادنى في مستوى المعيشة ويفقدون احساسهم بالحق وبالاستقامة والشرف وهي الصفات التي تقوم باعتماد المرء على ذاته ، وتنشأ طبقة من الفقراء وتتراكم الثروة على نحو غير متناسب في أيدي قلة من الناس» . ثم يصف التناقضات الحادة فيه ويقول «انه برغم فيض الثروة فيه ليس ثريا الى الحد الذي يمكن فيه القضاء على الفقر المتزايد..»
ورأى هيغل ان تحقيق الحرية يقع على عاتق المجتمع لا على عاتق الدولة لان مهمة الدولة تنتهي بتحقيق التجمع كما يقتضي ان يكون ، اي بالتجمع الذي تتوافق فيه المصالح الخاصة ضمن المصلحة العامة . ولهذا كان تحقيق اي نظام اجتماعي واقتصادي صحيح لا يبقي لوجود الدولة ضرورة ولا يبقي لها هدفا ، ولهذا ايضا يؤدي التآلف بين الفردي والكلي الخالي من التناقضات الى ذبول الدولة لا الى انتعاشها . وكلما تنافرت المصالح وتعذر التآلف بين الفردي والكلي تحولت الدولة الى تسلط وصار الحكم فيها صارما وساد الاضطراب والتشتت علاقات الافراد .

ومع ان هيغل لم يكن ينظر الى المجتمع البورجوازي على انه تجمعا حقيقيا وقد تبين ما ينطوي عليه من عناصر السلب ، لكنه لم يشأ ان يتجاوز في تصوراته حدود واقعه الراهن الى ما يمكن ان يصير اليه ؛ فالفلسفة في رأيه ، لا يجوز لها ان تتجاوز حدود المتحقق الفعلي او تحاول التكهن بمصير وضع قائم ، والعقل ينبغي ان يعتمد في أحكامه الواقع الفعلي للمجتمع البورجوازي بما يسود فيه من منافسة وأنانية واستغلال وثروة مفرطة وفقر مدقع لا ان يستبق التاريخ . ولكنه ادرك ان هذا المجتمع وان شوهت العقل فيه الضرورة العمياء والعملية الاقتصادية وأفسد تعارض المصالح الخاصة فيه معنى الحرية ، فانه ينطوي على عناصر تمهد له الطريق ليتحول الى مجتمع حر يسوده العقل ؛ غير انه بسبب عجزه عن اقامة العقل والحرية من تلقاء ذاته ، لا غنى له عن قيام دولة قوية تتولى تحقيقهما . ومرد عجزه ، كما رأى ، هو الشعب الذي قال عنه انه «ذلك الجزء من الدولة الذي لا يعرف ما يريد ... وحركته فطرية لاعقلانية وعنيفة مدمرة» ما لم تضبط . وكان رأيه هذا وليد تأثره بأحداث الثورة الفرنسية كما صورت له .

وفي فلسفة التاريخ كرر هيغل آراء اوردها في كتاباته الاولى ، في الفينومينولوجيا والمنطق وفلسفة الحق ، وسنأتي على ذكر ما يعني هذه الدراسة منها لانها برغم التكرار ، تقربنا من فهم فلسفته . وتستند فلسفة التاريخ عنده الى فرضية سبق ان اوردها في كتاب المنطق وهي ان حقيقة الوجود حقيقة عقلية تتجلى في الطبيعة وتتشخص عبر التاريخ بروح الانسانية او بالذات المفكرة التي هي مبعث القوة الفاعلة في التاريخ ، تدفعه نحو الشمولية وتصوغ مفاهيمه العامة كالأمة والمجتمع والاستبداد والديمقراطية والطبقات والتقدم والانحلال وغيرها .

ويقول هيغل ان الفلسفة تعلمنا ان الوجود الكلي للعقل لا يتحقق الا بالحرية ، فعناصره كلها تبحث عن الحرية وتقود اليها وتجعل التاريخ كله ليس الا وعيا لها. ولكنه الى جانب هذه الصورة المثالية البحتة يؤكد موضوعية التاريخ بربطه الفكر بالواقع الذي هو مادة التاريخ والدليل الى المعرفة به . ويؤكد ايضا وجوب قبول التاريخ كما تثبته قوانينه التي لا تدرك الا على هدي نظرية تهيء السبيل الى المعرفة بها باظهار صلة وترابط وقائعه وتضع كل منها في مكانها الصحيح وتعد القدرة على استخلاص النتائج والعبر منها ، لان الوقائع مبعثرة ومفككة ، لا تكشف شيئا . ويرى ان الفلسفة هي سبيلنا الى معرفة النظرية الصحيحة . ويدلل هيغل على مادية التاريخ بقوله ان التمعن فيه يجعلنا على يقين بأن أفعال الناس مصدرها حاجاتهم ، وان مصالحهم المتولدة عن هذه الحاجات هي مبعث سلوكهم ونشاطاتهم . ويقول ان العملية التي يمارس فيها العقل فاعليته في التاريخ ليست وليدة ضرورة طبيعية ولا تتبع خطا واحدا . ففي التاريخ فترات طويلة يبدو فيها وكأنه توقف ؛ وفيه فترات يتأرجح فيها بين تقدم وارتداد ؛ وفيه ايضا فترات انتكاس . وهذه الحالات ليست عارضة ولا دخيلة ، بل هي جزء من ديالكتية التغير الاجتماعي ومستلزماته . فلأجل ان يتحقق تقدم ينبغي ان تصبح الكلمة العليا للقوى السلبية الكامنة في الواقع . وحالات التوقف والتردد والانتكاس ليست الا فترات يتجمع فيها خزين من الطاقة تستعين بها العوامل السلبية في استثارة الانسانية لتبذل اقصى الجهد وتقتحم العقبات التي تعترض سبل تقدمها في مجال الحرية . ويقول هيغل ان القانون العام للتاريخ ليس كالقوانين التي تحكم المادة . فالمادة في بنائها وحركتها تخضع لقوانين ثابتة تسري عليها في جميع حالاتها ؛ لكن المادة لا تكون ابدا هي الفاعلة لعمليتها او تكون لها القدرة على التحكم فيها ؛ في حين ان الوجود الواعي يكون بذاته جزءاً من مضمون القوانين التي تسري عليه بحيث ان هذه القوانين لا تفعل فعلها الا بمقدار ما تأخذ بها ارادة الذات الفاعلة فيما تفعل ، ويكون تأثيرها بمقدار فهمها وممارستها . فقوانين التاريخ لا تنبثق الا من سلوك الانسان الواعي ولا تتحقق الا بفعله .

ويعرف هيغل روح الامة او روح الشعب ، بأنها مجمل الحضارة القومية التي تسود مجتمعها وتكون وليدة وضعها الجغرافي وسماتها الطبيعية والاجتماعية . وروح الامة تصنع تاريخها القومي بنفس المعنى التي تصنع به الروح العالمية التاريخ العام للانسانية . لكن تاريخ اية امة لا يمكن فهمه على وجهه الصحيح الا في ضوء التاريخ العام ، لان مقام اية امة في التاريخ يتعين بمقدار اسهامها في تقدم البشرية كلها نحو الوعي الذاتي للحرية . والحرية لا تعني ولا يمكن ان تعني نفس المعنى في مختلف عصور التاريخ بل ان مفهوما واحدا للحرية يكون صحيحا في عصر معين ، وعلى اساس هذا المفهوم تبنى الدولة ويعترف المجتمع بمضمونه وما يترتب عليه في فترة معينة .

والدولة في رأي هيغل ، تقوم بوصفها تمثل مصلحة كلية شاملة للاعمال والمصالح الفردية ؛ وشعور الافراد نحوها يختلف باختلاف المراحل التاريخية .

فقد ظهرت في البدء بوصفها وحدة طبيعية مباشرة كما هي في العائلة ، خالية من الخلافات والتناقضات الحادة ، لان الافراد فيها لم يكونوا قد ميزوا بعد، مصالحهم عن المصلحة المشتركة فلم يضعوا مصالحهم الخاصة في مواجهة المصلحة العامة . ويسمي هيغل هذه المرحلة بمرحلة الشباب الذهبية للتاريخ العالمي ، ولكنه يقول ان الحرية فيها لم تكن حرية واعية بل حرية ممكنة وغير فعلية لانها لم يكن فيها مجال للاختيار . فلما وعت الذات امكاناتها تطلعت الى حرية يكون لها فيها اختيار ، فعملت على هدم نظام الحرية اللاواعية وأنشأت بمعونة الفكر ، تنظيما لدولة يتسع فيها المجال لحرية الاختيار . لكن الفكر الذي ساعد في بناء هذه الدولة ما لبث ان تحول الى عامل فعال في هدمها ؛ لان الواقع الاجتماعي والسياسي في كل دولة لا يمكن ان يبقى طويلا دون تغيير ولان الدولة تميل بطبيعتها الى التمسك بالوضع القائم والحرص على بقائه كما هو ، وطبيعتها هذه تسوقها الى تقييد حرية القوى التي تنشد التغيير . ويقوم بين الدولة والعقلانية الحرة للفكر صراع ينتهي بالضرورة الى رجحان العقلانية ، اذ ليس في وسع قوة أيا كانت ان توقف في المدى البعيد، تقدم الفكر الذي يمثل السلبية بأبعد حدودها.

وبادخال هيغل الموضوعية على المثالية ، مهد الطريق الى تحول الفلسفة الى نظرية اجتماعية تؤدي مهمتها في مجال المجتمع والدولة ، وختم بذلك ، عصرا كاملا في تاريخ الفلسفة الحديثة هو العصر الذي بدأ بديكارت وتبلورت فيه الافكار الاساسية للمجتمع الحديث . فقد كان هيغل آخر من فسر العالم على انه عقل وأخضع الطبيعة والتاريخ لاحكام الفكر والحرية واعترف في الوقت عينه بالنظام السياسي الذي صنعه الناس بوصفه المجال الذي يتحقق به العقل وجعل فلسفته حلقة وصل بين الفلسفة والنظرية الاجتماعية وبهذا الوصل وضع الفلسفة في الطريق الذي أدى الى نفيها .

ولا يتجلى تأثير الهيغلية في النظرية الاجتماعية بمثل ما يتجلى في الصلة بينها وبين الماركسية ، برغم ان هذه الصلة تتمثل في تحول من حال الى نقيضه. فجميع أوليات التصورات الفلسفية للنظرية الماركسية هي اقتصادية اجتماعية بينما تصورات هيغل الاجتماعية والاقتصادية كلها تصورات فلسفية . وتصورات هيغل تفضي كلها الى النظام البورجوازي الرأسمالي وتنتهي اليه فتبرر وجوده وتقول بديمومته بينما تصورات الماركسية على عكسها ، تفضي الى ادانة هذا النظام وتقول بضرورة زواله ، بل انها حتى عندما تصفه وتحلله تريد من وراء ذلك تشخيص شكل جديد للمجتمع وتعيين سبيل الوصول اليه بالغاء النظام البورجوازي الرأسمالي .

ووجد ماركس في فلسفة هيغل اكثر البيانات عن المبادىء والتصورات البورجوازية تقدما وشمولا ، فقد جعلت من الفكر الموضوعي المعيار الشامل الوحيد للمجتمع ، واعترفت بدور العمل في دمج المصالح الفردية المتباينة في نسق موحد ، وكشفت المضمون الثوري لفكرتي الحرية والمساواة ، ووصفت تاريخ

المجتمع البورجوازي بأنه تاريخ الصراعات الحادة التي لا تهمد . واهتم ماركس بكشف هيغل لدور العمل في حركة المجتمع وايضاحه الكيفية التي يتحكم بها تقسيم العمل في نظام الدولة والمجتمع ، وأثر نظرية العمل كما تتشخص في الصراع بين السيد والعبد في تطور الوعي وفي تمهيد سبيل الحرية الواعية لاستكمال ذاتها . ورأى ماركس في أيضاح هيغل دور العمل وعملية التشيؤ وعملية نقضه اعظم معطياته التي جاءت في الفينومينولوجيا .

وكانت فلسفة هيغل المعين الذي أمد ماركس بفكرة السلب التام الذي بنى عليه نظرية دور البروليتاريا التاريخي والتي جعل منها احدى اهم ركائز الماركسية والعامل الحاسم في حركة التحول من النظام البورجوازي الرأسمالي الى نظام جديد يكون البداية الحقيقية لتاريخ الانسانية . وتصور هيغل الحقيقة بوصفها كلا كاملا ولكنها في واقعها تحمل في كل طور من وجودها نقصا يعمل العقل على استكماله ليجعلها في وضع ملائم للطور الذي تصير اليه . ولكنه تصور ان النقص فيها لا يمكن ان يكون نقصا كاملا وشاملا لانه يؤدي عندئذ الى نفي تام لحقيقتها . وفكرة النقص الكامل والنفي التام في تصور هيغل هو الذي اوحى لماركس بفكرة البروليتاريا ، لكن ماركس لم ير النقص الكامل والنفي التام يؤديان الى نفي الحقيقة بل رأى انهما في موضوع التحولات الاجتماعية يؤديان الى نقض كامل ونفي تام للنظام البورجوازي ويمهدان السبيل لتحقيق المجتمع الكامل . ورأى ان فكرة البروليتاريا لا تمثل بذاتها النقص الكامل لان البروليتاري هو في حقيقته انسان، لكنها تمثله نقصا كاملا في النظام البورجوازي الرأسمالي فقط ، فهو لا يكون في هذا النظام شخصا ولا يكون حرا لانه لا يملك شيئا . واذا كانت النشاطات التي تمارسها الروح في الفن والفلسفة والدين هي التي تؤلف ماهية الانسان ، كما افترض هيغل ، فان البروليتاري يظل الى الابد في غربة عن ماهيته لان حياته الفعلية لا تترك له متسعا لممارسة اي من هذه النشاطات وهو لهذا يمثل في المجتمع الرأسمالي الضياع التام ، ولهذا ايضا يكون المجتمع الرأسمالي بالنسبة له شرير بأكمله وهو فيه يمثل سلبيته الكاملة ، فيعاني عذابا تاما وظلما شاملا يجعلان واقعية العقل والحق والحرية بالنسبة له بطلانا وظلما وعبودية ، ويجعلان خلاصه بالضرورة خلاصا كاملا للمجتمع من نظام البورجوازية الرأسمالية . ورأى ماركس ان العيب الاساسي في فلسفة هيغل انتهاؤها الى مثالية تأملية محضة تهربت من معالجة المشاكل في عالم الواقع بأن حولتها الى عالم الفكر المجرد وقنعت بالتغلب عليها بطريق التأمل والفلسفة وهما من دون ممارسة وتطبيق لا يحلان مشكلة . كما انه اختلف في نظرته الى التشيؤ عن نظرة هيغل اليه ، اذ لم ير فيه شقاء في ذاته ، بل رأى فيه على العكس ، حافزا للانسان لتنمية قدراته ليكون قادرا على تغيير الطبيعة ويدفع بالفرد المغمور بحاجاته البيولوجية ليجعل من نفسه شخصية كلية بالعلم وبالمعرفة . فالتشيؤ الذي يولد الشعور الشقي يدفع الفرد الى تثقيف نفسه ليسمو الى ذاته . كما رأى في حاجات الانسان غير ما رأى هيغل ، فالحاجات التي يسعى الفرد للحصول عليها ليست في طبيعتها فردية بل

هي على العكس ، ذات طبيعة اجتماعية لانها من صنع عمل اجتماعي يفرض التعامل والتعارف والتعاون بين البشر . وكان من نتائج هذا التفاوت في مفهوم التشيؤ وطبيعته بين ماركس وهيغل ان اختلفا في معالجة الضياع . فبينما عالج هيغل الضياع الذي نشأ عن التشيؤ بالتأمل والفلسفة ، رأى ماركس ان التشيؤ لا يكون ضياعا الا بفعل ظروف تاريخية معينة ولهذا تكون معالجته بمعالجة تلك الظروف وتغييرها . وهذا هو ما فعله في كتاب «رأس المال» الذي اوضح فيه كيف تؤدي الرأسمالية الى تشيؤ العامل وعمله بحيث يتحولان الى ضياع بتحولهما الى سلعة تباع وتشترى ، وكيف ان هذا الضياع ليس الا برهة في التاريخ لا بد ان تنتهي عندما يعي الانسان الى نفسه ويسعى الى ان يجعل الاشياء التي يصنعها بعمله ملكا له . فسرّ شقاء العامل في النظام الرأسمالي ، كما بدا لماركس ، يكمن في ان الشيء الذي يصنعه بعمله يتحول الى سلعة تواجهه مواجهة المعارض المعادي فلا تبدو غريبة عنه فقط ، بل تمثل بالنسبة له الضياع والحرمان . بل ان العمل نفسه في النظام الرأسمالي قد يصير امرا لا يتيسر للعامل الحصول عليه الا بمشقة وبفترات متقطعة ، بحيث لا يكون هذا النظام بالنسبة للعامل ضياعا لنتاج عمله وحرمانا مما يحتاج اليه فقط ، بل يؤول به الى فقدان ذاته اذ لا يعود العامل فيه ينتسب الى نفسه بوصفه انسانا بل يصير عاملا فحسب، وبهذا ينقلب النظام الذي هو من صنع الانسان الى نظام يسحق الانسان . وبرغم ان هيغل صوّر النظام الرأسمالي بما يشبه هذه الصورة المأساوية لكنه عجز عن تصور البديل ووقف عند معالجة مشاكله بالفكر المجرد الذي لا يحل مشكلة تاريخية لا تحل الا بثورة تاريخية .

الباب الثالث

بدايات الفكر الماركسي

كارل ماركس و فردريك انجلز

- ١ -

كارل ماركس

١ ـ نشأته

لعل اول ما يلفت النظر في نشأة ماركس وانجلز اللذان اسهما في وضع أسس الماركسية ، انهما من مواليد منطقة واحدة في جنوب المانيا هي منطقة الراين ؛ ولو ان كلامنهما نشأ في جانب منها يختلف عن الجانب الآخر في طبيعته، وترعرع في وسط عائلي واجتماعي بينه وبين وسط الآخر تفاوت كلي ؛ ولم تقم بينهما صلة الا بعد ان اصبح لكل منهما وجهته ونهجه . فماركس ولد في الجانب المحاذي لفرنسا ، وهو الجانب الزراعي الذي يخرقه نهر الراين ويمتد فيه وادي الموزيل الشهير بكرومه وجمال طبيعته . وولد انجلز في الجانب الغربي وهو الجانب الصناعي الغني بمعادنه والذي اتسعت فيه صناعة النسيج ووطدت صلته الاقتصادية بانكلترة . وماركس نشأ في عائلة متوسطة الحال وفي وسط مثقف ومتحرر ، في حين نشأ انجلز في عائلة عريقة محافظة من اثرياء الصناعيين .

وكانت منطقة الراين ، لاسيما جنوبها ، رغم انها جزء من المانيا ، وثيقة الصلة بفرنسا ، بطبيعتها وأوضاعها الفكرية والاجتماعية ؛ احتلها الفرنسيون وحكموها اكثر من مرة ، وبقيت طيلة عهد الثورة الفرنسية وحكم نابليون جزءاً من فرنسا ولم تلحق ببروسيا الا بقرار مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ؛ وقد خرجت من حكم الفرنسيين وهي اقرب اليهم مما هي الى المانيا ، بالتفكير الحر والاتجاه الليبرالي. فقد ازاحت الثورة الفرنسية عنها كابوس الاقطاع وطبقت فيها القانون المدني الذي شرعه نابليون وهيأت لبورجوازيتها اسباب النمو والتقدم وحررت الفكر فيها من وصاية الكهنة ووفرت لاهلها مقومات الحياة الحرة كما هي في فرنسا فنشأت فيها

تنظيمات سياسية اخذت بمبادىء اليعاقبة وبقي كثير من ابنائها الى ثورة ١٨٣٠ يفخر ويتغنى بماضيه الراديكالي .

وفي وسطها هذا ولد كارل ماركس في الخامس من ايار سنة ١٨١٨ ، في مدينة ترير احدى أقدم مدن الراين ، وقيل انها اقدم مدن المانيا ، أطلق عليها الرومان اسم روما الشمال واتخذوها مقرا لجيوشهم ، وورثها الالمان عنهم ، غنية بآثارهم وأضافوا الى ما فيها آثارا اخرى كثيرة ثبتت فيها معالم القرون الوسطى وجعلتها من اغنى مدن المانيا بالآثار التاريخية التي اعتز بها اهلها وتركت فيهم احساسا عميقا بروح التاريخ حتى قيل ان ماركس ورث عنهم هذه النزعة التاريخية التي طبعت تفكيره (١) .

وكان هاينرخ ماركس ، والد ماركس ، محاميا مرموقا ومن رجال القانون المعروفين في المدينة ، واسع الثقافة ، حر النزعة ، بل كان ، كما وصفه احد اقرانه ، فرنسيا حقيقيا من القرن الثامن عشر ، يحفظ عن ظهر قلب اقوال فولتير وروسو ويلم بأدبيات عهد التنوير وبما نقله الموسوعيون الفرنسيون من الفلسفة الانكليزية وأصول الحركة العلمية ومعالم الحياة العامة في انكلترة . وقد ولد يهوديا لكنه اعتنق البروتستانية ، اذ كان كما يقول ريازانوف ، قد قطع كل صلة باليهودية منذ زمان (٢) . ويقول ميهرنك ، اول مؤرخي حياة ماركس ، في ذلك «اننا لو نظرنا الى هذا التحول من الناحية الدينية الصرفة لبدا لنا امرا طبيعيا ، لان رجلا لا يلتزم بغير الايمان بالله ولا يقيم وزنا للطقوس الدينية لا يمكن ان يعد من أتباع الكنيس اليهودي» (٣) . وكان الخروج على اليهودية يومئذ في اوساط اليهود التقدميين ، كما يقول ميهرنك ، مظهرا من مظاهر الاخذ بروح العصر والتحلي بالروح الوطنية في وقت أخذ فيه على الطائفة اليهودية انطواؤها على نفسها وتجنبها المشاركة في الحياة العامة وانصرافها الى جمع المال بأي سبيل، مما أدى بها الى العزلة واستثار ضدها نقمة عامة ، لاسيما في أعقاب المواسم الزراعية السيئة التي توالت على منطقة الراين في اوائل القرن واستغلها المرابون اليهود استغلالا بشعا . ويذكر ميهرنك ان من بين الاسباب التي عينت موعد اعتناق هاينرخ البروتستانية ، مراعاته احساس أمه المسنة التي دفعته الى ارجاء اعتناقه المسيحية الى ما بعد وفاتها (٤) .

وكان كارل ماركس ، وهو الثالث بين تسعة ابناء ، موضع اهتمام خاص من ابيه ، ربما لما توسمه فيه من الفطنة والحيوية فاختاره ليكون وريثه في مهنة المحاماة ويجعله من رجال القانون وتولى تعليمه بنفسه حتى الثانية عشرة من عمره وأدخله المدرسة الاعدادية في ترير سنة ١٨٣٠ ، وكانت ذات طابع تحرري ، مديرها وغالبية المدرسين فيها من أشياع الفلسفة الكانتية وحملة فكرة الانسانيين مما جعلها موضع ريبة السلطة المحلية فترصدتها ورأت فيها بؤرة للافكار الخطرة. ولم يكن ماركس متميزا بين أقرانه في دروسه لكنه برز بينهم بنشاطه وقوة شخصيته . ولم يكن في سجله المدرسي ما يلفت النظر غير اشارة لبحث أعده عند

تخرجه رد فيه على سؤال عن المهنة التي يختارها ، أثار اهتمام مدرسيه اذ وجدوا الآراء التي ابداها اعمق من ان يدركها فتى في مثل سنه وتعليمه وقد كشفت عن نزعة واقعية ذات طابع انساني ، فقد اشار فيها الى ان الفتى ليس حرا في اختيار المهنة التي يرجحها لان ظروفه الخاصة كثيرا ما تتحكم في اختياره ، وحسبه ان يجعل مما يختاره عملا فيه الخير لوطنه وللانسانية وقال « فاذا نحن اخترنا ما يكون فيه العطاء الاكبر الانسانية فلن يثقل كاهلنا عبء العمل بل نجد فيه متعة التضحية في سبيل الخير ... فتبقى ذكرانا عبر الزمن ... تستنزل دموعا نبيلة ونقية» (٥) .

وكان ممن تأثر بهم ماركس في مطلع حياته ، جارهم البارون لودفيك فون ويستفالن الذي تزوج ماركس ابنته فيما بعد . وكان بخلاف سائر ابناء طبقته ، مثقفا حر الفكر ومن افاضل الناس ، أعجب بكارل وأولاه اهتمامه وحبب اليه دراسة شكسبير وهومر وشجعه على الاهتمام بالشؤون العامة ولفت انتباهه الى آراء «سان سيمون» وعرّفه بمؤلفاته (٦) .

انهى ماركس دراسته الاعدادية في بداية السابعة عشرة من عمره ، فأدخله ابوه جامعة«بون» ليدرس الحقوق، وكانت النزعة الرومانسية غالبةفيها فلم يلبثان تأثر بها فترك دراسة الحقوق وانغمس في الادب والفن ونظم الشعر وانتمى الى منتدى هواته وراح يقضي وقته في المناظرات الادبية والمطاردات الشعرية وأهمل واجباته المدرسية فضاعت عليه السنة واضطر ابوه ان ينقله الى جامعة برلين وكانت مركز الحياة الفكرية في المانية ومقر الهيغلية . وبدأ فيها ماركس بداية جدية ، كما ذكر في رسالته الوحيدة (٧) التي عثر عليها وعبر فيها الى ابيه عن اسفه لما اضاعه من وقت وسببّه له من كدر وقال انه اخذ على نفسه الانصراف الى الدراسة وذكر له انه شرع بدراسة الحقوق وراجع الكثير من كتب فقه القانون ولكنه ما لبث ان مال الى الفلسفة ورجحها على دراسة الحقوق وحاول ان يدرس فلسفة هيغل لكنه وجدها مغلقة وعسيرة على الفهم فانصرف عنها وباشر دراسة تاريخ المانيا . وذكر انه انغمر في قراءة كل ما وقع في متناوله من كتب التاريخ والادب الالماني واجهد نفسه حتى اصابه اعياء شديد وانهارت صحته فنصحه الاطباء ان يلجأ الى منتجع في الريف يركن فيه الى الراحة التامة ليستعيد عافيته ، وقد اخذ بنصيحتهم فاستعاد صحته . وذكر له كيف عاد وهو في منتجعه الى مراجعة فلسفة هيغل فقرأ نصوصها وما كتبه عنها أنصارها وراقت له اذ وجدها تقيم اساسا رصينا للمعرفة الحقة فرجحها على مثالية كانت وفيخته وقرر ان يأخذ بها ويسعى في تفكيره وراء ما هو مشخص في الواقع . ووصف في ختام رسالته كيف كان الانسان يتطلع الى السماء ليستنزل منها الحكمة وليعرف ما في الارض وكيف اصبح اليوم يستخلص الحكمة مما في الارض ويستعين بها ليعرف ما في السماء . وكان اختياره الهيغلية هذه المرة نهائيا بقدر ما كان فجائيا ، وكان القرار الحاسم الذي عين مصيره ، فقد بقي الى النهاية وبرغم كل ما وجهه من نقد للهيغلية ، يقر بما هو مدين به الى هيغل ولطريقته

الديالكتية وكانت معالجة موضوعها من اوائل كتاباته. فقد كان اذا اراد ان يستوعب موضوعا عسيرا يعمد الى الاستعانة على فهمه بمحاولة الكتابة عنه، ولهذا بادر فوضع بحثا في حوار بأربع وعشرين صفحة استعرض فيه المراحل التي قطعتها الفلسفة الالمانية لتنتهي الى الهيغلية ووصف فيه ما أحس به من اسى وهو يتخلى عن الرومانسية المحببة اليه ويضع نفسه بين يدي غريمتها الموضوعية الواقعية . وعاد ماركس من منتجعه الى برلين وهو شخص آخر مأخوذ بالهيغلية وفيه شوق اليها والى اوساطها .

٢ ـ اليسار الهيغلي

بدت الهيغلية عند اندلاع ثورة ١٨٣٠ في فرنسا ، وكأنها تواجه بداية نهايتها. ولعل هيغل قدر ما سوف يكون لهذه الثورة من التأثير في زعزعة الاستقرار القلق في المانيا وضياع الثقة بفلسفته التي دعمت الحكم الاوتوقراطي والبيروقراطية في بروسية ، فانتابه شعور اليأس وما لبث ان توفي بالكوليرا سنة ١٨٣١ . وبرغم حرص تلاميذه ومريديه على الالتزام بفلسفته وتجنب نقدها وكل ما يستثير الشك في صحة ما جاء فيها وتمسكهم بوحدتهم ، فان الخلاف ما لبث ان دب في صفوفهم وشقهم في اواخر الثلاثينات الى فريقين ، فريق محافظ اخذ بحرفية قول هيغل ان «كل ما هو واقع معقول وكل ما هو معقول واقع» فأقر سلامة تعاليم الكنيسة ولم يجد في طقوسها وتعاليمها ما يضير او يجافي الصواب فراح يدافع عنها ويعادي من عاداها ؛ وفريق نزع الى الراديكالية واتخذ من الكنيسة موقف المرتاب بها وبتعاليمها وطقوسها وضاق ذرعا بامتداد نفوذها ورأى في نهجها وطقوسها ما فات أوانه وخرج على العقلانية فناصبها العداء وأخذ بقول هيغل «ان من شأن العقل فيما يدرك ان يستبق الواقع» ؛ وقوله «ان طقوس الكنيسة وتعاليمها مجرد اساطير وأوهام» . ودخل الفريقان في صراع واجه كل منهما الآخر بأقوال لهيغل متفاوتة او متناقضة . ولم يكن ما حفظ من اقوال هيغل يخلو مما يحتمل التأويل او يدخل في نطاق التناقض ، فهو برغم اشادته في بعض اقواله بتعاليم البروتستانية وتأكيد الوفاق بين اللاهوت والفلسفة وقوله ان ما يبدو بينهما من تفاوت يرجع الى ان الدين يبني أحكامه على التصور بينما تعتمد الفلسفة المفاهيم المثبتة بالادلة الفعلية ، فقد روي عنه قوله ان كثيرا مما ورد في الانجيل لا يستقيم مع العقلانية وليس له الا ان يؤخذ على اساس الايمان المحض (٨) .

وبقي الخلاف بين الهيغليين مكبوتا فترة من الزمن الى ان تفجر عندما اصدر «ديفيد شتراوس» احد الهيغليين الراديكاليين، كتابه «حياة المسيح» سنة ١٨٣٥ وقال فيه ان الانجيل ليس الا سجل لاقاصيص عبرت عن حياة المسيحيين

الاوائل وتصوراتهم وأمانيهم فات أوانها وانقطعت كل صلة بينها وبين الحياة الحاضرة . وأثار الكتاب ثائرة الكنيسة وأخرج الصراع بين شقي الهيغليين الى العلن ، فراح فريق المحافظين يؤيد الكنيسة ويسفه مزاعم شتراوس وأخذ الراديكاليون جانب شتراوس وطعنوا بصحة تعاليم الكنيسة وادّعوا انها علة ما تعانيه المانيا من تخلف وجمود . واطلق على الهيغليين المحافظين اسم اليمين وعلى الراديكاليين اسم اليسار .

وأصدر هيغلي راديكالي آخر ، متأثرا بفلسفة فيخته وفكرة وعي الذات ، هو برونو باور ، كتابا عنوانه «روح المسيحية» تجاوز شتراوس الى القول بأن المسيحية ليست غير انعكاس لشعور نشأ في مرحلة تاريخية خاصة وارتبط بها، فهو لهذا وعي فات أوانه فانقلب الى عائق يمنع تطور الحياة وتقدمها ويعكس تصورات فترة تدهور الحضارتين اليونانية والرومانية واضمحلالهما .

وانغمر الهيغليون على هذا النحو في جدل لاهوتي وكأنهم ارادوا به التنفيس عما في نفوسهم من تبرم بأوضاعهم القائمة وتجنب مخاطر التعرض للشؤون السياسية ومشاكل الحياة اليومية . وراق موقفهم للسلطة وقد رات فيه ما يضعف من نفوذ الكنيسة الكاثوليكية ويشغل الراديكاليين عن التعرض للاوضاع العامة بأفكارهم الخطرة ؛ وراق الموقف في الوقت عينه ، للهيغليين انفسهم ما دام يجنبهم نقمة السلطة وكثير منهم كان يشغل مناصب مرموقة في الجامعات وفي دوائر الدولة او يتوق الى إشغالها ويبقيهم ملتزمين بموقف استاذهم الذي مجّد الدولة البروسية بحكمها الصارم وتوقع ان تحقق الاصلاح دون ان تعرض المجتمع الى الكوارث التي تعرضت لها فرنسا في ثورتها . وأشار انجلز الى مدار الخلاف بين الهيغليين فقال «ان تعاليم هيغل كانت من السعة بحيث آوت تصورات ومفاهيم قام بينها أشد التفاوت والتباين ... فكان الذي يأخذ بفلسفته ينجرّ الى المحافظة بينما الذي يأخذ طريقته على انها الاصل يكون في الطرف النقيض » (٩) .

وانتظر اليسار الهيغلي ان يقوم فردريك وليم الرابع بالاصلاح ، بعد ان تولى عرش بروسيا سنة ١٨٤٠ وكان وهو ولي للعهد يعد به ، لكنه ما ان صار ملكا حتى تنصل مما وعد وشدد الخناق على حرية الراي وانحاز الى جانب الرجعية والكنيسة والتزم الاقطاعيين الذين كانوا ينقمون على هيغل الذي برر مركزية السلطة . وواجه الملك اليسار الهيغلي بعداء سافر ولاحق أفراده وأبعدهم عن وظائف الدولة ومعاهد التعليم وأمعن في اضطهادهم حتى دفعهم الى التحول من معارضة موالية للسلطةالى معارضة منتفضة عليها تدعو الىديمقراطية دستورية، والى اتخاذ موقف متماسك في مواجهة الظروف العصيبة التي تعرضوا اليها حتى بدوا وكأنهم اول حزب سياسي معارض يقوم في المانيا (١٠) . وكان من البارزين في اليسار الهيغلي : برونو باور وديفيد شتراوس وأوغست فون زايكوفسكي وموزس هيس وارنولد روغه ولودفيك فويرباخ ، الذين كان لهم أثر مباشر في حياة ماركس وانجلز الفكرية ، وجلهم من ابناء الطبقة الوسطى ومن مثقفي الجامعات ، وكثير

منهم درس اللاهوت ثم تحول الى الفلسفة وامتهن التعليم. او تطلع الى امتهانه . وكان من جراء حملة السلطة عليهم ان المتّ بهم البطالة فلم يجدوا سبيلا لكسب عيشهم غير سبيل الكتابة والصحافة . وأدت بهم خيبة الامل بالوسط البورجوازي الذي لم يكترث لما نزل بهم ، رغم انهم عملوا في الاتجاه الذي يخدم مصالحه ، الى ان يأخذ بعضهم بالاشتراكية بصورها المختلفة ويضيع فريق منهم في متاهات المثالية المجردة والعدمية ، وينتهي بعضهم ، لاسيما بعد ثورة ١٨٤٨ ، الى ان يضع نفسه في خدمة بسمارك ويصير من بطانته .

وبسبب طبيعة ميولهم التأملية وظروفهم التي باعدت بينهم وبين ممارسة الحياة الفعلية ازدادت تطلعات المتطرفين منهم ابتعادا عن الواقع فزعموا ان التطرف الفكري بالنسبة للتغيير الاجتماعي كالبرق الذي يستبق الرعد ويبشر بالمطر . ولم يشذ منهم غير نفر تأثر بالمادية الفرنسية فأدرك اهمية الممارسة الفعلية، كان في طليعته زايكوفسكي ، وهو كونت من مواليد بولنده أتم دراسته في برلين وقضى بضع سنين في باريس تأثر فيها بآراء المفكر الفرنسي «فورنيه» وبآراء سان سيمون وأصدر بعد عودته الى المانيا سنة ١٨٣٨ رسالة أكد فيها اهمية الممارسة بالنسبة للنظرية كما أكد ضرورة تجاوز الفلسفة حدود التأمل النظري الى التطبيق وقال انه لا يكفي التمعن بأحداث التاريخ لاستخلاص الاحكام والعبر بل الاجدى ان تمنحن هذه الاحكام والعبر في التطبيق ويستعان بها لدفع واقع الحياة الى الاحسن . ورأى زايكوفسكي ان فلسفة هيغل وان بلغت الغاية في المثالية لكنها لم تسلم من عيب لازم الفلسفة كلها هو اقتصارها على تأمل أحداث الماضي وظواهر الحاضر لا تتجاوزهما الى تصور المستقبل بينما الاحرى بالفلسفة ان تمتد في التصور الى المستقبل وتتحرى سبل الاستفادة من اوضاع الحاضر في بناء الحياة المقبلة وان تيسر للفيلسوف ان يفعل ما يفعله عالم الطبيعة في تحسين النوع . ويُظن ان زايكوفسكي اخذ فكرته هذه عن سان سيمون مثلما اخذ عنه ايضا فكرة العلاقة بين تطور وسائل الانتاج والتحولات الاجتماعية . وخلص زايكوفسكي في رسالته الى ان الاصل في التحولات الاجتماعية ليست الفكرة ، كما جاء في فلسفة هيغل ، بل الارادة التي تضع الفكرة موضع التطبيق ؛ وتوصل الى مفهوم أطلق عليه اسم البراكسس «Praxis» وعنى به فلسفة التطبيق او فلسفة النشاط التطبيقي تمييزا له عن الفلسفة التي لا تتجاوز حدود التأمل .

وفي الفترة بين سنة ١٨٤٠ و١٨٤٢ ، التي تولى فيها فردريك وليم الرابع عرش بروسيا وشددت فيها الرقابة على الصحف وعطلت الراديكالية منها ، اخذ اليسار الهيجلي يبتعد عن مضمون فلسفة هيغل ويحصر اهتمامه ، كما قال انجلز ، بالديالكتية التي اعتمدها في مساجلاته اللاهوتية وفي معالجة المشاكل السياسية والاجتماعية فقد افترض هيغل ان لكل ظاهرة في الواقع وجهان متضادان ، سالب وموجب ، وبينهما صراع ينتهي بتسوية التضاد للحصول على تركيب جديد ، فقال الغلاة ان التضاد لا ينتهي بالتسوية بل بزوال احد الطرفين

زوالا تاما . وبرغم حرص هؤلاء الغلاة على البقاء في نطاق الهيغلية لكن تطرفهم أدى بهم الى ان ينحرفوا عنها باغفالهم ما أكده هيغل من ضرورة الالتزام بمبدأ ترابط ظواهر الواقع وتجنب الحدس والتخمين والحرص على الدقة في تطبيق قواعد الديالكتية ؛ فكانت النتيجة ان اتسعت الفجوة بينهم وبين الملتزمين وفي طليعتهم كارل ماركس الذي كان من المتفوقين في استيعاب دقائقها وفي حسن تطبيقاتها . وانتهى الغلاة وعلى رأسهم شتيرن ، الى العدمية ، وعنهم اخذ باكونين مبادىء الفوضوية .

٣ ـ ماركس واليسار الهيغلي

كان مما اجتذب ماركس الى اليسار الهيغلي ما امتاز به كتّابه ومفكريه من جراة في النقد وحماسة لحرية الراي . وبرغم انه لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره فانه ما لبث ان احتل مكانة مرموقة في وسطهم وأصبح موضع اهتمامهم ، مقربا بوجه خاص من برونو باور الذي احتل مكانة مرموقة فيهم وكان مقربا من هيغل قبل وفاته واختاره ليشغل كرسي محاضر في اللاهوت بجامعة برلين ؛ وطمح هو ان يخلفه في إشغال كرسي الفلسفة فيها . وكان باور بين الهيغليين ، اكثرهم تأثيرا في توجيه ماركس ، فقد حثه على دراسة فلسفة الاغريق ، لاسيما المتأخرة منها التي تناولت الابيقورية والرواقية والشكوكية ، وكان يرجحها على فلسفتهم التقليدية لاخذها بفكرة الوعي الذاتي الذي كان من المتحمسين لها ، ولتأكيدها ذاتية الفرد واستقلال شخصيته ، ولانها كانت في رايه ، امتدادا لفلسفة الطبيعة عند ديمقريطس وهرقليطس وشجبت العبودية والرق ومهدت لظهور المسيحية الاولى التي انتصرت للمضطهَدين والمعذبين قبل ان تأخذ بالارسطوية فتقر العبودية وتبرر الرق وتصير اداة للحكم المطلق . وكانت فلسفة الطبيعة قد اجتذبت اليسار الهيغلي كما اجتذبت من قبلهم الرومانسيين والانسانيين بعد ان احيتها حركة التنوير في خلال القرن الثامن عشر وأحيت بها ظنون الشكوكيين بالمسلمات واستخفاف الابيقوريين بالاوثان وترجيح الرواقيين نظام الجمهورية ، واعتمدها اليسار الهيغلي في مساجلاته اللاهوتية وفي حملته على الكنيسة الكاثوليكية . ولما نقل باور من جامعة برلين الى جامعة بون بعد الضجة الذي احدثها كتابه « روح المسيحية» ، حبذ الى ماركس ان يدرس هذه الفلسفة ليعد أطروحة ينال بها شهادة الدكتوراه ويهيء نفسه لتدريسها في جامعة بون ، ووعده ان يكون في عونه . فتشجع ماركس وانصرف الى دراستها ، لكنه لم يتصد لها من حيث اراد باور واليسار الهيغلي ليجعل منها سلاحا في الصراع ضد الكنيسة لانه لم يكن حتى في هذه السن المبكرة يجد جدوى في هذا الصراع على حساب المشاكل السياسية والاجتماعية التي رآها أجدر بالاهتمام ، بل رجح ان يتقصى أصولها وبواعثها وصلتها بتركيب المجتمع الاغريقي وطبيعته عساه يجد بطريقها سبيلا الى تعيين

المهمة الحقيقية للفلسفة ، اهي تفسير الواقع من حيث هو معقول لانه قائم بحكم الضرورة ام ان مهمتها التمعن في الواقع وتحليل طبيعته بقصد تغييره وصولا الى المسألة الاساسية التي راى انها أم المسائل ، وهي مسألة تحرير الانسان من العبودية وتمكينه من تحقيق ذاته وكانت قد شغلته ودفعت به الى تجاوز التفكير التأملي والتغلغل في أعماق الواقع وتقصي عوامل التغيّر فيه وبواعثه الخفية . كما اراد ان يتوسع في البحث ليتناول صلة فلسفة الطبيعة عند الاغريق بفلسفتهم التقليدية . لكن الحاح باور على ضرورة الانتهاء من الاطروحة على عجل وحاجة ماركس الملحة الى عمل يكسب به عيشه وتلكؤ عائلته عن مساعدته بعد وفاة ابيه، كل ذلك حمله على حصر موضوع أطروحته في «مقارنة بين فلسفة الطبيعة عند ديمقريطس وابيقور» واتمامه على عجل وتقديمه الى جامعة ينا خشية ان ترفضه جامعة برلين التي هيمن فيها الاتجاه المعادي للهيغلية والهيغليين . وفي آذار سنة ١٨٤١ ، قبلت جامعة ينا أطروحته ومنحته شهادة الدكتوراه . وكان حصوله على الدكتوراه بداية مرحلة جديدة في حياته الفكرية ، لانه برغم ترجيحه الهيغلية بوصفها مرجعه المفضل قرر ان يختط لنفسه نهجا خاصا ويتخذ من فلسفة هيغل سبيلا للوصول اليه (١١) .

٤ ـ ماركس في أطروحته

كان لاختيار ماركس فلسفة ديمقريطس وابيقور موضوعا لاطروحته ، دلالته. فديمقريطس بين الاولين من فلاسفة الاغريق ، كان في طليعة الذين بدت في فلسفتهم ملامح المادية وجاء في المختار من اقواله «ان كل تغيّر ليس الا اتحاد اجزاء او انفصال اجزاء ... وما من شيء يحدث دون سبب ، فكل شيء بسبب وبحكم الضرورة ... وليس في الوجود غير ذرات تسبح في فراغ ، وكل ما عدا ذلك وهم ... والذرات وهي لا حصر لها نوعا وشكلا ، تتساقط منذ الأزل في الفراغ اللامتناهي ، الكبير فيها يسقط بسرعة اكبر ويصطدم بالاصغر وينشأ عن سقوطها واصطدامها حركة في المادة تقيم العوالم ..» (١٢) .

واتخذ ابيقور فلسفة ديمقريطس هذه اساسا لفلسفته وتوسع فيها وطوّرها بأن افترض ان للذرات قدرة ذاتية على الحركة تستطيع بها ان تنحرف عن خط تساقطها العمودي فتصطدم المتساويات في الحجم والسرعة ببعضها بطريق المصادفة . واستند الى فرضية القدرة الذاتية على الانحراف والى فرضية المصادفة فأنشأ فلسفة عارض بها فلسفة ديمقريطس والطبيعيين وكانت تستند الى فرضية ان الطبيعة كلّ تتحكم به الضرورة وحدها بحتمية لا مرد لها . وقال ابيقور ان الطبيعة ليست غير حشد من فرديات لكل منها ذاتيتها الخاصة في الكيان الكلي ولها سبيلها في ممارسة ارادتها الحرة والخروج بطريق المصادفة عن

حكم القدر المحتوم ، وأحدث بهذا التصور انقلابا في مجمل الفكر الاغريقي التقليدي الذي استند الى فكرة الكلية وحدها وأغفل فكرة الفردية . وبنى ابيقور على فرضية القدرة على الانحراف عن طريق الضرورة نظريته في قدرة الانسان ان ينتزع ارادته ويحررها من قبضة القدر ؛ وبنى على فرضية المصادفة نظريته التي شكك فيها في ان يكون للآلهة قدرة مطلقة يتحكمون بها في شؤون البشر . وقال ان الآلهة جزء من الطبيعة ويخضعون لنواميسها كما تخضع سائر الموجودات ، لا يمتازون عنها الا بأنهم جبلوا من مادة في غاية النقاء ، وانهم يقتضي ان يعبدوا لا خشية من بطشهم او طمعا في عطائهم بل تقديسا لهم بوصفهم مثلا رفيعة النقاء التام والسمو المطلق . ورأى ابيقور ان الاحساس سبيلنا الى المعرفة وما نتوصل اليه بوساطته هو الحقيقة ، وان الخطأ فيما نتصور او ندرك ليس مرجعه الحواس وما تنقله الى الذهن بل مرده سوء التفسير والتأويل، وبهذا رفض رأي ديمقريطس الذي صنّف بمقتضاه المعرفة في صنفين ، معرفة تأملية يتوصل اليها العقل هي المعرفة الحقة لانها تبلغ الحقيقة بطريق العقل وحده ، ومعرفة هجين يشترك العقل والحواس في بلوغها (١٣) .

ورجح ماركس الابيقورية على فلسفة ديمقريطس ، ووصف ابيقور بأنه اعظم مستنير اغريقي ، وقدر في فلسفته رفضها ان تجعل الآلهة مصدر ارهاب بالتهديد والوعيد او ترغيب لا عن قناعة بل عن طمع برضائها ونعمها . وقدر فيها ايضا فكرة الاختيار التي أكدت الضرورة الى الحرية بوصفها مبعث كل تغيير . لكنه اخذ عليها وضعها الحرية في وضع معارض للضرورة واغفالها الصلة الديالكتية بينهما . فقد رأى ماركس ان الحرية ترتبط ارتباطا موضوعيا بالضرورة وتتحقق بحكم صلتها الديالكتية بها ، اي انها تتحقق عندما تصبح ضرورة لا غنى عنها . ورأى ان الحرية والضرورة لا تتعارضان كما تصور ابيقور ، بل هما متلازمتان لان الضرورة الى التغيير والتطور في حياة الانسان هي التي تولد الحاجة الى الحرية.

٥ ـ ماركس وفويرباخ

وفي السنة التي أتم فيها ماركس أطروحته ونال شهادة الدكتوراه، نشر لودفيك فويرباخ ، احد الهيغليين ، كتابه «ماهية المسيحية» الذي اخذ على انه مواصلة لحملة اليسار الهيغلي على الكنيسة الكاثوليكية شأنه شأن كتابي شتراوس وباور ، ولو انه كان في الحقيقة اوسع موضوعا وابعد اثرا . وقارن فويرباخ بين كتابه وكتابي شتراوس وباور وقال «ان باور اقتصر في كتابه على بحث تاريخ الاناجيل، وشتراوس اقتصر في كتابه على نقد تعاليم المسيحية ، اما انا فاستعرضت موضوع المسيحية بوجه عام وتجاوزته الى اللاهوت والفلسفة وغرضي كشف جوهر الانسان» (١٤). وكانت الفكرة الاساسية التي خرج بها فويرباخ في كتابه هي ان الدين يكشف حقا جوهر الانسان لكن هذا الجوهر عندما يصور على انه محض هبة

يؤدي بالانسان الى الضياع لانه يسلبه ذاته ويلقي به في غربة لا قرار لها . وأوضح رايه هذا في كتابه بأن دلل على ان الصفات القدسية مثل الحكمة والقدرة والحق والرحمة والعدل والعلم بالغيب وغيرها من الصفات التي نسبت الى الآلهة ، شخَّصها الانسان في الاصل بآلهته لانه افتقدها في نفسه وهو يريدها لها . وقال في رسالة لاحد اصدقائه «ان جوهر الدين هو العاطفة الانسانية ذاتها . وسر اللاهوت يكمن في اصل الانسان ومنشئه ، اي في الانثروبولوجيا ... ومن هنا نشأت الضرورة الى علم يتقصى فلسفة الدين من حيث صلتها بالانسان وبعلم النفس ..» . فمبدأ الدين وفحواه وغايته ، في رأي فويرباخ ، هو الانسان والانسان وحده . وبهذا الاعتبار نقل فويرباخ الدين من مجال العقل الى واقع حياة الانسان وجعله موضوعا لعلم النفس ، اي انه خرج على رأي هيغل وغيره ممن انكر امكان نقل الدين من مجال العقل ورأى فيه وسيلة العقل لادراك الحقيقة(١٥). وخالف كذلك ، غيره من الهيغليين في اعتقاده ان منشأ الدين يرجع الى الطبيعة والانسان وقال في رسالة له الى ابيه «اني اتوق ان اضم الطبيعة الى صدري، الطبيعة التي يتجاهلها اهل اللاهوت ، واضم معها الانسان ، الانسان بكليته ، لا الانسان كما يراه اهل اللاهوت او التشريع او القانون ، بل الانسان كما هو في الفلسفة » (١٦) .

وتأثير فويرباخ في تفكير ماركس لم يكن مبعثه اهتمام فويرباخ باللاهوت بل اهتمامه بالانسان وبالطبيعة . ولهذا يرى بعض مؤرخي حياة ماركس ان انجلز اخطأ بقوله «ان نظرة واحدة في كتاب (العائلة المقدسة) تكشف مدى تأثر ماركس بكتاب ماهية المسيحية ومبلغ الحماسة التي استقبله بها» (١٧) . ويرجحون ان يكون الامر اختلط عليه لانه عبر عن هذا الرأي بعد قرابة نصف قرن عن الحادث وربما اراد به ان يصف ما كان من وقع للكتاب في نفسه ولدى الهيغليين الذين اعلنوا الحرب على الكنيسة وبهم نقمة شديدة عليها . فماركس لم يشر في الحقيقة، في رسالة «العائلة المقدسة» الى كتاب «ماهية المسيحية» بل اشار الى رسالتين اصدرهما فويرباخ بعد هذا الكتاب هما «رسالة الموضوعات الاساسية لاصلاح الفلسفة» و«أسس فلسفة المستقبل» اللتين تأثر بهما اكثر من تأثره بكتاب «ماهية المسيحية» وكانتا مصدر اكثر الافكار التي اخذها عن فويرباخ او التي اوحت له بما توصل اليه من الآراء (١٨) .

ففي «الموضوعات الاساسية لاصلاح الفلسفة» وردت فكرة الضرورة لقلب فلسفة هيغل رأسا على عقب لجعلها تصلح ان تكون وسيلة لادراك الحقيقة . فقد افترض هيغل ان اصل الحقيقة هو اللامتناهي المتمثل في الفكرة المطلقة المجردة من الزمان والمكان لا نقيضه المتناهي المتمثل في الوجود المتعين المحدود ، فتصور فويرباخ الحقيقة على العكس ، متمثلة في الوجود المتناهي المعين والمحدود ، وقال ان موضوع الفلسفة هو الواقع وليس الفكر المجرد كما افترض هيغل الذي عالج في منطقه موضوع الانسان بلا انسان وموضوع الطبيعة بغير طبيعة ؛ بينما الاصل

في الفلسفة ان تبدأ بالمحسوس اي ان تبدأ بما هو ليس فلسفة كما فعلت الفلسفة الفرنسية التي هي بمثابة الترياق للمثالية الالمانية الميتافيزيقية . وعلى هذا الاساس وصف فويرباخ الصلة بين الوجود والفكر على عكس ما فعل هيغل الذي جعل الفكر هو المبتدأ والوجود مسند اليه فجعل فويرباخ الوجود هو المبتدأ والفكر مسند اليه واعتبر الفكر منشؤه الوجود وقال ان الوجود اساسه الطبيعة والطبيعة منبت الانسان والانسان هو مدار الفكر (١٩) .

وفي «أسس فلسفة المستقبل» التي شرح فيها جانبا من الموضوعات الفلسفية، اوضح الجدوى من الفلسفة التي اساسها الانسان وتعتمد الانثروبولوجيا ؛ وقال ان هيغل حاول ان يكون موضوعيا لكنه لم يتجاوز في موضوعيته نطاق التجريد فلم تكن واقعية الفكر عنده غير واقع فكري . وقال ، يجب ان تأخذ الفلسفة الحديثة الوجود لا من حيث هو تشخيص لفكرة بل من حيث هو موضوع قائم بذاته ، اي كما تتلقاه الحواس . وقال ان الفلسفة الحديثة اعلنت ان الحكم النهائي للانسان بكامل كينونته وليس للذات او للعقل بمعزل عن الوجود ، بعكس الاولين الذين قالوا ان كل ما ليس فكرا ليس له وجود . وان الاولين قالوا ان المعقول وحده هو الصحيح وهو الحقيقي ، أما المحدثون فقالوا ان الصحيح والحقيقي هو الأنسي وان وحدة الوجود او العقل لا مدلول لها ولا مغزى الا اذا كان الانسان مصدرها وغايتها . والانسان ليس المقصود به ، الانسان الفرد ، فجوهر الانسان هو الجمع الذي يقوم باتحاد الانسان بالانسان (٢٠) .

ويقول ماركس في «مخطوطات باريس» ان فويرباخ دحض في «الموضوعات» ، الغيبية في فلسفة هيكل وكان اول هيغلي وقف من هيغل موقف الناقد وتوصل الى نتائج ذات جدوى . وأخذ ماركس عن فويرباخ فكرة ان الوجود هو المبتدأ او المسند اليه وفكرة انسية الفلسفة واجتماعية الانسان ؛ ومن آرائه استوحى فكرة انتفاء الفلسفة عند بلوغ الانسان غايته منها، واستند اليها فيقوله بضرورةاستعانة البروليتاريا بالفلسفة لتحقيق هدفها ، فاذا حققته انتفت حاجتها الى الفلسفة . ومن فكرة فويرباخ في الجمع بين المثالية الالمانية والفلسفة الفرنسية التي اعتمدت الاحساس وتمثلت بالعاطفة وبالفعل اخذ ماركس فكرة الجمع بين النظرية والبروليتاريا ، واضعا النظرية في موضع المثالية الالمانية والبروليتاريا في موضع الفلسفة الفرنسية وهي الفكرة التي ترجع اليها ايضا نظرية هيس بضرورة تضامن الشعوب الثلاثة البريطاني بثورته الصناعية والفرنسي بثورته الكبرى والالماني بفلسفته وانشائهم الحضارة العالمية . وعن فويرباخ اخذ ماركس ايضا ، فكرة المعانات بوصفها حافزا على التقدم كما جاء في قول فويرباخ «ان وجودا بلا حاجات ليس وجود وان كائنا بلا معاناة كائن لا وجود له» وقال «لاجل ان يكون الانسان انسانا ذا احساس لا بد له ان يعاني ... فالاحساس بالمعاناة هو الذي يجعل الانسان كائنا ذا عاطفة ...» . وعنه اخذ كذلك فكرة تأنيس الطبيعة وتطبيع الانسان وكان قد نوه بها في ماهية المسيحية وفصلها في الموضوعات وعليها بنى

ماركس فكرته في ان الشيوعيـــة هي اتمام لعملية تطبيـــع الانسان وتأنيس الطبيعة (٢١) .

وعن كتاب «ماهية المسيحية» اخذ ماركس فكرة الصلة بين الماهية والحاجة . فقد قال فويرباخ ان ماهية الكائن او الوجود تتعين بحاجته ، فما هو ضروري له يعين حقيقته ويكشف جوهره ؛ كالعين تتعين ماهيتها بما تريد فهي لا تريد الصوت ولا الرائحة ولكنها تريد الضياء لتبصر ، والبصر يعين هويتها . وقال ، والانسان لا يكون انسانا الا بهدف . وعلى هذا النحو تصور ماركس الصلة بين الانســـان وطبيعة الاشياء كما اوضحها في فصل الملكية في كتاب «رأس المال» حيث قال «ان الاشياء لا تكون ذات موضوع للانسان الا اذا تحولت في حياته الاجتماعية الى واقع تدركه حواسه ... والكيفية التي يدرك بها الانسان الشيء تتعين بطبيعة الشيء وطبيعة الملكة التي تدركها . فالشيء لا يكون للعين كما هو للأذن ، ولا يكون للاذن كما هو للعين ؛ والصفة التي تتسم بها كل ملكة من ملكات الادراك تعين هويتها وتعين الكيفية التي يكون فيها الشيء موضوعا لها . ولهذا فان وجود الانسان لا يثبت في عالم الواقع بالفكر وحده وانما يثبت بمجموع حواسه (٢٢) .

ومثلما أكد فويرباخ الضرورة الى ان يكون الاجتماع تعزيزا للفردية لا سلبا لها وقال ان ذاتية الانسان لا تتجلى الا بالاجتماع وبالاتحاد بين الانسان والانسان ، شريطة ان يعزز هذا الاتحاد تمايز «الانا» عن «الانتم» ، قال ماركس «ليس هناك في الاصل تعارض بين الانسان الفرد والانسان المجموع ، فخصوصية الفرد هي التي تجعل منه انسانا حقيقيا وكائنا اجتماعيا» (٢٣) . ولعل من اهم ما اخذه ماركس عن فويرباخ فكرة القاعدة والتراكيب الفوقية التي انشأ عليها ماديتـــه التاريخية . فمثلما جعل فويرباخ الطبيعة اساس مجتمع الانسان والروح تركيبا فوقيا ، كذلك فعل ماركس ، فجعل التكوين الاقتصادي هو القاعدة وسائر النظم الاجتماعية الاخرى تراكيب فوقية تقوم عليه (٢٤) .

وأخيرا ، فان تأثر ماركس بفويرباخ كان مبعث تصوره ان الانسان كائن تقوم ماهيته على اساس علاقته ببني جنسه وبالطبيعة ، وان التغيرات الجذرية التـــي تطرأ على المجتمع اساسها الامكانات والعوامل والطاقات الكامنة في واقعه ولا تأتي اليه من خارجه . بيد ان ماركس رغم كل تأثره بفويرباخ ، لاسيما في الفترة التي وضع فيها «مخطوطات باريس» ، لم يلبث ان تجاوزه وكان منذ البدء يتحسس ما بين نهجيهما من تفاوت . وجاءت اولى ملاحظاته في نقد فويرباخ ، في رسالة له الى روغه ، في آذار سنة ١٨٤٣ ، قال فيها «ان امرا واحدا في اقوال فويرباخ لا يروق لي ، هو اطنابه في الكلام عن الطبيعة وكلامه القليل جدا عن السياسة ، بينما السياسة هي الوسيلة الوحيدة التي تتحول بها الفلسفة الى واقع» (٢٥) . ولاحظ ان افكار فويرباخ هي في الاساس ، تأملية تدور في فلك التفسير والتأويل والتعليل ولا تعنى بالتطبيق او تصلح دليلا لعمل . كما لاحظ ان فويرباخ ، رغم كل نقده لمثالية هيغل ، بقي في صميمه مثاليا اغفل الاقتصاد وعملية التطور واهمية الديالكتية . وتفاوتت نظرته الى الطبيعة عن نظرة ماركس اليها ؛ فقد نظر اليها

من حيث هي وجود تدركه الحواس فحسب ، بينما رأى ماركس فيها كيانا حيا يتغير فيغير الانسان ويتغير بفعله . وتفاوتت كذلك ، نظرتهما الى الثورية ؛ فالثورية عند فويرباخ لم تتجاوز حدود الفكر واغفلت العمل والجهد في معالجة مشاكل الحياة والمجتمع فكان شأنه شأن هيغل في إغفال الصلة بين أحداث الماضي والحاضر والمستقبل [٢٦] . وأوجز ماركس فيما بعد (سنة ١٨٤٩) نقده لفويرباخ في أطروحة شهيرة ذات احدى عشرة فقرة [٢٧] .

ويقول لينين : «ان ماركس مال ميلا واضحا ، عام ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ ، نحو المادية متأثرا بفويرباخ ، لكنه ما لبث ان ادرك ان مادية فويرباخ لم تتجاوز حدود المادية التقليدية التي التزمت الاحكام المطلقة وتجنبت الموضوعية الحسية فلم تبرأ من المثالية او تقطع صلتها بها . لكنها رغم ذلك ، كان لها تأثير عظيم في الوسط الهيغلي بسبب خروجها بحزم وثبات على مثالية هيغل وتأييدها المادية في وقت كان الاخذ بالمادية يعد بمثابة اعلان حرب على المؤسسات السياسية وعلى الكنيسة وعلى مجمل الفلسفة الغيبية» [٢٨] .

وكان ممن تأثر بهم ماركس ، بعد فويرباخ ، موزس هيس الذي قضى ردحا من شبابه في فرنسا وألم بآراء الراديكاليين والاشتراكيين الطوبائيين فيها وحمل الى المانيا افكار الاشتراكية والشيوعية بمفهوم مشاعية الاموال والحاجات . وكان متأثرا بوجه خاص ، بآراء فورييه وبآراء سان سيمون الذي بلغ اعجابه به درجة رفعه بها الى منزلة هيغل وعلل الفرق بينهما بما بين فرنسا والمانيا من تفاوت في اوضاع شعبيهما وسجاياهما [٢٩]. وتأثر هيس بعد عودته الى المانيا بآراء زايكوفسكي وفويرباخ وأخذ عن الاول فكرة البراكسس ، وعن الثاني فكرة الجمع بين الفكر الالماني والعاطفة الفرنسية وجعلها موضوع كتابه «السلطة الاوربية الثلاثية» الذي قال فيه بضرورة تضامن الشعوب الثلاثة ، الانكليزي والفرنسي والالماني والتأليف بين منجزات ثوراتها البروتستانية الالمانية والصناعية الانكليزية والسياسة الفرنسية في بناء حضارة عصرية انسانية توفر لشعوب العالم الحرية السياسية وتزيل سلطان الثروة ومساوىء الفقر والفوارق التي تباعد بين الحاكمين والمحكومين . وأكد هيس في كتابه ما اغفله فويرباخ من لزوم معالجة المشاكل الاجتماعية والسياسية بالنضال الفعال ، وشجب الموقف التأملي السلبي الذي التزمه اليسار الهيغلي ، وكان ثاني هيغلي بعد فويرباخ أقدم على نقد فلسفة هيغل بأن قال انها اكثر روحانية واقل مادية مما يقتضي وانها اهتمت بالماضي والحاضر واغفلت المستقبل ؛ وقال ان فلسفة التاريخ كما اوضحها هيغل هي تاريخ اكثر منها فلسفة ، كما قال بضرورة اكمال هذه الفلسفة بعنصري العمل والتطبيق اللذين افتقرت اليهما [٣٠] .

٦ ـ ماركس والصحافة

قضى ماركس بعد حصوله على الدكتوراه ، سنة ١٨٤١ ، يتنقل بين ترير

وكولون وبون يفتش عن عمل يكسب به عيشه ، فلم يجد اخيرا الا ان يفعل ما فعله غيره من اليسار الهيغلي فيمتهن الكتابة في الصحف بعد ان امتنع عليه الحصول على وظيفة التعليم في جامعة بون بفصل باور من وظيفته فيها وفشل مشروع مجلة اراد هو وباور ان يصدراها لتكون لسان حال اليسار الهيغلي . وصادف ان نصحه صديق له ان يكتب في مجلة «الحولية الالمانية» التي كان يصدرها هيغلي يساري هو «ارنولد روغه» ، فكتب مقالا بعنوان «تعليق على التعليمات البروسيةالاخيرة للرقابة علىالصحف» (٣٠) وأرفقه برسالةالى روغهعرض فيها استعداده لتحرير قسم مراجعة الكتب في المجلة . لكن المقال منعته الرقابة فلم ينشر في الحولية الالمانية ونشر بعد سنة في «الانكدوتا» التي كان يصدرها روغه في سويسرة وينشر فيها المقالات التي تمنع الرقابة البروسية نشرها . وكان المقال نموذجا لتطبيق الديالكتية في معالجة الشؤون الاجتماعية والسياسية الجارية وللاسلوب الذي اخذ به ماركس في كتاباته المبكرة وبعض كتاباته المتأخرة بالتصدي لكشف نقاط الضعف واللاعقلانية في الموضوع الذي يعالجه ومواجهتها بما يعارضها ويصححها . واظهر ماركس في مقاله ، العيب في تقييد حرية النقد التي تفرض العقلانية توسيع مجالها . وقال ان التعليمات وهي تجرم من يتعرض بالنقد لاجهزة النظام او لتعاليم الكنيسة او للعرف والتقاليد ، تدين كل اعاظم المفكرين والمصلحين الذين برزوا في التاريخ بمعارضتهم المألوف السيء واظهار عيوب الانظمة ؛ وانها بمعاقبة الناس على ما يرتأون تخرج على روح القانون الذي يفترض مقاضات الناس على اعمالهم لا على نياتهم واجتهاداتهم ؛ وهي في حصرها القدرة على التمييز بين الحق والباطل والنافع والضار بالسلطة وحدها تحكم على المجتمع بالجهالة وسوء التقدير بينما الاصل ان يكون المجتمع مرجع تعيين معايير الحق والباطل وتمييز النافع عن الضار . وتعليمات الرقابة بعد هذا تغفل امرا جوهريا في عدالة الاحكام هو ان الاصل فيها ان تتوخى الايجاب وتكون نيّرة سمحة بعيدة عن الانفعالات الشخصية والتصرفات الاعتباطية . وعبر المقال بوجه عام عن نزعة ديمقراطية ليبرالية في نطاق المفاهيم الهيغلية (٣١). ولم يستطع ماركس ان يواصل الكتابة في الحولية الالمانية بسبب تعطيلها ، لكنه كتب مقالا ثانيا نشر في الانكدوتا ايضا ، بعنوان «لوثر يقضي بين شتراوس وفويرباخ» (٣٢) استشهد فيه بمقتبس من كتابات لوثر أيد فيه ما ذهب اليه فويرباخ من ان المعجزات والصفات القدسية ليست سوى تصورات تعكس ما يجيش في نفس الانسان من أمنيات ورغبات(٣٣).

وتعرّف ماركس اثناء وجوده في كولون ، عن طريق هيس ، بالوسط الليبرالي الذي كانت تمثله فيها هيأة غير رسمية عرفت بحلقة الليبراليين ، ضمت عددا من كبار الماليين ومن جملتهم «كامبهاوسن» و«هانسه مان» اللذان توليا فيما بعد رئاسة وزارة بروسيا ، وفريقا من رجال الصناعة والمثقفين استقر رأيهم على تأسيس شركة تصدر صحيفة تنطق بلسانهم . وأصدروا بالفعل في مطلع سنة ١٨٤١ «الجريدة الراينية» (٣٤) لتكون كما جاء في صدر عددها الاول «في خدمة السياسة

والتجارة والصناعة وتدافع عن مصالح الطبقة الوسطى في منطقة الراين وتعمل لإبقاء القانون المدني (الذي شرعه نابليون) نافذا وتضمن لجميع المواطنين المساواة امام القانون وتسعى لتحقيق وحدة المانيا ..» (٢٥) .

وكانت الصحف الليبرالية ، في تلك الفترة ، كثيرا ما تخرج عما يخططه لها مؤسسوها او ممولوها لتقع بأيدي الشباب الراديكالي ؛ وحصل هذا بالفعل الجريدة الراينية ، فان مؤسسيها رغبة منهم في اجتذاب أكفاء المحررين لمواجهة غريمتهم «الجريدة الكولونية» التي كانت وهي تنطق بلسان الكاثوليك وغلاة المؤيدين لنفوذ البابا ، اوسع صحف الراين انتشارا وأبعدهم اثرا ، اضطروا لمنافستها ان يستعينوا بالشباب الهيغلي ، فلم تلبث جريدتهم ان اتخذت اتجاها راديكاليا . ويشير ميهرنك الى ذلك فيقول «لا يصح ان نفترض ان التحول الحاد في اتجاه الجريدة عما اراده لها مؤسسوها جرى دون علم منهم ، بل الاحرى انهم كانوا من الذكاء بحيث ادركوا ان ليس باستطاعتهم ان يجدوا محررين ذوي فطنة ومقدرة غير اولئك الشبان الذين اندفعوا يعملون بمنتهى الحمية والجد ؛ بل لعلهم اكتفوا بما كان ينشر مما يخدم مصالحهم فلم يلتفتوا الى ما عداه مما لا يعنيهم امره او فهمه ، وحسبوه في عداد المساجلات النظرية غير الضارة . وأيا كان السبب ، فان اصحاب الجريدة تجنبوا التدخل في شؤونها المتعلقة بالادارة والتحرير برغم ما كان يبلغهم من تبرم السلطة بما كان ينشر في الجريدة وتراه ضارا وخطرا ..» (٢٦) .

ولم يلبث ماركس ان احتل في هذا الوسط الليبرالي مكانا مرموقا . فقد وصفه احد المنتمين فقال «انه اكثر من عرفت فطنة وأوسعهم معرفة» . وقدمه هيس في رسالة الى احد اصدقائه قال فيها «سيسرك ان تتعرف على رجل هو الان من اصدقائنا ... لعله الفيلسوف الحقيقي الوحيد بين الأحياء وليس من ريب في انه سوف يستثير عما قريب اهتمام المانيا كلها ... انه الدكتور ماركس الذي جمع بين بصيرة فلسفية رصينة وموهبة نادرة لسخرية لاذعة ... وتستطيع انت‌ان تتصور روسو وأولباخ وليسنك وهاينه وهيغل وقد تمثلتهم شخصية‌واحدة هي شخصية الدكتور ماركس ...» (٢٧) .

وبإلحاح من باور تحول ماركس من الكتابة في الانكدوتا الى الاهتمام بالجريدة الراينية فشارك في تحريرها وتوجيه سياستها وكتب اول مقال له فيها في نقد المدرسة التاريخية للقانون (٢٨) . ثم نشر ابتداء من نيسان سنة ١٨٤٢ ، سلسلة مقالات راجع فيها محاضر برلمان الراين التي تناولت حرية الصحافة (٢٩) . وكان لاهتمامه بمتابعة أحداث الحياة اليومية الجارية بسبب قيامه بتحرير هذه المقالات، تأثير عميق في تفكيره اذ اتاحت له اول تماس مباشر وفعلي بمجرى الحياة العامة وواقعها . وكان ينظر قبل ذلك الى الامور بعين هيغلي فيتصور الدولة تجسيدا للمصلحة العامة ويتصور القانون تشخيصا للعدالة ويرى الصحافة معيارا للعقلانية والتاريخ تجليا للروح الانسانية ، فاذا به يجدها كلها في خدمة المصالح الخاصة، ويجد حرية الصحافة يُنظر اليها لا من حيث هي حق طبيعي للانسان العاقل بل

من حيث هي وقف لفئة خاصة تنطق بلسانها وتعبر عن مصالحها ولا تخدم غير مصلحة الاقطاع الذي كان ما يزال هو المهيمن في النظام البروسي ، ويراها في ظل الرقابة ملوثة بالرياء الذي هو مبعث كل رذيلة وليس كما كان يتصورها ، عينـــا للشعب يقظة ترقب السلطة . وعلق على قول لاحد الخطباء اراد حرية الصحافة لضمان حرية التجارة ، مستنكرا الانحدار بحرية الراي الى الدرك الذي يجعل منها وسيلة مبتذلة في خدمة التجارة وقال اذا لم يكن للصحفي بد من ان يكسب بعمله ما يقيم به أوده واود عياله فشرط الصحافة الحرة ان تتحرر من التجارة . وخلص الى ان قانون الصحافة يقتضي ان يكون موضوعيا وشاملا لانه يعالج الحرية في التطبيق ، ولا يصح ان يتخذ وسيلة لمنع النقد ، فالقوانين لا تمنع الناس من الاحساس والتفكير .

واعترضته بعد مقاله عن حرية الصحافة قضايا صرفته عن مواصلة التعقيب على مداولات المجلس ، كان منها اضطراره الى الرد على الجريدة الكولونية التـــي علقت على مقالة له عن المدرسة التاريخية للقانون مطالبة بمنع الصحف من بحث الموضوعات المتعلقة بالفلسفة او اللاهوت ، مدعية ان تدهور دول العالم القديـــم واندثار حضاراتها نجم عن الاستهانة بالمعتقدات . فرد عليها ماركس موضحـــا ضرورة الفصل بين الدولة والكنيسة ومدللا على خطر جعل الدين من وسائـــل السياسة وربط المعتقدات التي لا ينالها التغيير بشؤون الحياة الاجتماعية التي تخضع لسنن التبدل وخلص الى ان الصواب هو بعكس ما ذهبت اليه الجريـــدة الكولونية في زعمها ان اضمحلال دول العالم القديم وزوالها كان بسبب الاستهانة بالمعتقدات أذ الامر على العكس ، فان اضمحلال هذه الـــدول هو الذي ذهب بمعتقداتها (٤٠) . ثم اضطر للرد على جريدة اخرى علقت على بحث نشر في الجريدة الراينية استعرض اعمال مؤتمر لأتباع فورييه ، واتهمتها بترويج افكار شيوعية وسخرت من ابناء التجار الاثرياء الذين يرددون الافكار الاشتراكية على سبيل اللهو وبسذاجة وقالت ان من السخف تهديد الطبقة الوسطى في بلد متخلف اقتصاديا كألمانيا بمصير الارستقراطية الاقطاعية الفرنسية في سنة ١٧٨٩ (٤١) . وقـــال ماركس في رده (٤٢) ، ان الجريدة الراينية لا تقول حتى بالصحة النظرية للافكار الشيوعية ناهيك عن الدعوة الى تطبيقها وهو امر لا ترجحه بأية حال ، بيد ان ذلك لا يمنع التمعن بالافكار التي تتناولها الاشتراكية وتمحيصها . وقال ، لو ان الذي وجه الى الجريدة الراينية هذه التهمة كان حصيفا حسن النية لادرك ان افكارا نادى بها مفكرون كبار ... لا يجوز تجاهلها ومقابلتها بآراء سطحية فجة وبلغو الكلام . وقال ، ان الخطر الحقيقي لا يكمن في الدعوة الى تطبيق الافكار الشيوعية بل بثبوت صحتها النظرية، والمحاولات الفعلية لتطبيقها حتى اذا اصبحت جماهيرية يمكن احباطها بالقوة ، غير ان الافكار اذا ما هيمنت على العقول وتحولت الـــى ايمان راسخ يتحكم بالضمائر ، اصبحت كأغلال لا خلاص منها الا بتحطيم قلوبنا ، بل صارت قوة لا سبيل الى ردها الا بالاستسلام لها . وكان رد ماركس هذا ، اول

مقال كتبه بصفته رئيسا لتحرير الجريدة الراينية وله اهمية خاصة لانه القى الضوء على موقف ماركس من الاشتراكية الفرنسية في هذه الفترة .

٧ ـ ماركس والتطرف اليساري

وبرزت في وسط اليسار الهيغلي في برلين في هذه الاثناء ، فئة عرفت بـ «الاحرار» «Freien» تجاوزت في تطرفها الراديكالية الى ما هو قريب من النهلية، فحملت على البورجوازية الليبرالية ناعتة اياها بالانتهازية، وأرادت ان تحول الجريدة الراينية الى منبر لدعايتها ، فعارضها ماركس مؤكدا ان التغافل عن البيروقراطية الاقطاعية التي تهيمن على المانيا بالفعل والتعرض لليبرالية ومن ورائها البورجوازية الصناعية هو بمثابة تأييد للرجعية تحت ستار التطرف اليساري ومن شأنه ان يصرف البورجوازية عن دعم الحريات الديمقراطية ويتيح المجال للسلطة للتضييق على حرية الرأي ، ورجح ان توجه الجريدة الراينية اهتمامها الى الشؤون الاجتماعية والسياسية ذات المساس المباشر بالحياة العامة وتتجنب التطرف الذي ليس وراءه الا اثارة الضجيج دون طائل ، وان تكون لهيئة التحرير الكلمة العليا في توجيه سياستها حتى لا تتقاذفها الاهواء وتظل سبيلها في مهب الآراء المتضاربة (٤٣) . وعلى هذا الاساس قبل ان يتولى رئاسة تحرير الجريدة في آب سنة ١٨٤٢ . وابدى ماركس من المقدرة والمثابرة على العمل دون كلل ومن حسن الاختيار في تعيين المحررين وتوجيههم وتنسيق العمل في ادارة الجريدة ، ما اثار الاعجاب وانعكس للتو في زيادة عدد القراء والمشتركين . فقد كان عدد المشتركين عند استلامه رئاسة التحرير لا يتجاوز الالف فارتفع الى ثلاثة آلاف في كانون الثاني سنة ١٨٤٣ . وقليل جدا من الصحف الالمانية يومئذ حظي بهذا العدد الكبير . واحتلت الجريدة مكانة مرموقة في الوسط الصحفي حتى صار قبول مقال فيها ونشره مدعاة فخر لكاتبه ، وتجاوز تأثيرها منطقة الراين الى الولايات الالمانية الاخرى (٤٤) . ووصف احد الكتّاب ماركس وهو في رئاسة التحرير فقال «كان كارل ماركس التريري شابا في الرابعة والعشرين من عمره، قوي الشكيمة يغطي الشعر الاسود الكث خديه وذراعيه ، يعمل باندفاع وحماسة وبثقة عظيمة بالنفس ، حاد الطبع لا يكل عن الجدل والمناقشة ، بعيد الهمة واسع الاطلاع ...» (٤٥) .

وحاول ماركس ان يسوي خلافه مع «الاحرار» فكتب الى صديقه برونو باور، وكان له في وسطهم كلمة مسموعة ، يطلب اليه اقناعهم بتعديل موقفهم. لكنه وجد باور منحازا الى جانبهم فكتب اليهم مباشرة يوضح لهم وجه الخطأ في موقفهم ، كما ذكر في رسالة له الى روغه في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٤٢ ، قال فيها «تقتصر رسالتي هذه على مشكلتي مع الاحرار . وليس بخاف عليك ما نعاني من قسوة الرقابة في عملنا اليومي ، وكثيرا ما يتعذر علينا اصدار الجريدة . والرقابة

تفكك وتشوه كثيرا من مقالات الاحرار مما اجبرني ان اسمح لنفسي ان اعدل فيها قبل ان اقدمها اليها . والاحرار يرسلون الى الجريدة اكداسا من مسودات محشوة بركيك القول وفيها آراء عن ثورة عالمية وشيكة وعن الالحاد والشيوعية ، معبر عنها بأسلوب فج لم يكلف كاتبوها انفسهم عناء تدقيق وفهم ما يكتبون ..» . وقال انه استلم منهم ردا على رسالته شديد اللهجة فاضطر ان يواجههم بكشف ما ينطوي عليه سلوكهم من سوء وضرر وطلب اليهم «ان يتجنبوا الآراء المبهمة والعبارات الجوفاء الرنانة وغرور الاعجاب بالنفس»... وقال «واوضحت لهم ان اقحام الافكار الاشتراكية والشيوعية عرضا وبطريقة استعراضية ، وهي افكار تعبر عن نظرة جديدة ، امر غير لائق ولا اخلاقي ، واذا لم يكن بد من التطرق لها فالاحرى ان يكون بعد دراسة وفهم وتمحيص ، واذا وجدت ضرورة لنقد تعاليم الكنيسة فالاجدى ان يكون بصدد نقد الاوضاع الاجتماعية والسياسية لا بنقد الدين من اجل نقد تلك الاوضاع ، لان الطريقة الاولى اكثر انسجاما مع طبيعة الصحافة وابعد تأثيرا في تثقيف القراء ... واذا اريد البحث في الفلسفة فالاصح تجنب اضاعة الوقت سدى في حديث الالحاد والا كنا كالاطفال عندما يتظاهرون .. بأنهم لا يخافون الغيلان ...» وقال الى روغه «حقا ان موقفهم يكشف عن منتهى الغرور ... وهم عاجزون تماما ان يفهموا اننا من اجل الحفاظ على جريدة سياسية مضطرون الى اهمال ثرثرة برلين ... ونحن نعاني من صباح يومنا حتى مسائه اقسى العذاب من مداخلات الرقابة وتوالي البلاغات الوزارية ومن اتهامات رئاسة المنطقة وصرخات الاحتجاج في البرلمان وولولة اصحاب الجريدة ... وان كنت تراني ما زلت باقيا في عملي فلأني ارى ضرورة الصمود ما استطعت لاحبط مسعى السلطة واحول دون بلوغها مأربها ...» (٤٦) .

ويرجع «ميهرنك» واقعية ماركس وموقفه من الكنيسة واللاهوت الى نشأته، فهو لم يشعر بوطأة التعصب الديني او الاضطهاد العقائدي في بيته او في وسطه الاجتماعي ، ولهذا نشأ قليل الاكتراث بالمساجلات اللاهوتية لا يرى جدوى في تبديد الجهد فيها وساءه ان يرى شباب اليسار الهيغلي وهو يضم في رأيه ، خيرة المثقفين ، يتجنب التمعن في المشاكل الاجتماعية والسياسية وتقصي اسبابها ، وهي الجديرة بالاهتمام ، ليصرف جهوده في التطرف النظري الذي لا صلة له بواقع الحياة وليس وراءه غير اضاعة الوقت والجهد واستثارة استياء الناس ونفرتهم (٤٧) .

وبينما كان ماركس يزداد خبرة بالشؤون العامة والتصاقا بواقع الحياة اليومية ، كان الاحرار يزدادون ضياعا في تطرفهم اليساري وفي آرائهم النهلية التي قيل ان الاديب الروسي تورجنيف عرفها ونقلها عنهم الى الادب الروسي(٤٨) ؛ وقد اتخذوا من الجريدة موقفا معاديا وقاطعوها . لكن الجريدة لم تفقد شيئا من مكانتها بانقطاعهم عن الكتابة فيها بل ازدادت شهرة وانتشارا وارتفعت مكانتها حتى اوشكت ان تكون في طليعة الصحف الالمانية . على ان انتشارها وبعد تأثيرها ولو

كان مبعث غبطة اصحابها ومحرريها فانه اقلق السلطة وأثار مخاوفها فضيقت الخناق عليهاوتحينت الفرص لتعطيلها وما لبثت ان واتتها الفرصة فأنزلت ضربتها.

فقد اتفق في هذه الاثناء ان اصدر موزس هيس كتابا بعنوان «التاريخ المقدس للجنس البشري» تناول موضوعي الاشتراكية والشيوعية وتضمن كذلك عرضا لمفهوم الطبقات واشارة لثورة البروليتاريا الوشيكة . ثم صدر كتاب آخر لعامل خياطة يدعى ولهلم ويتلنك بعنوان «الجنس البشري كما هو وكما يجب ان يكون» هاجم فيه المتجبرين في الارض من اصحاب الثروات الضخمة وقال انهم السبب في افتقاد العدالة والمساواة بين الناس . ووصلت الى المانيا في الوقت عينه اخبار الحركة الاشتراكية في فرنسا وأخبار الحركة الوثيقية في انكلتره . وأثار هذا كله قلق حكومة بروسيا وأرادت ان تتبين الحقيقة فأوفدت «لوزنو فون شتاين» احد خبرائها ليتعقب اخبار الحركة الاشتراكية عن كثب ويوافيها بتقرير عنها . فلما انهى مهمته اخرج اول بحث واف في الموضوع عنوانه «الاشتراكية والشيوعية في فرنسا اليوم» وكان كتابا وثائقيا أثار رغم سلبيته ، اهتمام الاوساط المثقفة فأدى الى عكس ما ارادت الحكومة . ولما استأنف ماركس متابعة التعليق على محاضر برلمان منطقة الراين علق على قانون سرقة الاحطاب والاخشاب في الغابات الذي صادق عليه المجلس (٤٩) ، وهو متأثر بكتاب فون شتاين وآراء برودون وويتلنك ، فكان تعليقه شديدا . وكان التقاط الاخشاب والاحطاب قبل صدور القانون مباحا بحكم العرف ، لكن ازدياد حاجة الصناعات اليه قبل شيوع عملية استخراج الفحم الحجري ، كان السبب في منع التقاطها او قطعها والتشدد في معاقبة المخالفين حتى قيل ان خمسة اسداس القضايا المعروضة على المحاكم في بروسيا كانت في تلك الفترة ذات صلة بمخالفات قانون الاحطاب (٥٠) . وأعلن ماركس في مقاله ان الاشياء كلها كانت في الاصل ، ملكا مشاعا ولم تتحول الى ملك خاص الا بطريق الظلم والاغتصاب ؛ وقال ان حماية الملكية الخاصة اذا جرت دون رعاية لمستلزمات سلامة العلاقات الاجتماعية والمصلحة العامة فقدت الروابط الاجتماعية والمصالح المشتركة مفهومها وفحواها . ووجه اللوم لاعضاء المجلس وأغلبهم من الملاكين ، نيابة عن الجماهير «المحرومة من ممارسة حقوقها السياسية والاجتماعية لانها لا تملك شيئا» ، وان الملاكين الذين استخدموا كل براعاتهم في استغلال الفلاحين عمدوا الى وضع هذا القانون ليجعلوا من الفلاح مجرما مزمنا يلاحقه العقاب ولا يجد منه مهربا لانه لا يستطيع ان يستغني عن الاحطاب وهي تقيه برد الشتاء القارص . وصادف في هذه الاثناء ، ان كتب مراسل للجريدة يصف حال زراع الكروم في وادي الموزل بأنها بلغت غاية السوء بعد الغاء الرسوم الكمركية بين الولايات الالمانية وحرمان صناعة الخمور من الحماية ، فأثار وصفه ثائرة حاكم الولاية واتهم الجريدة بنشر الاكاذيب وطلب موافقة برلين على اتخاذ الاجراءات القضائية ضدها . وردا عليه أعد ماركس دراسة عن وادي الموزيل معززة بالارقام نشرها في اول كانون الثاني سنة ١٨٤٣ ، ايد فيها ما ذكره المراسل وكانت آخر ما نشره في الجريدة (٥١) . اذ صادف ان نشرت الجريدة في الوقت

عينه» مقالا عن تدخل قيصر روسيا بشؤون بروسيا اعتبر انه تضمن مسا بشخص نيقولا الثاني فبادرت الحكومة الى تعطيل الجريدة في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٨٤٣ . وكتب ماركس الى روغه على أثر التعطيل فقال : «لم يكن الامر مفاجئا لي ، وانت تعرف موقفي من الرقابة وتعليماتها ، ولست ارى فيما حدث الا نتيجة منطقية ومنتظرة وانا انظر اليه كدليل على تقدم الوعي السياسي وحسبي هذا . وقدمت استقالتي وانا مرتاح البال ، فقد اصبح الوضع فوق ما أحتمل ، وانه لعذاب لا يطاق ان يعمل الانسان في ظل العبودية ويعارك في سبيل الحرية بالدبابيس وليس بحد السيف . وقد عافت نفسي المداجات وضقت ذرعا بغباء السلطة وفضاضتها ولم اعد أحتمل الاذعان والمسايرة والمماحكة والتقية . والآن وقد استعدت حريتي لم يبق لي ما استطيع عمله في المانيا ؛ وانه لمن المهانة ان يبقى المرء يحتمل الوضع فيها . . » (٥٢) .

وكان لهذه الفترة تأثير عميق في تطور الفكر الماركسي اشار اليه ماركس في «مقدمة اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» فقال «في خلال السنتين ١٨٤٢ و١٨٤٣ ، وأنا اتولى رئاسة تحرير الجريدة الراينية ، اختلط عليّ الامر وتولتني الحيرة وانا اشارك لاول مرة في مناقشة ما يسمى بالمصالح المادية . فمداولات مجلس الولاية في موضوع قوانين سرقة الاحطاب في الغابات وقضية توزيع الارض وتحامل حاكم الولاية ... على الجريدة الراينية بسبب ما نشرته عن حالة فلاحي الموزيل وأخيرا ، مناقشة موضوع حرية التجارة والحماية الكمركية ، كل هذه الامور اثارت لاول مرة ضرورة اهتمامي بالمسائل الاقتصادية . ثم صادف في الوقت عينه ان طفت الحماسة لموضوع الشيوعية على الدراية به فأقحمت في الجريدة الراينية صيغة فلسفية عرضت بصورة باهتة آراء الفرنسيين عن الاشتراكية والشيوعية ؛ ومع اني اعلنت معارضتي للخوض في موضوع تنقصنا الدراية به واعترفت في مناقشتي مع جريدة الاوغسبرغر بصراحة ، ان معرفتي الضئيلة في الموضوع لا تؤهلني لابداء اي رأي حول الاتجاه الفرنسي فيه ، فانني بادرت منتهزا الموقف المتخاذل الذي اتخذه اصحاب الجريدة تجاه الحملة عليها وفي ظنهم انه يخفف من شدة الحكم عليها ، وانسحبت من مسرح الحياة العامة لاعود الى تأملاتي ودراساتي» (٥٣) . بهذه الصورة عرض ماركس كيف ان احساسه بضرورة الالمام بالشؤون الاقتصادية وبحاجته الى معرفة حقيقة الاشتراكية كانتا من العوامل التي حملته على تقديم استقالته من الجريدة الراينية ليستأنف تتبعاته التي أدت به الى الماركسية .

٨ ـ ماركس بعد تعطيل الجريدة الراينية

على ان ماركس ، برغم شدة رغبته في التفرغ الى متابعة دراساته ، ما لبث

ان وجد نفسه مرة اخرى ، وهمه ان يجد عملا يكسب به عيشه وان يتم عقد زواجه بعد خطوبة انقضت عليها سبع سنين . وقد ايقن ان العمل الصحفي في المانيا لم يعد ممكنا بعد ان اغلقت الحكومة كل الصحف الراديكالية وسدت كل الابواب بوجه حرية الراي وبعد ان اصبحت القطيعة بينه وبين رفاقه القدامى ، الاحرار ، لا رجعة فيها وقد تفاقمت نقمتهم على الليبراليين وعلى الطبقة الوسطى التي اعرضت عنهم ولم تكترث للضربة التي انزلتها السلطة بحرية الرأي فزادوا غلوا في تطرفهم . ولم يبق له من امل الا في فئة من اليسار الهيغلي تأثرت بفويرباخ الذي كشف لها مخرجا في واقعها المكفهر عندما اشار الى امكان قيام حركة تؤلف بين الفكر الالماني والعاطفة الفرنسية فتجمع الفكر المنسق الى العاطفة المتفجرة وتقرن سداد الرأي بالحماسة للعمل . وجاء زايكوفسكي الذي قال ان الفكر لا يكون ذا جدوى الا اذا تحول الى ارادة فاعلة فشد من عزمها . وكان لولب هذه الفئة ارنولد روغه الذي عقد العزم على استئناف اصدار الحولية الالمانية في سويسرة او في باريس ، حيث لجأ عدد من المفكرين الالمان اجتذبتهم الحرية فيها او دفعهم اليها الاستبداد ولو ان انظارهم بقيت تشخص الى وطنهم وآمالهم منعقدة على تحريره وكانوا على صلة بجموع من العمال من بني جلدتهم رجحوا مثلهم العيش خارج المانيا وقلوبهم رهينة فيها .

وكان روغه ، وفكرة استئناف العمل الصحفي تراوده ، لا ينفك يفكر بمشاركة ماركس وهو معجب بفطنته مقدرا مواهبه . وكتب الى اخيه وهو يراجع الامر معه يقول «ان ماركس وهو على جانب عظيم من الفطنة والذكاء ، شديد القلق الان على مستقبله ، لاسيما القريب . وارى من الملائم جدا ان اطلب معونته في اصدار الحولية ..» . وكتب اليه فعلا ، يقترح عليه ان يعملا معا في مجال الصحافة خارج المانيا فتقبل ماركس الفكرة (٥٤) . ودارت بينهما ومع آخرين مداولات حول الموضوع نشر ماركس قسما منها في مقدمة العدد الاول من «الحولية الالمانية الفرنسية» عند صدورها وتضمنت النهج الذي تصوره ماركس للمجلة ، نقتبس مقتطفات منها وهي تكشف عن نسق تفكيره في هذه الفترة . ففي رسالة من هولنده مؤرخة في آذار ١٨٤٣ قال ماركس (٥٥) : «انني الان اطوف هولنده . ومما اطلعت عليه في الصحف المحلية والفرنسية بدت لي المانيا تغوص في الوحل وتصير من سيء الى ما هو اسوأ . وأؤكد لك ، واو ان ما اقوله قد يبدو لك منافيا للوطنية ، ان الالماني يشعر بالخزي حتى وهو في هولنده . فأقل الهولنديين شأنا يحيا حياة مواطن حر اذا ما قيس بحياة ارفع الالمان مقاما . افتعلم كيف ينظر الاجانب لحكومة بروسيا ؟ انهم ادركوا حقيقتها ولم يعد فيهم من يجهل طبيعة نظامها المطلق الشديد القسوة ... بعد ان سقط البرقع الاستعراضي لليبرالية المزعومة فبدا الاستبداد بأقبح صورة ، عاريا، لأعين الجميع . انه انكشاف لواقع لم يعد فيه شك ولو انه انكشاف لفساد ... ولعلك تسخر مني وتقول : ثم ماذا ، فالمرء لا يستطيع ان يصنع من الخزي ثورة ! لكني اؤكد لك ، ان الشعور بالخزي هو بالفعل بدء الثورة . فالاحساس بالخزي وبالعار هو ضرب من

الغضب . والامة اذا ما احست بالعار وبالغضب كانت كالاسد ينكمش لينقض" .
لكنني أسلم ان المانيا الحالية ما تزال تفتقد الاحساس بالعار ، بل لعل الامر على العكس ، فالفاسدون الجهلة ما زالوا هم الوطنيون ، لكن مهزلة الاستبداد التي تمثل على مسرح الحياة فيها تحمل خطرا على المستبد كخطر المأساة التي نزلت بالستيوارد والبوربون وستـــــودي الى ثورة مؤكدة مهما تأخر انكشاف حقيقة المهزلة التي تنطوي عليها . فأمر الدولة من الخطورة بحيث لا يمكن ان تصير مهزلة ويطول أمد المهرجين فيها . والسفينة قد تجري مع الريح فترة من الزمن ولو كانت مليئة بالحمقى ، لكن حكم القدر لا يلبث ان يحل بها من حيث لا يتوقـــع الحمقى . وحكم القدر ليس الا الثورة المنتظرة .

وفي رسالة له من كواون في آذار ١٨٤٣ (٥٦) ، كتب يقول «ان رسالتك يـا صديقي العزيز ، مرثية حقيقية بل ترنيمة جنائزية تستنزل العبرات ، لكنها ليست سياسية قطعا ، فما من شعب يناله القنوط . واذا ما بقي الشعب في غفلة ردحا من الزمن وهو يتعلل بالآمال ، فلا بد ان تتفجر نباهته يوما ، فيحقق امانيـــه الطيبة ... وصحيح ان العالم القديم في قبضة غر احمق لكننا لا يجدر بنا ان نرى فيه فزاعة فيتولانا الفزع ، بل الاحرى ان نواجهه ونمعن فيه النظر ، وهو حقيق بالتمعن ... فهو يسيطر لانه احاط نفسه بمن هم جديـــرون بالازدراء وبالرثاء ... ووسط الطغاة ليس بحاجة لغير عدد من العبيد ... ومالكو العبيد لا يشعرون بالضرورة الى الحرية . لكن الناس كائنات لها عقول ولهذا اختاروا الجمهورية ... والذي يجب ان نبدأ به هو ان نبعث في الناس شعور الحاجة الى الحرية التي يتميز بها الانسان ... فالشعور بلزوم الحرية كفيل بأن يخلق من الناس مجتمعا تتحقق فيه اسمى امانيهم في دولة ديمقراطية . ولو ان قرونا من البربرية خلقت عالم اليوم وسوته في نمط متماسك لا هدف له غير حيونـــة الانسان ... وحسبي أن الفت نظرك الى هذه الحقيقة وهي ان اعداء الجهالـــة المتسلطة ، وأعني بهم كل الذين يفكرون ويتعذبون ، ادركوا الان ما لم يكـــن ادراكه ممكنا قبل الان لافتقاد الوسائل ... بل ان طريقة الاذعان التي نشأ عليها الرعايا صارت اليوم تجتذب متطوعين لخدمة الانسانية الجديدة ، لان نظام الارباح والتجارة ، نظام الملكية الخاصة والاستغلال ، أدى الى تصدع المجتمـــع المعاصر بسرعة اعظم من سرعة تكاثر السكان فجعل المجتمع القديم عاجزا عن معالجـــة مشاكله بعد ان لم يعد مجتمعا يداوي او يبدع ولم يعد له هدف غير المتعة . وعالم بهائم لا يعملون ولا يفكرون بل يتمتعون فحسب لا يتلاءم ولا ينسجم بحكم الضرورة مع وجود انسانية معذبة تفكر او انسانية مفكرة تعاني الاضطهاد ... واذاً ، فليس علينا غير ان نكشف العالم القديم لوضح النهار فتتجلى حسنات العالم العتيد» .

وقال في رسالة اخرى (٥٧) : «سرني ان اجدك رجعت عما انتويته فتحولت من تطلعك الى الماضي وأخذت المستقبل بحسابك في مشروعك الجديد فاخترت باريس لتكون المقر . وهكذا يرجح دوما ما تمليه الضرورة ... ففي المانيا يقمع كل شيء

بالعنف وتسود فوضى فكرية وتسوس الامور حكومة في غاية الغباء . وزوريخ تأتمر بأمر برلين . ومن هذا يتضح لنا ان الاجدى ان نجد مكانا يجمع ذوي العقول المستقلة ويكون لهم فيه مجال ليفكروا . واني على يقين ان مشروعنا يسد حاجة ملحة ... وليس لي تحفظ بخصوصه غير ان نأخذه مأخذ الجد ... ان يقر كل منا ان ليس في ذهنه تصور واضح لما ستجري عليه الامور . فميزة نهجنا هي ان لا نتعجل البت في شؤون عالم الغد على نحو دوغمائي بل ان نتبينها اولا بنقد العالم كما هو . فقد كان شأن الفلاسفة ان تكون لهم حلول جاهزة في مدارج مكاتبهم لكل الالغاز وليس للسذج المغفلين الا ان يطلبونها ويفتحوا فمهم ليتلقى حمامة المعرفة جاهزة ومحمصة ... لكننا ما دمنا لا نريد ان نبني المستقبل ليدوم قرونا فان الذي نريده ميسور تعيينه لانه لا يتطلب غير النقد الجريء للوضع القائم . واعني بالنقد الجريء ، النقد الذي لا يفزعه اعلان النتائج التي يتوصل اليها ولا تخيفه مواجهة السلطة ... ولست من مؤيدي رفع راية الدوغمائية بل اريد على العكس ، ان نساعد الدوغمائيين ليتبينوا مبادئهم على وجهها الصحيح . فالشيوعية مثلا تبدو بوجه خاص ، دوغمائية مجردة ، ولو اني لا أعني اية شيوعية متصورة او ممكنة التحقيق بل اعني تلك التي يلقنها كابيت وديزامي ، وهي ليست في الحقيقة الا نمط من فلسفة انسانية مصابة بمرض فردانية منتكسة ... ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة ان تواجه هذه الشيوعية مذاهب اشتراكية تعارضها مثل التي ينادي بها فورييه او برودون ...

«ولست اجد ما يمنعنا من ان نبدأ بالسياسة فنشارك بالعمل الحزبي ونثبت وجودنا في معارك فعلية ولا نعود بعيدين عن الناس نلوح لهم بآراء مجردة ونقول هذا هو الصواب فتقبلوه وانتم خاشعين ... بل حسبنا ان نساعدهم في اكتشاف الهدف الذي يجدر بهم ان يناضلوا من اجله ... وان يكون غرضنا تصحيح وعي الناس لا بأسلوب الدوغمائية بل بكشف خفايا الاوضاع ليكونوا على بينة منها وليدركوا انهم كانوا منذ زمان يحلمون بما كان يكفي ان يعوا حقيقته ليتم لهم ما يبتغون ... ويكفي ان نوجز هدف المجلة بكلمة واحدة هي معرفة الذات عن طريق النقد ليدرك الجيل ما يصبو اليه والسبيل الى تحقيقه» .

وتكشف لنا هذه الرسائل فكر ماركس وهو على عتبة مرحلة جديدة ، فترينا انه برغم واقعيته وثوريته كان ما يزال يتصدى لمسائل زمانه بأسلوب لا يخلو من المثالية ، فيرى التحرر الروحي هو الاصل ؛ ويرى عوامل الثورة تكمن في الانسانية المعذبة بشموليتها المطلقة ؛ وينقد الاشتراكية والشيوعية كما صورتا في زمانه ، وحيدتا الجانب ، انحصر تصور تحقيقهما بالغاء الملكية فحسب ، متجاهلة بقية اوجه الحياة .

٩ ـ نقد فلسفة الحق

وفي خلال الشهر الاول الذي اعقب استقالته من الجريدة ، انتهى ماركس

من اعداد بحث كان يريد اعداده منذ سنة ١٨٤١ لينشر في الحولية الالمانية ، في «نقد فلسفة الحق» موضوع احدى رسائل هيغل . وجاء ذكر هذا النقد لاول مرة في مقدمة «اسهام في نقد الاقتصاد السياسي» ، فقد اشار اليه ماركس بقوله «ان اول عمل شرعت به لتبديد الشكوك التي انتابتني ، كان مراجعة نقدية لفلسفة الحق عند هيغل ... اتضح لي عند الانتهاء منها ، ان العلاقات القانونية وأشكال الدول لا يمكن فهمها مستقلة بذاتها او بطريق ما يسمى بالتقدم العام الذي حققه الفكر لان أصولها تتغلغل في الاوضاع المادية للمجتمع الذي أجمل هيغل وصفه على نحو ما فعل المفكرون الانكليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر ، بكلمة (المجتمع المدني) ؛ وتبين لي ان التركيب البنيوي لهذا المجتمع يقتضي التقصي عن أصوله في الاقتصاد السياسي» (٥٨) . وكانت هذه اول اشارة الى ادراك ماركس اهمية العوامل المادية والاقتصادية التي تجلت له في خلال عمله في الجريدة الراينية . ولم ينشر هذا «النقد» الا مؤخرا في مجموعة «اعمال ماركس وانجلز» وكشف عن مبلغ تأثر ماركس بآراء فويرباخ التي وردت في رسالته «المبادىء الاولية لاصلاح الفلسفة» وقلب فيها فويرباخ فلسفة هيغل رأسا على عقب بأن جعل الوجود هو الاصل والفكر انعكاسه في الذهن وحذا ماركس حذوه في «نقده» فقلب فرضية هيغل التي جعلت الدولة هي الاصل بأن جعل الانسان هو الاصل . والفرق بين الفرضيتين جوهري ، فهيغل بجعله الفكر هو الاصل انتهى الى ان كل ما ينشأ عن الفكر من أحكام ومعايير هي ثابتة لا تتغير وحصر التغيير بالوجود وحده وهو يتغير ليطابق الفكر ؛ بينما اخذ فويرباخ العكس في فرضيته التي اخذ بها ماركس ايضا وقال ان الفكر وما ينشأ عنه من تغيير انما يعكس التغيير الذي يحل بواقع الوجود الذي هو الاصل . وصوّر هيغل في فلسفة الحق ، ان المجتمع يقوم بثلاثة تراكيب هي العائلة والجماعة والدولة ، وقال ان العائلة تأخذ الانسان بصفته الفردية وتعده بالاخلاقيات الذاتية لمواجهة الحياة ؛ ثم تأخذه الجماعة بوصفه عنصرا اجتماعيا لتمده بمستلزمات الحياة الاقتصادية والعملية والثقافية ؛ ثم تأخذه الدولة التي تؤلف بين وجوده وحقوقه بصفته الفردية وبين وجوده وحقوقه بصفته عنصرا اجتماعيا وتعين له مجال تطوره الروحي . وانكر هيغل ان يكون الانسان حرا بطبعه ، وانكر ان تكون الدولة هي التي تحد من حريته ، وانكر كذلك قدرة الانسان على تجاوز حدود واقعه وقدرته على تصور ما يتعلق بمستقبله وقال ان الفيلسوف لا ينبغي له ولا هو يستطيع ان يتجاوز في الفكر واقعه الذي هو اقصى ما يمكن ان يدركه . وصنّف هيغل السلطات في الدولة النموذجية في ثلاثة أصناف : سلطة الملك والسلطة التنفيذية والسلطة التشريعية واعتبرها وليدة الفكر وان الاصل فيها هو الثبات والتغير . وكانت حصيلة رأيه هذا ، ان الدولة بعناصرها المستقلة التي اساسها الفكر تحقق التوافق الاجتماعي الذي يحيا الشعب فيه بصفته تابعا لا تأثير له فيما يكون من شأنه او يحل به ؛ اي انه جعل الشعب ملحقا بالسلطة بينما توصل ماركس بنظرته الى

الوجود على انه الاصل الى ان الشعب مرد الدولة فهي تقوم به وتتبدل بفعله وبما يكون من امره . وعلى هذا الاساس رجح ماركس الديمقراطية لانها تستند الى دستور يعبر عن ارادة الامة ، ولانها تؤكد قيمة الانسان وتيسر له القدرة على تحقيق ذاته عن طريق العقل وتنظر اليه من حيث هو عنصر اساسي في المجتمع وتضمن حريته بصفته مواطنا شأنه شأن اي مواطن آخر . وتصور هيغل السلطة التنفيذية ممثلة بالبيروقراطية ، والمجتمع يقوم بهيئات اجتماعية تنتظم الناس في اصناف وتجمعات فتيسر تحقيق مصالحهم ؛ ورأى مهمة البيروقراطية ، الوساطة بين الدولة وهذه الهيئات تسوى بها الخلافات والتناقضات وتوفق بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة . اما ماركس فرأى العكس ايضا ؛ رأى البيروقراطية لا تسعى الى تصفية الخلافات او تسوية التناقضات وانما الى تأجيجها لتؤكد الضرورة الى وجودها وتديمه . وتصور هيغل مهمة السلطة التشريعية تحقيق التآلف والتوافق بين المجتمع والدولة ، لكن ماركس رأى ان من شأن هذا التصور ان يجعل من الدولة والمجتمع كيانين منفصلين ومتعارضين ، بل رأى تصورات هيغل السياسية في مجملها ، رغم تأثرها الظاهري بالثورة الفرنسية ، بقيت في جوهرها تمت الى عهود ما قبل الثورة وتعكس تخلف الفكر السياسي الالماني . فالتآلف والتوافق لا تكون بهما حاجة والطبقات الاجتماعية ذات وجود سياسي ، وبقاء الحاجة اليها دليل على ان المجتمع ما يزال دون مستوى السياسية (٥٩) .

وختم ماركس نقده بهذه الفقرة التي تعكس فكره السياسي وتطلعاته كما كانت في صيف ١٨٤٣ : «ليست المسألة مسألة ممارسة السلطة التشريعية عن طريق مندوبين ام ممارستها مباشرة من قبل كل فرد في المجموع ، بل ان صحة ممارستها ترتبط في الواقع بممارسة حق الاقتراع العام ... الذي هو مدار الصراع السياسي في فرنسا وانكلتره ، والحلقة التي تربط المجتمع المدني بالسلطة التشريعية وبالعناصر النيابية فيه ... وتقوّم الصلة المباشرة والفعلية التي توحد بصورة حقيقية لا شكلية بين المجتمع المدني والجهاز السياسي في الدولة ، وبتمام شموله يبلغ المجتمع المدني كمال وجوده السياسي الذي تتجلى به ماهيته (٦٠) .

١٠ ـ ماركس في باريس

قضى ماركس بعد اتفاقه المبدئي مع روغه على اصدار الحولية الالمانية الفرنسية ، بضعة شهور في كروزناخ ، أتم فيها زواجه وأقام هو وزوجه في بيت أمها ملازما مكتبة الدار يراجع كتب التاريخ بوجه خاص . وكان بنقده فلسفة الحق قد أحس بلزوم مواصلة البحث لكشف طبيعة صلة الدولة بالمجتمع من شتى وجوهها وتعيين السبل التي يمكن ان تبلغ الديمقراطية بها تمامها ؛ وشغلته تحقيقاته هذه طيلة صيف ١٨٤٣ ، خرج منها بخمس دفاتر سميت بـ «دفاتر

كروزناخ» وتضمنت مقتبسات من الكتب التي راجعها وتعليقاته عليها وشملت مؤلفات مكيافللي ومونتسكيو وروسو وكتب اخرى تناولت تاريخ دول مفردة هي انكلترة وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية وايطاليا والسويد وكتبا لكبار المؤرخين الفرنسيين حللوا فيها أحداث الثورة الفرنسية وكشفوا عن تضارب مصالح الطبقات فيها وتأثيراتها . وبرّز ماركس في مقتبساته وفي تعليقاته صلة سياسة البورجوازية بالعوامل الاقتصادية ولاسيما تلك التي تتعلق بالملكية الخاصة وقد اظهرت له عجز الثورة البورجوازية عن تحقيق المساواة بسبب ما تستلزمه هذه المساواة من تغيير جذري في علاقات الملكية الخاصة . وكان الى جانب تزعزع ثقته في صحة فلسفة هيغل كما ظهر في نقده فلسفة الحق قد كشف سلبيات الملكية الخاصة وأثرها السيء في ممارسة الناس حقوقهم وحرياتهم حتى بدا لاول مرة اكثر ميلا الى المادية ، ولو انه في معالجاته لم يتجاوز الاعتبارات القانونية ولم يضع عامل الاقتصاد بين العوامل الرئيسية الحاسمة . كما ان ما تبين له من صلة وثيقة بين المثالية وبين الحكم المطلق والاتجاهات الرجعية والمحافظة التي تجد في غيبيات المثالية عونا لها في صرف الانتباه عن الواقع وتزويق المزاعم والاوهام واحاطة الشخوص بهالة من القدسية ، دفعه في اتجاه مضاد للمثالية وجعل بضعة الشهور التي قضاها في كروزناخ فترة تأهيل فكري ونفسي للمرحلة الجديدة في حياته الفكرية .

وفي اواخر تشرين الاول سنة ١٨٤٣ وصل ماركس وزوجه باريس وحلا لبضعة شهور في دار في الحي اللاتيني اقام فيه مهاجرون المان بينهم عائلة روغه ، ثم انفردا في شقة شغلاها بقية اقامتهما في باريس . واستحسن ماركس اختيار اسم الحولية الالمانية الفرنسية للمجلة بدلا من «الحولية» الالمانية ، فقد كان من المرغوب فيه ، كما قال ، ان يتعلم الالمان الفرنسية ليتعلموا كيف يكونوا ثوريين . وسره كذلك ان يستقر الرأي على جعل باريس مقرا لهم ، وهو ما رجحه منذ البداية (٦١) .

وكانت باريس يومئذ ، كما وصفها انجلز ، قلب الحركة الثورية التي انفردت بها فرنسا فتميزت على جميع أقطار العالم ، وقد بلغت الحضارة فيها ذروتها وتشابكت وشائج التاريخ الاوربي وولدت الشحنات الكهربائية التي هزت العالم . واجتمع لاهلها ما لم يجتمع لاهل مدينة اخرى من حب للمتعة وقدرة على المبادرات التاريخية الفذة ، فعرفوا كيف يحيون حياة ابيقوري اثينا الاكثر رقة وكيف يموتون ميتة الاسبارطيين الاكثر بسالة وتفانيا .. ووجد ماركس فيها الينابيع التي اغترف منها اهم عناصر الماركسية ، فاتضح له المضمون التاريخي لصراع الطبقات، واستبانت له معالم ثورة البروليتاريا ، وتيسر له ان ينتزع فكره من المثالية ويغرسه في تربة المادية التاريخية ويقومه بالممارسة المستندة الى الخبرة النيرة المستمدة من النضال الفعال . وفيها وجد التجربة الثورية الاصيلة ، تجربة الثورة الفرنسية الكبرى بكل معالمها وبكل مصادرها ، رجالا وكتبا ، فانهمك

كالمأخوذ يلتهم ما سجله اعظم مؤرخيها ، اوغستين تييري ومينييه وتيير ، عن بطولات البورجوازية الفرنسية ونضالها ضد الاقطاع ، وعن احلامها وتطلعاتها وأمانيها ، وعن معارك الصراع الطبقي الذي سلطوا عليه الاضواء ، وقدر ماركس حسن صنيعهم واعترف لهم بالفضل وأعلن انه لولاهم لما ادرك فكرة الطبقات والصراع الطبقي وأثره في المجتمع الحديث ، وكان لهم فضل السبق في استجلائه ووصف أطواره وتأثيراته وفعله في تكوين التراكيب الاجتماعية (٦٢) .
وفي باريس شهد ماركس عن كثب ، آثار نصف قرن من المعارك التي قادتها الطبقة الوسطى بوعي طبقي رائع ، ضد الحكم المطلق والاقطاع ؛ وفيها تابع بوادر مناوشات معارك البروليتاريا في ١٨٣١ و١٨٣٤ و١٨٣٩ ، وتعقب مسيرة الحركتين الاشتراكية والشيوعية اللتين تنازعتهما مذاهب شتى كان من ابرزها مذهب كابيه Cabet وديزامي Dezamy ولوي بلان Lious Blanc وبرودون Proudon ، وتوطدت صلاته بالأحياء منهم وقرأ ما كتبوه وما تركه اوائلهم أمثال بابوف Babouf الذي وصفه بأنه مؤسس اول حزب شيوعي . وفي باريس ايضا ، اتصل بتنظيمات الحرفيين الالمان الثورية والجمعيات السرية الفرنسية وحضر اجتماعاتهم ولو انه تجنب الارتباط بأي منها رغم اعجابه العظيم بها وبنقدها الجذري للاوضاع واعتمادها الثورية الفعلية لتغييرها .

١١ ـ الحولية الالمانية الفرنسية

بدأ ماركس وروغه وبقية رفاقهما يعدون العدة لاصدار الحولية الالمانية الفرنسية بكثير من الحماسة والثقة بالنفس والامل ، وهم يتطلعون الى ان تكون لسان حال المفكرين الالمان والفرنسيين فتتضمن بحوثا بالالمانية يكتبها الالمان واخرى بالفرنسية يكتبها الفرنسيون (٦٣). واتصلوا بالبارزين من التقدميين الفرنسيين ، كابيه ولامارتين ولامينييه ولوي بلان وليدو وكونسودوران وبرودون وطلبوا اليهم مشاركتهم . واتصلوا بالليبراليين والراديكاليين من اليسار الهيغلي وفي مقدمتهم باور وفويرباخ والاحرار . غير ان الفرنسيين لم يكونوا من المعجبين بمثالية الالمان المجردة ولا كانوا يعرفون الا النزر اليسير عن فلسفة هيغل ومنطقه الديالكتي ، ورأى كثير منهم في الراديكالية الالمانية التأملية منزلقا الى الفوضوية ورأى بعضهم في إحجام المفكرين الالمان عن تقبل افكار الاشتراكية والشيوعية وترجيحهم المناقشات اللاهوتية التي ليس وراءها طائل جمودا فكريا غير مقبول ، فلم يقدم احد منهم على الكتابة في الحولية . وأعرض الليبراليون من اليسار الهيغلي في داخل المانيا عن المشاركة خشية ان ينالهم الاذى بسبب صلتهم بمجلة راديكالية ذات طابع اشتراكي . واستنكف «الاحرار» الذين رأوا القائمين باصدار المجلة دون المستوى الذي يريدون . واعتذر فويرباخ بحجة ان الوقت لم يحن لوضع النظرية

موضع التطبيق والظروف لم تكتمل بعد لتقبلها (٦٤) . فكان ان صدرت المجلة في شباط سنة ١٨٤٤ في عدد مزدوج كان الاول والاخير ، وهو خلو من اي مقال لكاتب فرنسي وليس فيه الا ما كتبه المان يعيشون خارج بلادهم . وتولى ماركس فيه باب المراسلات ونشر بحثين رئيسيين : الاول «في القضية اليهودية» ؛ والثاني «مقدمة نقد فلسفة الحق» . ونشر انجلز بحثين : الاول «الموجز في نقد الاقتصاد السياسي» ؛ والثاني ، مراجعة لكتاب توماس كرلايل «الماضي والحاضر» .

واتضح بعد تصفية حساب هذا العدد المزدوج ، ان ما عادت به لا يغطي الا جزءاً يسيرا جدا من نفقاتها التي استنزفت كل ما أعد للمشروع وتجاوزته وحمّلت اصحابها مسؤولية قرض لم تكن لهم قدرة على سداده . فالفرنسيون لم يقبلوا عليها بينما تعذر ادخالها الى المانيا بسبب الاجراءات التي اتخذتها حكومة بروسيا التي لم تكتف بإحكام الرقابة على الحدود ومصادرة كل ما أريد تهريبه ، بل حثت الولايات الالمانية الاخرى على اتخاذ الاجراءات عينها وأصدرت اوامرها بملاحقة المحررين فيها ومعاقبتهم ؛ وفعلت حكومة النمسا ما فعلته حكومة بروسيا (٦٥) . على ان الذي فت في عضدهم وشتت جمعهم في نهاية الامر ، انهم وجدوا انفسهم على غير اتفاق في النظرة والاتجاه ؛ وظهر التباين في الرأي بينهم على أشده بين روغه وماركس . فقد انفرد ماركس بتحمل مسؤولية العدد المزدوج بسبب مرض ألم بروغه ومنعه من المشاركة ، فلما اطلع على محتواه خيب أمله وأثار استياءه . فروغه برغم اعجابه بما تضمنته بحوث ماركس من آراء مبتكرة ، وجد المجلة في مجملها راديكالية حادة اكثر مما يحتمل وكان يرجح ان يكون نهجها معتدلا يطابق خط فويرباخ ويلتزم النظرة الانسانية لا يتجاوزها . ولم يكن الآخرون أقل منه تحفظا ، بل رجحوا ان لا تتجاوز المجلة النهج الديمقراطي بحدوده التقليدية ولذلك فوجئوا بما تضمنته مقالات ماركس وانجلز من الافكار الاشتراكية والراديكالية . وهكذا واجه جمعهم تفككا لا علاج له ، لاسيما بعد ان اخذ ماركس يزداد اقترابا من مفاهيم الاشتراكية وروغه وبقية المشاركين يزدادون تصميما على تجنبها ومعارضتها ، فانتهى بهم الامر الى القطيعة (٦٦) .

وتعكس مقالتا ماركس في الحولية الالمانية الفرنسية وجهة تطوره الفكري في ميل الى المادية وابتعاد عن المثالية واتخاذ موقف ديمقراطي ثوري منحاز الى البروليتاريا . ووصف لينين في تعليق له على مقالتي ماركس فقال انهما اظهرتا ماركس «وقد تحول الى ثوري يدعو الى نقد لا هوادة فيه لكل ما هو قائم ، لاسيما النقد بالسلاح ، وقد توجه فيما يكتب الى الجماهير والبروليتاريا ...» (٦٧) .

١٢ ـ المسألة اليهودية

تعد مقالة «المسألة اليهودية» من مقالات ماركس الرئيسية ومن خير ما كتب بعد «مقدمة فلسفة الحق» ، عبر فيها عن خلاصة مطالعاته في صيف ١٨٤٣ في

كروزناخ ، في طبيعة النظام السياسي في الولايات المتحدة وفي فرنسا وأوضح رأيه في اصل الصلة بين المجتمع والدولة وفي فشل الليبرالية في معالجة مشاكل المجتمع الحديث . وكانت مسألة حرية اليهود في المانيا قد استثارت الاهتمام وصارت مدار بحث الاوساط الليبرالية والراديكالية وبين من تصدى لمناقشتها برونو باور الذي عالجها في سلسلة مقالات نشرها في تشرين الثاني سنة ١٨٤٢ رأى ماركس انها معالجة مجردة غير موضوعية ورأى ان نقدهـــا يتيح له مجال نقد النظام الليبرالي في الوقت عينه (٦٨) ، ولعله اراد بها نقد افكاره في فترة عمله في الجريدة الراينية (٦٩) .

ويرجع منشأ المسألة اليهودية في بروسيا الى قانون صدر سنة ١٨١٦ حرم اليهود من الحقوق السياسية ومن إشغال وظائف الدولة ولكنه لم يثر في وقتـه الاهتمام ، لان الناس كانوا على وجه العموم ، لا يكنون ودا لليهود ؛ وهذا الشعور شمل حتى أفراد اليسار الهيغلي برغم رفعهم راية الحرية ، لانهم وهم يحاربون الكنيسة نظروا الى اليهودية بوصفها مرحلة بدائية للمسيحية ونموذجا اخـــذت الكنيسة عنه نعرة التعصب والتشدد في ملاحقة الناس باللوم والتقريع . ولم يكن اليهود بعد هذا ، يكترثون بالشؤون العامة او بحركة التحرر ، وراق لهم ان يحمل اليسار الهيغلي على الكنيسة . ولكن ، لما تعرض هذا اليسار الى نقد اليهودية ، ملأ اليهود الدنيا ولولة فأثار ذلك استنكار اليسار وقادة الرأي فيه ، فحمل فويرباخ على اليهودية ووصفها بدين الانانية وقال ان اليهود ابقوا على خصالهم الغريبة على مر الزمن بسبب مبدئهم الذي هو الانانية بصورة دين . وقال ان انانيتهم هـــي التي تحركهم وتدفع بهم الى تحقيق مآربهم بأهون السبل ، لان من شأن الانانية ان تحصر اهتمام المرء بنفسه فتضيق أفق تطلعاته حتى تجعله لا يبالي الا بمـــا يتصل مباشرة بمصالحه الخاصة فيغلبه الجمود (٧٠) . وحمل عليهم باور وكانت حملته أشد وأقسى . وقال ان اليهود دبوا الى فجوات المجتمـــع البورجوازي وزواياه العتمة ليستغلوا الضالين والمشبوهين ، وديدنهم الخديعة والمكر يتوصلون بهما الى اشباع حاجاتهم الجسدية ، وهم يعارضون دوما التقدم ويعتزلون غيرهم بسبب مقتهم لغيرهم من الشعوب وقد عاشوا دائمـــا حياة تتسم بالانغـــلاق والعجرفة (٧١) .

ولكن عندما ارتفع شأن اليهود باتساع مجال التجارة والتصنيع والتمويل ، برزت مسألة حرمانهم من الحقوق السياسية وصارت مدار بحث وكان باور في جملة من تعرض لها . وكان من الطبيعي ان يتناولها ، وهو من اليسار الهيغلي ، من منطلق اللاهوت بعد ان دأب هو وغيره من الهيغليين الراديكاليين على جعـــل المعركة ضد الكنيسة والدين مدخلهم الى معالجة الشؤون الاجتماعية . وكان مجمل رأيه ان من المتعذر ان يتمتع اليهود بحقوق سياسية في دولة مسيحية او ان يكونوا في وئام مع المسيحيين والدين يفرق بينهم . وقال ، اذا كان لا بد للمسيحيين واليهود من العيش معا فلا بد لاحدهما ان يعتنق دين الآخر اولا ثم ان ينبذ كلاهما

الدين ليتلاشى التعصب وتزول الفروق الاجتماعية والمدنية ويتمتع الجميع بحقوق الانسان في مجتمع مدني وفي دولة لادينية .

لكن ماركس برغم اعجابه بتحليل باور للدولة المسيحية «بأسلوب زاخر بالمتانة والرصانة ، تجلت فيه الجرأة وحدة الذهن والبراعة والاحاطة» (٧٢) رأى في المعالجة عيوبا اساسية . فقد اقتصرت على نقد الدولة المسيحية بينما الاصح ان يكون النقد نقد الدولة ذاتها ؛ واشترطت نبذ الدين لتحقيق الحريات السياسية بينما لا تفرض الضرورة نبذ الدين لتحقيق هذه الحريات . وقد خلطت بين التحرر السياسي وتحرر الانسان ، فكان من جراء ذلك ان انتهى التحليل الى خطأ ؛ فلا اليهود حرموا من حقوقهم السياسية بسبب وجودهم في دولة مسيحية ولا كان نبذ الدين شرطا للتحرر السياسي ولا التحرر السياسي او التمتع بحقوق مدنية هو بعينه المراد بتحرر الانسان . وفي ايضاح رايه هذا رجع اولا ، الى نصوص بيانات حقوق الانسان كما أقرها مشرعوها في اميركا الشمالية وفي فرنسا ليؤكد «ان بيان حقوق الانسان وحقوق المواطن لسنة ١٧٩١ وبيان حقوق الانسان لسنة ١٧٩٣ في فرنسا ودستورها لسنة ١٧٩٥ وكذلك دساتير بنسلفانيا ونيوهمشاير في اميركا الشمالية في القرن الثامن عشر ، اقرت كلها فصل الدين عن الدولة ولكنها أكدت وبرغم ذلك وفي الوقت عينه حرية الدين او حرية العبادة بوصفها من الحقوق الاساسية» . وقال «اننا في واقع الامر نرى الدين حتى في البلاد التي أتمت تحررها ، ليس قائما فحسب بل نراه في أتم قوته وحيويته» (٧٣) مما يثبت ان وجود الدين لا يتعارض مع وجود الدولة ولا يعيقها عن استكمال تكوينها. واذا ما ظهر في الدولة خلل مع وجود الدين فالاحرى ان نبحث عن مبعث هذا الخلل في الدولة ذاتها لا في الدين ، اذ قد ثبت بعد الفصل بين الدين والدولة ان الدين ليس المصدر الذي تنبع منه النقائص المدنية حتى ولو اتخذت هذه النقائص طابعا دينيا ؛ وان الاحرى ان نرجع بواعث التعصب الديني الى التعصب المدني لا ان نفعل العكس فنرجع التعصب المدني الى التعصب في الدين ، والاحرى في جميع المشاكل الدينية ان نفتش عن بواعثها المدنية وأن لا نحول المشاكل المدنية الى دينية فتضيع علينا حقيقتها . وقال ان كنه التحرر السياسي يتضح في فصل الدولة عن الدين وبقاء الشعب فيها ، برغم هذا الفصل ، متدينا ؛ فالدولة قد تصير لادينية او علمانية لكن الشعب يبقى على دينه . ومثل هذا يحصل ايضا، عندما تتخلى الدولة عن الملكية الخاصة سياسيا فتلغي شرط الملكية من مستلزمات ممارسة حق الانتخاب ويبقى حق الملكية الخاصة في جملة الحقوق المدنية . وتخلي الدولة سياسيا عن الدين هو مثل تخليها سياسيا عن الملكية الخاصة نشأ ، كما قال ماركس ، عن ضرورة الحفاظ على وجودها ، اذ لو بقيا ملازمين للدولة وهي تعارض حركة التحرر السياسي والنظام الليبرالي لاصبح زوالها شرطا من شروط قيام هذا النظام . ولكن ماركس رأى التحرر السياسي في الدولة الليبرالية غير التحرر الذي تريده الانسانية ، لانه تحرر قام عن طريق وسيط هي الدولة ، ففسد وصار صوريا يحمل الخديعة والرياء ... وقد اصبحت الدولة فيه

حاجزا بين الانسان وحريته فصار الانسان حتى اذا اكتمل تكوين الدولة يحيا حياة مزدوجة لا بالفكر والاحساس فقط بل في الواقع ايضا ، فهو في الوسط السياسي عضو في جماعة وفي الوسط المدني فرد قائم بذاته يتخذ الآخرين وسيلة لبلوغ مآربه أو يصير وسيلة لتحقيق مآربهم ويتحول الى أداة لقوى غريبة عنه (٧٤) . وفي كلتا الحالتين يكون في غير وضعه الطبيعي ، فهو في التكوين السياسي ظاهرة وهمية تكتنفها الالغاز والمعميات ، لا يدري من امره شيئا ؛ وهو في واقعه اليومي مشتبك في حرب الكل على الكل (٧٥) . على انه برغم ذلك ، لا يجوز لنا ، كما يقول ، أن نقلل من شأن التحرر السياسي والديمقراطية الليبرالية ، فهما يمثلان دون شك ، تقدما عظيما . فالديمقراطية الليبرالية ولو لم تكن الشكل النهائي لتحرر الانسان لكنها النمط الذي يمكن تحقيقه في المجتمع البورجوازي ، وتعتبر الانسان ولو نظريا ، على انه السيد (٧٦) ، ولو انه يكون فيها سيدا متخلفا يعارض مصلحة المجتمع ، افسده مجمل النظام الاجتماعي فضاعت عليه ذاته وصار سلعة تباع وتشترى او عبدا للمادة يكاد يفترس الآخرين في سبيل تكديس الثروة واستبدت به قوى قاسية غير جديرة بالبشرية (٧٧) .

ويوضح ماركس ما يقصده بالتحرر الحقيقي الذي تريده الانسانية ، فيبدأ بايضاح مدلول «حقوق الانسان» كما اعلنت في البيانات الخاصة بها ويتساءل عن السر في تسميتها بحقوق الانسان فيرى انه يرجع الى ان المقصود بها هو الانسان المنتمي الى المجتمع المدني ، المجتمع البورجوازي ، لا الانسان على وجه الاطلاق . ثم يتساءل عن سبب تسمية المنتمي للمجتمع المدني انسانا وتسمية حقوقه حقوق الانسان ، فيكتشف انه يرجع ، كما يقول ، الى طبيعة الصلة السياسية التي تربط الدولة بالمجتمع المدني وبمدلول التحرر السياسي فيه ، فتجعل المقصود بحقوق الانسان ، وهي الحقوق التي ميزت عن حقوق المواطن ، حقوق انسان المجتمع المدني ، الاناني المنفرد عن الآخرين وعن المجتمع (٧٨) . ويدلل على صحة رأيه هذا باستعراض حقوق الانسان كما جاءت في دستور فرنسا لسنة ١٧٩٣ ، وكان اكثر دساتير الثورة الفرنسية راديكالية ، والذي حصرت فيه حقوق الانسان بأربعة حقوق اساسية هي الحرية والمساواة والطمأنينة والملكية الخاصة ؛ ويثبت ان هذه الحقوق جميعها تؤكد سمة واحدة هي سمة الفردية الانانية .

فقد وجد ان الحرية عرفت في هذا الدستور بأنها حق المواطن في ان يفعل ما يشاء بشرط ان لا يتعرض لحرية الآخرين في ممارسة هذا الحق ؛ ويتساءل ، أليست الحرية بحدود وشروط هذا التعريف تعزل الانسان عن غيره وتكون وسيلة لابعاده عنهم لا وسيلة لارتباطه او اندماجه بهم وتجعل منه فردا لا تعنيه الا نفسه يرى في وجود الآخرين حدا لانانيته ؟ ثم يأخذ حق الملكية الخاصة الذي عرّف بأنه حق الانسان في ان يتمتع بما يملك وبعوائد ما يجنيه بعمله ويتصرف بها كيف يشاء . ويتساءل ، الا يبيح هذا للفرد ان لا يبالي بالآخرين ولا يحسب حسابا للمصلحة العامة فيكرس الفردية والانانية فيه ؟ ويخلص من تحليل حق

الحرية وحق الملكية الى هذا السؤال : أفليس هذان الحقان ، وهما الركنان الاساسيان في المجتمع المدني ، في حدودهما وشروطهما تلك ، يحملان الفرد على أن يرى في الآخرين عقبة تحد من حريته وتنغص عليه متعته ؟ ولم يجد ماركس في حق المساواة بمدلوله غير السياسي ، الا ما يطابق مدلول حق الحريةويقضي بأن يؤخذ كل انسان دون تمييز ، من حيث هو فرد قائم بذاته . كما لم ير في حق الطمأنينة الذي يلقي على عاتق المجتمع واجب حماية الفرد وضمان سلامته وما يملك ، سوى ضمان للانانية وتكريس لها .

ويخلص ماركس من استعراضه للحقوق التي سميت بحقوق الانسان الى انها لا تنطوي الا على ما يعزز الفردية الانانية التي هي سمة المجتمع المدني الاساسية. ويتساءل وهو يشير الى الثورة الفرنسية : «ألا يبدو غريبا أن نجد شعبا يوشك أن يحقق حريته ويقتلع الحواجز التي تمزق وحدته لينشىء مجتمعا سياسيا سليما ، يبرر بمنتهى الجد ، كما في بيان ١٧٩١ ، انانية الانسان المنشق على بني جلدته وعلى مجتمعه» (٧٩) ووجد ماركس سر ذلك كامنا في طبيعة التحرر السياسي الذي نشأ عن انحلال نظام اجتمعت خصائصه كلها في كلمة واحدة هي الاقطاع الذي استلب السلطة من الشعب وحصرها بالسيد الاقطاعي في كل ما يخص مقومات المجتمع من عائلة وملكية ، فكانت الثورة عليه في حقيقتها ، ثورة بورجوازية انتزعت من الاقطاعي سلطته التي تجسدت في فرديته الانانية وخصت بها نفسها بدلا من ان تعيدها الى الشعب وتجعلها عامة ، وبذلك استبدلت بالانانية الاقطاعية انانية البورجوازية ، وجعلت المقصود في بيانات حقوق الانسان ، الانسان الاناني الذي هو عنصر المجتمع المدني ولم تنتزع من هذا الانسان حق الملكية بل منحته حرية التملك ولم تمنعه من السعي وراء منفعته الخاصة على حساب الآخرين بل منحته حرية استغلال الآخرين (٨٠) .

وختم ماركس تحليله لحقوق الانسان مستشهدا بقول روسو «ان من يجد في نفسه الشجاعة ليأخذ على عاتقه انشاء مؤسسات شعب ، عليه ان يتوثق اولا ، اذا جاز القول ، من قدرته على تغيير طبيعة الانسان بأن يحول الفرد الذي هو بذاته كلّ تام وفرداني الى جزء من كل ، يستمد من الكل مقومات حياته ووجوده ؛ وان يغير من بنية هذا الفرد ليزيدها قوة ومتانة ويستبدل سجيتها المادية ونزعتها الفردانية ... بسلوك اخلاقي وتعاطف مع الآخرين ؛ او بكلمة اخرى ، ان يأخذ من الفرد ثروته وموارده الخاصة ويعوضه بأخرى منفصلة عنه لا يستطيع ان ينتفع بها الا بالتعاون مع الآخرين» (٨١) .

وبعد ان كشف ماركس انسان المجتمع المدني بهذه الصورة ، مجسدة بفردية انانية ، عاد الى مسألة اليهودية وقال ، ان الذي يقتضي ان نفعله لنصل الى الحل الصحيح لهذه المسألة ، هو ان نتقصى طبيعة اليهودية في حياة اليهودي اليومية والفعلية ، لا ان نفعل العكس فنستخلص طبيعة اليهودي من دينه او يهوديته ؛ فمسألة اهلية اليهودي الى التحرر مسألة اجتماعية لا دينية. وهذا يفترض التحري عن العنصر الاجتماعي الذي يقتضي التغلب عليه لتحرير اليهودي من يهوديته ،

بمتابعة حياة اليهودي كما هو في المجتمع المدني ، يعمل ليديم حياته بطريــــق الانانية ؛ فنبدأ بوسيلته او مهنته التي يستعين بها لاشباع حاجته لنجد ان وسيلة اليهودي او مهنته هي البيع والشراء ، وهي مهنة مارسها على مر العصور حتى اصبحت بمثابة وطنه ، وصار ديدنه في حياته ان يجمع بطريقها النقود ويكتنزها حتى امست النقود دينه ومعبوده . ومن هذا يتضح لنا ان لا سبيل الى خلاص اليهودي من يهوديته الا بتحرره من مهنة البيع والشراء ، وان النظام الذي يلغي نظام البيع والشراء هو الذي يلغي يهودية اليهودي ، بل انه بعينه الذي يحـــرر الانسانية من اليهودية المجسدة بالفردية الانانية . وقال ماركس ان اليهود مـــا كانوا يوما من الايام حريصين على حريتهم حرصهم على يهوديتهم المجسدة بالمتاجرة التي حققوا بها كل ما يبتغون من الحرية بطريقــة يهوديــة بيهودة النظــــام البورجوازي وحرصوا عليه حرصهم على يهوديتهم . لانهم لم يضمنوا في النظام البورجوازي القوة والسطوة باكتنازهم المال واستثماره فحسب بل جعلوا المال روح المجتمع البورجوازي ومداره . فاليهودي ، حتى عندما يكون محروما من حقوقه السياسية ، يمارس في واقع النظام البورجوازي بما لديه من مال ، نفوذا رهيبا. وهذا التناقض بين حرمان اليهودي من الحقوق السياسية وبين سطوته الفعلية في المجتمع البورجوازي ، دليل على الفرق بين الواقع الفعلي للسياسة والواقع الفعلي للمال في هذا المجتمع . فالسياسة برغم ما تبدو به في ظاهرها المتعالي وكأنها التي تقبض على مقاليد السلطة ، هي في الحقيقة ليست الا اداة مسخَّرة في خدمة المال ، لان المال في المجتمع البورجوازي هو السيد المطلق ، هو روح اليهـــودي اصبحت روح المجتمع البورجوازي ، ومعبود اليهودي اصبح معبود المجتمــــع البورجوازي ؛ وقد دانت لها كل قيم الانسانية فحوّلتها الى سلع يتاجر بها اليهودي البورجوازي والبورجوازي اليهودي . وبقيت اليهودية على هذه الصورة ملتزمة مسلكها هذا لخلوها من التأمل النظري ومن الفن والتاريخ ، وانقطع بها اليهودي، كما يقول ماركس ، الى اشباع حاجاته المباشرة التي هي بطبيعتها سلبية مذعنة لا تبذل جهدا من اجل تقدم أو تغيير بل تجاري التيار وتنتهز في كل حال الفرص التي تتاح به لكسب المال ؛ وأصبحت في المجتمع البورجوازي اوسع نطاقا مـــن الدين اليهودي فلم يعد زوالها رهن بزواله لانها وقد حشدت فيه تحت اوائها كل الذين تدور حياتهم في فلك مصالحهم الخاصة وأطماعهم الذاتية وخدمة انانيتهم ، لا يبالون بالآخرين او بالمصالح العامة ، ربطت زوالها بزوال التسوق ومجالاته . ووجد ماركس فيالنفوذ الرهيب الذي يمارسه اليهود في الولايات المتحدة الاميركية حتى في زمانه ، ما يؤيد صحة ما ذهب اليه من طغيان اليهودية في النظــــام البورجوازي بحكم طبيعته ، وأشار الى ذلك بقوله «ان من العجب حقا ان تكون الهيمنة الفعلية لليهودية في المجتمع المسيحي في اميركا الشمالية ظاهرة طبيعية يسلم بها الجميع» (٨٢) .

وتجاوز تفكير ماركس ، في المسألة اليهودية ، الشؤون السياسية الـــى

الاقتصاد السياسي الذي صار موضع اهتمامه الاول بقية حياته . وبرغم بقاء تفكيره في معالجة المسألة اليهودية مقتصرا على التصور النظري لحقوق الانسان ، فانه ما لبث في البحث الذي اعقبه ، ان تخطى التصور النظري الى تقصي سبل العمل التي تيسر استكمال تلك الحقوق (٨٣) . وبالرغم من بقاء تأثير فويرباخ الانثروبولوجي في المسألة اليهودية ، يلقي على تصورات ماركس لحرية الانسان ظلال المثالية ، الا ان نقده للمجتمع البورجوازي اتخذ فيها اتجاها واقعيا بدت فيه دلائل التمييز بين طبيعة الثورة البورجوازية وطبيعة الثورة الاشتراكية واضحة ، وظهر جليا تقديره لضرورة ان تعقب الثورة الثانية الثورة الاولى (٨٤) .

١٣ ـ مقدمة نقد فلسفة الحق

أعد ماركس «مقدمة نقد فلسفة الحق» وهو في فرنسا ، وفي نيته ان يخرجها مع الاصل الذي كان ينوي نشره ، فلما تأخر صدور الاصل ، اخرج المقدمة في الحولية الالمانية الفرنسية فكانت مقالته الثانية فيها . وتعد «المقدمة» بين اكثر كتاباته غنى بالافكار النيرة . وبدا فيها متأثرا بروح الثورة الفرنسية وبالفكر الاشتراكي في فرنسا . وكتبها بعد انقضاء ثلاثة شهور على وجوده في باريس ، وعالج فيها قدرة المانيا على القيام بثورة تخرجها مما هي فيه من تخلف لتحملها الى طليعة الامم الاوربية التي تقدمتها . وبدا ماركس في المقدمة شديد التعلق بوطنه وكان حبه له وشوقه اليه طغى على كل احساساته واستحوذ على جماع فكره، وذلك امر كثيرا ما يحدث عندما يجبر المرء على هجر وطنه والعيش في الغربة (٨٥).

وميز ماركس في المقدمة بين ثورة جزئية وثورة كلية . ورأى الجزئية ثورة تتولاها احدى طبقات المجتمع متخذة فيها دور المحرر بينما هي تسعى في الواقع لتحقيق مصالحها الخاصة ، لكنها تعلن المطاليب التي هي بحق المطاليب التي يرجو الشعب تحقيقها . واعتبر الثورة الفرنسية التي تولتها الطبقة الوسطى ، من هذا القبيل . اما الكلية فهي ثورة راديكالية تقوم بها طبقة تعاني الظلم كله ولا تجد سبيلا الى حريتها وخلاصا مما تعاني الا بازالة هذا الظلم وتحرير المجتمع تحريرا تاما بتغيير النظام تغييرا جذريا وكليا . وهذه هي الثورة التي كان يرجوها لوطنه فهي وحدها تحقق امنيته الكبرى بأن تدفع بوطنه الى مقدمة الاقطار التي سبقته . وراح عند هذا ، يتقصى خصائص الطبقة التي تستطيع ان تتولى مهمة القيام بهذه الثورة فوجدها تتمثل في البروليتاريا . وخرج بفكرته هذه التي اصبحت من اهم اركان الفكر الماركسي وبدء تلاشي افكار الاشتراكية الطوبائية ورجحان الاشتراكية العلمية فيه (٨٦) .

وكشف ماركس في المقدمة ، عن لزوم النظرية التقدمية للثورة الكلية لتنير سبيلها وتدلها على مستلزمات التحول الاجتماعي الجذري . وأجمل رأيه هذا بقوله «وكما تجد الفلسفة في البروليتاريا سلاحها المادي ، كذلك تجد البروليتاريا

في الفلسفة سلاحها الروحي» (٨٧) . ولم تظهر في المقدمة اية اشارة للاشتراكية والشيوعية ولم يتجاوز ما جاء فيها نطاق الفكر الديمقراطي الثوري الراديكالي(٨٨).

بدأ ماركس المقدمة بفقرة عن الدين ابدى فيها كثيرا من الحذق ودقة التعبير . فأوجز موقف اليسار الهيغلي من الدين مبتدئا بشتراوس ومنتهيا بفويرباخ وقال «وبقدر ما يتعلق الامر بألمانيا ، فان نقد الدين من حيث المبدأ بلغ غايته . ونقد الدين يشمل ضمنا كل النقد» (٨٩) ، وقصد بذلك ان نقد الدين انتهى الى ان الانسان هو مدار كل ما يتعلق بعالمه الخاص الذي هو المجتمع والدولة ، وان الدين في عالم الانسان هذا هو التتمة المثالية الضرورية لعالم مادي ناقص . واستعان ماركس في ايضاحه موضوع الدين بالاستعارة والمجاز كما هو ظاهر في هذه الفقرة التي جاء فيها «ان الدين هو النظرية العامة لهذا العالم . انه خلاصته الموسوعية الشاملة ومنطقه المبسط الذي يفهمه حتى عامة الناس . هو موطن شرفه الروحاني ومنبع الحماسة ومبعث الوازع الاخلاقي فيه . هو خاتمته المقدسة المهيبة ومبدؤه الاساسي الشامل في المؤاساة وفي التبرئة من الاثم ... هو الدليل الى علة اجتماعية خفية والشكوى من آلامها ... فالمعانات الروحية في الدين هي في الوقت عينه تفريج عن معاناة فعلية واحتجاج فعلي عليها ، هي تنهدة كائن يقاسي ، هي الاحساس في عالم متحجر القلب انتزعت من روحه المروءة ، هي افيون الشعوب» (٩٠) .

واستغلت كلمة «افيون» الواردة في آخر الفقرة لتعطي معنى الاستهانة بأن فسرت تفسيرا مغرضا ومغلوطا ، تماما كما فعل معارضو الماركسية حين فسروا ماديتها تفسيرا مضللا بل فسروها بعكس ما أريد بها تماما . وواضح من سياق العبارة التي جاءت فيها كلمة افيون ان ماركس قصد بها معنى التنهدة والتنفيس لا التخدير . بل ان الذي قصده في كل ما جاء في الفقرة هو ان يقول ان البشرية وجدت في الدين عزاءها فيما كابدت من شقاء وعانت من ظلم (٩١) . ولعل المهم في الامر ان الفقرة جاءت في المقدمة ولم يكن ماركس قد اصبح ماركسيا بالمعنى المقصود الان ، فلم يكن قد تجاوز بعد الديمقراطية الثورية الراديكالية الى الاشتراكية والشيوعية وبرغم ذلك الصق هذا التفسير بالماركسية والاشتراكية والشيوعية . والثورية عرفت على مدى التاريخ وقبل ان يكون للديمقراطية والراديكالية والماركسية مفاهيمها الحاضرة ، بموقفها السلبي من المؤسسات والتقاليد التي ارتبطت بالاوضاع التي أريد تبديلها ، لاسيما عندما اتخذت هذه المؤسسات المعتقدات وسيلة التضليل والتستر على مظالم الاوضاع ومفاسدها . وتجنب ماركس التعرض للدين، وربما كانت هذه الفقرة اطول ما كتب (٩٢) لان اهتمامه كان موجها دائما لتقصي المشاكل الاجتماعية وطرق معالجتها ولم يكن يرى في التدخل في شؤون الدين جدوى منذ ان اقتنع ان منشأ العلل التي يعاني منها الناس ليس الدين لانها في الاصل علل اجتماعية حتى ولو اتخذت صيغا دينية . وكان رأيه هذا سببا رئيسيا في خلافه مع اليسار الهيغلي . ولم يكن يعاني من عقدة نفسية تجاه

الدين وقد نشأ في بيئة فكرية متفتحة فسَلِم من ردود فعل التعصب والتزمت بعكس ما كان حال بعض رفاقه في اليسار الهيغلي . والواقع ان كل ما جاء في الماركسية بخصوص الدين او بالاحرى بخصوص مؤسساته لا يعد شيئا بالقياس الى ما جاء على لسان قادة البورجوازية فيعهد ثوريتها او ما قالهمفكرو عهد التنوير او قادة الثورة الفرنسية ، ولا يعد شيئا بجانب مكتشفات العلم الحديث ، وعلى الخصوص منذ ظهور دارون . وما الماركسية في جوهرها الا طريقة علمية تعالج المشاكل الاجتماعية في مجالها الواقعي غير الروحي ، شأنها شأن علوم الطبيعة في مجالها الخاص ؛ فهي تأخذ التكوينات الاجتماعية في كليتها تتقصى خفاياها لتكشف مكنونها بطريقتها الخاصة وتعين العوامل المادية المؤثرة في نشوئها وحركتها وتطورها او تخلفها وانحلالها وتجعل الناس على بينة منها ليعالجوا مشاكل حياتهم في حاضرها ، فتفعل ما يفعله الطب مثلا ، في تشخيص المرض على انه ناشيء عن «مادة جرثومية» او غيرها تعالج بوسائل مادية .

وانتقل ماركس بعد الدين الى الفلسفة «التي هي في خدمة التاريخ ... توجه نقد ما في السماء الى نقد ما في الارض ، فتنتقد القانون بدلا من نقد الدين ، وتنتقد السياسة بدلا من نقد اللاهوت» (٩٣) وراح في ضوئها ينقد الوضع في المانيا وهمه تقصي سبل الخروج بها مما هي فيه ، وقال «لو انني وقفت عند اصلاح وضع المانيا كما هو في عام ١٨٤٣ لما استطعت ان ابلغ به الى ما هو احسن حالا من حال فرنسا في سنة ١٧٨٩» وقال في سخرية مريرة «لعلنا في المانيا جديرون بالتهنئة لاهتدائنا الى ما لم يهتد اليه شعب قبلنا وان يهتدي اليه شعب بعدنا. فقد اسهمنا في الردة التي نزلت بالشعوب دون ان نسهم بثوراتها ، وتم لنا ذلك لان الشعوب غيرنا تجرأت على القيام بثورة فكان عليها ان تعاني آلام الردة ومآسيها ؛ اما نحن فبفضل قادتنا الذين يرعون شؤوننا تيسر لنا ان نشارك في محفل الحرية مرة واحدة ، بمراسيم جنازتها» (٩٤) . وهو يشير بذلك الى دور بروسيا في مؤتمر فيينا وفي الردة التي اعقبتها .

وتعرض ماركس بالنقد لموقف فريقين من اهل الرأي من حركة تحرير المانيا: فريق المدرسة التاريخية لانه «برر المذلة والمفاسد التي انطوت عليها الاوضاع القائمة بحجة انها أقل سوءاً مما كانت عليه سابقتها ولانه كان كمن يرى في احتجاج العبيد على الجلادين عملا ذميما ما دام الجلادون اعيانا ذوي حسب ونسب ؛ ولانه لم ير في التاريخ اكثر من متتالية منطقية» . اما الثاني ، فهو فريق المصابين بالغرور القومي الذين يجري في عروقهم الدم الجرماني فيرون موطن الحرية في ماضيهم السحيق «في مجاهل الغابات التيتونية ، ولا يميزون بين حريتنا وتاريخنا وحرية دب الغابة ما دامت الغابة كانت في الاصل موطن هذه الحرية » (٩٥) .

ويشرح ماركس وظيفة النقد والضرورة اليه بالنسبة لالمانيا فيقول «على الرغم من ان وضع المانيا هو دون مستوى التاريخ ودون مستوى النقد لكنه يبقى ضمن مهام النقد كبقاء المجرم الذي هو دون مستوى الانسان السوي ضمن مهام الجلاد.

والنقد بمواجهته الوضع الراهن في المانيا ليس ثورة في الرأس بل بداية ثورة ، وهو ليس غاية بذاته بل وسيلة يحملها في الاصل شعور السخط على تأدية مهمتها الحقيقية وهي الشجب الساخط » . ويقول ان اهم اغراض النقد «ان لا يترك الالمان اي مجال لخداع انفسهم او للاستسلام لليأس ، بجعله الظلم النازل بهم اشد ايلاما ... والاهانة اشد وقعا ... وتحليل كل وجوه المجتمع الالماني وكشفه ما تخفيه من خزي وعار ، وجعل العلاقات التي تقوّمه تهتز وتتلوى والنقد يضرب على الوتر الذي يستثيرها ..» (٩٦). وقال للذين يشغلون الناس عن حاضرهم بأمجاد الماضي «ان إحياء العهود الغابرة ليس الا تمثيلية هزليـــة لعالم مات ابطالـــه الحقيقيون . والتاريخ يجري في غاية من الاتقان ... يحمل اوضاعه البالية الى حيث يطمرها ... ويجعل من خاتمة كل وضع مسرحية هزلية ليـــودع الناس ماضيهم وما انقضى وهم مبتهجون ..» (٩٧) . وختم ماركس هذا القسم من بحثه بالاشادة بالفلسفة الالمانية التي برزت كالشعلة تنير لالمانيا واقعها المكفهر وتكشف المفارقات والتباين بين مستوى هذا الواقع ومستوى الفكر فيه، وتؤكد ان اصلاحه بالطريقة التقليدية ... سيبقيه متخلفا عن فرنسا بما لا يقل عن نصف قرن . ولهذا ، ليس امام المانيا الا ان تستعين بفلسفتها المتقدمة وتفجر ثورة راديكالية تحقق لها سبقا يعوضها عما فاتها ويضعها في طليعة الامم التي تقدمتها . ومفتاح هذه الثورة هو نقد فلسفتها السياسية بقلبها من فلسفة تأملية مجردة الى فلسفة عمل وتطبيق .

وهكذا بدأ ماركس الشق الثاني من بحثه بمعالجة موضوع الفلسفة السياسية ليبلغ بها المستوى الذي تستطيع فيه ان تؤدي المهمة المطلوبة منها ؛ وواجه نفسه بهذا السؤال : كيف يمكن ان تحقق المانيا ثورة لا تقف بها عند بلوغ المستوى الحالي للشعوب المتقدمة بل تتجاوزه الى المستوى الانساني الذي يليه مباشرة ؟. ووجد مفتاح الحل فيما عبر عنه بقوله: صحيح ان سلاح النقد لا يغني عن نقد السلاح وان القوة المادية لا تقهر الا بالقوة المادية ، لكن النظرية تتحول الى قوة مادية عندما تعيها الجماهير وتأخذ بها . والجماهير لا تقتنع بالنظرية وتأخذ بها الا اذا كانت النظرية ذات طبيعة انسانية . ولا تكون النظرية انسانية الا اذا كانت راديكاليـــة تعالج الامور معالجة جذرية ويكون الانسان هو الاصل فيها (٩٨) .

واخذ على هذا الاساس يتحرى السبيل الى الثورة الراديكاليـــة ؛ فوجد ان المانيا لم تكن متخلفة في اجتياز المراحل التي اجتازتها الشعوب الاخرى لبلـــوغ تحررها السياسي فحسب ، بل هي عجزت حتى فيما حققته نظريا ان تحققه في مجال التطبيق . فكيف اذاً ، تستطيع ان تقدم على طفرة محفوفة بالمخاطر لا تتجاوز بها المراحل التي تجاوزتها الشعوب التي تقدمتها فقط ، بل تتجاوز بهـــا ايضا المراحل التي لم تتجاوزها بعد الشعوب التي سبقتها ، وهي فيما هي فيه من تخلف ما تزال تجد في الاوضاع التي اتمت تلك الشعوب اجتيازها من الحريات والمنافع ما لم يتحقق لها بعد وما لا تزال تفتقده وتتوق اليه ؟ وفي مواجهة هذه

المعضلةالمستعصية لجأ ماركس الى الديالكتيةفتوصل بطريقها الى انما لا يدرك بالثورة الجزئيةيدرك بالثورة الكلية لانها فيجوهرها ثورةيراد بها تحقيق مطاليب راديكالية منابتها ومستلزماتها ما تزال مفتقدة(٩٩). واستبق الذين يرون في تصوراته هذه محض احلام وتصورات طوبائية بالرد عليهم بقوله : ليست الثورة الراديكالية ، الثورة الانسانية الشاملة ، بالنسبة لالمانيا ، تصور وحلم طوبائي ، بل ان التصور او الحلم الطوبائي بالنسبة لها ، هي الثورة الجزئية ، الثورة السياسية المحضة التي تبقي أركان الدار العتيقة قائمة ؛ لانها ثورة طرف من اطراف المجتمع ، يحقق بها لنفسه الحرية ليكون المهيمن فيسخّر المجتمع في خدمة مصالح طبقته الخاصة . وقال ان ما من طبقة تقود الثورة ولا تستغلها لمصلحتها الا اذا كانت مصلحتها هي بعينها مصلحة المجتمع كله ؛ اي ان تكون طبقة استقطبت كل مآسي المجتمع وآلامه تواجه طبقة مهيمنة استقطبت بدورها كل آثامه ومفاسده ، ليكون انتصار الاولى وتحررها انتصارا وتحررا للمجتمع كله واندحار الثانية وزوالها اندحارا للظلم وزوالا لمفاسد المجتمع كلها (١٠٠) . وقال : اذا كان التحرر الجزئي قد تحقق في فرنسا فمهد السبيل الى تحرر شامل ، فان تعذر تحقيق تحرر جزئي لالمانيا هو مفتاح تحررها الكلي الشامل (١٠١) . وعزى ماركس تعذر قيام ثورة جزئية مجدية في المانيا الى اسباب عدة منها : فوات أوانها بعد ان اتسعت الفجوة بين المانيا والدول التي تقدمتها حتى تعذر لحاقها بها . ومنها رسوخ هيمنة الطبقة المسيطرة وقوة بأسها وضعف الطبقة الوسطى وتخاذلها .

ولقناعته ان امر الثورة الراديكالية رهن بالطبقة المؤهلة للقيام بها ، اخذ يتحرى عن هذه الطبقة حتى وجدها ممثلة بالبروليتاريا وهي كما وصفها : طبقة مثقلة بالاغلال تكوّن جانبا من المجتمع ولو انها لا تعد بين طبقاته لانها نفاية كل الطبقات فيه ، وتتسم بالشمول لانها تعاني شقاء شاملا ، ولا تطلب حقا بعينه لانها لا تفتقد حقا معينا وانما تفتقد الحقوق كلها ، ولا خلاص لها من محنتها الا اذا استعادت للاطراف الاخرى حريتها الكاملة ... اي انها بكلمة اخرى ، طبقة تجسد ضياعا تاما ولا سبيل لها الى استرداد انسانيتها الا اذا استردت للانسانية كلها حقيقتها (١٠٢).. هذه الطبقة هي البروليتاريا التي نشأت وتكاثرت، كما رأى، في غمرة حركة التصنيع ، فلم تكن وليدة فقر نشأ بحكم قوانين الطبيعة بل وليدة قيام الطبقة الوسطى وانحلالها . وهي اذا ما اعلنت انحلال النظام القائم ، نظام الرأسمالية الصناعية، اعلنت حقيقتها لان حقيقتها انما تتجلى بانحلاله (١٠٣)؛ وعندما تفرض الغاء الملكية الخاصة فانها تطبق مبدأ اجتماعيا طبق عليها فحرمها من حق الملكية وخص به غريمتها وجعل منها طرفا منبوذا، وهي «ترى ان لها الحق في عالم الغد بمثل ما كان للملك من ملوك المانيا في عالم الامس ان يقول عن الشعب هذا شعبي وكأنه يقول عن حصان هذا حصاني . وكأن هذا الملك وهو يعلن ان الشعب شعبه ، يعلن ان من له ملك خاص يكون ملكا ...» (١٠٤) . وقيل ان ماركس استنبط فكرة البروليتاريا من فلسفة هيغل وبطريقته الديالكتية وأرجعها آخرون

الى دراسته الثورة الفرنسية وصلته بقادة الحركة الاشتراكية في فرنسا وكانت الفكرة معروفة في اوساطهم ، وربما صح القولان (١٠٥) .

١٤ ـ مخطوطات باريس (١٠٦)

وعقب توقف الحولية الالمانية الفرنسية عن الصدور ، «أقبل ماركس» ، كما قال انجلز ، «يدرس بنهم شديد ، الاقتصاد السياسي والاشتراكية الفرنسية وتاريخ فرنسا» . ووصفه روغه في هذه الفترة في رسالة الى فويرباخ فقال : «انه كان يفرط في القراءة ويجهد نفسه ولا ينهي عملا ... فهو يلقي ما بيده ليعود الى كتبه ويبدأ موضوعا جديدا ينغمر فيه الى حين ثم يتركه الى آخر وهكذا ... وصار سريع الغضب بادي الانفعال ، لاسيما عندما يبلغ به الاجهاد درجة السقام بعد عمل متواصل لثلاثة او اربعة ايام لا يأوي فيها الى فراشه . وقد توقف عن نقد فلسفة هيغل ليفيد من وجوده في باريس ويكتب تاريخ الجمعية التأسيسية الفرنسية . وتجمع لديه كل ما يلزمه من المعلومات لاعدادها وكوّن آراء قيّمة في موضوعها» (١٠٧) . لكن ماركس لم يحقق ما تصوره روغه ولم يترك في اوراقه ما يشير الى انه كان ينوي كتابة شيء عن تاريخ الثورة الفرنسية ولو انه درسها باهتمام وتعمق في تحليلها ، لاسيما ما يتعلق منها بالصراع بين اليعاقبة والجيروند في عامي ١٧٩٢ و١٧٩٣ وبالبارزين من قادتهم ، روبسبيير وسان جوست ومارا . على ان اهم ما عادت به متابعته لتاريخ الثورة الفرنسية ارشاده الى موضوع الطبقات والصراع الطبقي الذي نوه به مشاهير المؤرخين الفرنسيين في فترة عودة الملكية ، تييري وميبنييه وغيزو ، الذين كان لهم السبق في ادراك أثر الصراع الطبقي في وصول البورجوازية الى السلطة . على ان المؤرخين الفرنسيين لم يتقصوا طبيعة الطبقات وأثر الصراع الطبقي في النظام الراسمالي وفيما سيؤول اليه وهو ما حاول ماركس ان يتبينه ، وتوصل الى ان التركيب الاقتصادي هو اساس التكوين الطبقي وان العلاقات الاقتصادية هي مكمن اسرار الصراع الطبقي ومداره ووجه جل اهتمامه الى دراسة الاقتصاد السياسي وجعله موضع عنايته الخاصة وعكف على تعقب اعمال مشاهير اقتصاديي العصر، آدم سمث وريكاردو وجين ساي وجيمس مِل وغيرهم (١٠٨) .

وبالرغم من ان تعقيباته على آراء هؤلاء الاقتصاديين لا تظهر فارقا مهما بين مفاهيمهم الاقتصادية ومفاهيمه ، فانه نقدهم في امرين : اخذ عليهم اولا، نظرتهم الى مبادىء الاقتصاد السياسي البورجوازي على انها قواعد عامة شاملة وثابتة لا تتبدل ؛ واخذ عليهم ثانيا ، تسليمهم بالمتناقضات والمشاكل التي ينطوي عليها الاقتصاد البورجوازي او تتولد عنه ، على انها طبيعية وثابتة لانها ناشئة عن طبيعته ودائمة دوام أحكامه ؛ فكان من جراء ذلك ، ان اغفلوا تقصي بواعثها والاضرار الناجمة عنها ومعالجتها . وترتب على نقده هذا ، ان خالفهم في امرين ؛ فنفى

اولا ، صفة الديمومة والثبات عن مبادىء وأحكام الاقتصاد السياسي البورجوازي لارتباطه بالرأسمالية الصناعية التي هي وليدة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج فهو لهذا يتغير بتغير نظام الرأسمالية الصناعية ؛ واعتبر ثانيا ، ان في مقدمة مهمات الاقتصاد السياسي ووظائفه كشف التناقضات والمشاكل التي تنجم عن نظام الاقتصاد الرأسمالي وتقصي بواعثها ومعالجتها .

ولم تتح له اقامته في باريس ، المجال لهذه الدراسات النظرية فقط ، بل اتاحت له ان يشهد ويتابع عن كثب تطبيقاتها في واقع المجتمع الفرنسي ، وكان يومئذ تجسيدا حيا للنظام البورجوازي الرأسمالي ، لاسيما بعد ان وطدت ثورة سنة ١٨٣٠ سلطة البورجوازية وحصرت مقاليد السلطة بكبار الماليين ورجال المصارف وسماسرة الاسهم وأقطاب الصناعات الكبيرة حتى جعلت من السلطة كما وصفها ماركس «شركة مساهمة متحدة اقتسم اسهمها الوزراء والنواب وكبار رجال الدولة ومئتان وأربعون الف منتخب»(١٠٩) آلت اليهم كل عوائد التقدم الصناعي والانتعاش الاقتصادي الذي لم يسبق له مثيل ؛ بينما كابد الكادحون شدة وطأة الاستغلال بانخفاض الاجور وتزايد ساعات العمل وفقدان الطبقات الفقيرة وجانب كبير من سواد البورجوازية الصغيرة في المدن والارياف حقوقها السياسية بتقييد حق الانتخاب بشرط الملكية . وكان من جراء ذلك ان عم السخط اوساط الشعب وجعلها تربة خصبة لافكار الاشتراكية والشيوعية .

وكانت الاشتراكية يومئذ طوبائية موزعة في مذاهب شتى بين خلفاء سان سيمون وفورييه ومن نمط دوغمائي اصلاحي اقرب الى اشتراكية بورجوازية صغيرة ، تأخذ بمبدأ الوفاق الطبقي وتعارض فكرة البروليتاريا الثورية وتعكس بوجه عام خيبة الامل بما آلت اليه راديكالية الثورة الفرنسية . وكانت الشيوعية ذات طبيعة مثالية بلغ فيها الغلو حد الاغراق في الخيال ؛ التزمت بعض انماطها سبل المسالمة فرجحت طريقة الاقناع وتوسلت لتحقيق اهدافها بانشاء التعاونيات ولو انها تجاوزت فكرة اصلاح المجتمع الى فكرة انشائه على أسس غريبة مقطوعة الصلة بكل ما هو قائم فتنكرت لمقومات الحضارة الانسانية ونظرت الى المجتمع البورجوازي وكأن كل ما فيه منكر ومضاد لما يجب ان يكون عليه مجتمع المستقبل؛ واجتذبت انماط اخرى البروليتاريا واخذت بتعاليم بابوف ، الثوري الفرنسي ، فقالت بضرورة الدكتاتورية الثورية لتثبيت أسس النظام الجديد وكان من ابرز قادتها «اوغست بلانكي» الذي رجح التنظيم السري والاعتماد على نخبة صغيرة موثوق بها وسلوك طريق التآمر للاستيلاء على السلطة ؛ وكان منهم «ثيودور ديزامي» الذي رجح بعكس الاول ، التنظيم العلني الجماهيري ؛ وكلاهما لم يأخذ البروليتاريا بمفهوم ماركس او يرى فيها ما رآه . وكانت كل هذه الانماط من الشيوعية ، في نظر ماركس ، تمت الى المشاعية البدائية ، اطلق عليها اسم الشيوعية الفجة لانها لم تكن تنظر الى المجتمع نظرة تاريخية بل حصرت مهمتها في معالجة الثروة المادية وكانت في تصوره ذات دوافع انانية يحركها الحسد والطمع

وتنزع الى التنكر لكل ما بنته الحضارة الانسانية وتتطلع الى تدميرها وبلغ من امرها ان مالت الى الاستغناء عن العائلة ورجحت المشاعية الجنسية البهيمية ، فاتخذت في كل ذلك موقفا مضادا للمفهوم التاريخي لتطور المجتمع بمراحله المتعاقبة والمترابطة التي انشأ فيها الانسان الحضارة كجزء اساسي من حياته وتكوينه المادي والروحي والخلقي شذبتها التجارب ونقتها مما فسد وفات أوانه واستبدلته بما هو خير منه (١١٠) .

وعزى ماركس طوبائية الاشتراكية وبدائية الشيوعية في فرنسا الى طبيعة الراسمالية واستقطابها في راسمالية كبيرة متخمة وبقاء سواد الطبقة الوسطى يحيا على حافة منحدرات البروليتاريا مهددا بالانزلاق الى مهاويها ، فكان من جراء ذلك ان شاركها التبرم بسوء الاوضاع ووافقها في النقمة على الراسمالية الكبيرة وجرها كما جر نفسه الى السعي وراء سراب . على ان ماركس برغم نظرته هذه الى الاشتراكية والشيوعية في فرنسا يومئذ ، لم يقف في متابعة شتى انماطهما عند حدود التأمل والدراسة النظرية بل تعقب حركتهما على الطبيعة في واقعهما اليومي وحرص برغم تجنبه الانحياز لاي من تنظيماتهما والاحتفاظ بموقفه المستقل ، على توطيد صلاته بالقادة ومناقشتهم وحضور الاجتماعات التي يناقش فيها العمال شؤونهم وتعقب الصراعات الايديولوجية بين منظماتهما السرية والعلنية. وكان في الوقت عينه على صلة وثيقة بالمهاجرين الالمان في نشاطاتهم السياسية وتنظيماتهم السرية وتوثقت صلته بأبرزها وأكثرها راديكالية يومئذ وهي «عصبة العادلين» التي دعت الى اقامة النظام الجمهوري في المانيا .

وفي باريس ايضا ، اتيحت له الفرصة لزيادة التمعن في الفلسفة المادية الفرنسية التي كانت من الاسلحة الماضية التي اعتمدتها البورجوازية في صراعها مع الطبقات الحاكمة والاكليروس ، واهتم بوجه خاص بالجانب المتعلق بالمسائل الاجتماعية في فلسفة الفيتيوس وهولباخ اللذين ركزا على الجانب الانساني واكدا الصلة بين تقدم الصناعة وتقدم المهارة والفكر كما اكدا اهمية التعليم في تقدم المجتمع ورفعا من شأن الانسان بتقديرهما طبيعته الفطرية . وقال ماركس في وصف فلسفتهما انها انسانية واقعية تصلح ان تكون ضمن الاسس الفكرية للحياة المقبلة (١١١) .

وجاءت خلاصة دراسات ماركس خلال وجوده في باريس في مخطوطات سميت فيما بعد ، بمخطوطات باريس او المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لسنة ١٨٤٤ ، كتبها بين نيسان وآب من تلك السنة ولم ينشرها او يعدها للنشر ، وعثر عليها بعد وفاته ونشرت لاول مرة عام ١٩٣٢ ، وتضمنت ثلاثة بحوث هي الاغتراب والاستلاب ، وعلاقات الملكية الخاصة والشيوعية ، ونقد ديالكتية هيغل . وفي المخطوطات ظهرت لاول مرة بوادر ميله الى الشيوعية ولو انه لم يعلن انحيازه اليها الا في سنة ١٨٤٥ في رسالة «العائلة المقدسة» . ولم يكن في المخطوطات الا القليل من التاريخ ورجح فيها ماركس الطبيعية والنزعة الانسانية على المادية ، على نحو صريح بقوله «اننا نجد الطبيعية والانسانية في تماسكهما واستقامتهما

ترجحان المادية والمثالية» (١١٢) . وللمخطوطات في تاريخ الفكر الماركسي اهمية خاصة لانها كانت بداية عهد في حياة ماركس مليء بالحيوية اورد فيها آراء فصلها فيما بعد في «المسودات الاساسية» وفي كتاب «راس المال» وبدا اعتماده في تحليلاته على الاقتصاد السياسي حتى ليصح القول اجمالا ان أصول الماركسية في حقلي الاجتماع والاقتصاد رجحت فيها على السياسة واحتلت العوامل الاقتصادية المكان الاول في تفسير وتعليل نظرية الدولة ونشوئها وما تعاقب عليها من تحول وتغير . ولو ان ذلك لا يعني انه قلل من شأن السياسة التي بقي يراها في الواقع صنوا للاقتصاد او يراها بالاحرى انها والاقتصاد وجهين لظاهرة واحدة . واستبق ماركس في المخطوطات ، ناقديه فأدرك ما لم يدركوه حتى بعد مضي قرن من الزمان ؛ ففيها نوه بالفكرة التي اوضحها فيما بعد بنظرية فائض القيمة في كتاب «راس المال» واثبت ان العامل الاجير لا يصنع السلعة فقط بل يصنع نفسه ايضا بأن يكاثر العامل الاجير وينشيء العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تقوّم النظام الرأسمالي (١١٣) .

١٥ ـ الاغتراب

الاغتراب والاستلاب مصطلحين مألوفين في الفلسفة الهيغلية اعتمدهما هيغل في التعبير عن تصوره واقع الوجود بأنه ظاهرة استلبت او انتزعت من ماهيتها التي هي الفكرة المجردة او الحقيقة المطلقة ، فالوجود لهذا في «غربة» افتقد بها حقيقته وصار يسعى عبر الزمن او التاريخ الى استعادتها ؛ أي ان الوجود ، بكلمة اخرى ، نقص افتقد جوهره او روحه وراح يسعى بالتغير المتواصل الى استعادتها . لكن ماركس رأى ان فويرباخ الذي تصور انه انقذ الفلسفة من وحول فويرباخ ، بنقده مثالية هيغل ، مفهوم الغربة هذا من المثالية الى الطبيعية بتحويل مفهومها المثالي الى مفهوم اجتماعي فصوّر الانسان في حياته الاجتماعية يحيا في غربة فرديته الانانية وقد سلبت منه انسانيته فراح يسعى بطريق الدين الى استعادتها واستكمال حقيقته بالعودة الى ذاته التي تتمثل بالفكرة المجردة . مثالية هيغل باعطاء الغربة مفهوما اجتماعيا اخطأ في اخذه الطبيعة والانسان بمفهومهما المطلق لانه ابقاهما بذلك في مفهوم حقيقتهما المجردة فلم ينقذهما ولا انقذ الفلسفة من مثالية هيغل . اما هو فأخذ الغربة والاستلاب بمفهوم محدود حصره بحياة الانسان الاجتماعية في مرحلة واحدة هي مرحلة البورجوازية وشخّصه بحالتي العامل والراسمالي وعالجه بهذا المفهوم بمخطوطته الاولى (١١٤) ، واعتمد في التعبير عنهما مدلول كلمتين المانيتين ، الاولى بمعنى الغربة او الاغتراب والثانية بمعنى السلب او الاستلاب ، استعملهما احيانا دون تفريق واستعملهما في احيان اخرى معا على سبيل التأكيد (١١٥) .

ومجمل ما عناه بالغربة او الاغتراب ، ان من شأن الانسان بطبعه ان يكوّن نفسه بنفسه ، ينميها ويديمها بالعمل على تحويل الاشياء من حوله الى ما يفيدها بالتعاون مع بني جنسه . ومن شأنه في مجال تناوب وتبادل التأثير بين نفسه وبين الاشياء في عالمه ، ان يكون المبادر والموجه فيما يباشر ويسعى الى انجازه . لكن الانسان اغترب عن طبعه عندما صار زمام امره بيد غيره وتحول في نظام الاقتصاد الرأسمالي الى شيء تتصرف به الثروة وتحركه كيف تشاء بدلا من ان يكون هو الذي يحركها ويتصرف بها . وكان من جراء ذلك ان استلبت منه ماهيته فعاش في غربة لم يعد فيها انسانا بل اصبح عاملا او رأسماليا ، غنيا او فقيرا ، عبدا او سيدا ، محكوما او طاغية .

وبدأ ماركس بحثه هذا بأن جمع مقتبسات من كتب الاقتصاد التي راجعها، صنّفها في ثلاثة اعمدة ، جمع في الاول ما يتعلق منها بالاجور وفي الثاني ما يتعلق برأس المال وفي الثالث ما يخص ايجار الارض. واعتمد في موضوع الاجور على آدم سمث. وفي موضوع الايجار على ريكاردو وجمع اليهما آخرين في موضوع رأس المال . وكان آدم سمث يرى ان تحديد الاجور يتقرر بعد صراع بين الرأسمالي والعامل ينتهي بفوز الرأسمالي لانه يستطيع ان يديم حياته دون حاجة الى العامل بينما لا يستطيع العامل ان يديمها من دون الرأسمالي ؛ ولان التضامن والتآلف بين الرأسماليين واقع وفعال لا تكتنفه الصعوبات والمحاذير بينما تضامن العمال وتآلفهم تعترضه المخاطر. وبنتيجة هذا الصراع غير المتكافىء كما رأى ماركس، ينتهي الامر بالانسان العامل الى ان يتحول الى سلعة تباع وتشترى وينااله الغبن في كل حال. فهو في الضائقة الاقتصادية يصيبه القسط الاكبر من ضيقها ؛ وفي الازدهار يزداد أضداده قوة بزيادة ثرواتهم فتتعاظم سطوتهم فينزلون به مزيدا من الاذى وتزداد حاله سوءاً (١١٦) . وهكذا رأى ماركس الاقتصاد السياسي البورجوازي ، رغم اقراره نظريا ان المنتوج يعود في الاصل الى عمل العامل ، لم يكترث وهو يرى العامل لا يصيب منه الا ما يكفي لسد رمقه ورمق عياله ويجعله ينسل ليكاثر طبقة العمال العبيد . وهذا الاقتصاد برغم اقراره نظريا ، ان رأس المال ليس الا عملا متراكما لم يكترث بالعامل وهو يراه يبيع نفسه وانسانيته ليديم حياته وحياة عياله ، بل هو لم ير في البروليتاري اكثر مما يرى في الحصان يعلف بمقدار ما يكفي لتوليد الطاقة التي يؤدي بها ما يراد منه (١١٧) ؛ ولم يهتم بالبروليتاري الا وهو يعمل اما وهو خارج نطاق العمل فأمره من شأن اجهزة العقوبات والاطباء وأضاليل السياسة وجداول الاحصاء (١١٨) . والاقتصاد السياسي الرأسمالي بعد هذا كله، لم ير البروليتاري الا كالبهيمة يكفيه ما يكفي البهيمة من حاجات الجسد ، ونظر اليه نظرته الى سلعة متوفرة ولم يلتفت الى ان هذه السلعة سيئة الطالع سلعة حية وانسان ذو احساس يدرك وهو يبادل وجوده اليومي بما يبقيه على قيد الحياة انه يستنزف معين حياته . ورأى ماركس في نهاية الامر ، ان الرأسمالية وقد حولت الصناعة الى معركة والتجارة الى مقامرة ، تدرب العامل وتعلمه لتفيد منه ولكنها وهي تفعل ذلك ، تحط من انسانيته اذ تحوله الى آلة لا تعنيها الا بمقدار

ما تستغلها لتراكم أرباحها (١١٩) .

ثم عالج موضوع رأس المال الذي يبدأ به الاقتصاد السياسي الرأسمالي ووجد ان الاقتصاديين ارجعوه الى تصرف الرأسمالي بعمل العامل واستحواذه على ما ينتجه ، وعرفوه بأنه خزين العمل المتراكم . ووجد ان تراكم رأس المال هذا ، يزداد باطراد ، بتقدم دور العمل فيتكييف المواد الطبيعية والاشياء لمتطلبات الانسان ، فيزيد كلما زاد ما يبذل فيه من العمل الذي يكيف الاشياء من ربح رأس المال ويزيد ما يضيع على العامل من اجر عمله (١٢٠) . ووجد ان الاقتصاديين افترضوا ان المنافسة بين الرأسماليين تؤدي الى زيادة الاجور وتخفيض سعر السلع ، لكنه وجد ان هذه الفرضية لا تصح الا في حالة تزايد عدد المتنافسين او بقاء عددهم كبيرا وهو امر يخالف طبيعة الرأسمالية لان المنافسة فيها تؤدي بالضرورة الى تناقص عدد المتنافسين وتزيد سرعة التراكم لدى الفائزين فتؤدي الى الاستقطاب ، شأنها شأن السمك يأكل كبيرها صغيرها . فالكبير فيها يحصل على المواد الاولية بسعر أقل وكميات اكبر وفي الاوان المناسب بسبب توفر السيولة النقدية لديه ولسعة امكاناته ، ولانه ينتج على نطاق واسع وبأجهزة اكثر جدة وبكفاءة اعلى في دوران العمل وضبطه وفي تنظيم التوزيع ، فتكون كلفة الانتاج ونسبة النفقات أقل من كلفتها ونسبتها عند من هم دونه بحيث يتيسر له تخفيض السعر والاحتفاظ بنسبة اعلى في الارباح فيكتسح منافسيه ويدفع بهم الى تصفية اعمالهم او الافلاس (١٢١) .

وفي مراجعة المقتبسات المتعلقة بملكية الارض ، وجد ماركس ان الاقتصاديين في تقصيهم اصل ملكية الارض انتهوا الى ان هذه الملكية لم تكن في الاصل الا محض سلب او اغتصاب ، وان ملاكي الارض في كثير من الحالات يحصدون ما لم يزرعوه ويستوفوا ايجارا عما هو في الحقيقة نتاج طبيعي للارض . فالايجار كما عرفه ريكاردو، هو الفرق بين الارض الجيدة والارض الرديئة، اي انه حصيلة خصوبة الارض وموقعها ، ولهذا فان مرده الى طبيعة الارض والى المجتمع وليس لمالك الارض فضل فيه ، بل ان المالك على العكس ، يأخذ ما يعود في الحقيقة الى المجتمع وما ينجم عن التطور فيه وهو أقل الناس اسهاما به . فالايجار يزداد بتزايد النفوس وتقدم العمران وتحسن المواصلات وتوفر الامن ، بل ان كل تحسن في وسائل الانتاج وكل ما يؤدي مباشرة او بصورة غير مباشرة الى انخفاض الاسعار يؤول الى زيادة الايجار من غير ان يكون للمالك يد فيه . ورأى ماركس ان آدم سمث اخطأ لما افترض ان انتفاع مالك الارض بتقدم المجتمع يدفعه الى زيادة اسهامه بدفع عجلة التقدم فيه ، لان مصلحة ملاكي الارض في نظام الملكية الخاصة تتعارض دائما مع المصلحة العامة تعارض مصلحة المرابي ومصير المبذر ، فالمرابي يريد بقاء المبذر على تبذيره ولو أدى الى هلاكه (١٢٢) .

وعاد ماركس بعد هذا ، الى موضوع الغربة الذي يتمثل في النظام الراسمالي باستلاب العمل واغتراب العامل ، فرأى ان الاقتصاديين جعلوا الملكية الخاصة اساس الاقتصاد ولكنهم تحاشوا التحري عن الاصل في وجودها وقصروا اهتمامهم

بما تعود به وبوصفها ظاهرة اقتصادية تخضع لقواعد اعتبروهـــا عامة وثابتة ، متغافلين عن تأثيرات الانفصام والتناقض بين العمل ورأس المال ونتائجهما . فكان من جراء ذلك ان اصبح من الضروري كشف صلة هذه الملكية بالخصائص التـــي تلازم المجتمع الرأسمالي وتؤدي الى اتساع الفجوة والجفوة بين العامل والرأسمالي، والى تفاقم روح الجشع التي تغمر مجتمع الرأسمالية ، والى المهانة التي تنـــال العامل فتحط من شأنه وتدمر انسانيته ، والى المؤثرات السلبية الاخرى التـــي تنجم عن عملية تبادل السلع وتبدل الاسعار ومفعول المنافسة والاحتكار (١٢٣) .

وفي ضوء تصوراته هذه ، حلل الواقع الاقتصادي في زمانه ، فوصف حياة العامل وهو يزداد فقرا كلما زاد انتاجه حتى تحول الى سلعة تصير ابدا أبخس ثمنا من مردود ما تنتج ، مما أدى الى هبوط قيم الانسان وارتفاع قيم الاشياء وتحول الانسان الى عبد للاشياء من حيث اراد ان تكون الاشياء في خدمته . ولم ينجم عن ذلك تحول ما ينتجه العامل الى شيء غريب ومستقل عنه سلب منه وصار مصدر عبوديته فحسب ، بل استطاع الرأسمالي باستحواذه على هذا الشيء ان يقصي العامل عن الحياة الاجتماعية السوية ويسوقه الى غربة لا قرار لها. فسلب العامل من منتوج عمله لا يقتصر تأثيره على فقده اياه بل يعني ايضا ان العامل كلما ازداد انتاجه زاد ضياعه واشتدت هيمنة الرأسمالي عليه ، وكلما زاد ما يبذله من جهد في صنع الشيء الذي يسلب منه ويزيد العالم الخارجي من حوله عمرانا وبهجة يزداد هو في غربته فقرا وتعاسة . ويقول ماركس ، ان الاقتصاد السياسي يخفي في ظل الراسمالية هذه الجوانب السلبية الناجمة عن طبيعة العمل فيهـــا بالتستر على الصلة المباشرة بين العامل ونتاج عمله ، فلا يتساءل عن السر الذي يجعل العامل يصنع بعمله العجائب ويوفر لذوي الثراء كل متع العيش ولا يصيبه من وراء ذلك الا المزيد من الحرمان والشقاء . فهو ينشيء القصور ولا يجد لنفسه غير الزرائب ، ويصنع الجمال ومباهج الحياة ولا يكون نصيبه غير بشاعة البؤس ، ويبقى بعد هذا مهددا بالبطالة المهلكة كلما استبدل بالآلة فحلت محله وتركت لـــه الاعمال الشاقة او حولته الى جزء منها (١٢٤) .

واستلاب العمل وغربة العامل لا ينتهي تأثيرهمـــــا ، كما وجد ماركس ، باستيلاء الرأسمالي على منتوج العمل بل يمتد الى عملية الانتاج بعينها . فالعامل وهو يصنع ما سوف يكون من نصيب غيره لا يشعر انه يحقق بعمله وجوده ويبني فيما يصنع شخصيته بل هو يتنكر في عمله لهذا الجزء من وجوده ويعاني من جراء ذلك من شعور بتعاسة تهدد البدن وتدمر العقل. والعامل لا يستعيد شعوره بوجوده الا حين يفرغ من عمله ، ولا يكون ذلك الا لفترة قصيرة لا تتسع الا لاشبـــاع حاجات الجسد ، وهي حاجات ولو ان الانسان والحيوان يشتركان بها ، لكـــن الانسان بحياته الاجتماعية وبتحضره افضى عليها طابعا انسانيا رفعها عن مستوى البهيمية . لكن العامل في غربته يفتقد فيها هذا الطابع الانساني الحضاري لان ظروفه لا تتيح له مجال اشباعها الا بطريقة تكاد تكون بهيمية مجردة من الاحساسات

والعواطف الرفيعة . وهكذا يؤدي استلاب العمل بالعامل الى غربة تنقطع بهـــا رابطته بالمجتمع وتختل فيها صلته ببني جنسه فيقتصر اهتمامه على اشباع حاجاته الفردية الصرفة ويحيا غريبا في مجتمع يكون بعينـــه في غربة عن طبيعتـــه الانسانية (١٢٥) .

ويواصل ماركس تدقيق واقع الاغتراب في وجهه الآخر ، فيجد ان منتوج العامل اذا سلب منه آل بالضرورة الى كائن آخر غير عامل ، وانه طالما كان عمل العامل مصدر شقائه وضياعه ، فلا بد ان يكون العمل المستلب للكائن الآخر مصدر سعادته ووجوده . ويروح ماركس يتابع حركة العمل حتى يصل به الى الملكيــة الخاصة ويخلص الى ان العمل المستلب هو اساس العلاقة بين العامل والرأسمالي وأساس الملكية الخاصة في الوقت عينه . وهذه النتيجة تلقي الضوء ، في رأيه، على العديد من المسائل التي ما تزال مدار الجدل ولم يتخـــذ بشأنها قرار . فالاقتصاد السياسي يعترف ابتداء ، ان العمل هو اصل الانتاج ، لكنه برغم ذلك لا يعطي العامل شيئا ويعطي الملكية الخاصة كل شيء ، متغافلا عن استلاب العمل ومحولا كل حصيلته الى الملكية الخاصة . ولما كانت الملكية الخاصة هي العمـــل المستلب فقوانين الاقتصاد السياسي اذاً ، ليست الا قوانين العمل المستلب ؛ والاجور بضمنها ، لا تكون عندئذ الا جزءاً من عمل مستلب . واستنادا الى هذا التحليل توصل ماركس الى نتائج لم يسبقه اليها احد . فقال : اذا كانت الاجور جزءا من عمل مستلب فان عمل العامل في النظام الرأسمالي ولو كان في ظاهره عمل لقاء أجر فانه في حقيقته محض سخرة ، وزيادة الاجر لا تغير من حقيقته ولا تكون غير زيادة في دخل عبيد وهي لهذا لا صلة لها بتحرير العامل او استعادتـه انسانيته او كرامته ، ولا جدوى فيها حتى في حالة المساواة بين العمال فـــي الاجور ، لانها لا تكون عندئذ غير تعميم السخرة وجعلها شاملة . وعليه ، فمـــا دامت الاجور وليدة عمل مستلب وما دام العمل المستلب اساس الملكية الخاصة ، فلا سبيل الى تغيير حقيقي الا بالغاء احدهما ، والغاء أيهما يؤول الـــى زوال الآخـر (١٢٦) .

١٦ ـ الملكية الخاصة والشيوعية

وكانت مخطوطته الثانية حول الملكية الخاصة والشيوعية تتمة لمخطوطتـــه الاولى وتضمنت الى جانب الآراء التي توصل اليها بدراساته ، مجمل انطباعاتـه وحصيلة اتصالاته بالعمال التقدميين الالمان وبالاشتراكيين الثوريين الفرنسييـن وبقادة الاشتراكية الطوبائية وما اجراه معهم من مناقشات استغرقت احيانا الليل بطوله وكشفت له أوجه الخطأ في تصوراتهم ومفاهيمهـــم ويسرت له نقـــد الاشتراكية او الشيوعية كما تصوروها والوصول الى الاشتراكية او الشيوعية كما تصورها . ولم يأخذ ماركس تصوراتهم وهي عائمة في هباء لا صلة لها بواقعهم ،

بل حاول ان يراها كما هي في أطرها التاريخية مرتبطة بالحالة التي كانت فيها الرأسمالية وهي تواصل تطورها في حركة الاقتصاد الرأسمالي . وأثارت هذه المخطوطة التي قدم فيها الاشتراكية والشيوعية كما تصورهما ، بوصفهما علاجا للغربة والاستلاب ، من الاهتمام فيما بعد ، اكثر مما أثارته بقية كتاباته في باريس سنة ١٨٤٤ (١٢٧) .

بدأ ماركس المخطوطة بموضوع ظهور الصناعة التي عزا ظهورها الى تحول رأس المال الى مال منقول وطليق تيسرت له حرية الحركة فاستطاع ان يزيح الزراعة من مكانتها المهيمنة في عالم الاقتصاد وينتزع القيادة منها ، ويحول عبيد الارض الى عمال طليقين يعملون لقاء أجر ، ويحول مالكي الارض الى رأسماليين او يجعلهم في خدمة الرأسمالية ، ويحقق معجزة التقدم الصناعي ويحل في محل الرأسمالية العقارية راسمالية صناعية حررت المجتمع من عبودية الاقطاع والتخلف وخلقت المجتمع المدني البورجوازي ووصلت اطراف العالم بعضها ببعض وأنشأت تجارة عالمية قربت بين الشعوب ووثقت صلاتها وعرفت بعضها ببعض وساعدت في تقويم الاخلاق وأنشأت حضارة اضفت على الحياة البهجة وأزاحت من واجهة المجتمع مالك الارض التافه الخامل الذي سبَّب التباطؤ في تراكم رأس المال وعرقل نمو الثروة الوطنية (١٢٨) .

ثم شرح فعل الملكية الخاصة في تطوير العلاقات بين العامل والرأسمالي وكيف اجتازت في تطورها أدوارا ثلاثة : كانت العلاقات في اولها ، علاقات مباشرة مرنة تسوي خلافاتها بالود والتراضي ، تتضافر فيها الجهود ، رغم الاستلاب ، لتنمية الثروة الوطنية وتقدم الصناعة ؛ ولكنها تحولت في الدور الثاني الى علاقات متعارضة يرى كلا طرفاها في الآخر غريمه ونقيضه فيحاول ان يسلبه مقومات حياته ؛ وفي الدور الثالث ، تبين طرفاها ، الرأسمالي والعامل، ان وجوده ينطوي على نفي حقيقته ؛ فرأى الرأسمالي ان رأسماله الذي قوّم وجوده ليس الا خزين عمل متراكم لا يد له في تكوينه ؛ وحاول ان يجعل لنفسه يدا في تكوينه بأن ميز بين رأس المال وفوائده لكن ذلك أدى في الحقيقة الى تأكيد نفي ذاته اذ اثبت ان ربحه ليس الا فائده رأس المال . وتبين العامل في الوقت عينه ، ان وجوده في الرأسمالية هو نفي لذاته ، فالرأسمالية ليست سوى عمل وأجور ، اما هو ذاته فسلعة كبقية السلع ، جزء من رأس المال (١٢٩) . واتضح لماركس في هذه الصورة كيف جرت محاولة معالجة الاستلاب في كل من الادوار الثلاثة بكيفية تختلف عن معالجته في الدورين الآخرين ، ورأى كيف ان هذا الاختلاف في المعالجة هو مرد التفاوت في الآراء والسبب في ظهور المذاهب المختلفة وما بدا في بعضها من سذاجة وركة . ففي الحالة الاولى ، نظر الى الملكية نظرة سطحية وحيدة الجانب اخذت فيها من حيث المقصود بها وأغفل العمل الذي هو مصدرها فشخصت برأس المال وحده واعتبر مجرد الغائه زوالا للاغتراب والاستلاب ؛ وهذا هو النهج الذي رجحه برودون . اما في الحالة الثانية فنظر

الى الاستلاب على انه نتيجة للعمل الصناعي في اوضاعه الراهنة وأخذ على انه السبب فيما يعانيه العامل بنتيجة انخفاض الاجور وتقسيم العمل وافتقاد الحرية، فرُجح العمل الزراعي كما في نهج فورييه وأتباعه ؛ او رُجح اصلاح شروط العمل ونظمه وظروفه كما في النهج الذي اخذ به سان سيمون وأتباعه . اما في الحالة الثالثة التي اتضح فيها ان الملكية الخاصة هي الاصل في الاستلاب والاغتراب ولا خلاص منهما الا بالغائها فقد رُجح الغاء هذه الملكية لالغاء الاغتراب والاستلاب وهذا ما تأخذ به الشيوعية كما تصورها . وشخّص ماركس في الشيوعية ثلاثة اتجاهات رئيسية تمثل ثلاث مراحل في تطورها ، شرحها في شيء من التفصيل ، فشجب الاولى وأوجز في الثانية ووصف الثالثة على انها الشيوعية كما تصورها (١٣٠) .

وصف ماركس الشيوعية في مرحلتها الاولى بأنها اتمام للملكية الخاصة وتعميم لها ، لانها بدلا من ان تلغي الملكية الخاصة حولتها الى ملكية مشتركة وشاملة وجعلت الحيازة المادية والفعلية والمباشرة للاشياء هدف الحياة الوحيد وخلقت رغبة عارمة نهمة لهذه الحيازة تهم بالقضاء على كل شيء لا مجال للمشاركة فيه حتى عرضت المواهب والمزايا الشخصية للدمار ولم تعالج استلاب العمل بالغائه بل جعلته وباء شاملا يصيب الجميع ، ولم تلغ علاقات الملكية الخاصة بل حولتها الى علاقات ملكية مركزية . ورأى ماركس ان طبيعة هذه الشيوعية الفجة كما نعتها ، لا تنكشف في شيء كما تنكشف في موقفها من المرأة ونزوعها الى الغاء العلاقات الزوجية وإحلال المشاعية الجنسية محلها وجعل المرأة ملكية مشتركة، وقال «ان المرء ليرى في نزوة مشاعية الحياة الجنسية كشفا لمكنون هذه الشيوعية الماجنة التي تريد ان تفعل بالحضارة التي هي ثمرة جهود الانسانية ومظهر ماهيتها ، ما تريد ان تفعله بالمرأة . وهذه الشيوعية في تنكرها لشخصية الانسان في شتى المجالات ليست الا كشف لحقيقة الملكية الخاصة التي هي هذا التنكر بعينه . بل هي ليست في واقعها غير طفح لجشع الملكية الخاصة وتفاقم لداء الحسد الذي ألمّ بها فأرادت بهذه الشيوعية الفجة ان تهدم كل شيء وتحوله الى ركام لتطفىء جذوة ألم الحرمان المكبوت الذي تعاني منه . ويظهر عيب الالغاء غير الحقيقي للملكية الخاصة في هذه الشيوعية بما تتعرض له الحضارة برمتها وحياة الفكر فيها على الاخص ، من دمار ونكوص الى سذاجة متكلفة وجدب تسود فيه الفضاضة ويخلو من كل مستلزمات الحياة الرضية . فالحياة المشتركة في هذه الشيوعية ليست الا مشاركة في سخرة عامة ومساواة في أجور تُنفق من رأسمال مركزي ؛ اي انها ليست غير رأسمالية جماعية شاملة ... والنظرة فيها الى المرأة على الخصوص ، على انها أمة وفريسة مشاعة للرغبة الجنسية البهيمية ، تكشف مدى الانحطاط الخلقي الذي لا قرار له فيها . فجوهر العلاقة بين الرجل والمرأة يتمثل في خصوصيتها وقطعيتها وبعدها عن الشبهات والظنون وصراحتها وصدق المشاعر فيها ... بل هي جديرة ان تكون اصدق شاهد على مبلغ ما احرزته البشرية من رقي» (١٣١) . ولعل ماركس أسهب في موضوع اهمية

الرابطة بين المرأة والرجل وشدد في استنكاره الموقف السيء منها في ظل الملكية الخاصة لانه رأى في هذه الرابطة الطبيعية اساس التكوين الاجتماعي ورأى في الموقف من المرأة المعيار لنصيب المجتمع من الحضارة كما رأى شبح الملكية الخاصة ماثلا في كل نظرة مهينة لها . فقد وجد ان المرأة اصابها من مساوىء الملكية الخاصة اكثر مما اصاب غيرها . فما من كائن هدرت كرامته في ظل الملكية الخاصة مثلما هدرت كرامتها ، بأن جعلت منها مجرد متعة وهبطت بها الى دركة السبة . ومثلما استنكر ماركس هذه الشيوعية الفجة من المرأة والعائلة ، استنكر موقفها من الحضارة الانسانية ومنجزاتها العظيمة ومن التاريخ ومعالم التطور فيه ، حتى رأى فيها عودة الى البهيمية .

وأوجز في ايضاح الحالة الثانية فنوه بنمطين من انماطها . قال عن الاول انه ذو طابع سياسي ، ديمقراطي او استبدادي . وقصد بالديمقراطي على الارجح ، الطوبائي الذي نادى به «كابييه» واستنكر فيه اللجوء الى العنف ؛ وقصد بالاستبدادي ما نادى به بابوف الذي قال بلزوم فترة انتقال تقوم فيها دكتاتورية البروليتاريا . اما النمط الثاني ، فهو ما دعى اليه «ثيودور ديزامي» وأراد به الغاء الدولة . ورأى ماركس ان النمطين لا يفيان بالغرض ، فبالرغم من انهما أريد بهما اخراج الانسان من غربته واعادته الى انسانيته ، لكنهما لم يستوعبا ماهية الملكية الخاصة او يدركا سر الغربة الكامن في هذه الملكية فبقيا كما قال ، ملوثين بها(١٢٢).

وجاء ماركس بعد هذا ، على وصف الشيوعية كما تصورها ، فقال «انها الالغاء النهائي للملكية الخاصة التي هي سلب للذات الانسانية . وبإلغائها يعود الانسان الى انسانيته ليصير بشرا سويا يسترد وعيه ويستعيد كل ما اورثته اياه مراحل تطوره من قدرات وطاقات ومواهب ضاعت عليه . وقال ان هذه الشيوعية عندما تستكمل وجودها تتوافق وسجايا الانسانية الحقة وتتطابق في الوقت عينه مع طبيعية الطبيعة فتكون خاتمة الصراع بين الانسان والطبيعة وبين الانسان والانسان والحل النهائي للتعارض بين الوجود والماهية وبين الموضوعية والذات وبين الحرية والضرورة وبين الفرد وبني جنسه» (١٢٣) . ثم اوضح الاسس التاريخية والخصائص الاجتماعية لهذه الشيوعية ، ونظرتها الى الفرد ، وقال انها بخلاف الطوبائية التي تستمد نظريتها من خصوصية اوضاع محدودة ، تستند الى مجمل معطيات التاريخ ، «فحركة التاريخ برمتها في أحداثها الفعلية هي خلق لها ... ووعي ايحاءات التاريخ فهما لها ولحركة صيرورتها ...» وقال ان الحركة الثورية تجد أسسها النظرية في حركة الملكية الخاصة لان غربة الانسان تجلت فيها اكثر مما تجلت في الحقول الاخرى ، ولان الانسان حاول ان يحقق ذاته في ميدان الاقتصاد ، في الانتاج وفي الاستهلاك ، اكثر مما حاول في اي ميدان آخر . ولم يكن ما فعله في حقول الدين والعائلة والدولة والقانون والاخلاق والعلم والفنون الا ضرب من ضروب الانتاج تصح فيه الاحكام العامة للاقتصاد السياسي . والواقع ان الغربة انما حلت بالانسان في الاصل في مجال الاقتصاد (١٣٤) .

واكد ماركس في بحث هذه الشيوعية ، جانبها الاجتماعي بتأكيد العلاقات المتبادلة بين الانسان ومجتمعه وبين الانسان والطبيعة ؛ وقال ان الطبيعة تكون متاحة للانسان عندما يكون كائنا اجتماعيا ، اي عندما تستطيع ان تكون رباطـا يشده الى الآخرين فتجعل وجودهم لازما لوجوده ووجوده لازما لوجودهم ، فتصير عنصرا حيويا في وجود الانسانية . وفي حدود المجتمع فقط يكون وجـود الانسان في الطبيعة كما رأى ، وجود انساني وتصير الطبيعة ذات سمة انسانية تكتمل فيها الصلة التي تربط الانسان بها . ولم يقلل ماركس بتأييـده الجانب الاجتماعي من شأن الفرد واهميته بل رأى انه بخصوصيته التي تجعل منه فردا اجتماعيا محتفظا بكليته يبقى بفكره واحساسه العنصر الاساسي في المجتمع (١٣٥).

وتصور ماركس ، فيما بقي من مخطوطته ، الانسان كما يكون بكامل قدراته بعد نجاته من الغربة واستعادته ملكاته بتمامها ، وقال : «يجدر بنا ان لا نقلل مما سوف يكون لزوال الملكية الخاصة من أثر في حياة الانسان . فبمقدار ما أفسد الاغتراب من ملكاته سيكون تأثير زوال الملكية الخاصة عاملا في إحيائها وانطلاقها، بل ان زوال الملكية سيمتد تأثيره ليحيي ملكات حبست فهمدت منذ زمان وفقدها الانسان في غربته . وكل ملكة من هذه التي همدت يستعيدها الانسان ، تساعده بطريقتها الخاصة في زيادة قدرته على ادراك الحقيقة واستيعابها . واذا كان قد تعذر عليه في غربته ان ينتفع بملكاته بعد ان تبلد وضاق افق تفكيره بفعل الملكية الخاصة ولم يعد يعنيه في الاشياء غير حيازتها ، فان تحرره من هذه الملكية لا يحرر ملكاته ومشاعره كلها فحسب بل يحولها الى ملكات انسية ترى الاشياء لذاتها ولا تعود تنظر اليها بعين الانانية والجشع» (١٣٦) .

وبرغم كل ما بدا من دلائل الجدة في تفكيره في هذه المخطوطات فقد ظهرت فيها دلائل اخرى تشير الى انه كان فيها ما يزال تحت تأثير هيغل وفويرباخ يحمل تفكيره سمات الشمولية والطبيعية والنزعة الانسانية ورواسب رومانسية تجلت في وصفه مشاعر الانسان واحساساته بلغة الكاتب الروائي «شيلر» كما تجلت من قبل وفي المسألة اليهودية بوجه خاص بوصفه الثروة والنقود بلغة شكسبير (١٣٧) .

١٧ ـ نقد ديالكتية هيغل ومجمل فلسفته

ولما ايقن ماركس ان الملكية الخاصة هي سر الغربة التي أفقدت الانسـان انسانيته وجعلته في وضع مضاد لطبيعته ، عاد الى مراجعة فلسفة هيغل والتمعن فيها وفي طريقتها الديالكتية لعله يجد ما يرشده الى سبيل الخلاص من هـذه الملكية ؛ فراجع كتاب المنطق ورسالة ظاهرات الروح وهما منبت فلسفة هيغـل وموطن اسرارها ، وكانت مخطوطته الثالثة والاخيرة حصيلة دراسته النقدية لهما. وبدأ هذه الدراسة بمراجعة موقف البارزين من تلامذة هيغل فوجدهم جميعـا حبيسي مفاهيم فلسفته لا يتجاوزونها ، حتى تعذر عليهم اكتشاف نقاط الضعف

فيها ، الا فويرباخ الذي انفرد من بينهم بالتمعن فيها بعين الناقد واكتشف عيبا اساسيا فيها هو جعلها الاسبقية للفكر وفصله عن الواقع ؛ فكان من جراء ذلك ان زجت فلسفته الانسان في متاهات الغربة . فتصدى لنقدها وعن طريق نقده لها حقق انجازه الذي أكد به الصلة بين الفكر والواقع وجعل الاسبقية للواقع ووضع الفكر في موضعه الصحيح بوصفه انعكاسا لهذا الواقع ؛ وبهذا حوّل الهيغلية من مثالية مجردة الى مادية اساسها الطبيعة وموضوعها الصلة بين الانسان والانسان وبينه وبين المجتمع. وقيّم ماركس انجاز فويرباخ هذا في رسالة له اليه قال فيها: «انك بهذا وضعت الاسس الفلسفية للاشتراكية ، ولست ادري ان كنت فعلت ذلك عن قصد ، لكن الشيوعيين مثلي اخذوا ما فعلت هذا المأخذ ؛ وإلا فـأي مغزى وراء تأكيد صلة الانسان بالانسان والفوارق بين الناس قائمة ، وأي غرض وراء نقل الجنس البشري من عالم التجريد الى عالم الواقع ان لم يكن المقصود جعل المجتمع هو الاصل» (١٣٨) .

وفي ضوء تصحيح فويرباخ هذا ، وجد ماركس ان العيب الاساسي في فلسفة هيغل ، افتراضها ان حقيقة الكائنات حقيقة فكرية محضة ، الروح فيها هي الاصل ، وان وجودها ليس الا اغترابا . ووجد ان الذي كشفه هيغل هو الوجه النظري المنطقي والتأملي لحركة التاريخ وانه لم يصل الى الوجه الحقيقي لتاريخ الانسان كفاعل قائم بذاته يسجل في حركته التاريخية ، عملية تكوينه وطلوعه ويترك للفكر ان يميز بين صيغتها النظرية كما تصورها هيغل وصيغتها الجديدة الخاضعة للنقد الفعلي كما وصفها فويرباخ في كتابه «روح المسيحية» ؛ او بكلمة اخرى ، ان يميز بين صيغتها التي تصورها هيغل ولم يخضعها للنقد وصيغتها المبنية على النقد (١٣٩) .

ولطّف ماركس ما استطاع من نقده لهيغل وكأنه اراد ان يؤكد مبلغ ما هو مدين به اليه . وأشاد بفلسفته وبتأثيرها البعيد المدى برغم ما لابسها من ارتباك وغموض ، ووصف رسالة ظاهرات الروح بأنها وسعت كل عناصر النقد وأعدت بدرجة عظيمة من الدقة حتى امتد اشعاعها الى أبعد مما اراد هيغل وما ادركه . فأقسامها التي اوضحت الشعور الشقي والشعور الصادق وتناولت الصراع بين الشعور النبيل والشعور الوضيع وكل مبادىء نقد الدولة والحياة المدنية واقسامها الاخرى كلها اظهرت ان ما ادركه هيغل لم يقتصر على مـا تبينه من ان حالـة الاغتراب هي منبت العوامل التي تحد نمو الانسان وتقدمه بل ادرك ايضا ان كل ما في عالم الانسان هو من صنع الانسان نفسه . ففي هذه الرسالة التي ضمّنها ديالكتية السلب والنقض ، ديالكتية الحركة والتغيير ، التي بنى عليها تصوره لعملية تكوين الانسان لذاته بوصفها عملية ضياع واغتراب ، وتصوره زوال الضياع والاغتراب بأنه اكتشاف الذات حقيقتها وتجاوزها حالة الضياع والغربة ، اثبت طبيعة النشاط البشري وعرّف الانسان بموضوعيته وتشبثه بحواسه يتلمس بها حقيقة واقعه الذي هو حصيلة نشاطه الخاص .

وأوجز ماركس موقفه من الهيغلية فيما هو مدين لها وفيما هو على خلاف معها في قوله ان جوهر فلسفة هيغل يتمثل في افتراضها ان الروح هي الاصل وان الواقع ليس الا وسيلتها لاستكمال ذاتها او حقيقتها ؛ وأن الروح ارادت ان تتجرد عن الواقع وتفصله عن ذاتها لكنها تعذر عليها الفصل بين الذات وبين الواقع الذي هو من صنعها ووليد حيويتها ؛ وان فترة غفلة الروح او الذات عن ادراك صلتها بواقعها هي فترة غربتها ، فهي لذلك غربة تزول حالما تعي الذات حقيقة صلتها بالواقع . وبنى ماركس على فرضية هيغل هذه فرضيته في ان غربة الانسان تنتهي باكتمال وعيه وبادراكه ان بيئته الاجتماعية هي من صنعه وان ثقافته هي من فيض حيويته وان حريته رهن بوعيه وان وعي الانسان انما يكتمل عبر التاريخ ، ولهذا كانت الحرية وليدة التاريخ وغايته . وكل ما فعله ماركس في مواجهة فلسفة هيغل هذه انه استبعد منها فكرة الروح المجردة وأخذ الانسان في وجوده الفعلي المعين واحل صلة الفرد بمجتمعه وارتباطه به محل صلته بعالم الروح . ورأى ماركس العيب في فلسفة هيغل في اخذها الانسان على انه نشاط ذهني محض ، اي انه مجرد فكر ، بينما هو رأى الفكر على اهميته لا يفي بمستلزمات تقويم المجتمع او إحداث التغييرات التي تستلزمها صيرورته وتكون ضرورية لتقدمه ، فعارض فلسفة هيغل المبنية على وعي الذات كما اوضحها في الفصل الاخير من ظاهرات الروح بوجهة نظره التي اخذ فيها الانسان بوصفه كائنا طبيعيا وموضوعيا ، مؤكدا ان ذات الانسان اذا حصرت بوعي الذات كان كل ما يستطيع الانسان صنعه افكارا مجردة لا وجود لها بمعزل عن وجوده ، بينما الانسان يقف في واقعه على الارض الصلدة لهذه الكرة الارضية بلحمه ودمه ينفخ الحيوية في قوى الطبيعة ويجسد بها قدراته الذاتية ويصنع اشياء خارجية مستقلة في وجودها عن وجوده . ووصف ماركس وجهة نظره هذه بأنها المذهب الطبيعي الذي يؤكد قيمة الانسان وقدرته على تحقيق ذاته عن طريق العقل ، وميزها عن المادية والمثالية بأنها تأخذ بكل ما هو جوهري في كلتيهما (١٤٠) .

وفي ايضاحه هذا المذهب الطبيعي ، عرّف الطبيعة بأنها كل ما يواجه الانسان ويستحثه على استخدام نشاطه في اشباع حاجاته ويوسع له المجال في اتمام ذلك. ورأى ان حاجات الانسان ومسعاه من اجل اشباع هذه الحاجات هما العاملان الرئيسيان اللذان يكوّنان طبيعته . وقال انه رجح المذهب الطبيعي لا لان الانسان يكيف الطبيعة لتفي بحاجاته فقط وانما لان الانسان في الاصل ليس الا جزءا من الطبيعة التي منحته الفهم والمقدرة والإقدام والعزم . وبرغم انه وجد الانسان في واقعه ما يزال محدود الافق اتكاليا وأمره منوط بغيره فقد اخذ هذه النقائص على انها من مستلزمات تحويله الى كائن طبيعي له نصيب في الطبيعة ويتعذب ليعي ويكون ذا احساس . فالانسان ، كما رأى يكون بالمعاناة فقط انسانا عاطفيا وذا حماسة لان العاطفة تنشط قدراته وتحثه على السعي وراء مقاصده (١٤١) . ومع ان ماركس في آرائه هذه بدا متأثرا بآراء الماديين الفرنسيين امثال الفيتيوس وهولباخ ، لكن افكاره في نسقها العام بقيت تحمل تأثيرات فويرباخ بصورة

رئيسية (١٤٢) .

وانتهى ماركس من مخطوطات باريس دون ان يخلص الى نتائج محددة . وتعذر عليه الخروج بمثل هذه النتائج لان المخطوطات تناولت شتاتا من الموضوعات في الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والتاريخ والمنطق والديالكتية والطبيعة ومـــا وراءها . على ان المخطوطات برغم ذلك ، كانت اول بحث التقت فيه العناصر الثلاثة التي قال عنها انجلز انها العناصر التي كونت الفكر الماركسي وهي فلسفة المثالية الالمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانكليزي . ولفتت المخطوطات الانتباه اكثر منغيرها من اعمال ماركس الاولى واعتبرها البعض اهمها، ولو انها لم تنشر الا سنة ١٩٣٠ ولم تصبح في متناول القراء الا بعـــد الحرب العالمية الثانية عندما اتسع تأثيرها واخذت بها نزعات فكرية راجت يومئذ كالوجودية والانسانية الجديدة ؛ وتشبثت بها بعض انماط الاشتراكية المناهضة للستالينية. ولو وضعت المخطوطات في موضعها الملائم في تطور فكر ماركس لصح ان تعتبر بداية تدفق الفكر الماركسي الناضج المليء بالحيوية والحماسة كما تجلى فيما أعقبها من اعمال ماركس في الاقتصاد والاجتماع والسياســـة لاسيما في «المسودات الرئيسية» وفي كتاب رأس المال حيث توسع فيما تناولته بصورة منسقة ومفصلة وبمعرفة أتم وبإلمام اكثر شمولا بالاقتصاد والتاريخ وبشؤون العالم . والمخطوطات في مجملها تمثل في تاريخ الفكـــر الماركسي ، فكر ماركس وهو على ابـــواب الماركسية .

- ٢ -

فردريك انجلز

١ ـ شخصيته وأثره في الفكر الماركسي

على الرغم من ان التفاوت بين ماركس وانجلز في المنبت والمنشأ وفي البيئة والطبيعة والمزاج كـــان اكبر مما كان بينهما من تماثل ، لكنه كان تفاوتا متكاملا عزز الانسجام اكثر مما ولّد التعارض والخلاف ، فجعل من رفقتهما رفقة عمر وصرفهما مدى اربعين عاما ، في عمل مشترك ، مجدّ ومتواصل ، الى هدف واحد . فقد ولد انجلز في القسم الغربي الصناعي من منطقة الراين ، الغنـــي بالمعادن ، الذي بدت فيه بوادر الحركة الصناعية في المانيا وجعلته اكثر ارتباطا وتأثرا بالمجتمع الانكليزي من اجزائها الاخرى . وولد ماركس في القسم الشرقي من الراين ، وهو الاقل تقدما وثراء والاشد تأثرا بإنسانيات عهد التنوير وبروح الثورة الفرنسية . ونشأ انجلز في عائلة صناعية ثرية محافظة مجدة فيما يجلب المزيد من الثراء ويعزز المكانة المالية . ونشأ ماركس في عائلة متوسطة الحـــال

مارس أفرادها الاعمال الاجتماعية والفكرية واتسمت حياتها بالتسامح والانفتاح وبنزعة الى التحرر وتقبل للجديد . وبينما أتم ماركس دراسة اكاديمية تقليدية وتفوق في التفكير النظري واستوعب الهيغلية وطريقتها الديالكتية مبكرا وألم بتاريخ الفلسفة وتميز بالقدرة والحذق في النقد وفي التحليل وفي استخلاص الاحكام العامة وصياغتها ، استعاض انجلز عن الدراسة الاكاديمية بدراسة حرة على نفسه وانصرف الى الاهتمام بالخبرة العملية والى متابعة شؤون الحياة العامة الاجتماعية والاقتصادية على الطبيعة وتميز بدقة الملاحظة وبالاحساس المرهف وبوضوح في الفكر وسلاسة في التعبير وبموهبة فريدة في تعلم اللغات . وكان التفاوت بينهما ظاهرا كذلك، في حياتهما الخاصة فكان انجلز دائم الاناقة شديد العناية بمظهره وهندامه ، منهجيا دقيقا في جميع شؤون حياته كفوًا في العمل وحريصا في معاملاته المالية ؛ بينما كان ماركس ، على العكس ، شديد الاهمال في هندامه ومظهره ، تغلب الفوضى على اعماله ، لا يعنى كثيرا في تدبير شؤون حياته الخاصة ولا يحسب في مسألة المال حسابا لغده . لكنه كان رب عائلة صالح ، شديد التعلق بزوجه وأولاده ، شديد الحب والاخلاص لهم ؛ بخلاف انجلز الذي عاش حياة العزوبة ورجح المعاشرة ولو انه اخلص فيها والتزم بها . وكان الرفيقان كلاهما ذوي مواهب فذة وتميزا بسلامة الخلق وصدق العزيمة وبقدرة تكاد تكون خارقة على مواصلة العمل دون كلل .

ووصف انجلز في أخريات ايامه ، أثر رفقتهما وهو يستعيد ذكرياتها فقال: «كان لي نصيبي الخاص قبل معرفتي بماركس وفي خلال الاربعين عاما من تعاوني معه في الاسهام في وضع أسس النظرية ، لاسيما فيما يتعلق بتفاصيلها . لكن القسم الاعظم من مبادئها الاساسية الموجهة ، لاسيما في حقلي الاقتصاد والتاريخ، وصياغتها النهائية المحددة ، كان من صنع ماركس . وكل ما اسهمت به ، باستثناء ما قمت به في حقول خاصة ، كان ماركس يستطيع ان ينجزه على أتم وجه بدوني ، بينما ما انجزه هو لم يكن في مقدوري القيام به . كان يتفوق علينا جميعا ، في نفاذ البصيرة وفي سعة الافق ودقة الفهم وبسرعة الإلمام بأطراف الموضوع ؛ كان عبقريا ، اما نحن فلم نكن في احسن الفروض ، اكثر من موهوبين. ولولاه ما بلغت النظرية ما بلغته ، فهي لهذا تحمل اسمه بحق» (١٤٣) . لكن انجلز، رغم تقديره العظيم لشخص ماركس وأثره واطراء مواهبه ، ورغم نكران ذاته وتواضعه الجم الذي حمله على التقليل من شأن نفسه ومن نصيبه وأثره ، فان الحقيقة الثابتة انه كان في البداية هو الذي يعطي ، ولعله فيما اعطى كان له الاثر الاكبر في اتجاه ماركس الى ما اتجه اليه .

وقد نحسن صنعا لو اننا تتبعنا سيرة انجلز وتكوينه الفكري مستقلا عن ماركس وما ذكرنا بشأنه ؛ فقد سلك كل منهما طريقا يختلف عن الذي سلكه الآخر، وتعرض لمؤثرات تختلف عما تعرض لها قبل ان يلتقيا ويكشف كلٌ ما في نفسه ويتبينا انهما على وفاق فيما خلصا اليه وانهما يسعيان الى الهدف عينه وبالطريقة

عينها . وبرغم ان انجلز سبق ماركس الى ادراك الآراء التي اصبحت فيما بعد من أسس الفكر الماركسي ، لكن وصوله اليها كان بسبيل الحس والبداهة وقوة الملاحظة ، فكان ما ادرك ، أقل عمقا وأقصر مدى مما توصل اليه ماركس بطريق النقد الديالكتي وبالتقصي الفلسفي التاريخي . ومع ذلك ، كان انجلز ، كما قال لينين ، اول من ادرك ان البروليتاريا ليست في النظام الرأسمالي ، مجرد الجانب المضطهَد الشقي الذي يستثير الرثاء ، بل هي بسبب ما تعاني ستكون الطليعة الفاعلة في النضال في سبيل تغيير الاوضاع وانقاذ نفسها بنفسها ومواجهة الطرف الآخر منفردة دون معونة . وكان اول من رأى ان حركة البروليتاريا السياسية تقودها لا محالة الى ادراك ان الاشتراكية هي وحدها طريقها الى الخلاص وان هذه الاشتراكية لن تتحقق على وجهها الصحيح الا عندما تصبح هدف الصراع السياسي للبروليتاريا «١٤٤» .

وكان ماركس شديد الاعجاب بمعارف انجلز الموسوعية وبسرعة بديهته وسلامة احساسه وحسن تقديره وتنوع تتبعاته ، واستعان به في كثير مما كتب . وبرز انجلز بوجه خاص ، في الدراسات التاريخية وفي علوم الطبيعة وفي العلوم العسكرية التي بقيت احد اهم هواياته الى آخر حياته ، فكان الثقة المعترف به في ستراتيجية الصراع الطبقي وحركاته الكفاحية حتى لقب بجنرال البروليتاريا. وكان اول من طبق الديالكتية في علوم الطبيعة وقال ان الديالكتية تسري في الطبيعة كما تسري فيمجتمع الانسان، وتنبأ بالكثير مما حققه العلم من المكتشفات، لاسيما ما يتعلق منها بالكيمياء والفيزياء وعلوم الحياة ، وتوقع ما سيكون للتقدم التقني من الاثر في التحولات الاجتماعية . وكان فوق هذا ، من أشد خصوم الدوغمائية ، ملتزما بمبدأ تغير الاحكام بتغير الزمان وتبدل الاحوال .

٢ ــ نشأته

ولد انجلز في مدينة بارمن في تشرين الثاني سنة ١٨٢٠ ، وكان الولد البكر لعائلة عريقة يرجع تاريخها ، كما جاء في سجل وجهاء المدينة ، الى أواخر القرن السادس عشر، وكانت في الاصل تملك الارض وتعنىبالزراعة ثم تحولت فيمستهل حركة التصنيع الى التجارة والصناعة ، فأسس عميدها ومكون ثرائها ، وهو والد جد انجلز ، سنة ١٧٧٠ ، معملا للمخرمات وأشرطة البزز العسكرية بعد ان تعاطى تجارة الغزول فترة من الزمن ، وبرز بين وجهاء المدينة وحاز على منزلة محترمة بحسن معاملته لمستخدميه والعناية بهم وانشاء بيوت لهم يأوون اليها . وما لبثت اعماله ان توسعت وجنى أرباحا كبيرة وارتفع شأن العائلة بثروتها واتخذت لها شعارا يمثل ملاكا يحمل غصن زيتون يظن انه مصدر لقبها «انجلز» الذي يعني «الملاك» . وخلفه ولداه وتفوق احدهما وهو جد فردريك انجلز ، فوسع عمله وضاعف ثروة ابيه وحذا حذوه في حسن معاملة مستخدميه . وواصل والد

انجلز عمل ابيه ودخل مع شركة «ايرمان» الانكليزية ، وهي احدى شركات النسيج في منشستر ، في مشاركة لانشاء معامل نسيج في المانيا وفي انكلتره كان اهم مراكزها مركزها الذي شغله والد انجلز في بارمن ومركزها في منشستر . وقيل ان والد فردريك كان اول من ادخل مكائن الغزل الانكليزية الى المانيا «١٤٥» .

وكانت بارمن وتوأمتها «البرفيلد» القائمتان في الجانبين المتقابلين لنهر الووبر، احد روافد نهر الراين الذي تميز بصلاح مياهه لقصر الكتان والصوف والقطن لخلوها من الكلس ، قد اصبحتا منذ بداية القرن الثامن عشر ، مركز منطقة صناعة النسيج في المانيا حتى أطلق على وادي الووبر الذي يقومان فيه اسم انكلتره الصغرى ، لاسيما بعد ان أسس فيهما سنة ١٧٨٧ اول معمل للنسيج يدار بقوة الماء وأخذت به جميع المصانع في المنطقة فصارتا مركز الحركة الصناعية في المانيا . وكان من جراء ذلك ان ظهرت فيهما منذ عشرينات القرن التاسع عشر كل مساوىء الرأسمالية الصناعية في بداياتها ، بأقصى شدتها . وكانت المنطقة تخضع في الوقت عينه ، للهيمنة الدينية لكنيسة البيوريتان التي بسّطت طقوس العبادة وتشددت الى درجة المغالاة فيما اعتبرته من مستلزمات الطهر والفضيلة . فكان من جراء ذلك ان جمعت الفترة التي نشأ فيها انجلز بين سعة في الثراء وبسطة في العيش انحصرتا بطبقة الصناعيين وفقر وسوء حال شملا بقية سكان المنطقة لاسيما العمال منهم ، ومغالاة في التمسك بشكليات الدين تحولت الى تعصب مغلق اعمى . وكانت عائلة انجلز التي انصرف رجالها لصناعة النسيج وزوجوا بناتهم من اصحاب معامل نسيج في مركز هذا الوضع وفي رأس قائمة الذين جمعوا بين الحرص الشديد على جمع المال والتزمت في التمسك بتعاليم الكنيسة البيوريتانية . ولعل ما عاناه انجلز من شدة هذا الوضع وقسوته ، وهو يخالف طبعه وما جبل عليه ، كان في مقدمة العوامل التي دفعته الى التمرد على ظواهر بيئته الاجتماعية هذه .

وكان لما يعانيه العمال في نفسه وقع شديد ، وقد ألف دقائق صناعة النسيج وعرف طوية اصحابها وأحوال عمالها ، وهو على ما جبل عليه من رقة العاطفة ومرهف الاحساس . ولم يكن للاستغلال يومئذ، حدود او ضوابط ، وقد تملك اصحاب رؤوس الاموال نهم لجني الارباح وتسابقوا في تكديس الثروة ، فلم يقفوا عند استغلال البالغين من الرجال بأدنى الاجور ولاطول شطر من اليوم ، بل استغلوا النساء بأجور ادنى ثم عمدوا الى استغلال الصبية منذ السادسة من اعمارهم لانهم أقل اجرا وأطوع وحملوهم أشق الاعمال حتى هشموا ابدان الكثيرين منهم ودفعوا بهم الى التهلكة . وكان انجلز في طريقه الى المدرسة ومنها الى بيته يستعرض كل يوم ، البيوت الفخمة العامرة التي يقيم فيها اصحاب المعامل وهو على دراية بما تخفيه من وسائل البذخ والترف ، ويخترق بعدها أحياء العمال بأزقتها الموحلة القذرة وأكواخها ذات السقوف المنخفضة الهاوية والجو الخانق التي لا تصله اشعة الشمس ولا يمتد اليه دفؤها . ويخترق بعدها حي الحياك وهم ما يزالون

يمارسون مهنتهم بالطريقة التقليدية ولحسابهم الخاص ، وفي صراع مرير من اجل البقاء في مواجهة الصناعة التي ضيقت عليهم الخناق ، وقد انكبوا على أنوالهم يواصلون العمل طول النهار وشطرا من الليل ، ومواقد التدفئة تشوي ظهورهم ، ولا يكادون ينتهون من عملهم ليجدوا بعض الراحة بعد طول العناء حتى ينغصها عليهم ضجيج عربات النفايات تخترق أزقتهم وصراخ المتشردين وضجيجهم وهم يتسكعون سكارى ليهجعوا عند الفسق في الزرائب يفترشون أكوام الروث . وهكذا نرى انجلز لم يكد يبلغ العشرين من العمر ، يصف وصفا دقيقا بؤس الطبقات الفقيرة في وادي الووبر ويشهر برجال الصناعة الذين اعتبرهم مسؤولين عن البؤس والشقاء الذي حل بالعمال فيه ويدينهم بترويج الخمور السيئة ، يشجعون العمال ، وهم البيوريتان المتزمتون ، على الادمان عليها ويدفعون بهم الى التهلكة . ونراه وقد تبين الفجوة السحيقة التي تفصل الاثرياء عن البؤساء في بلدته يحمل كراهية شديدة لارباب الصناعة فيها لا لانهم استغلوا العمال استغلالا بشعا ودمروا حياتهم فحسب وانما لانهم كانوا في الوقت الذي يتظاهرون فيه بالورع والتقوى ويغالون في ادعاء الطهر والفضيلة يجمعون بين الافراط في الطمع والافراط في التزمت وبلغوا في كراهيتهم للثقافة ولكل ما يمت الى التقدم بصلة ، لاسيما بعد الثورة الفرنسية ، حدود الهوس .

ويذكر انجلز كيف ان المسؤولين عمدوا الى التستر على البؤس وشل ردود فعله باللجوء الى الكنيسة البيوريتانية لتطنب في الوعظ وتشدد في الوعد والوعيد ؛ وكيف عمدوا في الوقت عينه ، الى ترويج البراندي البروسي السيء ليخدروا به من لا يجدي معه الوعظ ولا الوعد والوعيد . وكتب يقول : «اني لأذكر جيدا ... كيف ظهرت بغتة ، الخمور الرديئة وانتشرت في الأحياء الصناعية ... وكيف انحدرت جموع العمال في مهاوي الادمان ، وكيف كانوا يعترضون المارة في الازقة منذ التاسعة ، كل مساء ، سكارى ، متشابكي الاذرع، يصخبون ويقهقهون ... ويتنقلون مترنحين من ماخور الى آخر ...» . ويذكر كذلك ، احاديث اصحاب المعامل مجتمعين في مجلس ابيه ، يتداولون في اجدى الوسائل لزيادة الانتاج وجني اضخم الارباح ، وحول اي الوسائل اكثر فعلا في توطيد سطوتهم وإحكام ضبطهم «وكأن ضمائرهم صنعت من مطاط لا يؤثر فيه الوخز ... ولا يؤثر فيها تقويض حياة الاطفال ما دام في مستطاعهم التكفير عن خطاياهم بالصلاة في الكنيسة كل يوم احد مرة او مرتين ..» (١٤٦) .

ودخل انجلز المدرسة الابتدائية في بارمن فوجد المعلمين كلهم قساوسة كل ما يعنيهم غرس تعاليم البيوريتانية وبث روح الكراهية لكل جديد . ويذكر ان طالبا سأل احد المعلمين عن «غوته» فكان رده «انه جاهل كافر» . ودخل الاعدادية في البرفيلد وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكانت خير مدرسة في منطقته ، ووجدها أقل تعصبا وانغلاقا من مدرسة بارمن ولو ان ادارتها كانت بعهدة هيئة من البيوريتان ايضا . وكان ابوه يريده ، وهو ابنه البكر ، ان يحذو حذوه ويخلفه في عمله ، لكن انجلز لم يرغب فيما اراده له ابوه بل اراد وهو يتعشق الادب

والشعر ويفتح ذهنه للافكار الغريبة ويتمعن فيما حوله بعين الناقد ، ان يكون صحفيا . فكانت رغبته هذه مصدر قلق ابيه وهو يرى مهنة الصحافة لا تليق بمكانة عائلته ، وزاد قلقه ما سمعه عن ميول انجلز الفكرية الغريبة ، فبادر الى اخراجه من المدرسة قبل ان يتم دراسته الاعدادية ليتدرب على العمل في مكتبه. وارتضى انجلز قرار ابيه بل ربما رحب به . فقد كان يخشى ان هو أتم دراسة اكاديمية في الجامعة ان لا يجد خيارا غير ان يكون موظفا في الدولة وهو ما لم يكن يرغب به . وتصور اشتغاله في مكتب ابيه يتيح له المجال ليدرس ما يشاء ويثقف نفسه ثقافة حرة متمثلا بأدباء كبار صنعوا انفسهم بأنفسهم . وودعته مدرسته بشهادة أقرت له فيها بتفوقه فيدروس التاريخ والادب الالماني والرياضيات والفيزياء وباتقانه اليونانية واللاتينية ، وأطرت تواضعه وطيبته ورغبته الصادقة في المعرفة (١٤٧) .

وقضى انجلز في مكتب ابيه سنة كاملة قرر ابوه بعدها ارساله الى «بريمن»، وقد رجحها لان البيوريتانية كانت سائدة فيها . ورتب له ان يقيم في رعاية قس ليضمن له بيئة موثوق بها ؛ كما رتب له عملا دون أجر في مكتب صديق له يتعاطى اعمال التصدير ، ليتمرس في فنون التجارة . وكان ابوه يرجو ان تصلح حاله بابتعاده عن وسطه في بارمن . ولكن وسط انجلز الجديد كان على عكس ما تصوره ابوه وأراده . فلم يكن القس متزمتا بل كان من الذين يرون خير العبادة ان يعمل المرء صالحا ويطبق أحكام الدين تطبيقا نافعا . وكان رجلا طيبا اهتم بانشاء الملاجىء يستقبل فيها المساجين الذين ينهون محكومياتهم ويؤوي فيها المهجرين من البروتستانت الذين لا معين لهم . ولقي انجلز في رعايته من التسامح وانفتاح الذهن ما لم يجده في بيته وفي رعاية ابيه . ووجد مثل هذا التسامح في مكتب العمل الذي توفر له فيه من الوقت ما يكفيه للاهتمام بما يرغب الاهتمام به (١٤٨).

وكانت بريمن ، وهي يومئذ اكبر موانىء المانيا ، مدينة حرة تتمتع باستقلالها الذاتي في الكونفدرالية الالمانية وتتولى السلطة فيها هيئة مختارة من ابناء عائلاتها العريقة المحافظة تركت برغم محافظتها المدينة حرة مفتوحة فتوطدت صلاتها بكثير من اقطار العالم وجمعت شتاتا من مختلف القوميات والنحل ، يقصدها المهاجرون من ابناء اوربا الوسطى في طريقهم الى اميركا ، ويمارس كل امرىء فيها حرية الرأي والعقيدة ، يقرأ ويقول ما يشاء دون رقيب . وفيها وجد انجلز ما كان يتمنى ، فمارس شتى انواع الرياضة وتمتع بالاستماع الى الموسيقى وانتمى الى نوادي رجال الاعمال حيث وجد مختلف الصحف والمجلات الاجنبية وانصرف يقرأ ما يريد ويشبع رغبته في دراسة الفلسفة واللاهوت والتاريخ والادب ويتابع هواياته المفضلة فيتقن ما يعرف من اللغات ويتعلم لغات جديدة ويمارس التخاطب بها في هذه المدينة التي يجد فيها المرء كل الالسن . وبعد هذا كله ، وجد الوقت لمراسلة الصحف ونشر المقالات فيها ، وكان ينشر مقالاته ورسائله غفلا من التوقيع او باسمه المستعار الذي اختار له اسم فردريك اوسوالد . وفي بريمن

اتصل انجلز بحركة «المانيا الفتاة» ، وهي حركة ادبية ضمت فريقا من الشباب المتبرمين بالاوضاع القائمة ، رفضوا الرومانسية ورجحوا الواقعية وحبذوا النظام البرلماني والحريات الديمقراطية واستقلال القضاء وتحرير المرأة والتسامح في الدين ودعوا الى معالجة مشكلة الفقر (١٤٩) .

٣ ـ انجلز في كتاباته الاولى

ظهرت كتابات انجلز الاولى في الفترة بين ١٨٣٩ و١٨٤١ في جريدة «التلغراف الالمانية» التي كانت تصدر في بريمن ويتولى تحريرها «كارل غوتسكوف» احد قادة المانيا الفتاة . وكان اهم ما نشره في هذه الفترة «رسائل وادي الووبر» و«رحلة الى بريمر هافن» و«صور من الريف» ، وكلها شهدت له بملكة غير عادية في قوة الملاحظة ودقة الوصف وصياغة ما اراد قوله بعبارات مفعمة بالحيوية تشد انتباه القارىء . وكشفت هذه المقالات عن مدى تقدمه الفكري وبدا فيها كما وصفه احد الكتاب فيما بعد «ذو فكر رائق بعيد عن الرومانسية وضبابية الحساسية العاطفية ... لا ينظر الى الاشياء قط من خلال نظارات ملونة او من خلال سديم ... بل ينظر اليها ببصيرة حادة تخترق الحجب الى صميم الاشياء، بصيرة يندر ان تهبها الطبيعة بالفطرة ، لكنها كانت من صفاته المميزة ، لفتت نظري عندما قابلته اول مرة ..» (١٥٠) .

وجه انجلز في «رسائل وادي الووبر» نقدا شديدا لاصحاب مصانع النسيج والبيوريتان في البرفيلد وبارمن وكأنه اراد به ان يصفي حسابه مع روح المحافظة المتشددة ويثأر لما عاناه منها ، واستنكر جحود الكنيسة بقدرات الانسان الخلاقة والنظر اليه بوصفه كائنا عاجزا ، وانتقد انتقادا مريرا الاوضاع السائدة في المناطق الصناعية وما تعانيه الطبقة العاملة . وأثارت الرسائل اهتمام القراء فنفذت أعداد الجريدة للتو وتساءل الناس عمن يكون هذا الكاتب الجريء وذهبوا في الظن والتخمين مذاهب شتى ولم يخطر ببال احد ان الكاتب ليس الا فتى لم يتجاوز العشرين وانه ابن احد اصحاب المعامل المرموقين المتشددين في تقواهم . وبلغ الاحتجاج على ما تضمنته الرسائل من الشدة درجة اجبرت الجريدة ان تنشر ردا مدبرا لكاتب وهمي (١٥١) .

اما مقالته «صور من الارياف» فكانت وصفا لرحلة قام بها الى هولنده وانكلتره سنة ١٨٤٠ ، بدت فيها اولى بوادر ميله الى المادية اذ حاول ان يوضح الصلة بين بيئة المجتمع الطبيعية والمعتقدات والآراء السائدة فيها . وكان وصفه لسفرة بالقطار من لندن الى ليفربول اول اشارة لزيارته لانكلتره التي اصبحت وطنه الثاني . وجاء وصفه لسفرة نهرية الى بريمر هافن في صيف ١٨٤٠ ، شاهدا على براعته ودقة ملاحظته وحسن تصويره اذ رسم صورة حية لركاب الباخرة من

موظفين وحرفيين ومقبلين على الهجرة وبضعة تجار انتحوا جانبا من الباخرة يتشاورون متجنبين بقية الركاب«١٥٢» .

وتعقب انجلز في بريمن الآراء الراديكالية حتى وجد ضالته في كتابات اليسار الهيغلي ، وكان اول ما قرأه منها كتاب شتراوس «حياة المسيح» وما انتهى من قراءته حتى تملكه الاعجاب بآراء شتراوس وبالنظرة الهيغلية«١٥٣» . وكانت الافكار كلها تدور في المانيا يومئذ ، حول السلطة : سلطة الدولة وسلطة الكنيسة وسلطة التقاليد ، والناس بين متحيز لهذه السلطة او معارض لها . وكانت الرجعية وقد استعادت سطوتها بعد هزيمة نابليون ومؤتمر فيينا ، في أشد حالات الحذر ، تخشى ان يفلت الزمام منها مرة اخرى فتغالي في الحرص على بقائها متماسكة وبكامل استعدادها لمواجهة الطوارىء ، ولم تعد الحكومة يرضيها الا ان تكون سلطتها مطلقة ولم تعد الكنيسة تقنع الا بأقصى حدود الالتزام بتعاليمها وبالطاعة العمياء لاوامرها . وتركز الصراع في العشر سنين التي اعقبت رحيل هيغل وغوته بين المحافظة والتحرر في السياسة وفي الدين وفي الفكر . وكان من جراء الافراط في التشدد تجاه اتجاهات التحرر ، ان انجرف الجيل برمته بتيار الراديكالية وحمل راية التمرد وأعلن الحرب في جبهتي الادب والفلسفة . ولما كان تنظيم الاحزاب محذورا عمد الشباب الى التكتل في تجمعات كان ابرزها تجمع المانيا الفتاة وتجمع اليسار الهيغلي . التزم الاول سبيل إحياء الادب الجرماني والاستعانة به في مواجهة جبروت الكنيسة وفي الدعوة الى حرية الفكر ورفع راية الديمقراطية في مواجهة سلطة المعارضة ودعا الى النظام الجمهوري في مواجهة النظام الاوتوقراطي . واجتذب هذا التجمع انجلز في البداية فانضم اليه وتعرف عن طريقه على آراء سان سيمون وتأثر بها . لكنه ما لبث بعد ان اجتذبته الهيغلية ان بدت له افكار هذا التجمع ضحلة ومساعيه لا تتجاوز حدود الالفاظ والشعارات المنمقة فضعفت علاقته به حتى رجح عليه تجمع اليسار الهيغلي لاسيما وانه تصور مرامي هذا التجمع في حقيقتها مرامي سياسية وانه انما اراد بالفلسفة ان تكون واجهة يتعرض عن طريقها للسلطة الثنائية المتمثلة بتحالف السلطة والكنيسة . وتوصل انجلز عن طريق الهيغلية في هذه الفترة المبكرة من حياته الفكرية الى تصور خضوع الظواهر التاريخية لاحكام التغير المستمر والى الاعتقاد بلزوم الاقرار للفرد بحرية في الدين وفي السياسة وهو ما اخذه اليسار الهيغلي بدوره من الثورة الفرنسية وشدد في تأكيده بعد ثورة ١٨٣٠ . وبلغ اعجابه بتلامذة هيغل اليساريين اقصاه عندما وجدهم قد انتزعوا افكار استاذهم من اطارها التجريدي وأطلقوا طريقته الديالكتية من عقالها فأنكروا على الدولة حقها المطلق في السلطة وأدخلوا الدولة في عداد الظواهر التاريخية الخاضعة لاحكام التغير«١٥٤» .

واخذ اهتمامه بالهيغلية يزداد واجتذبته اليها بوجه خاص ، فكرة الارتقاء بمراحل متعاقبة ومتداخلة . ومثّل في مقال له في عام ١٨٤٠ حركة الارتقاء بحركة حلزونية تبدو فيها أحداث التاريخ للوهلة الاولى وكأنها تتكرر وتعيد نفسها كما يخيل لمن يأخذ بالبداهة ، بينما هي في الحقيقة تتعاقب على أصعدة متدرجة ولو

بدت متماثلة . واقترح انجلز الجمع بين ديالكتية هيغل وحركة تطور العلم في النظر الى التاريخ ، والاخذ بما يؤيد حركة التطور والتقدم في فلسفة هيغل ونبذ ما يدعم المحافظة (١٥٥) . وفي مقال له نشره في كانـــون الثاني ١٨٤١ ، اعتمد الديالكتية في نقد الرجعيين الذين حاولوا تحت ستار القومية بعث روح الفروسية على نمط القرون الوسطى واثارة نعرة الغرور القومي والتمايز بين القوميات وبث روح الاحتقار والكراهية للقوميات الاخرى وتشويه مفاهيم الديمقراطية وتحبيـذ النكوص الى الماضي السحيق والغلو في تمجيد قوميتهم حتى صوروها وكأنها بانية الحضارة . ونقد كذلك الليبراليين العالميين (الكوزموبوليتان) الذين اغفلوا علـــى نقيض هؤلاء ، الفوارق بين الامم وأنكروا ما قد تتميز به كل أمة ولم ينظروا الى الموضوع نظرة واقعية . وانتهى الى ترجيح ديمقراطية ثورية تحقق وحدة الامة وتطلق الحريات يمارسها المواطنون لاستكمال وجودهم وادارة شؤون الحياة العامة وانجاز مقومات التقدم «(١٥٦) .

ومقالات انجلز في هذه الفترة لم تكشف في مجملها ما تميز به من دقـــة الوصف وحسن التعبير والحيوية والاهتمام باثبات وجوده كناقد ادبي فحسب ، بل اظهرت كذلك ، السرعة الفائقة التي تطور بها فكره متجاوزا افكار «المانيـــا الفتاة» الى الهيغلية التي وجد فيها مفتاح تطوره المقبل ووجد في طريقتهـــا الديالكتية مخرجا لالمانيا من تخلفها . وبرغم كل ما هيأته له بريمن ، ما لبث ان تولاه السأم وتاق الى العودة لاهله . وفي مطلع ١٨٤١ وافق ابوه على عودته ، لكنه ما ان مرت عليه في بارمن فترة من الزمن حتى ملّ البقاء فيها وعاد الى بريمن ثم غادرها بعد بضعة شهور وفي عزمه الذهاب الى برلين .

٤ ـ انجلز في برلين

غادر انجلز ميناء بريمن في مطلع صيف ١٨٤١ وقضى بضعة شهور في جولة زار فيها ايطاليا وسويسره . وكان قد استقر رأيه على أداء الخدمة العسكرية في برلين ليستفيد من وقت فراغه بعد الانتهاء من واجباته العسكريـــة فيدرس الفلسفة في جامعتها ويتصل باليسار الهيغلي فيها . وكتم الامر عن ابيه ليتجنب معارضته ودفع بدل الخدمة عنه كما يفعل الموسرون ، وليواجهه بالامر الواقع . ولعله اراد بذلك ان يرجيء البت في امر مستقبله فترة من الزمن يجد فيها متسعا لاقناع ابيه بأن يترك له حرية اختيار العمل الذي يرغب به . وكان ابوه يرجـــح عودته الى بارمن والتفرغ لمعاونته في ادارة اعماله بينما كان هو يرجح الاشتغال بالصحافة .

وصل انجلز برلين في خريف ١٨٤١ وانضم الى فرقة حرس المدفعية المشاة واتم خدمة مرضية ورقي الى رتبة عريف وبرع في الرماية وفي الستراتيجية .

وتركت فترة خدمته في الجيش اثرا عميقا في نفسه وجعلت الفنون العسكرية من جملة هواياته بقي يتابعها الى آخر ايامه . لكن جل اهتمامه في برلين وجهه الى محاضرات الفلسفة في جامعتها والى الحوار مع الهيغليين . وكان الخلاف بين اطراف اليسار الهيغلي عند وصوله الى برلين ، في ذروته . فقد تمزقت وحدته وظهرت في اقصى يساره فئة سميت بالاحرار ، كان أفرادها ، كما وصفهم فيما بعد ، يضعون كل رأي على محك النقد الصارم ويجاهرون بآراء سياسية تتجاوز في راديكاليتها كل ما سبق للالمان سماعه ؛ لكنهم كانوا يعبرون عن هذه الآراء بلغة فلسفية مبهمة بالنسبة للكاتب بقدر ما هي مغلقة على القارىء بحيث تعذر على الرقابة فهمها فجازت عليها . وبهذه الطريقة مارسوا حرية في الرأي لم تتيسر لغيرهم . وكانوا يرجحون في فلسفة هيغل مبدأ التغير المطرد ويؤكدونه ويرون في عوامل التغيير الكامنة في الموجودات السر في تبدلها الى اوضاع جديدة اكثر ملاءمة للزمن واكثر عقلانية . وكانت فئة الاحرار هذه ، هي التي استقبلت انجلز ورحبت به وعرفته باسمه المستعار «فردريك اوسوالد» فحسب عليها واصبح موضع اهتمام قادتها . ولعل جرأتهم في النقد هي التي جعلته يرجحهم على غيرهم فيلازمهم ويخوض بجانبهم معارك الجدل (١٥٧) .

وشرع انجلز يدرس في جامعة برلين الفلسفة والتاريخ بصفة تلميذ خارجي ، وبدأ في الوقت عينه يراسل الجريدة الراينية . وفي احدى رسائله الى هذه الجريدة وصف جامعة برلين بأنها تفوقت على كل مركز آخر للمعرفة فبرزت في طليعة الحركة الفكرية الحديثة واصبحت ميدانا احتدم فيه الجدل حول اهم مشاكل العصر لان اساتذتها كانوا يتميزون بتفاوت في الرأي والاتجاه ويطلق كل منهم العنان لفكره في مناقشات حية تكشف للطلاب فيها على نحو رائع مختلف مسائل الفلسفة واللاهوت والتاريخ والاجتماع ، بينما تجنبت الجامعات الاخرى اختلاف الآراء وتفاوتها فخيم عليها الجمود وأصيب الفكر فيها بالعقم (١٥٨) .

وصدر عقيب وصوله الى برلين كتاب فويرباخ «روح المسيحية» الذي كان له تأثير عظيم في الوسط الهيغلي بعث فيه الحيوية والنشاط . وصادف صدوره بداية ولاية فردريك وليم الرابع الذي استهل عهده بتخفيف وطأة الرقابة على المطبوعات . ولكن فردريك ما لبث ان تراجع وأفرط في التشديد على الحريات وأعلن حربا على الهيغلية وقد رأى فيها خطرا يتهدد حكمه الاوتوقراطي . وكان من جملة اجراءاته في مقاومة الهيغلية تعيينه الفيلسوف «فردريك شيلنك» خلفا لهيغل في كرسي الفلسفة في جامعة برلين . وكان شيلنك زميلا وصديقا لهيغل لكنه انقلب عليه وصار من أشد خصوم فلسفته ورضي ان يقود الحملة عليها . وبدأ حملته بالقاء سلسلة محاضرات كان يحضرها جمع غفير من قسس واساتذة وطلبة وضباط ومتطوعين في القوات المسلحة فتتخذ شكل مظاهرة تتلقى اقوال شيلنك الذي كان في السابعة والستين من عمره وهو يحمل على الاتجاهات الحديثة في الفلسفة ويخص فلسفة هيغل بأكبر نصيب من طعنه ويصفها بالعقم . وبلغ من غيظ انجلز وهو يتابع الاستماع الى المحاضرات ان قرر الرد عليها حتى

قبل ان ينتهي شيلنك منها . وحاول رفاقه عبثا ان يثنوه عن عزمه ويقنعوه بعدم جدوى إقدام حدث في مثل سنه على التعرض لفيلسوف مرموق في مقام شيلنك. ولكنه أصر وهو واثق من نفسه بعد ان ألم في وقت قصير بمجمل فلسفة هيغل وتابع باهتمام ، الجدل بين اليسار الهيغلي وخصومه وتوفرت له معلومات اعتقد انها تكفي لمواجهة شيلنك ولو انه كان يجهل فلسفة الاغريق وفلسفة الذين سبقوا هيغل .

وفي مطلع سنة ١٨٤٢ ، نشر مقالا بعنوان «شيلنك وهيغل» واتبعه في شهر مارس بكراس بعنوان «شيلنك والالهام» ، ثم بآخر بعنوان «شيلنك فيلسوف المسيحية» . وركز هجومه على «الالهام» الذي جعل منه شيلنك ركيزته في فلسفته برمتها . وقال ان شيلنك يريد بفلسفته التي بناها على المجهول ان يحملنا على اغفال عالم الطبيعة والعلاقات التي تقوم فيه وهي تخضع لاحكام الضرورة ليدخل في روعنا عقم الفكر البشري وعجزه عن ادراك الحقيقة بطريقي الوعي والعمل . وحمل بشدة على زعم شيلنك ان الحرية ليست الا الجهالة تنزع الى الفوضى والى الانطلاق من كل التزام . وقال ان الحرية انما هي الحيوية الواعية النابعة عن المعرفة بأحكام الضرورة والالتزام بها . وعارض شيلنك في فصله العقل عن الاحساس والخبرة ، وقال ان من شأن العقل والخبرة ان يقوّم احدهما الآخر ويسنده ؛ فالعقل يدرك الضرورة بطريق الاحساس والخبرة وهو لهذا مرتبط بهما ؛ والاحساس والخبرة من دون عقل يدركهما لا يوصلان الى رأي او حكم . وأكد انجلز وحدة الوجود وخضوعه لاحكام الضرورة بطريق التتابع والترابط والتناسق ، وأكد كذلك الصلة الوثيقة بين الفكر والكينونة وبين دواعي الوجود والوجود (١٥٩) .

واستعرض في كراسه الاول تطور فلسفة هيغل بعد وفاته وكيف انقسم طلابه الى فريق اليمين الذي التزم حرفيتها وفريق اليسار الذي التزم طريقتها واصولها دون نتائجها . وقال عن اليسار انهم الهيغليون الحقيقيون لانهم طبقوا طريقة هيغل للوصول الى نتائج تطابق مقتضيات الزمان والمكان (١٦٠) . وكتب كراسه الثاني بلسان مسيحي بيوريتاني ورع اثبت ان فلسفة شيلنك فندت الهيغلية واثبتت صواب البيوريتانية . وحاكى بها بحذق ودقة ، أسلوب البيوريتان وطريقتهم في عرض قضاياهم وتلقاها القراء على هذه الصورة الى ان كشفت الجريدة الراينية في تعليقها عليها انها لم تكن غير محاكاة ساخرة . وفيها رد على ما ذهب اليه شيلنك في قوله ان المعقول هو الممكن والواقع وقال انمن الطبيعي ان يكون الواقع عقلانيا وأن تكون مهمة الفلسفة اثبات لزوم مطابقة الواقع لما هو عقلاني واثبات ان العقلاني هو في الوقت عينه ضروري وان الضروري هو وحده الواقعي المعقول (١٦١) .

وادت حملة انجلز على شيلنك الى نهاية مثيرة . فقد اقدم احد الاساتذة في اثرها ، على نشر نصوص المحاضرات واتبعها بتعليقات تضمنت نقدا اكاديميا شديدا

دفع شيلنك الى اقامة دعوى ضده لنشر النص دون اذنه . لكن المحكمة ردت دعواه فاغتاظ واستقال من منصبه (١٦٢) . وهكذا انتهت بالفشل محاربة الهيغلية عن طريق شيلنك فقرر الملك ان يتصدى لها مباشرة بمطاردة الهيغليين وفصلهم من وظائفهم وابعادهم عن التعليم في الجامعات وفي المدارس .

وتأثر انجلز في نقد شيلنك بمادية فويرباخ وهو يحسب ان فويرباخ يفسر بها فلسفة هيغل ولم يلاحظ الاختلاف الاساسي في وجهة نظرهما حتى قال «ان من بين أحكام الفلسفة الحديثة (وهو يقصد الهيغلية) التي اوضحها لنا فويرباخ ، ان العقل لا يمكن ان يكون له وجود الا في الطبيعة وبها . ولسنا ندري كيف تصور شيلنك امكان وجود العقل خارج الطبيعة ومستقلا عنها» . بينما الذي قصده فويرباخ هو هيغل لانه افترض ان الطبيعة والوجود يمثلان اغتراب الحقيقة المجردة المتمثلة بالعقل المطلق المستقل . واخطأ انجلز ايضا في فهم الهيغلية بمحاولته التوفيق بين نزعته الديمقراطية الثورية وبين النزعة الراديكالية في الهيغلية وظنه ان فويرباخ اخذ عن هيغل فكرة ضرورة العمل في التوصل الى الحقيقة بينما الواقع ان اليسار الهيغلي وكذلك فويرباخ توصلا الى ضرورة العمل في الوصول الى الحقيقة عن طريق نقد هيغل وعزل العناصر الراديكالية في فلسفته عن عناصر المحافظة فيها . وكان من جراء ذلك ان توهم انجلز وتصور انه توصل عن طريق الهيغلية الى حتمية فوز التقدمية على الرجعية فأنهى رسالة «شيلنك والالهام» بقوله «لنناضل ... ونواجه اعداء الحرية دون وجل ونصمد حتى النهاية ... فيوم الفصل في معركة الشعب آت لا ريب فيه وسيكون النصر لنا لا محالة..» وهو استنتاج يخالف رأي هيغل لاسيما في أخريات ايامه ويخالف نهج اليسار الهيغلي الذي التزم التأمل في نشاطاته .

وأثار رد انجلز على شيلنك اهتمام مختلف الاوساط ، وخيل للقراء ان الكاتب المجهول لا بد ان يكون فيلسوفا مرموقا . وأطرت الصحف التقدمية وفي طليعتها الجريدة الراينية والحولية الالمانية ، جرأته وصراحته ونفاذ بصيرته . وحملت الصحف المحافظة عليه واستنكرت تهجمه على الفيلسوف البارز . ووجه اليه روغه بعد ان عرف اسمه الحقيقي رسالة مخاطبا اياه «بالدكتور الفيلسوف» فرد انجلز يشكره ويعلمه انه لا يحمل شهادة دكتوراه ولا اية شهادة اخرى وما هو الا مجند في سلاح المدفعية الملكية البروسية (١٦٣) .

وكان من وراء نقده ان اقتنع بلزوم تنسيق فكرة الديمقراطية الثورية في اطار فلسفي اجتماعي وأيقن ان الشعب لن ينال حريته بغير ثورة ديمقراطية ، وان سداد الرأي لا جدوى فيه الا اذا اقترن بالعمل المعزز بقوة الارادة وصدق العزيمة . واستمر يواصل متابعته للهيغلية من منطلق ديمقراطي ثوري حتى انتبه الى التنافر بين أصولها الثورية وخواتمها المتسمة بالمحافظة ، ولاحظ كيف انحرف هيغل عن أسس فلسفته ليساير السلطة وسياستها . وعندئذ فقط ادرك كيف كانت فلسفة هيغل في أصولها مستقلة وذات نهج ثوري ، وكيف تحولت في ظاهرها المعلن الى محافظة او رجعية تخدم الاوتوقراطية .

وفي هذه الفترة تعرّف انجلز على آراء هيس كما اوضحها في كتابه «السلطة الثلاثية الاوربية» فتعززت قناعته بالديمقراطية الثورية وأشرف في الوقت عينه ، على مرحلة جديدة في حياته الفكرية . فقد أكد هيس في كتابه، الضرورة الى التحول من الفلسفة النظرية المجردة الى مواجهة الواقع مواجهة فعلية ، ولفت نظر التقدميين الالمان لاول مرة الى الاشتراكية وعرّفهم بأفكار الطوبائيين الفرنسيين وانحى باللائمة على هيغل لاغفاله صلة الماضي بالحاضر وهي الصلة التي ألح في تأكيدها المفكر الفرنسي سان سيمون الذي كان هيس يكنّ له تقديرا عظيما ويضعه في منزلة موازية لمنزلة هيغل ويعزي التفاوت في آرائهما الى التفاوت بين المجتمعين الالماني والفرنسي . وكان هيس اول راديكالي في المانيا قال بأممية الصراع من اجل الحرية وبلزوم التأليف بين ما حققته حركة الاصلاح الديني في المانيا وما حققته الثورتان الصناعية في انكلتره والسياسية في فرنسا وتكوين قاعدة لحضارة عالمية تتوافر فيها الحرية للشعوب ؛ كما كان اول من اراد ان يكون هدف الفلسفة الالمانية تحقيق الاشتراكية (١٦٤) .

وتأثر انجلز في هذه الفترة ايضا ، بالشاعر الالماني «هاينرخ هاينه» الذي وصف في شعره انقسام الناس بين متخم وجائع وما قام بينهم من جراء هذا الانقسام من صراع قال انه سيؤدي لا محالة الى الشيوعية . وبعثت قصائده في انجلز ذكريات صباه عن حياة العمال وما عانوه فيها من قهر وشقاء وأعادت الى ذهنه صورة الرأسماليين الصناعيين وهم يحاولون توجيه كل شؤون الحياة الى خدمة مصالحهم . وصادف في هذه الفترة كذلك ، ان اطلع على كراسات كانت توزع على العمال سرا ، يصدرها عامل اسمه «ولهلم ويتلنك» تبين له فيها التباين بين آراء هيس وهاينه التي وجدها تحمل طابع الطوبائية وتستند في جوهرها الى دواعي الرأفة ، وآراء ويتلنك التي تنم عن القناعة بلزوم اعادة الحق الى نصابه بنضال فعال وثورة تقوم بها الطبقة العاملة . وتأثر انجلز بآراء ويتلنك التي لفتت انتباهه لاول مرة الى ضرورة الاهتمام بالطبقة العاملة وجعلها محط الامل في تحقيق التغير المطلوب ؛ ومن جراء تأثره بهيس وويتلنك تمنى لو تتاح له الفرصة ليتابع حركة العمال في انكلتره موطنها الاول الذي نشأت فيه البروليتاريا وقامت فيه النقابات تناضل في سبيل حقوق الطبقة العاملة وحرياتها . ولهذا شعر بغبطة عظيمة عندما فاجأه ابوه بالموافقة على ارساله الى منشستر ليواصل تدريبه في شركة ايرون ــ انجلز . وربما كان قصد ابيه ان يبعده عن نشاطاته المشبوهة في برلين التي لم تكن خافية عليه .

٥ ــ انجلز في انكلتره

غادر انجلز برلين الى بارمن في منتصف تشرين الاول سنة ١٨٤٢ . وفي

طريقه مر بمدينة كولون وزار مكاتب الجريدة الراينية وقابل ارنولد هيس ، وكان يحرر فيها ، ووصفه فيما بعد بأنه اول شيوعي قابله . وقال هيس في ذكر مقابلة انجلز «ان انجلز جاء لمقابلتي وهو ثوري حتى العظم وتركني بعد المقابلة وهو شيوعي متحمس» . ومع ان قراءته لكتاب هيس «السلطة الثلاثية الاوربية» اثارت اهتمامه بالاوضاع في انكلتره ، الا ان ايضاحات هيس اثناء المقابلة ، بأن انكلتره ستكون البلد الاول الذي تتفجر فيه الثورة الاجتماعية بقيادة الحركة الوثيقية شدت من عزمه وتصميمه على دراسة الاوضاع فيها عن كثب وعلى الطبيعة . وأعلن لاهله عند وصوله الى بارمن ، عن رغبته في السفر اليها ففوجىء باستجابة ابيه لرغبته . ولاول مرة توافقت رغبة انجلز ورغبة ابيه . والواقع ان اخبار انجلز في برلين ورفقته لفئة مريبة تعارض السلطة والكنيسة والتقاليد ازعجت ابيه وأثارت الذعر في نفسه كما يظهر في رسالة له الى زوج اخته قال فيها «ان اللجوء الى الشدة سيزيده عنادا ومرارة» وقال يشكو حاله «انها لمحنة قاسية ان يكون لي ولد في بيتي كالنعجة الجرباء في قطيع ، يتنكر جهارا لمعتقدات آبائه ... على اني مصمم على ان أشغله بالعمل الكثير أينما يكون وأشدد عليه الرقابة حتى لا يرتكب ما يعرض مستقبله الى الخطر ..» وهكذا تصور ان ولده سيكون في انكلتره بمأمن وهو يعمل في مكاتب شركة ايرمن ـ انجلز في منشستر .

ولو قارنّا فكر انجلز وهو يغادر بارمن الى مانشستر ، وفكر ماركس وهو يغادر موطنه الى باريس ، لوجدنا انجلز اكثر قربا من الاشتراكية وأكثر وضوحا في تحديد نهجه وحسما في موقفه ، ولرأيناه كذلك متعجلا متحمسا لتحقيق اهدافه ، مدفوعا باحساس مرهف وعاطفة جياشة متأثرا تأثرا شديدا بالواقع الذي عاشه . ووجدنا ماركس على خلافه يتقدم بتؤدة وبكثير من التروي معتمدا النقد الصارم والنظرة الفلسفية المتمعنة ، يتعمق ويحيط بكل وجوه اية مسألة يتصدى لدرسها ويحسب حساب المدى البعيد . فبينما كان ماركس يتفحص مبادىء الاشتراكية والشيوعية بعين الشك والحذر ، كان انجلز ، كما قال هيس، قد تحول الى شيوعي متحمس ، ولو ان الشيوعية التي عناها هيس لم تكن هي بعينها التي عناها انجلز فيما بعد . وبرغم كل ذلك ، كان كل منهما قريبا الى الآخر برغبته الصادقة في تقدم أمته وبنزعته المادية وتزعزع ثقته بالبورجوازية وهو يراها استنفذت ثوريتها عندما استتب لها الحكم فانقلبت محافظة لا يعنيها الا الابقاء على سيطرتها وتثبيت حكمها كما هو شأنها في انكلتره وفرنسا ، او عجزت عن بلوغ السلطة فاستكانت وقنعت بالخنوع للحكم الاوتوقراطي كما هو حالها في المانيا . وعقد كلاهما الامل على طبقة جديدة يفرزها النظام الصناعي الرأسمالي ويزيد في عددها كلما نما ويشدد الخناق عليها كلما تركز واستقطب ولا يترك لها مخرجا غير الثورة ، وتلك هي البروليتاريا التي كان ماركس مثلما كان انجلز على يقين ان الغلبة ستكون لها لا محالة ، اذا ما توفر لها الوعي فعرفت شأنها وأدركت قدرتها وما تستطيع ان تفعل . وكان كلاهما كذلك على قناعة تامة بلزوم اقتران النظرية بالعمل وقد ادركا الضرورة الى تضامن الحركات التحررية في الدول

الاوربية المتقدمة لتعطيها طابعا أمميا يمنحها الشمول والقدرة لتحقيق اهدافها على نطاق عالمي .

وبرغم ان انجلز كان أسبق الى ادراك فكرة الصراع الطبقي بعد الذي عاشه وخبره منذ صباه ، من ماركس الذي لم يتبينه الا بعد فترة من مكوثه في فرنسا، غير ان انجلز تلقى الفكرة ببساطة البداهة بينما تلقاها ماركس بعين الناقد المتفهم ولم يلبث ان تجاوز حدود ما تلقى واستنبط ما لم يسبقه اليه احد كما يتضح من تصوره ما سوف يكون من امر البروليتاريا اذا ما تسلحت بالنظرية ووعتها فحولتها الى قوة تهز العالم . لكن كليهما كان بحاجة الى التثبت من صحة ما توصلا اليه وهو ما تحقق لهما خلال وجودهما في فرنسا وانكلتره على غير اتفاق وجاء ما تبينه كل منهما مؤيدا ومتمما لما تبينه الآخر . فوجود انجلز في انكلتره كشف له أمورا لم يتسن لماركس ان يتبينها في فرنسا ؛ ووجود ماركس في فرنسا كشف له أمورا له يكن انجلز يستطيع ان يتبينها في انكلتره . وهكذا وجدا عندما التقيا انهما اكثر من متقاربين في منطلقاتهما الفكرية وفي تطلعاتهما ، ومعرفة وخبرة كل منهما متممة لمعرفة وخبرة الآخر . ولعل هذا التوافق المتكامل شد كلا منهما الى رفيقه مدى اربعين عاما . وبينما امتحن ماركس صحة ما حمله معه من الافكار وما تبينه وادركه في فرنسا بتفهم طبيعة المجتمع الفرنسي ومتابعة تاريخه وأوضاعه في خضم صراعات الثورة الفرنسية ومآثرها التي عبرت عن الجانب السياسي الانساني من مطاليب العصر ، امتحن انجلز صحة افكاره التي حملها الى انكلتره وادرك من خلال متابعاته لحياة الشعب الانكليزي وتاريخه وطبيعة حياته والتمعن في مآثر الثورة الصناعية ومخلفاتها التي عبرت عن الجانب المادي والعملي لمستلزمات العصر . وبرغم بدء الثورة الصناعية في انكلتره في ظروف تاريخية اقل تقدما وقبل قرابة قرن من بدء الثورة الفرنسية ، وانتهائها بتسوية سلمية توفيقية بين الارستقراطية والبورجوازية مجنبة طرفيها الصراع الطويل المرير الذي خاضته البورجوازية الفرنسية ، فان حقيقة الصراع الطبقي وطبيعته ومردوداته تكشفت في انكلتره من خلال مساعي الطبقة العاملة لنيل حقوقها ومن خلال اقتحامها المعترك السياسي بمطالبتها بحق الاقتراع العام مما دل على ان تأثير الثورة الصناعية كان اقوى وأعمق من تأثير الثورة السياسية في انشاء تراكيب اجتماعية متمايزة وظاهرة اهتدى بها انجلز قبل ماركس الى مبدأ سياسي في النظرية الماركسية هو ان العوامل الاقتصادية وان لم يلتفت اليها الفلاسفة والاقتصاديون او يقدروا اهميتها هي اقوى العوامل واكثرها حسما في المجتمع الحديث وهي اساس الصراع الطبقي وما يترتب عليه من ظواهر اجتماعية او سياسية .

غادر انجلز المانيا تاركا وراءه معترك الخلافات النظرية المجردة التي لم تعد ترضي تطلعه الى العمل المجدي . وتملكه للوهلة الاولى عند نزوله الى البر الانكليزي شعور تراءت له من خلاله واقعية الصراعات السياسية والاجتماعية وهي

تجتاح المجتمع البريطاني ؛ وخيل اليه انه يرى في كل بادرة تمثل امامه دليلا على الثورة الوشيكة التي كان يتوقعها ، وأدهشه ان يرى الانكليز من حوله ، كل واحد يطالع صحيفة يومية ويقبل على الاجتماعات العامة وينتمي الى احدى المنظمات ويلتقي بزملائه في النوادي في وقت كان الناس في موطنه كل ينطوي على نفسه وتتولاه حالة من الفتور واللامبالاة ، فأحس بالغبطة لحسن طالعه الذي دفع به الى عالم عامر بالنشاط السياسي والاجتماعي وتسود فيه الحرية .

وجاء انجلز وهو يحمل في ذهنه افكارا مسبقة ، فقد صورت له آراء هيس انكلتره بأنها مهبط الثورة الاجتماعية التي تجمع الى ما حققته الثورة الفلسفية في المانيا معطيات الثورة السياسية في فرنسا وتتجاوزها بما تضيفه من طاقات الابداع الصناعي والتقني المرحلة الحاضرة الى مرحلة جديدة تتحقق بها المثل التي يصبو اليها . فلم يكن وهو بهذه الحالة من الانفعال يستطيع ان يأخذ ما يرى على حقيقته بل كان ذهنه معد لان يجد في كل ما يبصر ما يثير اعجابه بمدى التقدم السياسي والاجتماعي الذي احرزته انكلتره . ولهذا تولته بعد ان انقشعت عن بصيرته الغشاوة ، خيبة أمل مريرة عندما صدمه الواقع فاكتشف ان الانكليزي يجهل ابسط أوليات الفلسفة ويأخذ بظاهر الواقع المحسوس متجاهلا ما يتعلق بأصوله وبواعثه ويقنع بما يبدو للفطرة السليمة ويأخذ بالبداهة (١٦٥) ؛ وتولته الدهشة وهو يرى متعلميهم يصدقون الخرافات وعلماءهم يتغافلون عن حقائق العلم ليتجنبوا المساس بالاساطير والمسلمات ؛ وعجب لهذا التفاوت الذي ميز الانكليز عن غيرهم الذين ربما كانوا دونهم في الحضارة ومستوى التقدم ، وقاده تساؤله عن السر فيه الى ادراكه اوليات النظرة التاريخية التي يسرت له كما يسرت الى ماركس التوصل الى المادية التاريخية وعرف ان الناس تتباين طباعهم واحوالهم بنتيجة تبادل التأثير بين وجودهم الاجتماعي وظروفهم المادية التاريخية وليس لصفات ذاتية خاصة تميزهم عن سواهم .

وكان مما أثار عجبه وهو ما يزال تحت تأثير بقية من الفلسفة المثالية ، ان يرى المبادىء والمثل في محيطه الجديد تطأطىء الرأس للواقع وهي صاغرة ، وعجب ايضا وهو يرى نفسه يضطر الى التسليم بالاثر الحاسم للعوامل الاقتصادية في مجتمع الرأسمالية الصناعية ويعترف بأنها مرد التفاوت بين الناس في المقاصد والاهداف ويقر على مضض بأن الذي يحرك الاحداث في هذا المجتمع هو تصادم المصالح لا تعارض المبادىء . وكان اكثر ما يغيضه وهو يشارك في المناظرات التي تجري بين مفكري الطبقة الوسطى ان يراهم يتلقون بفتور وريبة ، بل بشيء من السخرية المكتومة ، قوله بحتمية الثورة ولا يكترثون بما يستشهد به من الادلة في الرد على ما يدعون من تميز النظام الانكليزي بالمناعة ضد الثورة وقدرته على استيعاب كل تغيير دون ان تتعرض مقوماته الى التداعي .

وكان انجلز بخلاف ماركس ، ينظر الى الامور ابتداء نظرة اجمالية عامة ويأخذه ظواهرها ويتعجل الحكم عليها ، ومن هنا كانت حيرته اول الامر ، بخصوص النظام السياسي الانكليزي وما بدا له فيه من الارتباك بسبب تطوره التاريخي الطويل،

فراى الدستور وكأنه أخدود تراكمت فيه القوانين والسوابق. والتقاليد على مر الزمن ، ورأى البرلمان بعيدا عن الشعب وليس له تأثير محسوس على السلطة في المسائل الاساسية ، ولم يتبين حقيقة ما يرى الا بعد ان تفهم طبيعة الدستور البريطاني وخصائصه المتشابكة والمتلازمة مع طبيعة الشعب الانكليزي وتاريخه وادرك ان حرية الراي والاجتماع تمارس في انكلتره منذ زمن بصورة لا مثيل لها في اي بلد آخر حتى كادت ان تكون طبعا . وتأكد له اكثر من ذي قبل ، التأثير الحاسم للعوامل الاقتصادية على السياسة العامة في انكلتره وبان له ان التعارض بين حزبي الاحرار والمحافظين ليس في جوهره غير تجسيد للتعارض بين مصالح الرأسمالية الصناعية والتمويلية وبين الملكية العقارية وليس اختلافا مجردا في الآراء والاجتهادات والمثل . وكان ينظر الى المحافظين نظرته الى النبلاء في القارة، واخذه العجب اذ رآهم في بعض مواقفهم اقرب الى العمال من الاحرار يأخذون جانبهم ضد مستغليهم الرأسماليين الصناعيين احيانا . وتمنى لو ان العمال يقدمون على تأليف حزب خاص بهم فلا يصوتون للاحرار . وتصور مستقبلا قاتما للصناعة الانكليزية في مواجهة الصناعات الناشئة في القارة ، في المانيا على الخصوص . ورأى مستقبل الاحرار أشد كآبة من مستقبل المحافظين عندما يؤسس العمال حزبهم الخاص ويشتد الصراع بينهم وبين الرأسماليين الصناعيين ويضيق مجال الوسط المعتدل . وعلى هذه الصورة اخذ انجلز يتفهم روح عصره من خلال محاولته فهم المجتمع الانكليزي .

٦ ـ نشاطاته وكتاباته في انكلتره

امتدت اقامة انجلز في انكلتره ، قبل رفقتهما هو وماركس ، من تشرين الثاني سنة ١٨٤٢ الى آب ١٨٤٤ ، قضاها في منشستر الا فترات قصار قضاها في لندن وفي اماكن اخرى . وجل المعلومات عن هذه الفترة تستند الى رسائله ومقالاته وبحوثه في اثنائها . وكان قبيل رحيله الى انكلتره يراسل الجريدة الراينية فواصل مراسلتها الى ان عطلت . ونشرت رسائله اليها تباعا ، ابتداء من ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٤٢ وتناولت الازمة الاقتصادية والاحزاب وحال الطبقة العاملة وقوانين الحبوب . وكان يبني تحليله للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية على فرضية ان الطبقات ذات الاثر في الحياة العامة ثلاث هي طبقة ملاكي الارض والعقار ، والبورجوازية الصناعية والبروليتاريا ، وان التعارض الاساسي بين هذه الطبقات يكاد ينحصر في الوسط الرأسمالي بين البورجوازية والبروليتاريا ، وان البروليتاريا ولو كانت وليدة الرأسمالية الصناعية لكنها تواجهها مواجهة الغريم لشدة ما تعاني من بؤس وفاقة تعتبر الرأسمالية الصناعية مسؤولة عنهما ، وبسبب حرمانها من حق الملكية

الخاصة وحرمانها من جراء ذلك ، من حقوقها السياسيـــة ، وان الصراع بين الاحزاب ليس الا ظاهرة وواجهة لصراع الطبقات ، المحافظون فيه يمثلون ملاكـي العقار والاحرار يمثلون البورجوازية الصناعية والحركة الوثيقية والديمقراطيـون الراديكاليون يمثلون الطبقة العاملة ، والاصل فيه تضارب المصالح ، وليس المبادىء والافكار الا انعكاسات تضارب المصالح ، ولا عبرة للشعارات والرايات والمزاعم . وقد اظهرت رسائله الى الجريدة الراينية بشكل واضح ، متابعته السير في الطريق الذي قاده الى المادية التاريخية والى الاعتقاد بأن ثورة تقودها البروليتاريا آتية لا ريب فيها .

وأوضح انجلز في رسائله ، كيف ان الانكليز يرفضون بعناد ان تكون الثورة وشيكة ، بل ينكرون امكان او احتمال وقوعها . وعندما يسلمون بوقوع ازمـــة اقتصادية يزعمون ان ثروة بلادهم وصناعاتها ومؤسساتها كفيلة بتهيئة سبل التغلب عليها قبل ان تتحول الى كارثة . لكنهم ، كما تصور ، انما يخدعون انفسهم ، فلا مهرب لهم من مواجهة صدمة عنيفة تعيد لهم رشدهم ؛ لان اقتصادهم وهو يقوم بكليته على التجارة والشحن والصناعة ربط مستقبلهم باستمرار نمو هذه المرافق، وهو امر غير مضمون بل انه اخذ كما رأى ، يتعثر بالفعل . فتصريف البضائع وهو الاصل ، بدأ يواجه مقاومة الرسوم الكمركية التي تفرضها الاقطار الاخرى حماية لصناعاتها وأسواقها ، ومن شأن هذا ان يؤدي الى ركود فتخفيض في أجور العمال ثم الى البطالة فالاضراب ، كما وقع في ازمة ١٨٤١ ــ ١٨٤٢ ، فتضطر السلطة ان تواجههم بالعنف . وهكذا يكتشف العمال ان لا خلاص لهم ولا مجال لتحسين حالهم الا بالاطاحة بالسلطة التي تقوم لحماية الرأسمالية الصناعية وتدفع بهم الى الهلاك . ويكون ادراكهم هذه الحقيقة بداية الثورة التي لا مهرب منها .

وترجع اهمية هذه الرسائل في متابعة تطور فكر انجلز الى امرين : الاول ، ان تاريخها يدل على انه أعد اكثرها قبل ان تتاح له فرصة دراسة الاوضاع في انكلتره وحياة الطبقة العاملة فيها دراسة وافية وانه حمل الكثير من الآراء التي اوردها فيها من القارة ؛ والثاني ، ان اعتقاده الجازم بأن انكلتره على ابواب ثورة اجتماعيـة وشيكة دفع به الى اغفال العوامل المضادة واستباق الزمن في توقع الاحداث ، ولو ان تحليله فيما عدا هذا كان سليما في أسسه النظرية . وكان في كل ذلك، متأثرا على الارجح بآراء هيس ، وسنراه ينقد نفسه فيما بعد لتعجله الاحـــداث وإخطائه التقدير ، ولو انه وماركس بقيا حتى النهاية بعيدين عن تقدير مدى تأثير الامبريالية في تغيير مجرى الاحداث التي توقعاها او بالاحرى اعاقة وإرجـــاء حدوثهـــا .

ووجد انجلز الحركة الوثيقية عند وصوله ، في أوج قوتها في أعقاب ازمـــة ١٨٤١ ، واضرابات العمال التي عمت المناطق الصناعية وتركزت في منشستر ولنكشاير وأضفت على الحركة طابعا سياسيا في حثها العمال على مطالبة البرلمان بابرام مبادئها الستة وفي رأسها حق الاقتراع العام ، فاهتم بها ووطد علاقاتـــه بقادتها وعرف منهم تفاصيل ما جرى خلال الازمة وكتب عنها خمس مقالات الى

الجريدة الراينية كانت آخر ما كتبه اليها قبل تعطيلها . وعزا انجلز فشل حركة الاضرابات وفشل قيادة الحركة الوثيقية ، الى افتقاد نظرية ثورية وقيادة مركزية وأهداف محددة وتنظيم كفؤ . ونعت ثورية الحركة الوثيقية بثورية وفق القانون اي انها قامت على تناقض حال دون نجاحها وكان من اهم ما دلل عليه فشلها استحالة قيام ثورة بالطرق السلمية وفي حدود القوانين المرعية ، فجوهر الثورة ان تضرب القانون عرض الحائط لانه يعبر عن ارادة السلطة التي تريد الثورة الاطاحة بها (١٦٦) .

وكتب في صيف سنة ١٨٤٣ ، بعد تعطيل الجريدة الراينية ، اربع مقالات نشرت في احدى صحف سويسره التقدمية ، وصف في الاولى تركيب الاحزاب السياسية في انكلتره وجاء على ذكر معارضة حزب الاحرار لوضع التعليم في مدارس المعامل بعهدة الكنيسة الانكليزية وهي تحت تأثير المحافظين . وبحث في الثانية معارضة قوانين الحبوب والمطالبة بالغاء الرسوم الكمركية عليها وقال ان الغاء الرسوم لا يكون في مصلحة الطبقة العاملة الا عندما تحققه بجهودها . وبحث في الثالثة الحركة الاشتراكية في انكلتره ومساعي اتباع روبرت اوون وجاء على ذكر اجتماعات يوم الاحد التي يعقدونها في قاعة العلوم بمنشستر والمحاضرات التي تلقى فيها والمناقشات التي تجري حولها . وعلق في الرابعة على مساعي «اوكونيل» زعيم حركة استقلال ايرلنده وقال ان استقلالها لا يتحقق الا بانفصال تفرضه قوة السلاح (١٦٧) .

ووطد انجلز في غضون هذه الفترة ، علاقته بالحركة الاوونية وقادتها وفي طليعتهم جون واط ، الخياط والدكتور في الفلسفة الذي اصبح فيما بعد زعيم الاشتراكيين في منشستر ، ومنه عرف الكثير عن الاوونية واستطاع ان يحدد دورها في تقدم الحركة الاشتراكية في انكلتره واثنى على قادتها لما بذلوه من جهد في نشر آراء مفكري القرن الثامن عشر من الفرنسيين ، روسو وأولباخ وفولتير، في اوساط الطبقة العاملة . وعجب انجلز لجهل الاوونيين وسائر الاشتراكيين الانكليز بالحركة الاشتراكية في القارة فكتب عنها مقالين نشرا في جريدة الاوونيين، الاول في تشرين الثاني سنة ١٨٤٣ بعنوان «تقدم حركة الاصلاح الاجتماعي في القارة» ، والثاني في شباط سنة ١٨٤٤ بعنوان «الحركات الاجتماعية في القارة» اوضح فيهما تقدم الحركة الاشتراكية في أعقاب نشوء حركة التصنيع ونمو الصناعة الراسمالية وكيف جرى التقدم في البلدان الثلاثة الاكثر تطورا في اوربا وهي انكلتره وفرنسا والمانيا ، مستقلا في كل منها عن الاخرى مما يدل ، كما رأى، على ان تقدمها لم يكن وليد الوضع الخاص بأي منها وانما هو وليد الحضارة المعاصرة ، واستخلص من ذلك ضرورة التبصر بأوجه التفاوت بينها وايجاد سبل التضامن في العمل على تحقيق المصلحة المشتركة .

وأرجع انجلز بوادر ظهور الافكار الاشتراكية والشيوعية في فرنسا الى بابوف، وجاء على ذكر سان سيمون وفورييه وكابيت ، ورجح فورييه مقدرا بوجه خاص،

نظريته في «العمل المطلق» او «العمل الحر» في نظام الرأسمالية وتمييزه على العمل المقيد في نظامي العبودية والاقطاع . ولكنه اخذ على فورييه وسان سيمون اغفالهما اهمية العمل السياسي والضرورة اليه . وأثنى على برودون بوصفه أحد مفكري البورجوازية الصغيرة ، مقيما كتابه عن «ماهية الملكية الخاصة» . وأثنى كذلك على ويتلنك بوصفه مؤسس الشيوعية الالمانية . وجاء اخيرا على ذكر الشيوعية الحديثة بوصفها نتيجة طبيعية للهيغلية الجديدة التي ذكر من روادها هيس وروغه وهيرويغ وماركس وهو نفسه . واستقبل بحثه هذا استقبالا حسنا من الاشتراكيين الانكليز والوثيقيين وأعادت صحفهم نشره ورجعوا اليه في مناقشاتهم (١٦٨) . وفي مقال قصير نشره بتاريخ ٣ شباط سنة ١٨٤٤ في صحيفة الاوونيين ، اعلن قرب صدور مجلة الحولية الالمانية الفرنسية (١٦٩) .

وذكر انجلز فيما بعد انه قابل في لندن في ربيع سنة ١٨٤٣ قادة «عصبة العادلين» وذكر منهم كارل شابر منضد الحروف ، وهاينرخ باور صانع الاحذية، وجوزيف مول الساعاتي وقال «وكانوا اول بروليتاريين ثوريين قابلتهم ، وعلى ما كان بين أوجه نظرنا من تفاوت في التفاصيل يومئذ ، وأنا تحت تأثير عنجهية فلسفية ضيقة الافق وهم تحت تأثير شيوعية المساواتية المتزمتة ، فانني لن انس ما كان لهؤلاء الرجال الصادقين من وقع عميق في نفسي ...» وذكر انهم عرضوا عليه الانضمام الى جمعيتهم لكنه اعتذر لانه لم يكن يتفق معهم على شيوعية المساواتية او على أسلوب العمل السري التآمري (١٧٠) .

وعكف انجلز يدرس حالة العمال الانكليز على الطبيعة ، وقد تهيأ له في منشستر خير وسط يتابع فيه حياتهم عن كثب . ومنشستر يومئذ ، اكبر مدينة صناعية في انكلتره ، يربو عدد نفوسها على اربعمائة الف والتناقض فيها بين حال البروليتاريا وأصحاب المعامل من رجال الرأسمالية الصناعية على أشد ما عرف. فأحياء العمال البائسة القذرة بأزقتها الضيقة الملتوية تغطي القسم الاعظم من سطحها ، وفي طرف منها تقوم الدور العامرة الفخمة التي يقطنها اصحاب المعامل منتشرة بين المروج . وكان من عادة انجلز ان يجوب ، بعد انتهائه من عمله أحياء العمال ويزورهم في بيوتهم ليتعرف على حالهم . وأشار الى ذلك في الكلمة التي استهل بها كتابه عن «حالة الطبقة العاملة في انكلتره سنة ١٨٤٤» فقال «اردت ان اراكم في بيوتكم وأرقب عن كثب حياتكم اليومية وأبادلكم الحديث عن همومكم وظلاماتكم وأكون شاهد عيان لتحديكم السطوة الاجتماعية والسياسية لمضطهديكم ...» وذكر انه من اجل ذلك هجر اصدقاءه وتخلى عن متع الطبقة الوسطى وقال «وانني لمسرور وفخور بما فعلت . مسرور لاني نعمت بساعات سعيدة تعرفت فيها على حقائق الحياة وكان يمكن ان تضيع عبثا بأحاديث عادية ومجاملات مملة . وفخور بما تهيأ لي فيها من مجال أقدّر فيه وانصف طبقة مضطهَدة مفترى عليها هي برغم نقائصها وخطاياها ، وبرغم كل ما اكتنف حياتها من المعوقات ، جديرة باحترام كل انسان الا تجار المال من الانكليز . وفخور ايضا، بالفرصة التي اتيحت لي للدفاع عن الشعب البريطاني بمواجهة الازدراء به في

القارة بنتيجة سياسة طبقتكم الحاكمة الانانية القاسية وسلوكها الشائن ... وقد كان من دواعي دهشتي ان لا اجد كتابا واحدا! ييسر للمرء ان يطلع على حـــال الاغلبية العظمى من البريطانيين الذين ولدوا احرارا ... فكان على اجنبي مثلي ان يكشف للعالم الحياة المهينة المزرية التي تحياها هذه الاغلبية ..»

وبفضل قضائه هذه الفترة في انكلتره ، تخلّص انجلز نهائيا ، من البقية الباقية من افكار المثالية وتحول الى مادي راسخ ، وجاءت البحوث التي قدمها الى الحولية الالمانية الفرنسية تشهد على مدى تقدمه الفكري وكانت اربعة بحوث هي «الموجز فينقد الاقتصاد السياسي» و«الوضع في انكلتره في الماضي والحاضر» وقد نشرا في الحولية ؛ و«الوضع في انكلتره في القرن الثامن عشر» و«الوضع في انكلتره كما يتجلى في الدستور البريطاني» وقد نشرا في مجلة «فوروارتس» التقدمية التي صدرت في باريس بعد توقف الحولية .

ووصف انجلز بعد سنين ، ما كان لاقامته في انكلتره ، في هذه الفترة ، من الاثر في نفسه وفكره فقال : «كان اول ما استرعى انتباهي في منشستر ، تأثير العوامل الاقتصادية الحاسم في حاضر العالم وتقدمه ، وهو ما اغفله المؤرخون او قللوا من شأنه . وقد اتضح لي ان هذه العوامل هي بعينهـــا مدار الصراع بين الطبقات ، وانها في انكلتره التي بلغ فيها التصنيع درجة متقدمة ، مبعث التعارض والتنافس بين الاحزاب ، وان لها في حركة التاريخ الحديث وتعيين خط سيره، اكبر الاثر ..» وقد حولته هذه الفترة بالفعل ، من فتى قليل الخبرة الى شاب ناضج ذي هدف واضح المعالم . قال فيه احد معارفه عندما رآه بعد عودته الى بارمن «ان انجلز حقق في نفسه معجزة ... وأصبح في نظرتـــه وسلوكه اكثر نضجا» . وتجلى تقدمه الفكري بوجه خاص ، في بحثه «الموجز في نقد الاقتصاد السياسي» وفي كتابه «حالة الطبقة العاملة في انكلتره» .

٧ ـ الموجز في نقد الاقتصاد السياسي

كان انجلز بين المشاركين في تحرير الحولية الالمانية الفرنسية اصغرهم سنا، فلم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره عندما ظهرت فيها مقالتاه وكانتا اول ما نشر باسمه الصريح . وتحتل مقالته «الموجز في نقد الاقتصاد السياسي» مكانة خاصة في تاريخ الفكر الماركسي لانها لم تكشف فقط عن الصلة الوطيدة بين أسلوب الانتاج والعلاقات الاقتصادية الملازمة له وبين نظام المجتمع وطبيعته ، وهو مـــا طوّره ماركس فيما بعد وجعله من اهم أسس الفكر الماركسي ، بـــل كانت اول تجربة لتطبيق المادية الديالكتية في نقد الاقتصاد السياسي تضمنت اول تحليل من منطلق اشتراكي للعلاقات الاقتصادية في المجتمع الراسمالي الصناعي ، أتمه انجلز بمهارة فائقة وأثبت به ان ظاهرات الاقتصاد كلها مترابطة وذات اتكال متبادل

في ديناميتها ، وانها في كليتها وتصارع المتناقضات فيها تحمل اسرار التطـور والتغيُّر المتواصلين في تركيب المجتمع .

وعلى الرغم من ان تأثيرات الرأسمالية الصناعية لم تكن غريبة على انجلز ، فقد أثار عجبه في منشستر ، وهي يومئذ كما وصفت ، اكبر حاضرة صناعية فـي العالم ، ما شهده فيها من تناقض صارخ بين نمو هائل في الانتاج وتفاقم فـي سوء حال الطبقة العاملة دفع بها الى حافة الهلاك . وكان هذا التناقض في مقدمة الاسباب التي حثته على تقصي اسراره في الاقتصاد السياسي فبادر الى دراسته فكان «الموجز» حصيلته . وفي خلال دراسته هذه التي اضفت عليها خبرته في ممارسته الفعلية لاعمال التجارة والصناعة في انكلترا عمقا وبعد نظر ، اهتدى الى احدى اهم ركائز الفكر الماركسي وهي ان عملية الانتاج والعلاقات الاقتصاديـة الناشئة عنها تكوّن القاعدة التي يستند اليها نظام المجتمع . وكان لاكتشافه هذا، القول الفصل في توجهه النهائي الى المادية التاريخية .

وتميز تحليل انجلز لنظام الرأسمالية الصناعية عن تحليل منظري البورجوازية ـ حتى كبارهم الاوائل ، آدم سمث وريكاردو ، الذين أكدوا عقلانية الملكيـة الرأسمالية على وجه الاطلاق وقالوا بديمومتها وسلامة اساليب الانتاج فيها ـ بإثباته بطريقته الديالكتية ، بطلان صفة الديمومة وبالتالي صفة العقلانية الثابتة فيها ، بأن أوضح كيف ان تراكم المتناقضات وما ينجم عنها من تفاقم المشاكـل الاجتماعية يؤديان بالضرورة الى زعزعة مستمرة لاستقرار هذه الملكية وأساليب الانتاج فيها ويدفعان بها الى مواجهة ثورة اجتماعية تتجاوز في جذريتها وشدتها كل عقلانية اقتصاديي البورجوازية وتصوراتهم وتقديراتهم .

وقد بدأ انجلز مقاله بعرض تاريخي موجز لنشوء الاقتصاد السياسي فـي أعقاب التوسع في التجارة والصناعة وظهور الرأسمالية الصناعية ؛ فجاء على ذكر التجارية ونظرية الميزان التجاري التي استندت اليه واعتمادها في تقدير ثروة الامم بما تمتلك من سبائك الذهب والفضة ، ثم قيَّم آراء آدم سمث وريكاردو ووصف انجازهما في تخطيهما اقتصاديات الفيزيوقراط والتجارية الى الاقتصاد السياسي الرأسمالي ، ولو انه اخذ عليهما قولهما بأخلاقية التجارة التي تضمر في ماهيتها ، كما قال ، روحية القنص والغزو ملطفة ومزوقة بقواعد ادبيـة كرستها قوانين التجارة . فوصف عملية التبادل بأنها تكاد تكون نمطا من سرقة علنية في وضح القانون أحل لكل من طرفيها استغلال جهل الطرف الآخر وائتمانه فأجاز له ان يضفي على بضاعته ما يشاء من صفات وهمية او زائفة . وانكر انجلز على الاقتصاديين التقليديين قولهم ان انتاج البضائع واستهلاكها يجري ضبطه في مجتمع الرأسمالية الصناعية بأحكام العرض والطلب ورأى ان العرض يكون دائما اقل قليلا او كثيرا او اكثر قليلا او كثيرا من الطلب وانهما لا يتطابقان فيه قط ، مما يؤدي الى تقلب دائم في الاسعار يؤول الى انخفاض وسقوط دوري فيها كل بضع سنين فيجر الى ازمة اقتصادية مدمرة . وقال ان من خصائص هذه الازمات ان تكون دورية تزداد كل واحدة عن سابقتها في شدتها ومداها حتى تؤدي الى

الانفجار .

وأوضح انجلز كيف ان التقلب في الاسعار يشجع المضاربات وكيف يقامر المضاربون وينشطون في النكبات وفي سني القحط على الاخص ، فيحتكرون قوت الناس ويتاجرون به ويجنون الارباح الطائلة من وراء الكوارث . وقال ان لا خلاص من هذه الفوضى المحفوفة بالمخاطر التي تعرض الناس الى المهالك وتسمم حياتهم بقلق دائم الا بتخطيط الانتاج الوطني بمجمله على أسس عقلانية ليحقق اقصى ما يمكن من التوازن بين العرض والطلب لكيما تتوفر الحاجات وتستقر الاسعار .

وانفرد انجلز في زمانه بما ابداه من جرأة وشجاعة وهو ما يزال في مطلع الشباب ، في التعرض للاقتصاد السياسي بتحليل ونقد لم يسبقه اليهما احد . فكشف تناقضات الانتاج الراسمالي ووصف كيف يدمر كبيره صغيره فتتوارى الراسمالية الصغيرة وتتركز الكبيرة وتستقطب وتخلق حشودا من البروليتاريا تتراكم ويتراكم مع تراكمها البؤس . وكيف يحل بالزراعة ما حل بالصناعة فتلتهم الملكيات الزراعية الكبيرة الملكيات الصغيرة شأن السمك يلتهم كبيره صغيره . واخذ انجلز عن الاشتراكيين الطوبائيين بالكثير من نقدهم للراسمالية وكشفهم عن سيئاتها ، لكنه تجاوزهم حيث اخفقوا في معالجة مشاكلها لتصديهم اليها من منطلق اخلاقي مغفلين طبيعتها التاريخية الاجتماعية فتيسر له ان يتوصل قبل غيره الى نظريات على جانب عظيم من الاهمية . فبينما رأى الاقتصاديون والاشتراكيون الطوبائيون ان من شأن الاحتكار ان يخفف من أضرار المنافسة ويقي من مخاطرها ويؤدي الى تخفيض الاسعار ، كشف انجلز عن الصلة الديالكتية الوطيدة بين المنافسة والاحتكار موضحا تلازمهما وكيف يولد احدهما الآخر فتولد المنافسة الاحتكار مثلما يولد الاحتكار المنافسة ويزيد في حدتها عندما يقوم بين محتكر وآخر اكبر منه . وقال ان المنافسة ظاهرة متأصلة في الملكية وسمت المجتمع منذ نشوئها وغطت كل وجوه الحياة فيه ناقلة اليه ومجسدة فيه قانون الغاب الذي ينصر القوي ويهلك الضعيف ، وستبقى هذه المنافسة ما بقيت الملكية الرأسمالية ولن يخفف الاحتكار من ويلاتها ما دام يوجد صغير وكبير وأكبر ، وستبقى تؤدي الى تركز راس المال واستقطابه والى تفاقم الفاقة والبؤس وتوالي الازمات الاقتصادية التي تزعزع الاستقرار في المجتمع الراسمالي الى ان تنتهي الى تفجر الثورة فيه . وهكذا لوّح في مجمل نقده الى ان لا سبيل الى الاستقرار والسلامة بغير الاشتراكية .

على ان انجلز لم يسلم من الاخطاء في نقده وتحليله . فهو لم يقدر مثلا ، مآثر آدم سمث وريكاردو التاريخية ووضعهما في صف آخرين لم يكن لهم غير أثر سلبي، بأن انكر اهمية العمل في تقدير القيمة وهي احدى ركائز الماركسية . فرأى ان الملكية الراسمالية ما دامت هي السائدة فليس للعمل قيمة ، نظرية كانت ام فعلية ، بل ليس هنالك وجود لغير القيمة التي تنشأ عن تقلبات الاسعار وتفاوت العرض والطلب . ومضى في اغفاله اهمية ما جاء به آدم سمث وريكاردو

بخصوص القيمة الى القول ان تفسيرهما لها ليس الا محاولة منهما للتستر على لاأخلاقيات المرابحة والابقاء على خيط رفيع يربط السعر بالقيمة .

وحمل انجلز في مقالته على مالثوس ونظريته التي أوضحها في رسالته «بحث في السكان» وقال فيها ان الذي يحول دون تحقق المجتمع السعيد ويغمر المجتمعات الحاضرة بالبؤس والشقاء هو تكاثر الناس بسرعة تفوق السرعة التي تتزايد بها وسائل العيش ؛ اذ النفوس ، كما تصور ، تتضاعف بمتوالية هندسية (اي ٢–٤–٨–١٦–٣٢ وهكذا) بينما تتضاعف وسائل العيش ، كما افترض ، بمتوالية حسابية (اي ٢–٤–٦–٨–١٠ وهكذا) فينجم عن هذا التفاوت فيض في النفوس تعالجه الطبيعة بالاوبئة والكوارث والفقر المهلك والحروب . وبرغم انكار العلم صحة الفرضية التي بنى عليها مالثوس نظريته بإنكاره وجود قاعدة ثابتة لتكاثر النفوس تختلف عن تلك التي تتزايد بمقتضاها المواد النباتية او العضوية التي يقتات بها الناس او ثبوت ان الحروب والكوارث والاوبئة تؤدي بمعزل عن العوامل الاجتماعية الى تناقض النفوس على المدى البعيد ، فقد راقت اقواله للطبقات المثرية التي وجدت فيها ما يرفع عن كاهلها وكاهل الدولة والمؤسسات الاجتماعية مسؤولية ما تعانيه الطبقات الفقيرة من الفاقة والامراض ، ويلقي هذه المسؤولية على الطبيعة وعلى الفقراء انفسهم الذين يتناسلون دون ضابط ؛ بل بلغ الامر ببعضهم ان زعم ان من شأن الجهود التي تبذل في تحسين حال الفقراء او التخفيف عنهم ان تؤدي الى مزيد من التناسل فتكون مجلبة للاوبئة والكوارث والحروب ومزيدا من البؤس .

ونعت انجلز آراء مالثوس بالتفاهة وبأنها جديرة بالازدراء ، ورأى فيها افتراء على الطبيعة وعلى البشرية تعافه النفس . فما البؤس والشقاء كما رأى ، الا نتيجة لتلهف الرأسماليين على تكديس الثروة تلهفا لا سبيل الى كبحه او ضبطه في النظام الرأسمالي . وفي قدرة الانسان ، في تصوره ، ان يواجه الفيض في النفوس بفيض اعظم منه في وسائل العيش الرضي بما يمتلك من طاقة هائلة على زيادة الانتاج زيادة تفي بأكثر مما يحتاج اليه من المنتجات الصناعية والمحاصيل الزراعية وذلك بمضاعفة قدرته على استثمار قوى الطبيعة بطريق العلم والتقنية. والمشكلة التي يواجهها الانسان كما رأى ، ليست مشكلة زيادة السكان بل هي مشكلة الرأسمالية وما تنطوي عليه من متناقضات تزعزع الطمأنينة وتولد قلقا مزمنا بتعريض حياة الانسان الى الازمات الاقتصادية الدورية التي تلقي بالملايين بين فترة وأخرى في جحيم البطالة وتغمر الحياة بالظلم الذي ينشأ عن الثروة التي تصنع الفقر وتسوق الناس في منحدر خلقي تحركهم فيه دوافع الانانية والطمع وليس لهم هدف غير جني الارباح وتكديس المزيد من الثروة .

وكانت مقالة انجلز موضع اعجاب القراء بما تضمنته من نظرة جديدة وآراء مبتكرة فندت صحة الكثير من المسلمات المألوفة ؛ وأثارت اهتمام ماركس وكانت من عوامل التقريب بينه وبين انجلز وفاتحة تبادل الرسائل الودية بينهما ؛ وأشار اليها ماركس بعد سنين في مستهل القسم الاول من رسالته «اسهام في نقد

الاقتصاد السياسي» ووصفها بأنها «كانت نبذة مثيرة للاعجاب في نقد المقولات الاقتصادية» . ولو ان انجلز اشار اليها بما عرف عنه من تواضع في رسالة له الى ولهلم ليبنخت في ١٣ نيسان سنة ١٨٧١ قائلا «انها فات أوانها وبطل تأثيرها ، فقد كتبت بمباهاة هيغلية ولم تعد لها الان غير قيمة تاريخية محضة» . والواقع ان المقالة لم تخلُ من تأثير الاشتراكية الطوبائية واخلاقيات فويرباخ ونظرتـــــه الانسانية المجردة ولم تستوعب النظريات الاساسية في الاقتصاد ، كما تـــدل التصحيحات المتكررة التي اجراها انجلز في طبعاتها المختلفة . على ان ذلك لا يقلل من قيمتها التاريخية وأثرها في تطور الفكر الماركسي ولا يقلل من شأن ما ابداه فيها انجلز من قدرة فائقة في بيان الصلة بين واقع الاقتصاد ونظرياته او تحديده الدقيق لتأثيرات الملكية الرأسمالية بوصفها مبعث المقومات المادية والروحية للمجتمع البورجوازي . ولعل مما يستحق التنويه به ما اظهره انجلز فيها من ادراك عميق للطبيعة التاريخية لمسائل الاجتماع ، فهو برغم حملته على الملكية الرأسمالية في دور ردتها وتخليها عن ثوريتها ، لم ينكر على الملكية الخاصة اهميتها وقيمتهـــا التاريخية في بناء الحضارة بل أكد ضرورة وجودها وفائدتها في أوانها التاريخي وأنكر على برودون وصفه اياها بأنها محض سرقـــة ونعتها باللاأخلاقية علـــى وجه الاطلاق .

اما مقالته الثانية «الماضي والحاضر» فكانت مراجعة ونقدا لكتاب بهذا العنوان للكاتب الانكليزي توماس كرلايل ، أعلن فيها انجلز عن تقديره للمؤلف ورأى فيه المثقف الذي يتحسس هموم قومه ويتوجع لما يعانون ، وأبدى اعجابه بأساوبـــه الملحمي المفعم بالحماسة الذي وصف به سوء الحال في انكلتره وأطرى شجاعتـــه وصراحته في سخريته من غرور وخيلاء الطبقات العليا وفي كشفه المفاسد التي تغلغلت في جميع مؤسسات المجتمع . ولو انه اخذ عليه اغفاله أثر العوامـــــل الاقتصادية الكامنة وراء كل ما كشف ، ورومانسيته في تعلقه بماضـــي انكلتره الاقطاعي ونسبته الاحداث التاريخية لاشخاص مجدهم الى حد العبادة ، وتصويره التاريخ وكأنه من صنعهم وليس وراءه غير البواعث الذاتية . وأخذ عليه ايضا ، شكوكه بقدرة الانسان على مواجهة تناقضات الحياة الاجتماعية ، ونظرته الى معاناة الطبقة العاملة والى حكم التسلط وكأنهما من الامور الطبيعية . ورد عليه موضحا دور الشعب ودور العمل والعمال في صنع التاريخ وبناء الحضارة وقال انه ليس في انكلتره من هم أجدر بالاحترام من عمالها المنبوذين الذين سيكون على يدهم خلاصها بما يمتلكونه برغم جهلهم ، من طاقات خلاقة وما يتميزون بـــه من حب صادق للوطن وبراءة خالية من التعصب لا تتنكر للحق .

ونشرت مقالتاه الأخريان في صحيفة «فوروارتس» ، في عددي ٣١ آب و١٩ تشرين اول سنة ١٨٤٤ ، وفيهما تابع انجلز حركة الثورة الصناعية فـــي انكلتره وظهور البروليتاريا واحتشادها في المناطق الصناعيـــة ووصف ظهور هـــذه البروليتاريا بأنه اعظم حدث في تاريخ انكلتره في القرن التاسع عشر ، وقال ان

قيامها غيّر التكوين الطبقي فجعل الطبقات الرئيسية الفعالة ثلاثة هي ارستقراطية المال وارستقراطية العقار وطبقة العمال ، ووصف كيف تضامنت الطبقتان الاولى والثانية واستحوذتا على السلطة وانكرتا على الثالثة حقوقها السياسية فنشأ وضع غير مستقر قام فيه صراع على الثروة والسلطة . وقال ان الديمقراطية التقليدية لن تستطيع حل المعضلات الاجتماعية التي تولدت عن الوضع الجديد ؛ بل ان الحديث عن هذه الديمقراطية بوجود التفاوت بين من يملكون ومن لا يملكون واتجاه هذا التفاوت الى الاستقطاب اصبح حديث خرافة بعد ان تحول الصراع السياسي الى صراع من اجل التحول الى اشتراكية تضفي على الديمقراطية مفعولها الخاص .

والمقالات الاربع بجملتها تظهر ادراك انجلز اهمية العلاقات الاقتصادية وأثرها في نظام المجتمع وطبيعة الدولة في التكوين الطبقي وارتباط هذه كلها بالاقتصاد، وتظهر اجتياز انجلز في هذه الفترة اهم ادوار تكوينه الفكري بتحوله من المثالية الى المادية ومن الديمقراطية الثورية الى الاشتراكية . واوجز هو بعد سنين ، أثر هذه الفترة في تكوينه الفكري فقال : «في منشستر تبينت بوضوح ان لعوامل الاقتصاد التي أغفلت حتى الان ، دور حاسم في تطور عالم اليوم وحركته ، وعرفت انها المحرك الفعال في صراع الطبقات الاجتماعية واتضح لي ان هذا الصراع في بلد كانكلتره ، بلغ درجة عالية في تقدمه الصناعي ، هو مبعث التنافس بين الاحزاب ومداره ، وان له اهمية قصوى في حركة تاريخها السياسي ووجهته». والواقع ، أن انجلز لم يعد بعد العشرين شهرا التي قضاها في انكلترد ، يرى المجتمع حشدا لا نسق فيه تتقاذفه أحداث المصادفات ، بل رآه كيانا كليا له وجهته الخاصة ، يخضع في نموه وحركته لقوانين طبيعية مستقلة عن ارادة الانسان او فكره ، اساسها في المجتمع البورجوازي ، الملكية الراسمالية مشخصة بقوانين المنافسة وتركز راس المال واستقطابه وبأحكام العرض والطلب وتعاقب الازمات الاقتصادية الدورية وتفاقم الفقر النسبي ؛ ورأى ان هذه القوانين لا ينتهي مفعول أحكامها وما ينجم عنها مباشرة او بصورة غير مباشرة الا بزوال نمط الملكية التي ولدتها . وبتفسيره المادي لقوانين الاقتصاد على هذه الصورة ، وبتأكيده صفتها التاريخية توصل انجلز الى الطريقة التي تصورها للخروج من الحلقة المفرغة الناشئة عن التناقضات الكامنة في طبيعة الملكية الرأسمالية .

٨ ـ انجلز في كتابه «حالة الطبقة العاملة في انكلترد»

كشف انجلز في كتابه «حالة الطبقة العاملة في انكلتره» الذي يحتل مكانة بارزة بين الكتب الاساسية في الفكر الماركسي ، عن نتائج توصل اليها بطريق المتابعة والمشاهدة والخبرة والادراك السليم قريبة من تلك التي توصل اليها ماركس بطريق الفلسفة والديالكتية ، اصبحت فيما بعد من المبادىء الاساسية في

الماركسية ، من أولها وأبعدها أثرا ، اكتشافه ان كنه البروليتاريا ليس في كونها طبقة مضطهَدة تستثير الشفقة وتستجدي الاحسان وتطلب المعونة ، بل هـي بطبيعتها وبما تعاني مدفوعة لتكون القوة التي تطيح بالرأسمالية وتنشىء الاشتراكية وتبدأ تاريخا جديدا للانسانية .

وضع انجلز كتابه بالالمانية في الفترة بين ايلول سنة ١٨٤٤ ونيسان سنـة ١٨٤٥ وهو بين اهله في بارمن ، بعد عودته من انكلتره . وصدرت طبعة الكتاب الاولى في لايبزك في سنة ١٨٤٥ ، وطبعته الثانية في شتوتكارت في سنة ١٨٩٢ . ونقل الكتاب الى الانكليزية وصدرت طبعته الاولى بها في نيويورك سنة ١٨٨٧ وفي لندن سنة ١٨٩٢ . وانجلز وان لم يكن اول من بحث في شؤون العمال بـل تناولها قبله كتّاب عديدون منذ بداية ثلاثينات القرن السابع عشر ، ادركوا ان البلدان المتقدمة صناعيا في اوربا تواجه بسبب التطورات الاقتصادية التي حلت بها مشاكل تجاوزت تأثيرات الفقر والثراء وغيرت تكوين المجتمع بخلق طبقة جديدة هي البروليتاريا ، لكنه كان اول من بحث موضوع الطبقة العاملة بصفتها تركيبا اجتماعيا وحلل صلتها بالرأسمالية الصناعية وتأثيرات وجودها كقوة اجتماعية لها دورها في الصراع الطبقي وسجل بدراستها اول محاولة لتطبيق الديالكتية فـي دراسة المجتمع دراسة واقعية كان ماركس من اوائل الذين التفتوا اليها وقدروا اهميتها .

قدم انجلز في فصلي الكتاب الاول والثاني ، تحليلا موجزا للثورة الصناعية وللتغييرات التي احدثتها في المجتمع الانكليزي كان اول تحليل منسق مبني على مفهوم الثورة الصناعية كما صوّرها الاشتراكيون الانكليز والفرنسيون في عشرينات القرن التاسع عشر ، وفسر التغيير الذي احدثته بأنه عملية تركيز واستقطاب هائلة تجري في وسط مدني يزداد تحضرا ويخلق بروليتاريا تتكاثر باطراد وبورجوازية تستقطب في عدد متناقص من الرأسماليين الكبار فتدمر صغار منتجي البضائع وصغار المزارعين وتدفع البورجوازية الصغيرة في طريق التلاشي وتسد بوجـه العمال والحرفيين كل مجالات التحول الى مالكين صغار وتحجزهم في نطـاق البروليتاريا فتجعل منها طبقة ذات كيان ثابت ووعي ذاتي يتعمق ويتسع مداه تحت تأثير ما تعاني بعد ان سد بوجهها مجال الانتقال الى الطبقة الوسطى كمـا كانت قبلا ، وكان هذا التصور مأثرته الثانية .

وأوضح في الفصل الثالث ان عملية التركز والاستقطاب والتحضر ليست عملية تصادفية بل هي كلية دينامية متلازمة في صيرورتها تفرضها الضرورة . فمن شأن الصناعة ان تحول بطبيعتها الانتاج الى انتاج واسع النطاق فتزداد حاجتها الى التمويل والى تقسيم العمل والى العدد المتزايد من العمال وتصير ، وهـي تبدأ بأماكن مفتوحة ، مركز جذب لابناء الريف يقصدونها طلبا للاجور العاليـة التي لا يحصلون عليها في الريف ويحتشدون حولها او بالقرب منها ويكوّنون قوة عمل احتياطية لا تلبث ان تدفع الاجور الى الانخفاض وتجتذب صناعات اخـرى

وتصبح نواة لقيام مدن صناعية تنمو وتتسع وتتحول إلى مدن كبرى تعمل على تحضير الريف وتكون مقرا نموذجيا للرأسمالية تبرز فيها كل سماتها وخصائصها، فيتسع فيها المجال لاستغلال وللمنافسة لا يقفان عند حدود ، ويبلغ فيها التنكر للغير وعدم المبالاة به حدود الوحشية ، وتتجاوز فيها الفردية الانانية نطاقها فتستحيل الى صلف ، ويقوم بؤس ، وتسود فوضى ، ويتخذ كل امرىء حذره ممن حوله خشية السلب والنهب الذي أحله القانون ، ويغلب على امره كل من لا يملك ذخيرة لغده فيكره على العمل لقاء أجر زهيد لا يسد الرمق ويحيا حياة غير آمنة لا يدري ما يخفيه له غده وأمره منوط بالمنافسة وأحكامها التي لا تعرف الرحمة وقد تلقي به في جحيم البطالة فيتعرض الى التهلكة .

وبحث في الفصل الخامس ، المنافسة وأحكامها وهي في رأيه محرك الرأسمالية ومبعث سيئاتها . فبفعلها ، كما رأى ، يتقلب أجر العامل بين حد ادنى هو أجر سد الرمق تفرضه المنافسة بين العمال انفسهم بفعل قانون العرض والطلب، وبين حد اعلى لا يتجاوز الاول الا قليلا، تفرضه المنافسة بين الرأسماليين في فترات ازدهار الصناعة وتسارع نموها الذي يخلق زيادة في الطلب على الايدي العاملة يتجاوز العرض . وبالرغم من ان من شأن العمل في الصناعة ان يؤدي الى زيادة المهارة وبالتالي الى زيادة الاجور ، فان زيادة الاجور تزيد في اجتذاب الايدي العاملة الى مراكز الصناعة فتوازن بين العرض والطلب وتبقي فضلة احتياطية تديم انخفاض الاجور . ورأى انجلز ان تقدم التقنية الصناعية ولو ان من شأنه ان يزيد الانتاج ويخفض العدد المطلوب من العمال ، لكنه وهو يؤدي في الوقت عينه الى تخفيض الكلفة وتخفيض الاسعار ، يزيد الاستهلاك ويزيد توسع الصناعة فتمتص العدد الفائض من العمال . ورأى وهو يتقصى عوامل تقدم الصناعة في انكلتره ، ان احتكارها السوق العالمية بسبب سبقها هو الذي حقق لصناعاتها نموا هائلا وأدى الى تكاثر نفوسها فأمدها بقوة عمل متزايدة كانت ضرورية لمواجهة النمو في صناعاتها . وكان انجلز اول من قدر اهمية القوة العاملة الاحتياطية ويعتبر توسعه وتعمقه في تقصي أبعاد تأثيراتها من مبادراته النظرية المهمة .

وخصص انجلز القسم الاكبر من بقية الكتاب ، من الفصل الخامس الى نهاية الفصل الحادي عشر ، لبحث وتحليل ماهية البروليتاريا في انكلتره وظروف حياتها وتأثير هذه الظروف في طبيعة البروليتاري الفرد وفي سلوك الجماعة وتوصل الى نتائج كانت من جملة اسهاماته في علم الاجتماع ، نوجز فيما يلي نبذة عنها : وصف انجلز كيف القت الرأسمالية الانكليزية في بداية الامر، بالبروليتاريا، وغالبيتها من مهاجري الريف ، في جحيم من الفاقة ، عانت فيها من ضنك متفاقم، وهي منقوصة الاجور مهملة محتقرة ، تحتشد في أحياء قذرة تفتقد وسائل الصحة ، تحيا فيها حياة البهائم مغلوبة على امرها لا ينظر اليها من حيث هي آدمية بل بوصفها مجرد طاقة وأيدي عاملة ، فرض عليها رب العمل نظاما صارما يسنده القانون ويحثه على اخذها بالشدة ليزيد الانتاج ويزيد من ورائه تراكم الثروة ،

وتصرّف بها كما اقتضت مصالحه . وكان من جراء أوضاعها وسوء حالها ان فرقت بينها وبين غرمائها فجوة عزلتها عنهم ، فصانتها عزلتها من تأثير ايديولوجيتهم التي اتسمت بالفردية المفرطة في انانيتها وغرورها وصلفها ؛ وهو امر كثيرا ما يحدث عندما تضطهد طبقة حاكمة طائفة من المواطنين او جانبا من المجتمع ، وتنبذها فتجد في عزلتها ما يقيها من مفاسد المتسلطين ومباذلهم ويدفع بها الى ان تأخذ الحياة مأخذ وعي وصدق وتشق طريقها بحيوية يقظة مجدة وكريمة . وهذا ما توقعه انجلز للبروليتاريا في انكلتره اذا ما وعت الى نفسها وادركت حاجتها الى التضامن والى تنظيم نفسها وسلكت الطريق الذي يؤدي بها الى الخلاص .

ورأى انجلز حركة العمال في انكلتره تتقدم الى غايتها على مراحل . فقد بدات بتمرد فردي دفع بها الى التخريب والجريمة ، ثم انتظمت في نقابات اعتمدت الاضراب والعمل الجماعي في الدفاع عن حقوقها وتحسين حالها . ونظر الى الحركة النقابية لا من حيث قدرتها على اداء مهمة تحرير الطبقة العاملة بل من حيث قدرتها على تدريب العمال على التضامن والصمود وتنمية وعيهم والارتفاع بهم الى مستوى ممارسة النشاط السياسي . وهذا ما تصور ان الطبقة العاملة الانكليزية بلغته بقيام الحركة الوثيقية . ورأى اخيرا ، ان الطبقة العاملة لا تبلغ غايتها الا اذا نهجت سبيل الاشتراكية . ورأى انها سوف تتخذ سبيلها اليها بحكم الضرورة تحت ضغط الرأسمالية الصناعية وتوالي الازمات الاقتصادية التي تزداد شدة في تعاقبها . وتصور انها تأخذ بالاشتراكية بأحد سبيلين . فإما ان تنهي المنافسة الاميركية ، وربما الالمانية ايضا ، احتكار الصناعة الانكليزية لاسواق العالم وتضيق الخناق عليها وتعرضها الى ركود يؤدي بها الى ضيق يعيد الى العمال وعيهم ولا يجدون لهم منه مخرجا غير الثورة الاشتراكية . او ان تواصل الرأسمالية استقطابها فتتركز في قلة متناقصة تحشد العمال في اكثرية ساحقة يكتنفها ضيق متزايد يدفع بها الى ان تعي قوتها وكثرتها وقدرتها على الاطاحة بالرأسمالية فيسهل عليها عندئذ انتزاع السلطة وتحقيق الاشتراكية . وتصور انجلز وهو يرى شدة وقسوة ما تعانيه الطبقة العاملة ، ان انكلتره على ابواب ثورة وشيكة ، بل بلغ يقينه بقرب وقوع هذه الثورة ان حدد أوانها بين الازمتين المقبلتين في السنتين ١٨٤٦ و ١٨٥٠ . ورغم انه اخطأ التقدير في تصوره هذا كما اخطأ في أمور اخرى اوقعته فيها حماسة الشباب وقصر نظرته التاريخية في هذه الفترة المبكرة من حياته ، ولعل الاهم من ذلك وجهله أمورا لم يتبينها هو او اي شخص آخر من معاصريه ، فان اخطاءه لا تقلل من اهمية آراء اخرى كثيرة ادركها وأخذها عنه ماركس وطوّرها لتكون من اعمدة الفكر الماركسي . فما كان في مقدور انجلز او مقدور غيره ان يتوقع او يحسب حساب ما جرى يومئذ فجنّب الراسمالية الانكليزية شدة الازمتين ، بتحولها الى الصناعة الثقيلة ، صناعة الحديد والصلب والقاطرات والسكك الحديد وتركيز الاستثمار فيها ، وهو التحول الذي خفف وقع الازمة التي حلت بصناعة النسيج وخلق ازدهارا في

اقتصادها ام ييسر لها تصريف البطالة التي نجمت عن تلك الازمة فقط بل خفف ايضا من شدة ما كانت تعانيه الطبقة العاملة . وفسر ماركس وانجلز فيما بعد ، تجنب انكلتره شدة ازمة ١٨٤٨ التي اجتاحت القـارة وادت الى الثـورات والاضطرابات التي حلت فيها ، بما عبرا عنه «بنظرية التفاوت في سرعة التطور بين الاقطار» وقالا ان السبق الذي احرزته انكلتره بثورتها الصناعية وتخلف القارة عنها هو الذي جعل الازمة التي اجتازتها انكلتره سنة ١٨٤٢ لا تحل في القارة الا في سنة ١٨٤٨ فيتحقق لانكلتره من جراء ذلك ، سبق آخر في التحول الى الصناعة الثقيلة الذي جنبّها مخاطر ما تعرضت اليه القارة من الازمات الاقتصادية وما جرته عليها من الاضطرابات .

وقيل ان انجلز رسم في كتابه صورة لسوء حالة العمال في انكلتره مبالغ فيها وشوه اكثر مما ينبغي وجه البورجوازية الانكليزية متغافلا عن اعمالها الخيرة وانجازاتها الحضارية . وبالرغم من ان انجلز كان دون شك ، منحازا الى الطبقة العاملة ويحمل في نفسه ، شأنه شأن ماركس وكثير من التقدميين الالمان يومئذ، النقمة على البورجوازية التي جسدت في نظرهم الجبن والتخاذل والعجز عن القيام بواجبها القومي ودورها التاريخي ، لكن الذي يجهل حالة العمال في فجر الثورة الصناعية ، في الشطر الاول من القرن التاسـع عشر ، يوم اصابت المستثمِرين الاوائل حمى هستيرية فتولاهم الهوس لجني الارباح المفرطة وتكديس الثروة دون وازع من ضمير او ضابط خلقي فارتكبوا افظع الجرائم ؛ او من يتصور الحال يومئذ بصورة ظواهر الحال في الراسمالية الحالية في عهد الامبريالية التي توجهت بها الى استثمار اقطار العالم الثالث المتخلف تجني فيه الاربـاح الطائلة وتسلبه ثرواته الطبيعية وتستنزف خيراته وتنزل بشعوبه الويل بأشد مما فعلت بشعوبها من قبل وترتكب فيه من الجرائم افظع مما ارتكبت ثم تبذل من فضلات ما تجني من كسب حرام أقل القليل في اظهار حال العمال في بلادها بما يبدون عليه وتخفف من قسوة ما يعانون دفعا لخطرهم وتخديرا لاحساسهم وإفسادا لانسانيتهم وفي حسابها دون ريب ان ما تتفضل به عليهم يزيد في قدرتهم الشرائية فيعيدوا اليها ما احسنت به عليهم من الفائض ؛ ان من يجهل هذه الحقائق او لا يأخذها بحسابه لا شك يرى غير الذي يراه من يتحسسها ، ويعرفها ويعرف ما تقاسيه الشعوب بل الانسانية كلها من جرائها ، فيستبعد ان يكون الراسماليون في يوم من الايام بالصورة التي رسمها انجلز او ان يكون العمال قد مروا في يوم من الايام بالحالة التي وصفها بفعل هؤلاء الراسماليين الخيرين المتحضرين الكيسين الذين لا ينفكون يسبحون بحقوق الانسان ويبتغون حرية الانسان وخير الانسانية .

على ان انجلز لم يكن الوحيد الذي وصف تلهف الراسماليين على جنـي الارباح او وصف حالة العمال في انكلتره في بدء الرأسمالية الصناعية بهـذه الصورة ، بل ان كثيرين وصفوها بمثل ما وصفها او بأشد مما وصف ، واستند في الكثير مما قاله الى تقارير رسمية استشهد بها . وكتابه على ما فيه من هنات، يعد اليوم كما كان في زمانه خير وصف لحالة عمال انكلتره سنة ١٨٤٤ ويعـد

مرجعا لا غنى عنه لمن يريد الالمام بالفكر الماركسي وبتاريخ الماركسية . وأبدى هو نفسه برأيه فيه في تقديمه الطبعة الانكليزية سنة ١٨٩٢ فقال «ان الحالة في انكلتره التي وصفت في الكتاب تعود في كثير من وجوهها الى الماضي . وقد فاتنا ان نوضح في بحوثنا اللاحقة عن مبادىء الاقتصاد السياسي الحديث ان من جملة خصائص الانتاج الرأسمالي انه كلما اتسع نطاقه انصرف الاهتمام فيه عن الصغائر ... فالمشروع كلما اتسع وزاد عماله صارت الاضرار التي تصيبه من جراء الخلاف بين العمال ورب العمل من الضخامة بحيث يرجح اصحاب المعامل، لاسيما كبارهم ، تجنبها بالاستجابة لمطاليب النقابات التي تكون أقل ضررا ، بل قد يروق لهم احيانا ان يدفعوا العمال الى الاضراب اذا وجدوا فيه فائدة لهم ، ويتحولون الى دعاة وفاق يريدون الخير ويتظاهرون بأنهم يقصدون تحسين حالة العامل وغرضهم الحقيقي بتخفيفهم من سوء حال عمالهم وزيادة أجورهم ان يثقلوا كاهل المشاريع الصغيرة اذا وجدوا الضرر الذي ينزل بهذه المشاريع أقل مما يصيبهم ويساعد على تركيز الرأسمالية . وهكذا اختفت الصغائر التي نغّصت حياة العامل فيما مضى وأثبتت حقيقة اساسية وهي ان مرد سوء حال العامل ليست تلك الصغائر بل النظام الرأسمالي بعينه» .

وقال انجلز في الاسباب التي حملته على وضع الكتاب : «ان معرفة حياة البروليتاريا لا غنى عنها ... لفهم النظريات الاشتراكية ... وتقدير حق الطبقة العاملة بالوجود ووضع حد لتخيلات وأوهام الذين يعطفون عليها او الذين يتحاملون عليها . وحالة البروليتاريا لم تكن يومئذ في اي مكان بصورتها الحقيقية النموذجية كما كانت في الامبراطورية البريطانية ، وعلى الخصوص في انكلتره ، الوطن الأم ، ففيها وحدها تيسرت معلومات عن حالها جمعت وحفظت في محاضر التحقيق ..» وقال «وغني عن البيان ، ان وجهة النظر العامة في الكتاب، الفلسفية والاقتصادية والسياسية ، لم تعد مطابقة لوجهة نظري الحالية ... فالكتاب يمثل وجها من وجوه حالة بدائية هي كحالة الجنين في أدواره الاولى تتمثل فيه أدوار أسلافه الاوائل حتى الاسماك ... والكتاب لذلك يتقصى الاصول البدائية للاشتراكية الحديثة في احدى اولياتها وهي الفلسفة الالمانية ... وتعمدت ان لا احذف من النص توقعاتي الكثيرة ومن بينها الثورة الاجتماعية التي تصورتها وشيكة وحملتني على هذا التصور حماسة الشباب .. لكن العجب ليس في الكثير الذي توقعته وأخطأت فيه ولكن في الكثير الذي توقعته وأصبت فيه». وقال في دوافع الرأسمالية الانكليزية الى الاهتمام بشؤون الصحة العامة « ان تكرر انتشار الهيضة والتيفوس والجدري وأوبئة اخرى اظهر للطبقة الوسطى في انكلتره الضرورة الى محافظة الصحة في المدن اذا هي ارادت ان تسلم على نفسها، فكان ان اختفت الكثير من السيئات التي ورد ذكرها في الكتاب بتأسس مجاري المياه القذرة .. وشق الشوارع الفسيحة ... على انه في الوقت الذي تجاوزت فيه انكلتره سيئات الاستغلال الرأسمالي في أدواره البدائية ، ظهرت هذه

السيئات بعينها في اقطار مثل فرنسا والمانيا والولايات المتحدة التي تتسابق اليوم في كسر طوق الاحتكار الانكليزي ، حتى انني وأنا أتابع حركة التطور الصناعي فيها اكاد ارى وصفي لشمال انكلتره يتمثل بها ..»

ويجد القارىء في المقتطفات الآتية نماذج مما اورده انجلز في الكتاب ، تظهر أسلوبه وتحليله وتنقل صورة لما جاء فيه . وقد استهل المقدمة بهذه الفقرة :

«يبدأ تاريخ البروليتاريا بمطلع النصف الثاني من القرن الماضي ، باختراع المحرك البخاري ومكائن النسيج ... وقد أدت هذه المخترعات ، كما هو معروف، الى ثورة صناعية غيرت المجتمع المدني برمته ، ولو ان اهميتها التاريخية لم تتضح الا مؤخرا . وكانت انكلتره الموطن التاريخي لما حققته من تحولات ازدادت عمقا وروعة بمواصلتها تقدمها الوئيد ؛ وكانت البلد النموذجي لمولد البروليتاريا ، وهي اولى ثمرات هذه الثورة ؛ ففي انكلتره وحدها تيسرت دراسة البروليتاريا بكامل علاقاتها ومن جميع وجوهها ...»

وقال : «وجرى التطور الصناعي في انكلتره في مدى الستين سنة الماضية على نحو لا نظير له في سجل البشرية . فمنذ ستين او ثمانين سنة خلت ، لم تكن انكلتره تختلف عن سائر البلدان : مدنها صغيرة ، وصناعاتها بسيطة وضئيلة وسكانها شتات من الفلاحين . اما اليوم فانها بلد لا مثيل له : عاصمتها تضم مليونين ونصف المليون من النفوس ؛ مدنها صناعية متسعة وصناعاتها تنتج بمكائن شديدة التعقيد كل شيء تقريبا وتجهز به العالم ، وهي تكتظ بأهلها وهم قوم مجدّون متقدو الذهن ، انصرف ثلثاهم الى الصناعة والتجارة وتفرقوا في طبقات تختلف بعاداتها وحاجاتها كل الاختلاف عن سكانها السابقين» .

«وفي مدينة لندن ، قد يجوب المرء ساعات وساعات فلا يصل الى بداية نهايتها او يلمح ما يدل على وجود برية او ارض مكشوفة يمكن النفاذ اليها . وهذا التركيز الهائل الذي احتشد فيه مليونان ونصف المليون من البشر ضاعف من قوة الذين اجتمعوا فيه مئة مرة وجعل من لندن حاضرة العالم في التجارة ؛ اجتمعت في مينائها بأرصفته الجبارة الوف السفن ، غطت باستمرار نهر التيمس . لكن التضحيات التي تطلبها هذا الجبروت لا يتبينها المرء الا بعد ان يمضي يوما او يومين يجوب أزقتها وهو يشق طريقه بصعوبة عبر زخم من البشر وسيل متصل من العربات ويزور أحياء الفقراء القذرة ليرى كيف اضاع اهلها خير صفات الانسانية ثمنا لتحقيق اعاجيب هذه الحضارة التي اكتظت بها المدينة ، وكيف هجعت مئة موهبة من مواهبهم او ظلت مكبوتة هامدة ... ويرى الناس يتزاحمون وكأنهم لا تجمعهم رابطة ، بل كأن احدهم لا يحتمل رؤية الآخر او انهم تواصوا ان يأخذ كل سبيله ... ولا يرفع نظره ليلقي ولو نظرة عابرة على الآخرين ... فاذا صدف ان اجتمعوا ، تملكهم شعور مهين مغيض لعدم مبالاة احدهم بالآخر ... وبرغم ان عزلة الفرد وأنانيته الضيقة اصبحت من المبادىء المسلم بها في مجتمعنا ... فالمرء لا يسعه الا ان تأخذه الدهشة لقلة الاكتراث بالغير التي تفشت بهذه المدينة الجبارة المكتظة بالسكان وكأن الناس فيها انفرد كل بنفسه... وقامت حرب

طاحنة مكشوفة بين الفرد والكل ... والحالة في لندن هي الحالة في منشستر وبرمنجهام وليدس وبقية المدن الكبيرة .. ففيها كلها قامت بجانب منها انانيــة فضة ولامبالاة وغرور وتعالي ... وقام في مواجهتها في الجانب الآخـــر بؤس مفرط .. »

ثم مضى يصف حالة الطبقة العاملة «التي تسهم اكثر من اية طبقة اخرى في ادامة هذا المجتمع» الذي قال فيه بأنه «حرب الكل على الكل» ، مبتدئا بالأحياء القذرة التي تسكنها في لندن وفي المدن الصناعية الكبيرة الاخرى ، مستندا الى مشاهداته الى التقارير الرسمية ومقالات الصحف ، مستشهدا بمقتبسات عـن حوادث ووقائع يصعب على من يعرف لندن الحاضرة او الحياة في انكلتره كما هي الان ان يصدقها . فيورد مثلا ، نبذة عن تحقيق في اسباب وفاة مشتبه بها وقعت في مقاطعة «سري» القريبة من لندن ، تبين فيه ان المتوفاة امراة في الخامسة والاربعين من عمرها اقامت مع زوجها وابنها وهو في التاسعة عشرة من عمره في غرفة صغيرة وجدها المحقق خالية، لا سرير ولا اية قطعة من اثاث فيها، ووجد جثة المرأة ممددة على كومة من الريش ، والريش يغطي جسدها العاري ملتصقا بـــه بحيث لم يستطع الطبيب فحصه الا بعد ان ازيل عنه ، فاتضح انها ماتت من الجوع ووجد المحقق جسدها مقرحا من أثر لدغات الحشرات وفي أرضية الغرفة شقا في وسطه حفرة اتخذتها العائلة مرحاضا .

واقتبس من جريدة التايمس هذه الفقرة «يتضح من تقرير منقول من محضر محكمة البوليس في شارع مارلبورو ، نشر في الجريدة يوم امس ، ان اشخاصا من مختلف الأعمار يقارب عددهم الخمسين يأوون الحديقة العامة كل ليلة وليس لهم ما يتقون به البرد والمطر غير اوراق الشجر والتجاويف في الممرات ، بعضهم فتيات من الريف غرر بهم الجنود ثم تركوهم ضحية للاملاق فسقطوا في غمـــرة الرذيلة والفجور ... وان هذا الامر رهيب حقا ! فقد يكون لا مفر من وجود الفقر ، وقد تجد الفاقة سبيلها الى قلب المدينة العظيمة المترف ، وقد يقيم بؤس يقذي العين في وسط الوف الأزقة وتفرعاتها في المدن الكبيرة المكتظة بالسكان . ولكن ان يحل بؤس كهذا البؤس ويتفشى الفجور في وسط مباهج النعيم بأحياء أكابر المدينة ، على مقربة من فخامة سنت جيمس وجلالها وبجوار قصور بيس ووتر الرائعة وبمحاذاة أحياء الارستقراطية الجديدة والعريقة ، وان تشخـــص التعاسة بأشد حالاتها في قلب الاستمتاع وراحة البال ... وان تعلو ضحكـات الثراء في القاعات الذهبية بغطرسة على مسمع من الحاجة المكبوتة دون ان تبالي بجراحها الدامية ، وأن تسخر المسرات من انين الالم وحسرات الطبقات السفلى. ان تلك هي الحالة الرهيبة حقا . فكل الاضداد قد يقف عند حد سخرية بعضها ببعض ، الا النقص والبؤس اذا حثا او استحثا على ركوب المخاطر !» .

ونقل الفقرة الآتية عن تقرير لمندوب حكومي أجرى تحقيقا في حياة صنف من العمال في غلاسكو جاء فيه : «شهدت البؤس في بعض اشد حالاته هنا وفـــي

القارة، لكنني لم اكن احسب قبل ان ازور «وندس» في غلاسكو ان تنتشر الجريمة وتتفشى الامراض وتبلغ التعاسة في اي بلد متمدن، الدركة التي رأيتها هنا. ففي الطوابق السفلى من دور النزل فيها وجدت جماعات يتراوح عدد الواحدة منها بين عشرة وعشرين شخصا من الجنسين ومن جميع الاعمار وبحالات متفاوتة من العري محشورة دون تمييز في كل حجرة فيها ، تفترش ارضها الرطبة ؛ ورأيت القذارة والخراب في هذه النزل بحال لا يرتضي المرء ان يترك فيها حصانه ويأمن على سلامته» .

واستعرض انجلز الحالة الصحية في هذه المدن وتفاوت مستوياتها بين مختلف الطبقات بتفاوت معدلات العمر كما بينتها في سنة ١٨٤٤ تقارير البرلمان وتقارير صحة الطبقة العاملة ، ووجد ان هذا المعدل يقرب من ٣٥ سنة في الطبقات العليا بما فيها المهندسين والاطباء وغيرهم من ذوي المهن الرفيعة ، و٢٢ سنة في طبقة التجار والحرفيين حسني الحال و١٥ سنة في طبقة العمال . واستعرض مستويات التعليم بينها وتفاوت مستويات الادراك والخلق بتفاوتها ، وتناول تأثيرات المنافسة بجميع أشكالها في شتى المستويات الاجتماعية . وختم تحقيقه بهذه الخلاصة : «تدور في هذا البلد حرب اجتماعية في اقصى حدتها ؛ فكل امرىء فيها يحيا لنفسه ويخاصم الآخرين من اجل نفسه ويعلن العداء للغير وينزل به الاذى كما تقتضي مصلحته . وليس من احد يعنيه ان يسوي خلافه مع الآخرين بالحسنى وبالتراضي فكل خلاف يسوّى بالتهديد وبالعنف وباللجوء الى المحاكم . وكلّ يرى في جاره عدوا يريد ازاحته او يرى فيه اداة يريد استخدامها لمنفعته الخاصة . والخصومات تزداد عنفا وحدة وعنادا حتى تستقطب في معسكرين ، معسكر البورجوازية ومعسكر الطبقة العاملة . واذا كانت حرب الفرد مع الكل او الحرب بين البورجوازية والبروليتاريا ، وهي كما نرى ، لا تثير العجب ، فما ذلك الا نتيجة منطقية لمبدأ المنافسة الحرة . على ان الذي يثير اعظم العجب بقاء البورجوازية رابطة الجأش وهي تشهد الغيوم تتلبد من حولها وتنذر بقرب العاصفة ولا تبالي ، بل تتابع أخبارها يوميا في الصحف فلا يثير سخطها تفاقم سوء الحال ولا تثير مخاوفها وخامة العاقبة ، والدلائل كلها تشير الى انفجار وشيك شامل تزداد أعراضه وضوحا يوما بعد يوم فيما يرتكب من جرائم . لكن هذا هو شأن البورجوازية ، فهي فيما لا يمس مصالحها المباشرة لا يعنيها ما يجري حولها ، ناهيك عن تقدير عواقبه . لكن مما يثير الدهشة والحيرة معا ان يؤدي بها التحيز الطبقي وسوء الظن الى هذه الدرجة من الجهالة وسوء التقدير التي تكاد تبلغ حد الخبل . وتبقى الامة في خلال كل هذا تواصل تقدمها سواء أكان للبورجوازية عيون تبصر ام لم تكن ، حتى تباغت الطبقة التي تملك الثروة يوما بأحداث ابقتها فلسفتها العقيمة في غفلة عنها ..»

وبعد ان استعرض انجلز حياة كل صنف من اصناف العمال الصناعيين والزراعيين في ثلاثة فصول تناول في فصل خاص نشوء حركة العمال . وقد رأى الحالة كما وصفها لا يمكن ان ترضي العامل وليس فيها ما يشعره انه انسان كسائر

بني جنسه ، والبورجوازية تعامله معاملة العبد بل تأخذه مأخذ السلعة تباع وتشترى . وهكذا صار واقعه مبعث صراع بينه وبين البورجوازية ومر هذا الصراع ، كما رأى ، في ثلاثة ادوار . كان اولها دورا بدائيا فجاً وعديم الجدوى هو دور الجريمة . فالعامل وهو يعيش حياة بؤس يعاني فيها مرارة الحرمان على أشدها ولا يدرك السبب الذي جعل الآخرين في حال خيرا من حاله برغم انه كان يكدح ويجلب الخير للمجتمع اكثر مما يفعل المثري الكسول ، غلبه شيطان الحاجة فتجاوز التزاماته الخلقية ولجأ الى السرقة ، شأنه شأن الفلاح الذي لا يجد سبيلا الى سد رمقه ورمق عياله الا ان يسرق ما يقتاتون به فتصبح السرقة في عرفه حلالا مباحا ؛ او شأن البدوي ، يستحل الكسب بطريق الغزو لانه عرف الحيازة ولم يدرك مفهوم الملكية . لكن السرقة اوقعت العامل تحت طائلة العقاب ونزل العقاب به بصفته الفردية ، فأدرك انه لا قبل له ان يواجه المجتمع بكل جبروته وأدرك بعد هذا ، ان السرقة هي أشد انواع الاحتجاج بدائية ، فهي فضلا عن طابعها الفردي لا تحمل سمة خلقية لانها تمارس بمذلة الخفاء ولا تعد ضمن اعمال الاحتجاج والكفاح التي تعزز القوة والكرامة. فكان من جراء ذلك ان رجح الاحتجاج الجماعي في بداية ظهور المكائن ، في مستهل الثورة الصناعية . لكن هذا الاحتجاج اتخذ شكل هياج لاعقلاني هاجم به العمال المصانع والمعامل وحطموا المكائن فيها وهم يحسبون انها مبعث شقائهم . واتخذ هذا الهياج طابعا محليا اذ وقع في اماكن متفرقة ومتباعدة ولم يتخذ طابعا طبقيا عاما ، فسهل القضاء عليه . ومن غرابة مجرى الاحداث ان كان اول عون لحركة العمال وليد التناقض بين المحافظين والاحرار ؛ فقد رأى المحافظون من مصلحتهم ان يجتذبوا العمال الى صفهم في منافستهم للاحرار ما دام ذلك لا يضيرهم وينحصر ضرره بالبورجوازية وحدها ، فأصدروا سنة ١٨٢٤ قانونا منحوا به العمال حق الاجتماع ، وكان هذا الحق قبل ذلك وقفا عليهم وعلى الطبقة الوسطى . وبصدور هذا القانون بدأ العمال تنظيم انفسهم في نقابات ما لبثت ان شملت جميع المناطق الصناعية وأخذت على عاتقها حماية العامل بالتعامل مع رب العمل بالنيابة عنه لتثبيت أجره وتحسين حاله ووضع مقاييس للاجور ولشروط العمل والموازنة بين الحاجة الى العمال وعدد المتدربين للابقاء على مستوى مقبول للأجور ولتخفيف المنافسة بين العمال والحيلولة دون استغلال اصحاب المعامل زيادة العرض على الطلب وإمداد العمال بالعون في حالة البطالة او الاضراب . وبرغم ذلك كله بقيت كفة اصحاب المعامل كما رأى ، هي الراجحة ، لانهم استطاعوا دائما ان يستخدموا من العمال ما هم بحاجة اليه بالاتفاق معهم على أجور يعينونها لهم ولان النقابات لم يتيسر لها حمل العمال على القيام بالاضراب عندما يكون ضروريا او بسبب اضطرارها الى انهاء الاضراب بعد فترة من اعلانه لنفاذ مدخراتها او عجزها عن تعويض العمال عن أجورهم . على ان انجلز رأى ان اعظم خدمة أدتها النقابات الى الطبقة العاملة هي تنمية وعي العمال واحساسهم بوجودهم وبضرورة توحيد صفوفهم وادراكهم اهمية

الطبقة العاملة ولزوم اتخاذها موقفا خاصا بها في الحقل السياسي .

وقارن انجلز بين موقف الطبقة الوسطى وموقف العمال في انكلتره من القانون وإطاعته ، والدوافع التي جعلت من الضروري ان تقتحم الطبقة العاملة ميدان السياسة ودعت الى قيام الحركة الوثيقية . فأوضح كيف ان الطبقة الوسطى تؤكد قدسية القانون ولزوم إطاعته لانه من وضعها ، شرع بارادتها ولفائدتها وحماية مصالحها ، ولانها ادركت ان القوانين في نظام الرأسمالية الصناعية هي في مجملها بخدمتها حتى ولو كان في بعضها ما لا يرضيها؛ وقد قدرت ان حرمة القانون وقدسيته وسطوته كما هي مفروضة بالفعل واذعان الآخرين له انما يعزز سلطانها ويكرس نفوذها الاجتماعي . أما العمال فأمرهم مع القانون كما رأى ، على العكس، فهم لا يجدون فيه غير عصا غليظة أعدت لتطويعهم ولا يتوقعون منه حماية لمصالحهم او حقوقهم فيتهربون من الالتزام به ولا يذعنون له او يعترفون به الا مكرهين ، ومن اجل هذا يطالبون دوما بتغيير القوانين النافذة واستبدالها بغيرها. وكان هذا هو السبب في نشوء الحركة الوثيقية في انكلتره . فالوثيقة التي نسبت اليها الحركة لم تكن الا قائمة بمطاليب العمال تتعلق كلها بموضوع مشاركتهم بعملية التشريع ؛ وهي اول محاولة من قبلهم لتجاوز الحدود النقابية التقليدية التي حصرت اهتمامهم بشؤونهم الخاصة بصفتهم عمالا واقتحامهم ميدان السياسة لممارسة حقوقهم بصفتهم مواطنين وتعرضهم للنطاق الذي احتجزته الطبقة الوسطى لنفسها واحتمت به وهو نطاق السلطة التشريعية .

وأرجع انجلز بداية الحركة الوثيقية الى فكرة الحزب الديمقراطي التي ظهرت في الفترة بين ١٧٨٠ و١٧٩٠ بتأثير الافكار التي استبقت الثورة الفرنسية وفترت بفعل الاندفاعات المتطرفة في عهد اليعاقبة ثم استعادت بعض حيويتها في أعقاب حروب نابليون وتأثير البؤس المروّع الذي نزل بالطبقة الفقيرة في انكلتره ونجم عن الحروب وعن التحولات الاقتصادية ودخول الآلة في الانتاج . وكان من جراء ذلك ان قامت حركة طالبت بحق الاقتراع العام وبالانتخاب السري وبالانعقاد السنوي للبرلمان وبالغاء شروط الملكية في ممارسة حق الانتخاب وبتخصيص رواتب لاعضاء البرلمان ليتسنى لمن ليس له دخل ثابت ان يدخل البرلمان ، وهي المطاليب عينها التي تضمنتها الوثيقة فيما بعد واضيف اليها مطلب سادس هو تقسيم البلاد الى مناطق انتخابية متساوية .

وتعرض دائرة المعارف البريطانية جانبا من تاريخ الحركة الوثيقية بطريقتها الاكادمية فتذكر ان صدور قانون سنة ١٨٣٢ الذي خفض شروط الملكية للترشيح الى البرلمان فوسع مجال المشاركة به أدى الى فتور الحماسة لتلك المطاليب فترة من الزمن حتى عادت فنشطت عندما تبين قادة العمال ان ذلك القانون وسع المجال للطبقة الوسطى ولم يسهل مشاركة الطبقة العاملة . ومن اجل ذلك لم تلبث ان ظهرت حركتان : حركة اشتراكية بزعامة روبرت اوون واخرى راديكالية تمثلت بجمعية سميت ب «جمعية الطبقة العاملة» اختارت من بين اعضائها لجنة وضعت الوثيقة التي صارت فيما بعد عنوان الحركة التي عرفت ب «الحركة الوثيقية»

واسست لها فروعا في مختلف انحاء البلاد بلغ عددها الاربعمائة وضمت قرابة اربعين الف منتمي وحاولت سنة ١٨٤٨ ان تنظم اجتماعا أشيع انه سيحتشد فيه نصف مليون متظاهر يحملون الى البرلمان عريضة وقع عليها ستة ملايين مواطن تطالب بتشريع النقاط الست فكان ان أثار ذلك قلق الحكومة فحشدت من جانبها مائة وسبعين الف من قواتها المسلحة بقيادة دوق ولنكتن . غير ان التجمع فشل فلم يتجاوز عدد المتظاهرين خمسين الف وثبت ان اكثر التواقيع كانت مزورة . فكان هذا الفشل بداية نهاية الحركة الوثيقية .

اما انجلز فيشرح اسباب فشل الحركة الوثيقية بصورة اخرى ربما تصح نموذجا لبيان التفاوت بين السرد التقليدي الاكادمي والتحليل النقدي الديالكتي. فيرجع سبب فشل الحركة الوثيقية مبدئيا الى طبيعة تكوينها . فقد كانت ذات كيان مزدوج لصيقة براديكالية البورجوازية الصغيرة فكان طرفاها العمالي والراديكالي يعقدان اجتماعهما السنوي معا وكأنهما تنظيما مشتركا . وكانت البورجوازية الصغيرة في تلك الفترة ميالة للعنف بسبب سوء حالة السوق ولهذا رات في نهج الحركة الوثيقية سندا لها . وبطريق هذه الازدواجية وجد المخربون طريقهم الى صفوف الحركة وراحوا يحرضون العمال على المضي في التطرف الى اقصى حدوده . ويذكر انجلز نموذجا لهؤلاء المندسين في شخص «الكاهن ستيفان» الذي كان يثير الهياج في صفوف العمال بنداءاته وخطبه الملتهبة، فيقول لهم مثلا: «لا يجدر بكم ان تهابوا سلطة الحكومة او تخشوا الجنود وحرابهم او تصدكم نيران المدافع التي لدى مضطهديكم ، ولديكم سلاحا اقوى منها كلها ، لا تقوى الحراب ولا المدافع على مواجهته ويستطيع صبي في العاشرة من عمره ان يتدبر امره ببراعة . فما عليكم الا ان تأتوا بقليل من عيدان الكبريت وحزمة من القش المغموس بالزفت فترون عندئذ ما تستطيع الحكومة بمئات الوف جنودها فعله في مواجهة هذا السلاح اذا استخدم بجرأة» . وقد ثبت فيما بعد ان هذا المتطرف لم يكن غير عميل للحكومة مدسوس على الحركة عاد بعد ذلك يحرض العمال على ترك الحركة الوثيقية لعدم جدواها ويقول لهم ان «الوثيقية يا احبتي ليست حركة سياسية مجدية ولا هدف لها غير الحصول على حق الاقتراع . ان القضية الحقيقية التي تعنيكم هي قضية سكين وشوكة . هي قضية مسكن مريح وطعام وشراب جيدين ورفاهة عيش وقلة ساعات العمل» . وعلى هذه الصورة نشط عملاء السلطة في دفع العمال في اتجاهات خرقاء وحرفوهم عن الاهداف السياسية وورطوهم في حركات تمرد وفوضى وتخريب سميت ب «انفجارات الجواسيس» أدت كلها الى الفشل وكانت بمثابة اجهاض لحركة العمال . وعمدت الطبقة الوسطى في هذه الاثناء ، تطالب بالغاء الرسوم الكمركية على الحبوب وهي تزعم انها تريد ان توفرها للطبقة العاملة بأسعار منخفضة بينما كان الذي تبغيه هو ان تخفض على حساب المحافظين كلفة المعيشة لتتمكن من تخفيض أجور العمال او وقف مطالبتهم بزيادتها . ولما حلت ازمة سنة ١٨٤١ وكان حزب المحافظين في

السلطة ، شددت الطبقة الوسطى في دعوتها الى الغاء الرسوم الكمركية على الحبوب وأخذت تتكلم بلغة ثورية وتحث على الاضراب والتمرد تريد من ورائهما تعطيل الانتاج بعد ان تكدس لديها فائض من الخزين توقف تصريفه بتأثير الازمة فصار من مصلحتها توقف الانتاج وانتشار حركة اضراب ترفع عن كاهلها دفع الاجور . فلما بلغت حركة التمرد والاضرابات اقصى شدتها تراجعت وأخذت تطالب بالمحافظة على النظام وبضرورة اطاعة القانون وتعاونت مع حكومة المحافظين على انزال الضربة بالحركة الوثيقية وهي تحسب انها خرجت من مؤامرتها بمكسبين : انزال الضربة بغرمائها والاستفادة من تباطؤ الانتاج لتصريف خزين البضائع المكدسة لديها ، ولكن الحصيلة الحقيقية لهذه المؤامرة كما رأى ، انكشاف حقيقة اللعبة وادراك العمال ضرورة عزل حركتهم عن راديكالية البورجوازية الصغيرة .

ووصف انجلز الحركة الاشتراكية في انكلتره ، لاسيما الاوونية ، بأنها اتسمت بالوداعة والمسالمة وارتضت النظام القائم على علاته ولو اكتربت لسوء حالة الطبقة الفقيرة وتفشي الفساد في صفوفها وحاولت ان تخفف ما تعانيه . فقد تغافلت عن عوامل الانحلال في النظام الاجتماعي وعن المفاسد التي تنشأ عن الملكية الخاصة ولم تأخذ بقواعد التطور التاريخي بل ارادت ان تفرض الشيوعية على خطة موضوعة لا على اساس تطور اقتصادي وسياسي يبلغ بالوضع الحد الذي يجعل التحول ممكنا وضروريا ، وانكرت جدوى الصراع الطبقي ورجحت الوفاق بين الطبقات وأعمال البر وتجنب الاضرار بذوي المصالح ، متجاهلة التاريخ وعبره . ورأى انجلز الاشتراكية الانكليزية متخلفة كذلك عن الفرنسية في الحقل النظري ، فهي برغم تميزها عن الحركة الوثيقية بما خرجت به من فكرة اجتماعية مبتكرة وبما حققته من اصلاحات فعلية لتخفيف تأثير البؤس لكن منطلقها كان في الاساس منطلق طبقة وسطى لا يلتقي بمنطلق الطبقة العاملة .

وصدر كتاب انجلز في المانيا في أعقاب انتفاضة عمال النسيج في سيسلما، وهو اول حدث أثار قلق الرأسمالية الصناعية الناشئة وأشعرها ان البلاد على ابواب ثورة صناعية مثيلة بتلك التي جرت في انكلتره وواجهت الطبقة الوسطى فيها شتى المشاكل . وكانت الصحف حافلة بمقالات تصف محنة الفقراء وأسى العمال وتنوه بما يخشى ان يواجه الطبقة العاملة الالمانية ما لقيته الطبقة العاملة الانكليزية من بؤس . وكان من جراء ذلك ان استقبل الكتاب من قبل المعنيين بالشؤون الاجتماعية استقبالا لم يتجاوزه الا استقبال البيان الشيوعي الذي صدر بعده . وأقبل النقاد على مراجعته واهتمت به وزارتا الخارجية والداخلية في بروسيا وعهدت كل منها الى احد اخصائها بتقديم تقرير عما جاء فيه . وجاء في تقرير اخصائي وزارة الخارجية «ان الكتاب يعرض صورة صادقة عن موقف الطبقة الوسطى من البروليتاريا ... وان من دواعي الفخر ان يكون كاتب الماني هو اول من قام بهذا التقصي الدقيق الشامل عن حالة العمال في انكلتره» . وتوقع ان يجد

العمال انفسهم عما قريب في الحالة عينها التي وصفها انجلز ورأى من الحكمة ان تبادر السلطة الى اتخاذ الاجراءات التي تكفل تجنيب العمال في المانيا ما اصاب عمال انكلتره . اما تقرير أخصائي وزارة الداخلية فبرغم ثنائه على مؤلف الكتاب قال ان ما جاء فيه لا ينطبق على الحالة في المانيا . وراق هذا الرأي للسلطة فروجته ورجحه المحافظون . وحملت الصحف الناطقة بلسان اصحاب المقال على الكتاب وما جاء فيه وما قصد اليه . وقدره الراديكاليون عموما وان لم يشاركوا انجلز في وجهة نظره التي خرج بها الى ترجيح الاشتراكية . ورحب الاشتراكيون به ترحيبا حارا واقتبسوا مقاطع منه نشرتها صحفهم . وهو اول عمل لانجلز ثبت له مكانة مرموقة بين مفكري الاشتراكية .

وبرغم ذلك كله ، ما لبث الكتاب ان طواه النسيان فترة من الزمن لم يذكره خلالها الا ماركس في رسالة له الى انجلز سنة ١٨٦٢ قال فيها «ان اعادة قراءة كتابك جعلتني اشعر مع الاسف بتقدمنا في السن . فبأية قوة وبأي حزم وحماسة كنت تعمل في تلك الايام ... ان هذا الاسلوب في الكتابة هو الذي افاض علي ما كتبت دفئا وطراوة تبدو كتاباتنا الاخيرة امامها سوادا على بياض لا رونق فيها على الاطلاق» . وعاد ماركس ونوه بالكتاب مرة اخرى في الجزء الاول من رأس المال سنة ١٨٦٧ وقال «ان سلامة نظرة انجلز ونفاذ بصيرته الى صميم طرق الانتاج الرأسمالي أيدتهما التقارير التي اعقبت صدور الكتاب وكشفت حالة المعامل والمناجم». ولعل خير اطراء للكتاب جاء في تقريظ ماركس لكتاب نيقولا فليروفسكي، الكاتب الاجتماعي الروسي ، عن حالة العمال في روسيا الذي قال فيه «انه خير ما كتب بعد كتاب انجلز عن حالة الطبقة العاملة في انكلتره» .

وعاد الكتاب ليكون موضع الاهتمام في الثمانينات بقيام الدولية الاولى وتعزز مكانة الحركة الاشتراكية . وقال انجلز سنة ١٨٨٥ «ان اصدقائي في المانيا يقيّمون الكتاب الان ويقولون ان الحالة التي يصفها تتكرر على أدق صورة في المانيا» لكنه طلب في تقديمه الطبعة الانكليزية الى القراء سنة ١٨٩٢ ان يتقبلوها بحلم وتسامح فقد كتبها وهو في الرابعة والعشرين من العمر .

المراجع والهوامش
وفهرس الاعلام والمواضيع

دليل المراجع

Althusser, Louis, For Marx, translated by Ben Brewster, Allen Lane, 1969.

— Politics and History, translated by Brewster, Unwin Brothers, 1977

— and Miliband, R., Reading Capital, translated by Ben Brewster, Western Printig Services Ltd. Bristol, 1970.

Baron, Paul A. and Sweezy Paul M., Monopoly Capital, A Pelican Books, Penguin Books Ltd. 1975.

— The Political Economy of Growth, A Pelican Book, Penguin Books Ltd. 1976.

Berkeley, George, A New Theory of Vision and other Writings, Everyman's Library.

Cornforth, M., Science and Idealism, Lawrence and Wishart, London.

— The Open Philosophy of the Open Society, Lawrence and Wishart, London, 1977.

— Communism and Philosophy, Lawrence and Wishart, London, 1980.

Dictionary of Philosophy, transtated from the Russian, edited by Richard R. Dixon and Murad Saifudin, USSR, 1969.

Encyclopedia Britannica, Eleventh Edition.

Encyclopedia of the Social Sciences, The Macmillan Co., New York, 1949.

Frank, Andre Gunder, Capitalism and Underdevelopment in Latin America, Monthly Review Press, New York and London, 1969.

Fedoseyev, P. N. and others, Karl Marx, A Biography, Progress Publishers, Moscow, 1973.

Garaudy, R., Karl Marx, The Evolution of his Thought.

اعتمد في المقتبسات على ترجمة جورج طرابيشي ، منشورات دار الآداب ، الطبعة الاولى ، بيروت — ١٩٧٠ .

Gramsci, Antonio, Selections from Political Writings 1910—1920, Lawrence and Wishart, London, 1977.

— Selections from the Prison Notebooks, Lawrence and Wishart, London, 1976.

Hayes, Carlton J. H., A Political and Social History of Modern Europe, 2 Vols., The Macmillan Company, New York, 1925.

Henderson, W. O., The Life of Friedrick Engels, in 2 Vols., Frank Cass, London, 1976.

— Engels Selected Writing, Penguin Books, 1967.

Hindess, Barry and Paul Q. Hirst, Pre-Capitalist Modes of Production, Routledge and Keglm Paul, London, 1977.

Hyppolite, Jean, Etude sur Marx et Hegel.

اعتمد في المقتبسات على ترجمة جورج صدقني ، دراسات في ماركس وهيغل منشورات وزارة الاقتصاد ، دمشق ، ١٩٦٩ .

Hyppolite, J., Introduction à la Philosophy de l'Histoire de Hegel.

اعتمد في المقتبسات على ترجمة انطون حمصي ، مدخل الى فلسفة التاريخ عند هيغل ، مطابع وزارة الثقافة وآلسياحة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٩ .

Hobsbawm, Eric J., Pre-Capitalism Economic Formations, International Publishers, New York, 1965.

— The Age of Revolution, Sphere Books Ltd. London, 1977.

— Industry and Empire, Penguine Books Ltd. 1969.

Hoffding, Herald, A History of Modern Philosophy, 2 Vols. Macmillan and Company Ltd. London, 1935.

Hook, Sidney, from Hegel to Marx, Victor Gollanz Ltd. London, 1936.

— Towards The Understanding of Karl Marx, Victor Gollanz, Ltd. London, 1933.

Hume, David, A Treatise of Human Nature, 2 Vols. Everyman's Library.

Ilichov, L. F. and others, Frederich Engels, A Biography. Progress Publishers Moscow, 1974.

Knight, Melven M. and others, Economic History of Europe in Modern Times, Houghton Mufflim Company, 1928.

Lange, F. Albert, The History of Materialism, Kegan Paul, London, 1915.

Lenin, V. I., Collected Works (LCW) Vol. 13, Materialism and Emperio-Criticism, Martin Lawrance Ltd. London.

— Philosiphical Notebooks, (LCW). Vol. 38, Progress Publishers, Moscow, 1972.

— Selected Works (LSW), Lawrence and Wishart, in 12 Vols.

— Selected Works, Progress Publishers, Moscow, (LSW) in 3 Vols., 1970

وكذلك ، المختارات ، ثلاثة اجزاء ، دار التقدم ، موسكو .

Lewis, John, The Life and Teachings of Karl Marx, The Comelet Press Ltd. 1967.

— The Marxim of Karl Marx, Lawrence and Wishart, London, 1972.

Lucacs, George, History and Class Consciousness, Marlin Press, London1971

— Lenin, A Study of the Unity of his Thought, Western Printing Services Ltd., Bristol, 1971.

Mandel, Ernest, The Formation of the Economic Thought of Karl Marx, Unwin Brothers Ltd. London, 1971.

Marcuse, Herbert, Reason and Revolution, Routledge and Kegan Paul, London, 1977.

وكذلك ترجمته العربية ، العقل والثورة ، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .

Marx, Karl, Early Texts, translated and edited by D. Mclellan, Basil Blackwell, Oxford, 1972.

— Early Writings, The Pelican Marx Library, Penguin Books, 1979.

— Selected Writing in Sociology and Social Philosophy, edited by Bottomore and Rubel, Pelican Books, 1969.

— Surveys from Exile, The Pelican Marx Library, penguin Books, 1973.

— The Revolution of 1848, The Pelican Marx Library, Penguin Books, 1973

— Grundrisse, The Pelican Marx Library, Penguine books, 1973.

— A Contribution to the Critique of Political Economy, Progress Publishers, Moscow, 1973.

— Capital, 3 Vols., translated from the Second German edition by Ernest Unterman, Charles H. Kerr and Company, 1933.

Marx—Engels Collected works (MECW), Lawrence and Wishart, London.
Marx—Eengels Selected Works (MESW) Progress Publishers, Moscow, 1973, in 3 Vols.
Marx—Engels Selected Correspondence (MESC) Progress Publishers, Moscow, 1975.

وكذلك مختارات ماركس ــ انجلز ، اربعة اجزاء ، دار التقدم ، موسكو .

Mayer, Gustav, Friedrich Engels, A Biography, Chapman and Hall Ltd. London, 1936.
Mclellan, David, The Thought of Karl Marx, Macmillan, 1971.
— The Young Hegelians and Karl Marx, Macmillan, 1969.
— Marx Grundrisse, Macmillan, 1971.
— Karl Marx, His Life and Thought, Macmillan, 1973.
Melotte, Umberto, Marx and the Third World, the Macmillan Press Ltd. London, 1977.
Miliband, Ralph, Marxism and Politics, Oxford University Press, Oxford 1977
Mao Tse-Tung, Talks at the Yenan forum on Litrature, Selected Works, Peking 1969, Vol. III.
Nicolaivsky, Boris and Otto maenchen—Helfen, Karl Marx, Man and Fighter Pelican Books, Penguin 1972.
Reminences of Marx and Engels, Foreign Languages Publishing House, Moscow.
Riazanov, D., Karl Marx and Freidrich Engels, Martin Lawrence Ltd. London.
Shaw, Martin, Marxism and Social Science, Pluto Press Ltd. London, 1975.
Sweezy, Paul M., The Theory of Capitalist Development, Modern Readers Paperbacks, London and New York, 1970.
Togliatti, Palmiro, On Gramsci and other Writings, Lawrence and Wishart, London, 1979.
Vasquez, Adolfo Sanches, The Philosophy of Praxis.
Zeller, Edward, Outline of the History of Greek philosophy, Kagan Paul, Trench Turbner Co. Ltd. New York, 1931.

الهوامش

الباب الاول : المقدمة

1. Karl Marx, A Contribution to the critique of Political Economy, Preface, MESW., Vol. 1.
2. Ibid, p. 12.
3. MESW., Vol. I., p. 125.
4. MESW., Vol. I., p. 398.
5. Althusser, Politics and History, p. 17.
6. Ibid. pp. 18—30.
7. MESW., Vol. III, pp. 365—370; see also MESC., Engels Letters to Conrad Schmidt, Oct. 17, 1890; V. Bloch, Sept. 21, 1890; Hans Stachenberg, Jan. 25, 1894 and Mehring, July 14, 1893.
8. John Lewis, Marxism of Marx, p. 17.
9. MESC., p. 293.
10. MESC, p. 294.
11. John Lewis, Marxism of Marx, p. 21.
12. Maurice Cornforth, the Open Philosophy of the Open Society, p. 138.
13. MESC., Engels to Florence, Dec. 20 and Jan. 27, 1887.
14. MESC., Engels to Schmidt, Aug. 5, 1890.
15. John Lewis, Life and Teaching of Karl Marx, p. 173.

16. Lenin, What the Friends of the People are and how they Fight against the Social Democrats, LSW, 12 Vils., Vol. I
17. Mao Tse-Tung, Talks at the Yenan Forum on Literature and Art, MSW., Vol. III, p. 94.
18. Marx Early Writings, p. 7.
19. Marx Early Texts, Critique of Hegel's Philosophy or Right, Introduction
20. Marx, A contribution to the Critique of Political Economy, Preface, MESW., Vol. I.
21. Marx-Engels, The German Ideology, Part I,
22. Ibid.
23. Vasquez, The Philosophy of Praxis, Introduction, p. 1—2.
24. Ibid.
25. Sidney Hook, Towards the Undestanding of Karl Marx, p. 32.
26. John Lewis, The Marxism of Marx, p. 248.
27. MESC., p. 394.
28. Sidney Hook, Towards the Understanding of Karl Marx, p. 34.
29. Ibid. p. 34n.
30. Ibid. p. 40.
31. Ibid, p. 41.
32. Ibid, p. 46.
33. Ibid. p. 49.
34. Lenin, A Conversation with Defenders of Economism, quoted by Sidney Hook, Towards the Understanding of Karl Marx, pp. 54—55.
35. Sidney Hook, Towards the Understanding of Karl Marx, pp. 55f.
36. Ibid, p. 69.
37. MESC., Engels to Florence Kelly, p. 376.
38. George Lucacs, History and Class Consciousness, p. 1.
39. Althusser, For Marx, p. 35.
40. MESC. pp. 293 ff.
41. Althusser, Reading Capital, p. 17.
42. Ibid, p. 40.
43. Ibid, p. 105.
44. MESW., Vol. I, p. 504.
45. Marx, Towards a Critique of Hegel's Philosophy of Right, Introduction, Early Texts, p. 115.

46. Ibid. p. 120.
47. Ibid, p. 125.
48. Ibid, pp. 126—27.
49. Ibid, pp. 128—29.
50. Marx, A Contribution to the Critique of Political Economy, MESW., Vol. 1. pp. 502—4.
51. Marx, The Bourgeoisie and the Counter-Revolution, MESW., Vol. I., p. 138.
52. Marx, The Revolution of 1848, Introduction by David Ferbach, p.55—60
53. Marx, Grundrisse, Foundations of the Critique of Political Economy.
54. Neue Rheinische Zeitung.
55. Die Presse.
56. Engels, Introduction to the Class Struggle in France, MESW, Vol. I., p. 190.
57. Ibid, pp. 191—3.
58. Marx, The Revolution of 1848, Introduction, p. 34.
59. Marx, The Bourgeoisie and the Counter-Revolution, MESW., Vol, I., p. 138.
60. Engels, Introduction to the 1895 edition of the Class-Struggle in France, MESW., Vol. I. p. 186.
61. MESC., Engels to Marx, Oct. 7, 1858, p. 102.
62. MESC., Marx to Engels, Oct. 8, 1858, p. 104.
63. Boris Nicolaievsky, Karl Marx, Man and Fighter p. 420.
64. MESC., Marx to Sorge, Sept. 27, 1877, p. 289.
65. Mclellan, Karl Marx, pp. 438—39.
66 Boris Nicolaievsky, Karl Marx, Man and Fighter, Appendix V, Marx and Russia, pp. 420—22.
67. MESC., Marx to Sorge, Nov. 6, 1880, p. 313.
68 MESC., Marx to Meyer, Jan. 21, 1871, p. 241.
69. MESC., Marx to Engels, Feb. 10, 1870, p. 220.
70. MESC., pp. 291—94.
71. Marx to Jenny Longuet, Quoted by Mclellan, Karl Marx, p. 441.
72. Mclellan, Karl Marx, p. 441.
73. MESC., Marx to Zasvlich, March 8, 1881, pp. 319—20.
74. MESW, Vol. I. p. 99.

75. Hill, Lenin and the Russian Revolution, p. 36.
76. Ibid, p. 34.
77. Ibid, p. 37.
78. Hayes, Vol. II. pp. 473—4.
79. LSW. in 12 Vols., Vol. I, p. 389.
80. The Emancipation of Labour Group.
81. Hill, p. 23.
82. Ibid, p. 160.
83. Ibid, p. 26.
84. Lenin, Ihe Development of Capitalism in Russia, LSW., Vol, I.
85. Lenin, The Agrarian Question, LSW, Vol, 1.
86. MESC., Engels to Danielson, Oct. 17, 1892.
87. Lenin, One Step Forward, Two Steps Back, LSW, in 3 Vol. 1. p. 273.
88. Lenin, The State and Revolution, LSW, in 3 Vols. II, p. 288.
89. Lenin, Speech delivered at the seventh All-Russian Conference, April 24, LSW in 3 Vols., Vol. II, pp. 87f.
90. Lenin, Materialism and Emperio-Criticism, LSW, in 3 Vols., Vol. I, p. 667.
91. Hills, p. 103.
92. Ibid,, p. 105.
93. Lenin, Lectures on the 1905 Revolution, LSW, in 3 Vols., Vol. I, p. 781.
94. Hills, p. 130.
95. Lenin, Adress to the Second All-Russian Congress of Communist Organisations of the Peoples of the East, Nov. 22, 1919, LSW in 3 Vols. Vol. III, p. 398.
96. Hills, p. 158.
97. Ibid.
98. Ibid.
99 Ibid, pp. 155ff.
100. Ibid, p. 139.
101. Ibid, p. 132.
102. Althusser, For Marx, p. 23.
103. Ibid, p. 26.
104. Ibid.
105. John Lewis, The Marxism of Marx, p. 20.

106. Marx, The Grundrisse.
107. Mclellan, Marx Grundrisse, Introduction.
108. Althusser, for Marx, p. 30.
109. Mclellan, Marx Grundrisse, Introduction; also John Lewis, the Marxism of Marx, p. 28.
110. Hobsbawm, Karl Marx Pre-Capitalist Economic Formations, p. 60; also Ernest Mandel, the Formation of Economic Thought of Karl Marx, pp. 118—19.
111. Melotti, p. 12.
112. Althusser, Politics and History, pp. 75—83.
113. Marx Grundrisse, also Mandel, The Formation of Economic Thought of Karl Marx, p. 134.
114. Mandel, op. cit. pp. 31—32.
115. Marx, Grundrisse, pp. 474—79.
116. Ibid, p. 474.
117. Ibid, p. 479.
118. Marx, Capital, Vol. III, p. 790.
119. Ibid, p. 495.
120. Melotti, p. 128, N. No. 7.
121. Marx, Capital, Vol. III, p. 33.
122. Marx, Grundrisse, p. 474.
123. Melotti, pp. 66—68.
124. Bordiga, Amedeo.
125. Gramsci, Selections from the Prison Notebooks, Introduction, pp. 82—83.
126. Hills, p. 143.
127. Ibid, p. 117.
128. Ibid, p. 157.
129. Baran and Sweezy, Monopoly Capital, p. 20.
130. Ibid, p. 22.
131. Baran, The Political Economy of Growth, p. 245.
132. Ibid, p. 26.
133. Ibid, p. 75.
134. Ibid, p. 377.
135. Ibid, p. 244.

136. Ibid, p. 367.
137. Ibid, p. 81.
138. Ibid, p. 347.
139. Ibid, p. 365.
140. Ibid, p. 80.
141. Ibid, p. 80—81.
142. Hill, pp. 130—31 and pp. 77—78.

الباب الثاني : خلفيات الفكر الماركسي

1. Hobsbawm, The Age of Revolution, pp. 46—48.
2. Hobsbawm, Industry and Empire, pp. 16—17.
3. Hobsbawm, The Age of Revolution, p. 43.
4. Ibid.
5. Encyclopedia of the Social Sciences, the Industrial Revolution.
6. Hobsbawm, Industry and Empire, pp. 38—42.
7. Hayes, Vol. II, pp. 287—88.
8. Hobsbawm, industry and Empire, pp. 51—54.
9. Riazanov, Karl Marx and Friedrich Engels, p. 17.
10. The Glorious Revolution.
11. The Bill of Rights.
12. Hayes, Vol. II, pp. 292—93.
13. Knight, Economic History of Europe in Modern Times, pp. 228—30.
14. Ibid, p. 282; also, Hayes, Vol. I, p. 69.
15. Hayes, Vol. I, p. 419.
16. Ibid, pp. 419—21.
17. Ibid, p. 421.
18. Ibid.
19. Ibid, pp. 422—24.
20. Hobsbawm, the Age of Revolution, pp. 73—75.
21. Ibid, p. 76.
22. Ibid, p. 78.
23. Ibid, p. 79.
24. Ibid, pp. 81—82.

25. Ibid, pp. 82—85.
26. Ibid, p. 86.
27. Ibid, pp. 87—88.
28. Ibid, pp. 89—92.
29 Ibid, pp.94—96.
30. Marx, The Bourgeoisie and the Counter-Revolution, Second Article, MESW, Vol. I., p. 139.
31. Hoffding, Harold, A History of Modern Philosophy, Vol, I, p. 212.
32. Ibid, pp. 218—19.
33. Ibid, p. 292.
34. Ibid, pp. 275—76.
35. Dictionary of Philosophy, Francis Bacon.
36. Hoffding, Vol. I, pp. 259ff.
37. Ibid, pp. 377ff.
38. Berkely, George, A New Theory of vision and other Writings, p. 113.
39. Hume, David, A Treatise of Human Nature, Vol. II, Introduction by A. D. Lindsay; also, Encyclopedia Britannica, Eleveth Edition.
40. Hoffding, Vol. I, p. 194.
41. Ibid, p. 473.
42. Ibid, p. 475.
43. Ibid, p. 459.
44. Ibid, p. 463.
45. Ibid, p. 470.
46. Ibid, p. 488.
47. Ibid, p. 472.
48. Ibid, p. 499.
49. Ibid, p. 489.
50. Hegel, On the German Constitution, Quoted by Marcuse, Reason and Revolution, p. 13.
51. Marcuse, Reason and Revolution, p. 13.
52. MESW, Vol. I, p. 162.
53. MESW, Vol. I, p. 304.
54. MESW, Vol. I, p. 305.
55. MESW, Vol. I, p. 306.
56. Marcuse, p. 7.

57. MESW, Vol. III, p. 337.
58. MESW, Vol. III, p. 338.
59. MESW, Vol. II, p. 169.
60. Marcuse, p. 8.
61. Ibid, p. 7.
62. Ibid, pp. 16—20.
63. Ibid, pp. 20ff.
64. MESW, Vol. III, p. 130.
65. Lange, History of Materialism, p. 163.
66. Cornforth, Science Versus Idealism, p. 60.
67. Lenin, Materialism and Emperio-Criticism, Chap. 3, Sec. 5.
86. Ibid, Chap. 4, Sec. 7.
69. The Dictionary of Philosophy, Kant.
70. Sidney Hook, from Hegel to Marx, Appendix No. I, Marx and Kant and Political Liberation, pp. 308—12.
71. Garaudy, Karl Marx — (جورج طرابيشي ، ص ٤٠) —
72. Hoffding, Vol. II, pp. 144 ff, also: Encyclopedia Britannica, Fichte.
73. Encyclopedia Britannica, Fichte.
74. Hoffding, Vol. II, p. 146.
75. Garaudy, Karl Marx (جورج طرابيشي ، ص ٤٥ — ٤٩)
76. Ibid, (جورج طرابيشي ، ص ٥٠ — ٥١)
77. Encycdopedia Britannica, Hegel.
78, Ibid.
79. Hyppolite, Introduction a la Philosophie de l'histoire du Hegel (انطون حمصي ، ص ٨)
80. Encyclopedia Britannica, Hegel.
81. Ibid.
82. Hoffding, Vol. II, pp. 177—79.
83. Hyppolite, (انطون حمصي ، ص ٩)
84. Ibid (انطون حمصي ، ص ١٣)
85. Ibid, (انطون حمصي ، ص ١٤)
86. Marcuse, p. 11.
87. Ibid, pp. 5—10.
88. Encyclopedia Britannica, Hegel.

89. Hyppolite, (انطون حمصي ، ص ٢٥)
90. Ibid, (انطون حمصي ، ص ٢٧ ـ ٢٨)
91. Encyclopedia Britannica, Hegel; also, Marcuse, p. 35.
92. Hyppolite (انطون حمصي ، ص ٣١ ـ ٣٢)
93. Ibid
94. Ibid, (انطون حمصي ، ص ٣٥)
95. Ibid. (انطون حمصي ، ص ٣٦ ـ ٣٩)
96. Ibid, (انطون حمصي ، ص ٤٤)
97. Marcuse, pp. 33—35.
98. Hyppolite, Etude sur Marx et Hegel. (جورج صدقني ، ص ٥٢)
99. Hoffding, Vol. II, p. 178.
100. Marcuse, pp. 43—44.
101. Ibid, pp. 62—68.
102. Ibid, p. 48.
103. Ibid, pp. 50—52.
104. Ibid, pp. 54—55.
105. Ibid, p. 56.
106. Ibid, pp. 57—59.
107. Hyppolite (انطون حمصي ، ص ٩٩ ـ ١٠١)
108. Ibid (انطون حمصي ،ص ١٠٢)
109. Ibid (انطون حمصي ، ص ١٠٤)
110. Marcuse, p. 96.
111. Hyppolite (انطون حمصي ، ص ١١٤ ـ ١٢٨)
112. Marcuse, p. 62.
113. Ibid, p. 65.
114. Ibid, pp. 69ff
115. Ibid, pp. 73—76.
116. Ibid, pp. 77—79.
117. Ibid, pp. 81—90.
118. Ibid, pp. 91—92.
119. Ibid, pp. 93—94.
120. Ibid, pp. 94—96.
121. Ibid, pp. 97ff
122. Ibid, pp. 121ff

123. Ibid, pp. 131ff
124. Ibid, pp. 146—149.
125. Ibid, pp. 150—168.
126. Ibid, pp. 169—223.
127. Ibid, pp. 224—247.

الباب الثالث

بدايات الفكر الماركسي
كارل ماركس وفردريك انجلز

1. Mclellan, Karl Marx, p. 2.
2. Riazanov, Karl Marx and Fridrich Engels, p. 34.
3. Mehring, Karl Marx, p. 3.
4. Ibid.
5. Mclellan, The Thought of Karl Marx, p. 3.
6. Mehring, p. 8.
7. Karl Marx, Early Texts, p. 1.
8. Mclellan, The young Hegelians and Karl Marx, p. 2.
9. Marx, Early Texts, p. 10.
10. Mclellan, The young Hegelians and Karl Marx, p. 28.
11. Mehring, pp. 18 ff.
12. Zeller, Outline of the History of Greek Philosophy, pp. 65—69; also Lange, F. A., The History of Materialism, pp. 18—27.
13. Zeller, pp. 230—240.
14. Mclellan, The young Hegelians and Karl Marx, p. 88.
15. Ibid, p. 89.
16. Ibid, p. 85.
17. Mehring, p. 52.
18. Mclellan, The young Hegelians and Karl Marx, p. 98.
19. Ibid, pp. 98—100.
20. Ibid, p. 100.
21. Ibid, pp. 105—108.
22. Ibid, pp. 108—109.

23. Ibid, p. 110.
24. Ibid, p. 112.
25. Karl Marx, Early Texts, p. 60.
26. Mclellan, The young Hegelians and Karl Marx, p. 113.
27. Karl Marx, Theses on Feuerbach, MESW, Vol. I, p. 13.
28. LSW, Vol, I, p. 33.
29. Mclellan, The young Hegelians and Karl Marx, p. 139.
30. Karl Marx, Early Texts, p. 26.
31. Mclellan, The thought of Karl Marx, p. 24.
32. Karl Marx, Early Texts, p. 24.
33. Ibid, Introduction, p. 15.
34. Rheinische Zeitung.
35. Mclellan, Karl Marx, p. 46.
36. Mehring, p. 36.
37. Ibid, p. 47.
38. Karl Marx, Early Texts, p. 31.
39. Ibid, p. 35.
40. Ibid, p. 37.
41. Mehring, p. 43.
42. Karl Marx, Early Texts, p. 44.
43. Mclellan, Karl Marx, p. 52.
44. Nncolaievsky, Karl Marx, Man and Fighter, p. 54.
45. Mclellan, Karl Marx, 53.
46. Karl Marx, Early Texts, p. 52.
47. Mehring, p. 46.
48. Nicolaievsky, p. 58.
49. Karl Marx, Early Texts, p. 49.
50. Mclellan, Karl Marx, p. 56.
51. Ibid, p. 59.
52. Mehring, p. 51.
53. MESW, Three Vols. Vol. I, p. 502.
54. Mclellan, Karl Marx, p. 63.
55. Karl Marx, Early Texts, p. 73.
56. Ibid, p. 74.
57. Ibid, 79.

58. MESW, Three Vols, Vol. I, p. 503.
59. Karl Marx, Early Texts, p. 65.
60. Mclellan, The Thought of Karl Marx, p. 14.
61. Mclellan, Karl Marx, p. 64.
62. MESC, Letter to Joseph Weydemeyer in New York, March, 1852, p. 62
63. Nicolaievsky, p. 72.
64. Mclellan, Karl Marx, p. 78.
65. Nicolaievsky, p. 96.
66. Mclellan, Karl Marx, p. 99.
67. LCW. Vol. 21, p. 47, Quoted by Fedoseyev, Karl Marx, A Biography, p. 56.
68. Karl Marx, Early Texts, p. 6.
69. Mclellan, The Thought of Karl Marx, p. 18.
70. Mehring, Karl Marx, p. 69.
71. Ibid, p. 70.
72. Karl Marx, Early Texts, p. 87.
73. Ibid, p. 101.
74. Ibid, pp. 91—94.
75. Mclelelan, The Thought of Karl Marx, p. 19.
76. Karl Marx, Early Texts, p. 65.
77. Ibid, p. 95.
78. Ibid, p. 102.
79. Ibid, p. 104.
80. Ibid, pp. 105—07.
81. Ibid.
82. Ibid, pp. 108—11.
83. Mclellan, The Thought of Karl Marx, p. 21.
84. Fedoseyev, Karl Marx, 51.
85. Mclellan, Karl Marx, p. 87.
86. Fedoseyev, Karl Marx, p. 51.
87. Karl Marx, Early Texts, p. 128.
88. Ibid, Introduction, p. 27.
89. Ibid, p. 115.
90. Ibid, p. 116.
91. John Lewis, The Life and Teaching of Karl Marx, p. 59.

92. Mclellan, Karl Marx, p. 89.
93. Karl Marx, Early Texts, p. 116.
94. Ibid, p. 117.
95. Ibid.
96. Ibid, p. 118.
97. Ibid, pp. 118—19.
98. Ibid, p. 122.
99. Ibid, p. 124.
100. Ibid, p. 125.
101. Ibid, p. 127.
102. Ibid.
103. Ibid, p. 128.
104. Ibid.
105. Mclellan, Karl Marx, p. 96.
106. MECW, Vil. 3. p. 229.
107. Mclellan, Karl Marx, pp. 104—5.
108 Ibid, pp. 106—7.
109. Ibid, p. 109f.
110. Ibid, p. 127.
111. MECW, Vol. 3. pp. 294 f.
112. Karl Marx, Early Writings, p. 129.
113. Mclellan, Karl Marx, p. 123.
114. Fedoseyev, Karl Marx, p. 65.
115. «Entfrendung» and «Entausserung» See, Mclellan, Karl Marx, p. 110n
116. Karl Marx, Early Writings, p. 282.
117. Ibid, p. 287.
118. Ibid, p. 289.
119. Ibid, p. 294.
120. Ibid, p. 295.
121. Ibid, p. 300.
122. Ibid, p. 314.
123. Ibid, p. 322.
124. Ibid, pp. 323—24.
125. Ibid, p. 326.
126. Ibid, p. 330.

127. Ibid, p. 331.
128. Ibid, p. 332.
129. Ibid, p. 333.
130. Mclellan, Karl Marx, p. 116.
131. Ibid, pp .337—40.
132. Ibid, p. 341.
133. Ibid, p. 345.
134. Ibid, p. 347.
135. Karl Marx, Early Writings, p. 347; Mclellan, Karl Marx, p. 118.
136. Ibid, p. 348.
137. Ibid.
138. Ibid, p. 349.
139. Ibid, p. 150.
140. Ibid, p. 151.
141. Mclellan, Karl Marx, p. 121.
142. Karl Marx, Early Texts, p. 159.
143. Karl Marx, Early Writings, p. 382.
144. Ibid, p. 164.
145. Mclellan, Karl Marx, p. 126.
146. Karl Marx, Early Texts, p. 168.
147. Mclellan, Karl Marx, p. 127.
148. MESW, Vol. III, p. 361n.
149. LSW, Vol. II, p. 61.
150. W. H. Henderson, The Life of Fredrich Engels, Vol. I, p. 3.
151. Mayer, Gustav, Friedrich Engels, A Biography, p. 18—19.
152. Henderson, Vol. I, p. 6.
153. Ibid.
154. Ibid, p. 9.
155. Reminiscences of Marx and Engels, p. 137—48.
156. Henderson, Vol. I, p. 10; aso Mayer, p. 18.
157. Ibid, p. 11.
158. Ibid, p. 5.
159. Frederich Engels, A Biography, p. 24.
160. Ibid, pp. 25—26.
161. Henderson, Vol. I, p. 12.

162. Ibid, p. 13.

163. MESW, Vol. I, p. 309.

164. Henderson, Vol. I, p. 14.

165. Frederic Engels, «Ludwig Feuerbach and the End of Classical German Philosophy, MESW, Vol. III, p. 344.

166. Henderson, Vol. I, pp. 17—18.

167. Frederic Engels, A Biography, p. 30.

168. Mayer, p. 33.

169. Ibid, p. 34.

170. Ibid, p. 35.

فهرس الأعلام والمواضيع

- ح -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

— ش —

— ص —

— ع —

— غ —

— ف —

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

– ي –

محتويات الكتاب

الباب الثالث
بدايات الفكر الماركسي
كارل ماركس وفردريك انجلز

صدر عن دار الطليعة

في سلسلة « السياسة والمجتمع

معذبو الارض
طبعة ثالثة — فرانز فانون

الدولة
هارولد لاسكي

الحرية في الدولة الحديثة
(طبعة ثانية) — هارولد لاسكي

تطور النظرة الواحدية للتاريخ
جورج بليخانوف

في الجبهة الوطنية الموحدة
(طبعة ثالثة) — جورجي ديمتروف

الثورة الدائمة
(طبعة ثالثة) — تروتسكي

الثورة المغدورة : نقد التجربة الستالينية
(طبعة ثانية) — تروتسكي

الشيوعية الاوروبية والدولة (مع ملحق الرد السوفياتي على الكتاب)
سنتياغو كاريلو

فلسفة الثورة العالمية
فرانز ماريك

الامبريالية والثورة

دافيد هورويتز

حول نمط الانتاج الآسيوي

(طبعة ثالثة) مجموعة من المؤلفين

التطور اللامتكافىء : دراسات في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية

(طبعة ثالثة) سمير امين

الطبقة والامة : في التاريخ وفي المرحلة الامبريالية

سمير امين

تطور الفكر الماركسي

(طبعة سادسة) د. الياس فرح

التغير الاجتماعي : بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي

(طبعة ثانية) د. محمد أحمد الزعبي

الاستراتيجية الطبقية للثورة

(طبعة ثانية) جورج طرابيشي

الماركسية السوفياتية

(طبعة ثانية) هربرت ماركوز

الاسلام والرأسمالية

(طبعة ثالثة) مكسيم رودنسون

بين أهم معطيات الماركسية ، رؤيتها ظواهر الحياة الاجتماعية في اطارها التاريخي ، مرتبطة بمتطلبات المجتمع المادية وحكم الضرورة فيه وكشفها وجه الخطاء في أخذ هذه الظواهر بمعزل عن ظروفها التاريخية أو أخذها جامدة في سياق عالم متغير .

وهذه الدراسة محاولة لإبراز النواحي الاجتماعية في الماركسية ، وتأكيد أهميتها في معرفة طبيعة المجتمع وخفاياه ، وفي وعي مشاكله وادراك السبل الى حلها ، وقد رجحت هذه الدراسة الطريقة التاريخية في متابعة الفكر الماركسي في نشوئه وتطوره ، لانسجامها مع طبيعة الماركسية التي تربط تطور الفكر بظروف الزمن .

